رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نافيد جمالي و إليس هنيكان
NAVEED JAMALI & ELLIS HENICAN

كيف تُمسك بجاسوس روسي

HOW TO CATCH A RUSSIAN SPY

القصة الحقيقية لمواطن أميركي تحول إلى عميل مزدوج

كيف تُمسك بجاسوس روسي

نافيد جمالي
إليس هنيكان

عندما أنهينا المهمة، كنّا قد سلّطنا الضوء على تجسس يقوم به أفراد في البعثة الروسية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، وكنا قد خدعنا ضابط استخبارات عسكرية روسيًا مخضرمًا وحملناه على الثقة بشاب أميركي هاوٍ؛ فسبّبنا له ولأمته الإحراج. وقد حقّقنا نصرًا أميركيًا مبينًا في العداء المتصاعد بين موسكو وواشنطن، كما ساعدنا على دحض- لمن كانت لدية ذرة شك- النوايا الحميدة المزعومة لدى قادة روسيا الذين تولوا قيادة البلاد بعد الحرب الباردة؛ لا سيما فلاديمير بوتين الذي ما انفك يخبر أميركا أنهم يريدون أن يكونوا شركاء وأصدقاء لها.

في ذلك اليوم، اعتذرت من أوليغ في مستودع تخزين السيارات، وقلت عندما نظر إلى الأعلى أخيرًا: «يا إلهي، أنا آسف جدًا!».

بدا مصابًا بالدوار ولكنه متوتر في الوقت نفسه، فسألته وأنا أضع يدي على كتفه: «هل أنت بخير؟».

فرد قائلاً: «أنا بخير». ثم استطرد: «لديّ رأس صلب للغاية». ورسم على وجهه ما يشبه الابتسامة، ثم كرر كلامه: «رأس صلب».

كانت مزحة سخيفة، سواء أقيلت بالروسية أو الإنجليزية، ولكنّني رحّبت بها. وشعرت بالارتياح لأن أوليغ كان واعيًا بما يكفي كي يقولها، فعلمت حينها أننا قد عبرنا لحظة محرجة بسلام. وعلى الرغم من دويّ صوت كاشف الرادار، وإغلاقي باب صندوق السيارة على رأسه في تصرف أحمق، وتوتري الشديد، رغب أوليغ في العمل معي بقدر ما رغبت في العمل معه؛ بل ازدادت رغبته الآن. وعندما غادرنا المستودع، كان بحوزتي مغلف في داخله نقود، وقد وضعه أوليغ في جيب سترتي. وكنت قد زوّدته بقصة يمكنه التحقق من صحتها من الخارج، كما عززت ثقته بنفسه.

كان العسكري الروسي المخضرم مقتنعًا بأنه يمكنه الوثوق في شاب أميركي هاوٍ. لن يعود إلى الوراء، إذ لم يكن يرغب في ذلك. كان مقتنعًا بأنني جاسوس حقيقي. لم يكن أوليغ ليسمح لأي شيء بالتفريق بيننا؛ بما في ذلك ارتطام باب الصندوق برأسه، ولا سيما في ما نحن بصدده تاليًا.



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015





ISBN 978-614-01-1901-7



كيف تُمسك بجاسوس روسي

HOW TO CATCH A RUSSIAN SPY

القصة الحقيقية لمواطن أميركي تحول إلى عميل مزدوج

كيف تُمسك بجاسوس روسي

HOW TO CATCH A RUSSIAN SPY

القصة الحقيقية لمواطن أميركي تحول إلى عميل مزدوج

نافيد جمالي و إليس هنيكان
NAVEED JAMALI & ELLIS HENICAN

ترجمة

عبد الرحمن النجار

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
HOW TO CATCH A RUSSIAN SPY
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
SCRIBNER
A Division of Simon & Schuster, Inc.
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: 1437 هـ – 2016 م

ردمك 978-614-01-1901-7



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

مقدمة

أمسكت بالمقود بإحكام وقدت سيارة الجيب صوب المستودع. كان قلبي يخفق بشدة لدرجة أنني ظننت أن أوليغ ربما كان بمقدوره سماع الصوت من حيث يجلس على مقعد الركاب.

"هل أنت بخير؟". سألني بلكنته الإنجليزية الركيكة والصارمة.

"تمامًا". أجبت كاذبًا.

كان الجو باردًا بالنسبة إلى أوائل شهر أبريل، لكن الصباح كان مشرقًا على غير المعتاد. كان ذلك في العام 2008، أي بعد عقدين تقريبًا من سقوط جدار برلين واعتبار الحرب الباردة جزءًا من كتب التاريخ. وكانت سيارة الجيب التي نستقلها سوداء اللون، وذات محرك من طراز SRT8 يتميز بقدرته الفائقة، وتبلغ قوته أربعمئة وخمسة وعشرين حصانًا، وكانت بالغة الرشاقة وكأنها جمرة ملتهبة تمر عبر لوح زجاجي ضخم.

كنت أنتظر هذا اليوم منذ قرابة عامين. كنا- أنا ورئيساي في مكتب التحقيقات الفدرالي، تيد وتيري- نعمل على إنجاز هذه المهمة منذ نحو ستة أشهر. كيف سأرد عندما يسألني أوليغ عن مقدار المال الذي أريده؟ وماذا سأفعل إن أخرج سلاحًا؟ فمؤخرًا، ازداد التوتر بيننا بشكل غير عادي. كان

العميلان قد بذلا ما في وسعهما لتهيئتي للمهمة، ولكنهما ما انفكا يخبرانني طوال الوقت: "عليك أن تكون مستعداً للتفكير والتصرف بسرعة بمفردك".

ما الذي قصداه بحق الله؟! بمَ أفكّر؟!

وبينما كنت أبطئ من سرعة الجيب للتوقف أمام البناية القديمة، كان أوليغ يحدق إليّ مباشرة. كنت أعلم أن هذا يوم هام بالنسبة إليه أيضًا. فالوثائق التي وعدته بها- كتيبات مقصورة الطيار الخاصة باثنتين من أهم الطائرات المقاتلة التي تمتلكها البحرية الأميركية- لم تكن مصنفة *كوثائق سرية*، ولكن ما كان بوسعك شراؤها عبر موقع أمازون أو موقع إيباي. وكانت الكتيبات تحتوي على إجراءات التشغيل التقنية التي اعتمد عليها الطيارون الأميركيون في العراق وأفغانستان. فهذان المجلدان الأزرقان السميكان يطلعانك على كل ما تحتاج إلى معرفته عند جلوسك في مقصورة الطيار.

كنتُ أدرك أن تسليم شيء كهذا سيطلق العنان لمخيلة أوليغ الروسية، ولكنه قد يفعل ما هو أكثر من ذلك. فقد يقنع ذلك رؤساءه البيروقراطيين في موسكو بأنه قد جنّد جاسوسًا محتملاً ذا قيمة في نيويورك، وهو مواطن أميركي ذو مستوى اجتماعي جيد وقادر على تسليم بيانات تخصّ الجيش الأميركي. كنت نوع مصدر المعلومات الأميركي الذي يلهث وراءه الروس سرًا؛ فقد كانوا يبحثون عن شخص لديه الدافع والخبرة التقنية لتسليم الأسرار.

فجأة، قال أوليغ: "نحن نشكّل فريقًا رائعًا؛ أنا وأنت".

كان المجلدان موضوعين داخل صندوق كبير في صندوق سيارتي الأخرى، وهي سيارة سوداء من طراز كورفيت Z06، كانت مركونة داخل هذا المستودع الضخم المخصص لتخزين السيارات، والواقع في شارع خلفي

هادئ في مقاطعة وستشستر التي تبعد 20 ميلاً شمالي مدينة نيويورك. كان الصندوق ثقيلاً جدًا ويصعب حمله إلى مطعم أو مقهى حيث كنت ألتقي أوليغ عادة. لذا، لجأنا إلى خطة بديلة؛ واتفقنا على أن يستقل هو قطار مترو-نورث من محطة غراند سنترال، وأن أقابله في المحطة الواقعة في هاستنغز أون هادسون. وكان المستودع يقع بجانب المجرى المائي على بعد شارعين.

"يمكنك أن تجني الكثير من المال". قال لي أوليغ بينما كنت أدخل رقم التعريف الشخصي الخاص بـي في لوحة المفاتيح المثبتة خارج المستودع، فأصدرت الشرائح المعدنية صوتًا.

فسألته: "ما الذي تقصده بالكثير؟".

"سيارة الكورفيت تلك التي تتباهى بها...".

"ما بها؟".

"يمكنك شراء عشر مثلها".

كنت بالفعل أحب السيارات الأميركية السريعة.

ركنت سيارة الجيب في الداخل، وكان المستودع باردًا ومظلمًا. ولكن، ما إن أنرت المصباحين الأماميين حتى تمكنت من رؤية صفوف كثيرة من السيارات المركونة. كانت ثمة سيارات رياضيّة باهظة الثمن ومغطاة بأقمشة عليها حروف؛ سيارة من طراز موستانغ، وأخرى من طراز لوتاس، وثالثة من طراز بورش، فضلاً عن عدة سيارات من طراز مرسيدس بنز وبـي أم دبليو. كانت تلك هي السيارات التي يقودها أثرياء المدينة في العطلات. وكانت هناك شاحنة تفريغ ضخمة، وسيارتا إطفاء قديمتان أيضًا. وحتى في هذا الضوء الخافت، كان بمقدوري رؤية سيارتَي الإطفاء وهما تومضان بضوء أحمر.

ساد في المستودع صمت القبور. وحسبما ظننت، كنا- أنا وأوليغ- الوحيدين في الجوار.

وبينما كنت أقود إلى الداخل، كان أوليغ يتلفت يمينًا ويسارًا، ثم ينظر خلفنا. ما الذي كان يتوقعه؟ أيتوقع أن يداهم الجيب العشرات من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي؟ أم وحدة من القوات الخاصة التابعة للاستخبارات الروسية؟ تفهّمت سبب شعوره بالقلق؛ فقد كنت أشعر بالقلق أيضاً. غير أنني قلت بأقصى قدر من الهدوء: "تقف سيارة الكورفيت في هذا الصف وإلى اليمين". كان ثمة الكثير على المحك بالنسبة إليّ وإلى أوليغ، و لم أكن أستطيع تحمل إفساد أي شيء.

حينها فقط، دوّى صوت عالٍ ومرعب، فلهثت فيما تجمّد أوليغ في مكانه. وقد استغرق الأمر منّي هنيهة حتى عرفت أن مصدر الصوت هو جرس الإنذار في السيارة. فلسبب ما، انطلق صوت كاشف الرادار الخاص بالجيب.

اندفعت مسرعًا لإسكاته، لكن زرّ الإغلاق لم يكن حيثما اعتقدت. اللعنة، يا لهذا الشيء المزعج! لقد صُمِّم جرس الإنذار كي يكون مسموعًا أكثر من هدير محرك سيارة تسير على طريق سريعة ونوافذها مفتوحة، أو في حال كان مكيف الهواء يعمل وصوت المذياع يدويّ. وفي سيارة جيب مغلقة ومتوقفة داخل مستودع في ضاحية هادئة، كان ذلك الجرس اللعين يدوّي بشدة حقًا. بعد مرور بضع ثوانٍ مرعبة بدت وكأنها ساعة ونصف الساعة، عثرت على الزر الصحيح، فقلت لأوليغ: "لا بأس. لقد كان كاشف الرادار فحسب".

لم أكن أعرف السبب الذي أدى إلى انطلاق الجهاز. ربما كان جهاز التسجيل الخفي قد أطلقه بشكل ما، أو لعل أوليغ يخفي شيئًا معه. لم أكن أعرف المشكلة، وكل ما أردته هو ألا يثير فزعه أي شيء فحسب.

"لقد وصلنا". قلت وقد شعرت بالارتياح لعودة السكون والهدوء مجددًا.

لم يكن وضعي يدي على الكتيبات أمراً صعبًا مثلما توقعت، فكل ما تطلبه الأمر هو التوجه إلى لونغ آيلند والتفوّه بكذبتين محبوكتين بدقة. أقلّني تيد وتيري إلى مكتب متعاقد دفاعي بارز، وتركاني أدخل بمفردي. أخبرت الموظف الودود بأنني باحث لدى شركة صغيرة تعمل في مجال التكنولوجيا، وأننا نعمل على إنشاء نظام قاعدة بيانات رقمية، وأنني في حاجة إلى بعض الوثائق للاختبار. كان السؤال الوحيد الذي وُجِّه إليّ هو عمّا أريده.

كُتبت على المجلدين الأزرقين كلمة NATOPS، وهي اختصار لعبارة "كتيّب تدريبات الطيران لقوات البحرية وإجراءات التشغيل القياسية". وقد قال لي تيري بصوت أجش في طريق عودتنا إلى المدينة في ذلك اليوم:

"إذا أردت أن تمسك بجاسوس، إذاً يتعيّن عليك القيام بالقليل من أعمال التجسس".

والآن، ها أنا على وشك تسليمهما مباشرة إلى أوليغ الذي أصبح أخيرًا يتنفس بثبات مجدداً. أوقفت سيارة الجيب خلف الكورفيت السوداء، وكنت أوقفها بحذر.

قال أوليغ: "قبل أن نبدأ، هلّا أطفأت هاتفك رجاءً؟".

فأجبته: "هاتفي؟ حسنًا".

لم يطلب منّي فعل هذا من قبل مطلقًا. وعرفت أنه قلق من احتمال قيامي بتصويره باستعمال هاتفي. وقد كان محقًّا بشأن ذلك، ولكنه أخطأ في توقّعه الوسيلة التي سأستخدمها. لذا، لم أطفئ الهاتف وحسب، بل فتحت باب السيارة وتفقّدت المنطقة سريعًا لأتأكد من أن لا أحد في الجوار، ثم وضعت الهاتف على غطاء المحرّك الأنيق الخاص بسيارة بي أم دبليو أم 6 التي كانت متوقفة إلى جوارنا.

سألت أوليغ: "هل هذا أفضل؟".

فأجاب: "شكرًا لك".

لقد اجتزت الاختبار بنجاح.

ثم سألته: "هل تودّ إلقاء نظرة؟". عندها، ترجّل أوليغ من الجيب، ووقف إلى جواري خلف الكورفيت، وحين فتحت صندوق السيارة، وجدت المجلدين حيث تركتهما.

حدّق أوليغ إلى المجلدين للحظة، وبعد ذلك أمسك بهما ليتأكّد من أنهما المجلدان المطلوبان. كان أحدهما يخصّ مقاتلة F-14 Tomcat، والآخر يخص طائرة E-2 Hawkeye للإنذار المبكر.

انصبّ تركيز أوليغ في البداية على مجلد المقاتلة F-14. وبينما كان يقلّب صفحاته، لمح مخططًا للوحة الأجهزة الخاصة بالمقاتلة، كما شاهدت عدة رسوم تخطيطية وبيانية أخرى. كانت هناك رسوم كتل رمادية اللون. حدّق أوليغ إلى المجلّد باهتمام، وقد بدا مذهولاً تقريبًا.

"هل تود الجلوس داخل الجيب لإلقاء نظرة عن كثب؟".

فأومأ موافقاً.

عندها، حملت الصندوق الكرتوني الكبير، ووضعته على الأرضية الخرسانية، ثم قمت بإغلاق صندوق السيارة بيدي اليمنى.

لا أدري ما الذي كنت أفكر فيه. وعلى ما يبدو، لم أكن أفكر على الإطلاق، أو على الأقل لم أكن منتبهًا إلى مكان رأس أوليغ.

فصرخ من الألم: "آه!".

فبشكل ما، أسقطت باب صندوق السيارة بشدة على مؤخر جمجمة أوليغ، وقد سمعت صوت طقّة مرعباً لدى ارتطام المعدن برأسه، ثم صرختين أخريين مدويتين: "آه! آه!".

حدث كل شيء بسرعة، فلم أدرِ ما ينبغي لي التفكير فيه.

أدركت أنني قد ارتكبت حماقة كبرى، وأنني فعلت ذلك في أسوأ توقيت؛ بالضبط حين كنا همّ- أنا وأوليغ- بالانتقال من التخفي إلى العمل، وبالضبط حين كان حبل المشنقة يلتف حول عنقه، وبالضبط عندما كنت أقنعه بأنه يمكنه حقًا الوثوق بي، وبالضبط عندما كنت على وشك أن أثبت له كيف أنه بإمكاني أن أكون أصلاً ذا قيمة. كنا سنحقق هذه القفزة معًا نحو الجاسوسية، ولكنني أسقطت باب صندوق السيارة اللعين فوق رأسه.

وبينما كنت أنحني لأتفقد مدى سوء الإصابة التي سببتها له، تسارعت في رأسي أفكار مريعة.

لقد أفسدت العملية برمتها للتو، وجرحت دبلوماسيًا روسيًا بارزًا. ما من شك في أنه سيعتقد أنني كنت أحاول قتله. لقد تم تسجيل كل شيء. فهل سيقتنع أوليغ بأنه لا يتعين عليه التعامل مع أمثالي مجددًا؟

طوال ثلاث سنوات محطمة للأعصاب، تجسست على أميركا لصالح الروس، فكنت أجري عملية مبادلة بين أقراص محمولة تحتوي على بيانات تقنية حساسة ومغلفات تحتوي على نقود. كنت أبيع وطني الحبيب في المطاعم المزدحمة وفي مواقف السيارات الهادئة.

أو هذا ما ظنّه الروس.

في الواقع، لقد كنت عميلاً سريًا مزدوجًا يعمل عن قرب مع مكتب التحقيقات الفدرالي. لم تكن الحرب الباردة قد وضعت أوزارها حقًا، وإنما أصبحت حربًا تكنولوجية متقدمة فحسب.

لم أكن أملك خبرة مسبقة في العمل كجاسوس مزدوج. وكل ما عرفته عن العمل في الخفاء تعلمته من الكتب والأفلام والواجبات المدرسية وحلقات مسلسل Magnum P.I وفيلمي رونين ولعبة التجسس؛ أي عمل يكون اسما بوند وبورن في عنوانه، ولكم أحببت تلك الأشياء. كنت حينها في نهاية

العقد الثاني من العمر، وكنت شاباً واعداً، ولكن بــلا هــدف في الحيــاة. تخرّجت من جامعة نيويورك، وكنت أعمل مع والديَّ المهاجرين، وأحــاول اكتشاف ما يتعين عليّ فعله في حياتي. كانت لدي شقة جميلة في حي أبــر ويست سايد في مانهاتن، وزوجة شابة تخرجت حديثًا من الجامعــة، وميــل لقضاء وقت طويل جدًا أمام شاشة الكمبيوتر. كنت أقرأ بعض الكتب عــن الحرب الباردة والاتحاد السوفييتي، وقد شاهدت تقريبًا كل فيلم تم إنتاجه عن الحرب. ولكنني لم أكن أتحدث الروسية، ولم يرق لي حساء البرش الروســي قط. وأقرب مسافة من موسكو أو سانت بطرسبيرغ وصلت إليها كانــت لدى شرائي زجاجة شراب متوسطة السعر من متجر واقــع عنــد تقــاطع برودواي وشارع 113. وأنا قطعاً لم أشبه أي نمــط مــن أنمــاط العمــلاء المزدوجين المحترفين.

جمالي، نافيد جمالي؟ لا تجعلني أضحك!

ومع ذلك، ها أنذا في قلب عملية مكافحة تجسس طويلة الأمد أنجزت معظمها بمفردي (والفضل في ذلك يعود إلى ترابط عائلي غــير عــادي)، ثم أقنعت مكتب التحقيقات الفدرالي والروس بمواصلتها. كان ذلــك عمــلاً استباقيًا وليس رد فعل، وكنتُ العنصر النشط فيه. بالنظر إلى الماضي، بالكاد يمكنني تصديق أنني أنجزت المهمة. كيف فعلت ذلك؟ وكيف نجح الأمر؟ وما الذي تعلمته بشأن وطني وعائلتي ونفسي؟ هذه حكاية أود أن أسردها.

عندما أنهينا المهمة، كنّا قد سلّطنا الضوء على تجسس يقوم به أفــراد في البعثة الروسية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، وكنا قــد خــدعنا ضــابط استخبارات عسكرية روسياً مخضرماً وحملناه على الثقة بشاب أميركي هاوٍ؛ فسبّبنا له ولأمته الإحراج. وقد حقّقنا نصرًا أميركيًا مبينًا في العداء المتصاعد بين موسكو وواشنطن، كما ساعدنا على دحض- لمن كانــت لديــه ذرة

شك- النوايا الحميدة المزعومة لدى قادة روسيا الذين تولوا قيادة البلاد بعد الحرب الباردة؛ لا سيما فلاديمير بوتين الذي ما انفك يخبر أميركا أنهم يريدون أن يكونوا شركاء وأصدقاء لها.

في ذلك اليوم، اعتذرت من أوليغ في مستودع تخزين السيارات، وقلت عندما نظر إلى الأعلى أخيرًا: "يا إلهي، أنا آسف جدًا!".

بدا متوتراً ويعاني من الدوار في الوقت نفسه، فسألته وأنا أضع يدي على كتفه: "هل أنت بخير؟".

فرد قائلاً: "أنا بخير". ثم استطرد: "لديّ رأس صلب للغاية". ورسم على وجهه ما يشبه الابتسامة، ثم كرر كلامه: "رأس صلب".

كانت مزحة سخيفة، سواء أقيلت بالروسية أو الإنجليزية، ولكنني رحّبت بها. وشعرت بالارتياح لأن أوليغ كان واعيًا بما يكفي كي يقولها، فعلمت حينها أننا قد عبرنا لحظة حرجة بسلام. وعلى الرغم من دويّ صوت كاشف الرادار، وإغلاقي باب صندوق السيارة على رأسه في تصرف أحمق، وتوتري الشديد، رغب أوليغ في العمل معي بقدر ما رغبت في العمل معه؛ بل ازدادت رغبته الآن. وعندما غادرنا المستودع، كان بحوزتي مغلف بداخله نقود، وقد وضعه أوليغ في جيب سترتي. وكنت قد زوّدته بقصة يمكنه التحقق من صحتها من الخارج، كما عززت ثقته بنفسه.

كان العسكري الروسي المخضرم مقتنعًا بأنه يمكنه الوثوق في شاب أميركي هاوٍ. لن يعود إلى الوراء، إذ لم يكن يرغب في ذلك. كان مقتنعًا بأنني متعامل حقيقي. لم يكن أوليغ ليسمح لأي شيء بالتفريق بيننا؛ بما في ذلك ارتطام باب الصندوق برأسه، ولا سيما في ما نحن بصدده تاليًا.

الفصل الأول

أميركيون جدد

لطالما اعتبرت نفسي نموذجًا معتدلاً للشاب الأميركي المعاصر البارع في أمور التكنولوجيا، والذي يتحلى بقدر من الذكاء، ومتعدد الثقافات. ألقـــوا نظرة واحدة فقط على بشرتي السمراء؛ هذا هو وجه المستقبل في أميركـــا، وليس الابتسامة البلهاء لبيفر كليفر أو ريتشي كامنغهام. لقد ولدت هنـــا؛ على الرغم من أن أبـــي وأمي لم يولدا هنا. إذ كانا قد وصـــلا إلى البلـــد مهاجرَين من مكانين تعمّهما الفوضى. وهما لم يأتيا إلى نيويورك بغية العمل بكدٍّ في المصانع المستغلة للعمال أو للوقوف إلى جانب عربات التســـوق في حي لور إيست سايد كحال المهاجرين الذين سبقوهم، بل جاءا لاستكمال دراساهما العليا. كانت أمي من فرنسا، بينما كان أبـــي مـــن باكســـتان. وكانا قد التقيا في حفل بالقرب من جامعة كولومبيـــا في العـــام 1968، في الوقت الذي تم فيه الاستيلاء على مبنى الإدارة من قبل طلاب محتجين؛ بمـــن فيهم شاب يافع يضع نظارة جميلة، والذي جلس على الكرسي المصنوع من الجلد والخاص برئيس الجامعة غريسون كيرك، وأشعل سيجارًا ضخمًا. ثمـــة صورة شهيرة لهذا الحدث. أدرك تمامًا من أين أتى هذا الشاب. فقد حوَّل أمرًا بدأ بشكل خطير إلى مرح غير متوقع.

كان لأسلافي باع طويل في العنف، وذلك أينما حطّ بهم التاريخ؛ الثورة الفرنسية وتقسيم الهند... فمتى اندلعت ثورة في أي بقعـــة في العـــالم، ثمـــة احتمالات كبيرة بأن لي أقارب يشاركون فيها. والجدير بالذكر أن جـــدي الأكبر من ناحية أمي، جين أنطوان تشابتال، كان كيميائيًا عالميًا شهيرًا، وإليه يرجع الفضل في ابتكار مصطلح *النيتـــروجين* (اقـــرأوا عنـــه في موســـوعة ويكيبيديا).

فهنيًّا له!

واصل تشابتال إنجازاته وأسس مستشفى باريس، كما أعاد تنظيم نظام الإقراض الفرنسي. وتحت قيادة أول إمبراطور فرنسي، نابليون بونابرت، عُيِّن تشابتال أمينًا لصندوق مجلس الشيوخ الفرنسي. وقد توفي في باريس في العام 1832 ودُفن مع زوجته روز في مقبرة بير لاشيه التي لم يسمع عنـــها معظـــم الأميركيين على الإطلاق إلى أن توفي مغني فرقة دورز جراء جرعة زائدة من المخدرات ودُفن فيها. واليوم، حُفر اسم جين أنطوان على سلالم برج إيفل. وعلى ضوء إنجازات كهذه، قُدر لبقيتنا أن نبدو كسالى لأجيال قادمة.

أما بيرنارد تشابتال، جدي من ناحية أمي، فقد كان مغامرًا شـــجاعًا. كان قد حارب الفاشيين في الحرب الأهلية الإسبانية، وسافر عبر العـــالم، ثم عاد إلى فرنسا وتزوج من فتاة يهودية روسية تدعى أليس فلدزر وذلك إبان الحرب العالمية الثانية. وقد التحق بصفوف الجيش الفرنسي وقاتل النـــازيين ببسالة. وعندما دمرت خطة بليتزكريغ الألمانية خط ماجينو في ربيع العـــام 1940، فرّ جدي إلى سويسرا. وقد أُلقي القبض عليه فوراً، وأمضى عامين في مخيم لسجناء الحرب، و لم ينجُ أحد من أقارب زوجته.

تُدعى أمي كلود، وهذا الاسم في فرنسا ليس مجرد اسم لصبـــي. وُلدَت في العام 1943، وقد تأقلمت هي وشقيقها وشقيقتاها قدر ما استطاعوا على

فترة الحرمان التي تلت الحرب؛ على الرغم من أن والدهم لم تكن تجيد الطبخ إطلاقاً. "كانت بالكاد تجيد إعداد الخبز المحمص، وذلك في حال كان هناك خبز على أرفف المتجر". هذا ما كان أولادها يقولونه عنها.

كانت أمي فتاة واعدة ومبدعة. ومثلما كان والدها، كانت لديها نزعة استقلالية قوية. كانت مشتتة بين شغفها بالفنون وحبها للعلوم. وكانت قد تخرجت من كلية الفنون في باريس، ثم انتقلت إلى نيويورك لاستكمال دراساتها العليا في جامعة كولومبيا، واستعدت للالتحاق بكلية الطب. وقد تعمقت في دراسة الكيمياء والفيزياء ومواد أخرى لم تدرسها في كلية الفنون. وفي إحدى حفلات ما بعد التخرج في إحدى الليالي، التقت طالب دكتوراه في الفلسفة، والذي كان قد حضر إلى نيويورك من أجل منحة حصل عليها من فولبرايت. كان لديه حس فكاهي عجيب، وكان يكبرها بعام واحد. كان يدعى نسيم زيا جمالي، وكان أيضًا حديث العهد في نيويورك.

تعود عائلة جمالي إلى حقبة بعيدة من تاريخ الهند؛ مثلما كان حال عائلة تشابتال في فرنسا، بل وربما أبعد، بيد أنه لم يتم تسجيل التفاصيل بشكل دقيق. كان جدي من ناحية أبي- والذي كان يُدعى زيا- فيزيائيًا شابًا ومسلمًا يعيش في دلهي مع زوجته التي تُدعى زورا وسبعة أولاد صغار. وفي العام 1947، عندما كان أبي في الخامسة من العمر، أقدم البريطانيون على تقسيم الهند إلى شطرين، فأنشأوا دولة باكستان للمسلمين وتركوا بقية البلاد للأغلبية الهندوسية. وقد غادرت عائلة جمالي الشابة دلهي إلى لاهور، ثم انتقلت إلى مدينة حيدر آباد رطبة الأجواء وذات النهر.

كان تقسيم الهند حدثًا دمويًا ومريرًا بالنسبة إلى معظم الناس على أي حال. فما انفكّت قطارات الأشباح التي تحمل مسلمين مذبوحين تتقاطر على مدينة كراتشي في باكستان، مثلما كانت قطارات الأشباح التي تحمل

هندوسًا مذبوحين تتقاطر على دلهي وبومباي. وعندما سألت أبـــي ذات يوم عن كيفية تمكّن عائلته من النجاة من قطارات الأشباح، رد بنبرته الســـاخرة المعتادة: "لقد فررنا، وقد كان ذلك أمرًا لطيفًا".

كان أبـــي متعلمًا على طريقة الباكستانيين الأثريـــاء، أي في مدرســـة خاصة ذات طابع بريطاني؛ حيث كان الطلاب يحفظون مقاطع طويلة مـــن الأدب الكلاسيكي، ويرتدون زيًا مهندمًا للغاية. وبعد تخرجه من الجامعـــة، ظفر بمنحة دراسية لاستكمال دراساته العليا في جامعة ادنبرا في اسكتلندا.

وقد كره اسكتلندا. و لم يكن سبب ذلك الطقس البـــارد والرطـــب أو الطعام الاسكتلندي غير الحار فقط، إذ بدا المكان بأسره عتيقًا وغير مـــريح. وعندما حاول استئجار شقة، قيل له: "آسف، إنها محجوزة مسبقاً. ليس لدي شيء لك".

ولكن بعد فترة وجيزة، بدأ حظ أبـــي يتبدل. فقد ظفر بمنحة فولبرايت من وزارة الخارجية الأميركية، وانتقل إلى نيويـــورك، ثم التحـــق ببرنـــامج الدكتوراه في جامعة نيويورك، واستأجر شقة صغيرة في غرين وتش فـــيلاج، وبدأ يستنشق نسمات الانفتاح والحرية والاضطراب الـــتي ميّـــزت أواخـــر الستينيات. وقد حظي بمتعة مقابلة شبان صغار أذكياء آخرين مـــن حـــول العالم، بمن فيهم امرأة فرنسية ذات شعر أسود تُدعى كلود.

وعلى الرغم من خلفيات الاثنين المتباينة بشدة- أو ربما بسبب ذلـــك- إلا أن لظى الحب كواهما على الفور. كان هو الفيلسوف المفكر النـــاكر للـــذات، بينما كانت هي خريجة كلية الفنون التي تسعى إلى اكتشاف الحقيقـــة المؤكـــدة للعلم. وقد شعر كل منهما أنه قد وصل أخيرًا إلى حيث ينتمي. كانا قد انـــتقلا بداية للعيش معًا، ثم تزوجا، ولكنهما لم يتعجلا البدء في تكوين عائلة. وكـــان ابنهما ذو العينين الواسعتين والرموش الطويلة، نافيد ألكسس جمالي، قد وُلـــد في

العشرين من فبراير في العام 1976، وذلك بعد انتهاء حرب فيتنام وتفجر فضيحة ووترغيت، حيث وُلد في الذكرى المئوية الثانية للثـــورة الأميركيـــة، في لحظـــة خفوت نسبـــي في الحس الثقافي الوطني. يعني اسم Naveed نافيـــد "حامـــل الأمنيات الطيبة" في اللغة العربية، وحرفا ee يكتبان في التهجئة الباكستانية، وليس المقصود بهما الحرف "i" الخاص بالتهجئة الفارسية. كـــان والـــداي يتحـــدثان الإنجليزية والفرنسية في المنزل. وقد تعلمت اللغتين مثلما يستطيع الرضيع فقـــط، ومزجت بينهما بطرائق عجيبة. وباستثناء كلمات قليلة وبسيطة، لم أتمكن مـــن تحدث لغة أبـــي وهي الأوردو. وكانت أمي تقسم إن أول كلمة نطقتها كانت *auto*، وهي الكلمة نفسها في اللغات الثلاث، وكانت تلك- حسب قناعـــاتي- الإشارة الأولى إلى شغفي الأبدي بالسيارات.

قررت أمي بالفعل أن كلية الطب لم تكن مناسبة لها، لذا عملت كباحثة في جامعة روكفيلر. أما أبـــي، فبعد حصوله على درجة الدكتوراه مـــن جامعـــة نيويورك، أصبح مدرسًا مساعدًا في مقررات الفلســـفة في جـــامعتَي نيويـــورك وأدلفي، ومدرسًا للسلوكيات الأخلاقية للضباط في قسم شرطة نيويورك. كان يحب أن يقول عن طلابه ذوي الرداء الأزرق: "العديد من هؤلاء الرفاق، لـــو لم يكونوا رجال شرطة، فسينتهي بهم المطاف كمجرمين. إذ لديهم موطئ قـــدم على جانبـــي القانون". لم يكن أبـــي يفكر في ما يقوله قبل أن ينطق به.

كنت ابن المدينة وابن العالم. وكانت شقتنا- ذات غرفتي النوم- تقع في الناحية الغربية من شارع 112، على بعد شارع واحد من جامعة كولومبيـــا وكاتدرائية سانت جون. وكان والداي يصطحبانني في عربة الأطفال الخاصة بـــي إلى المتنزهات الموجودة في الحي، متنزهات سنترال ومورننغ سايد وريفر سايد. وفي كل فصل صيف، كنا نزور الأقارب في كل من فرنسا وباكستان. وببلوغي الثالثة من العمر، داومت على الذهاب إلى حضانة غـــرين هـــاوس

كولومبيا الواقعة في الناحية الغربية من شارع 116، وهي إحدى أقدم الحضانات في أميركا، ثم انتقلت في مرحلة ما قبل الروضة إلى مدرسة بانك ستريت التقدمية للأطفال الواقعة على بعد شوارع قليلة جنوبًا. ثم عاودت الانتقال في مرحلة الروضة، ولكن هذا المرة إلى مدرسة كالهام الواقعة في جادة ويست إند. وكانت كلها من أفضل الحضانات والمدارس، وذات سمعة ممتازة. ومثلي بالضبط، كان الأطفال الآخرون يتحدرون من عائلات مثقفة لها جذور حول العالم. كان أقرب صديق لي في مدرسة كالهام فتى يابانياً يدعى جيسون، وكان والده يعمل مدرب باليه. كانت الحياة حينها بريئة ومليئة بالمرح. وأتذكر قولي لأمي في طريق عودتنا من الروضة: "أحب المدرسة، وسأعاود الذهاب إليها غدًا".

لكن، كان الوضع صعبًا في نيويورك في ذلك الوقت. إذ كانت معدلات الجريمة في ازدياد، وانتشر الرسم على الجدران في كل مكان. ورغم أن الكوكايين لم يكن قد غزا حينا بعد في ذلك الحين، إلا أن الهيروين كان يملأ المكان. وفجأة، بدأت الشقق الصغيرة وقطارات الأنفاق المزدحمة تبدو خطرة ومقيدة وضيقة. ومن قبيل الصدفة، كانت أمي تدرس تلك الظاهرة في مختبرها في جامعة روكفيلر. وعندما ذهبت لرؤيتها في العمل ذات يوم، وصفت لي بحثها، وقالت إنه من أجل محاكاة الضغط الحاصل في قطار الأنفاق في مدينة نيويورك، تم وضع الفئران في حاويات صغيرة من الورق المقوى، وكان يتم هزها بشدة. وبعد ذلك، كي يتمكن الباحثون من دراسة أدمغتها، يتم قطع رؤوسها.

"أتقطعون رؤوسها؟!". سألت أمي والإثارة تتملكني، ولكن اعتراني في الوقت نفسه القليل من التوتر. إذ لم يسبق لي أن رأيت عملية قطع رأس في القطار، أو حتى في محطة شارع 119 المرعبة.

حينها، أكدت لي أمي أن قواعد العلم تتطلب ذلك.

أصاب الفزع والديَّ عندما علما أن ابن مفتش الشرطة قد عُثر عليه ميتًا أمام المبنى الذي نقيم فيه. إذ لم تكن تلك فكرهما عن الحلم الأميركي العظيم. وفجأة، استبدلنا حياة المدينة بالمروج مترامية الأطراف، والمدارس العامة الواقعة في الضواحي الشمالية لنيويورك. لم تكن بلدتنا الجديدة، هاستنغز أون هادسون، بالضبط كحجرة نوم في شارع وول ستريت، بل كانت هاستنغز مدينة تاريخية يمر فيها نهر، وقد جذبت أشخاصًا مثل والديَّ؛ أشخاصاً أكاديميين ومهنيين اعتبروا أنفسهم أبناء المدن إلى أن رزقوا بأول طفل أو الثاني.

بدا ذلك الركن من مقاطعة وستشستر المكان الصحيح بالنسبة إلى والديّ المهاجرين اللذين كانت أوضاعهما المعيشية في تحسن مستمر. ولكن، بخلاف صوت صراصير الليل الرتيب ولمعان النجوم في سماء وستشستر الواسعة، كان كل ما استطعت التفكير فيه هو *"ما نوع المرح الذي قد أعثر عليه هنا؟!"*.

كنت في الخامسة من العمر حينها.

وكنا قد حصلنا على منزل يكفي عائلتين في جادة كوشرين المشجرة. وقبل فترة قصيرة من ولادة أخي، إمانيويل، انتقلنا إلى مسكن مكون من طابقين يعود إلى أواخر الخمسينيات في الشارع نفسه. انتزع والداي الكساء الخارجي الأبيض المصنوع من الألومنيوم عنه، وثبّتا بعض الزخارف، وجدّدا هيئة المناظر الطبيعية، وأزالا الممر الخاص بالسيارة، وقاما ببناء حديقة من الطوب، وحوّلا المرأب المنفصل إلى استوديو مفروش. في الواقع، كانت والدتي هي التي أنجزت كل هذا العمل بنفسها؛ بما في ذلك هدم الممر الخاص بالسيارة، وإزالة الجزء الإضافي الملحق بالمرأب والذي أنشأه المالك السابق ليتمكن من وضع سيارته الكاديلاك طراز العام 1962.

لقد كان الانتقال إلى الضواحي مفزعًا بالنسبة إلي؛ إذ لم أكن أنا من وجد أجواء المدينة موحشة. فبالنسبة إليّ، كانت مكانًا مليئًا بالاكتشافات والتسلية والمرح. و لم أكن أعاني من صعوبة في النوم رغم ضجيج شاحنات جمع القمامة، ودويّ أبواق سيارات الأجرة. كانت الليالي هادئة للغاية في هاستنغز أون هادسون. ثم أي نوع من الأسماء هذا على أي حال!؟ في البداية، شعرت أنني لست في مكاني المناسب في مدرسة هيل سايد الابتدائية الواقعة في جادة ليفورجي. إذ كان معظم الأولاد الآخرين قد بدأوا معًا مرحلة الروضة، وكنت متأخرًا عنهم جميعًا بعام، و لم أبدُ كأيٍّ منهم. ويمكنني القول إنه لم يكن هناك الكثير من الأطفال ذوي الأصول الباكستانية والفرنسية في غرفة الغداء أو في فناء المدرسة. كانت ثمة فتاة واحدة ذات بشرة داكنة في الصف كله. وكنا- أنا وهي- الوحيدين المختلفين. كانت تتمتع بميزة سهولة نطق اسمها، أما أنا فقد اضطررت إلى تكرار اسمي مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يفهمه الأولاد بشكل صحيح. وقد استمتعت بفكرة تسميتي نفسي "ن.ج" أو "أليكس"، مختصرًا اسمي، ومعتمداً اسمي الأوسط، ولكنني لم أستطع تثبيت أيٍّ منهما. وقد علمت أن رف لوحات الصغيرة في متجر البطاقات والهدايا الواقع في شارع ماين قد احتوى على كل الأسماء بدءًا من نانسي وحتى نورمان، متجاهلاً اسم نافيد تمامًا.

كانت السيدة واسنبيرغ، معلمتنا في الصف الأول، تشرح لطلاب الفصل بشأن كريستوفر كولومبوس والأشخاص الذين التقاهم عندما حطّ في أميركا. وقد ذكرت شيئًا بشأن الهنود، فرفعت يدي وسألتها: "مثل أبي؟".

فردت السيدة واسنبيرغ على الفور: "كلّا، والدك نوع مختلف من الهنود!". ولا أعتقد أنها قالت ذلك على سبيل الإطراء.

ولكن مع مرور العام الدراسي، وجدت مكاني تدريجيًا في هذه البيئة الجديدة والغريبة. كانت مدرستنا صغيرة، وكان لدينا أقل من مئة طالب في كل صف. ورويدًا رويدًا، تعرفنا إلى بعضنا بعضاً وعثرنا على أماكن صغيرة لأنفسنا.

وقد تبيّن أنني شخصية مرحة، والشخصية المرحة ميزة جيدة للغاية. فقد أحببت إلقاء الدعابات، وعلمت كيف أجعل الأولاد الآخرين يضحكون. كان بوسعي السخرية من المعلمين، وبدا لي أن بعض المعلمين قد أعجبوا بذلك. قررت أنني مهرج الصف بشكل رسمي. وبالنسبة إليّ، كانت سخريتي من نفسي وسيلتي للنجاة، وقد انتقل الناس من الضحك عليّ إلى الضحك معي. كنت أكوّن الصداقات بسهولة، بما في ذلك صداقات مع بعض الأولاد ذوي الشعبية. وبحلول منتصف الصف الأول، أدركت كم أود أن أصبح جزءاً من النادي؛ إذ إن البقاء خارجه أمر مقزز.

ولكن لسوء الحظ، تلك البراعة الاجتماعية لم تكن تقابلها براعة على المستوى الأكاديمي. فبقدر مهارتي في اكتساب أصدقاء جدد، كنت فاشلاً في إنجاز واجباتي المدرسية واختباراتي. بدأت بالاعتماد على خفّة ظلي في أمور أكثر من مجرد اكتساب أصدقاء جدد في ميدان اللعب. فقد أدركت أنني طالما أجعل الناس يضحكون، فلن يغضبوا مني، وإن لم يغضبوا مني فبوسعي أن أفلت من العقاب.

وقد سألتني معلمتي في الفصل ذات يوم: "نافيد، أين واجبك المدرسي؟". فأجبتها: "يمكنني أن أكذب عليكِ، ولكنني أكن لك احترامًا شديدًا يمنعني من فعل ذلك".

كان بمقدوري رؤية أنها لم تغضب، بل أعجبت بمحاولتي الإتيان بعذر وجيه، فقالت لي: "اذهب واجلس في مكانك! واجلبه غدًا!".

بالنسبة إليّ، بدت المحادثات الجانبية في شبابي أسهل بكثير من إنجاز الواجبات. كما أظن أيضًا أن المعلمين كانوا معجبين بحقيقة أن صبيًا من أصول فرنسية باكستانية يمكنه استخدام كلمة من اللغة اليديشية[1] مثل *schmooze*.

لطالما أحببت القراءة؛ بدءاً من *توماس محرك الدبابة*، وحتى *رحلات غاليفر*، ووصولاً *إلى هاكلبيري فين*. وقد أحببت قصص المغامرات باللغات الغربية. ولكن، حينما يتعلق الأمر بالدراسة، كنت أمر بوقت صعب في شحذ همتي. وقد بدا لي أن أساتذتي يظنون أنني ذكي بما فيه الكفاية، وكانوا يلتقون والديّ، ويراقبونني وأنا أرتب الحجرة. حين يتعلق الأمر بواجب في الرياضيات، ربما أقوم بحل أول أربعة أسئلة من دون مشاكل على الإطلاق، ثم يصبح السؤال الخامس صعبًا، فأقول في سري حينها: "سأعود إليه لاحقًا"، ولكنني لا أفعل ذلك أبدًا.

كنت أنسى حل واجبي المدرسي، أو أحله بشكل سيئ قبل بدء الحصة بخمس دقائق، أو أبذل جهدًا كبيرًا في الدراسة وأؤدي بشكل رائع في الاختبار الأول، ثم لا أدرس إطلاقاً وأؤدي بشكل كارثي في الاختبارات الثلاثة التالية. وبقدر ما أحببت القراءة، لم أتعلم مطلقًا الجلوس والتركيز على واجباتي المدرسية. إذ كان مفهوم الانضباط بالنسبة إليّ أشبه بلغة الأوردو التي يتحدث بها أبي في المنزل بطلاقة بينما لم أتعلمها إطلاقاً. فكرت فحسب: *ولِمَ الاكتراث؟!* فلطالما قال أساتذتي: "أنت ذكي جدًا، فلِمَ لا تُجِدُّ في الدّراسة؟". لقد عرفوا أنني لم أكن أحاول القيام بذلك، إذ كنت الفتى الذي يجلس في مؤخر الصف، ويقوم بتعابير حمقاء بوجهه ويمرر قصاصات ورق مطوية.

---

(1) هي لغة يهود أوروبا، ويتحدث بها اليهود الأشكناز.

لدى الأخذ في الاعتبار خلفية والديَّ العلمية، قد يُخيَّل إليكم أنهما كانا فزعين، وأحسب أنهما كانا كذلك. فقد كانا أكاديميين ذوَي إنجازات معتبرة، ومهاجرَين من الجيل الأول، وذوَي مستوى معيشي عالٍ. وكان لديهما الحافز والإصرار اللذان جعلاهما ينتقلان عبر نصف الكرة الأرضية وينشئان حياة ناجحة. كان كل منهما يعمل بأقصى جهده. وأتذكر رؤيتي لهما وهما يهرعان إلى عمليهما عند الساعة السابعة والنصف صباحًا بينما أنا أقضم بصوتٍ عالٍ قطعة الخبز المغطاة بشوكولاتة النوتيلا وأقول لنفسي: "لست مضطرًا حقًا إلى أداء واجبي المدرسي!".

ولكن، بقدر ما كان والداي متحفزَين، كانا أيضًا مقتنعَين تمام الاقتناع بأفكار تلك الحقبة؛ وهي الاعتقاد أنه يتعيّن منح الأولاد الحرية ليختاروا طريقهم في الحياة. وكان أبي يقول متنهدًا: "سيكتشف ذلك في نهاية المطاف. أو ربما لن يفعل".

في ذلك الوقت، كان والداي قد انتقلا للعمل لحسابهما الخاص. وقال أبي على العشاء ذات ليلة: "لماذا العمل لحساب الآخرين عندما يكون بمقدورك أن تكون رئيسًا على نفسك؟". كان يعمل مدرِّسًا لطلاب الجامعة ومجنَّدي الشرطة. وكانت أمي تكدح بشدة في مختبر روكفيلر. وكان الجميع يخمنون عدد الفئران التي قطعت رؤوسها. لم يكن ثمة مجال لإنكار أنهما لطالما عملا بكد. ولكنهما- حسبما أظن- شعرا قليلاً أنهما عالقان حيث كانا.

أطلقا على شركتهما الجديدة اسم "كتب وأبحاث"، ولم تكن تمثّل قفزة كبيرة بعيداً عن حياتهما الأكاديمية. كان كل منهما بارعًا في إجراء البحوث حول موضوعات غامضة. ما الغرض من الدراسات العليا إن لم تكن ميدان تدريب على ذلك؟ الآن، بدلاً من جمعهما البيانات لأساتذتهما ولجان الاختبارات، كانا يجمعان البيانات للعملاء لقاء مقابل مادي. كانا بمثابة محرك

البحث جوجل في حقبة ما قبل ظهوره، وكانا يُسلمان المقالات والتقارير والبيانات التقنية للوكالات الحكومية والتجارية في الولايات المتحدة وخارجها. فقد تحتاج دائرة الإيرادات الداخلية إلى آلاف كتيبات التدريب، وقد تتصل ولاية أريزونا لطلب عينات من تشريعات تخص البيئة، أو قد يطلب أمين مكتبة البحوث في قاعدة عسكرية في فلوريدا مقالاً في صحيفة لا يبدو أن أحدهم قد تمكن من العثور عليه. فما بين مكتبة كاملة وطاقم من المساعدين من طلاب الدراسات العليا، وجد عمل والديّ الوليد طريقه نحو الربح.

وبينما كانا مشغولين في المكتب، وبسبب عدم انشغالي في المدرسة، حوّلت مخيلتي صوب السيارات والجنود والطائرات. كنت أمتلك سيارات هوت ويلز، ودمى جي آي جو، ونماذج من متجر الألعاب الواقع في دوبس فيري. كانت شركة هاسبرو قد أصدرت نموذج G.I. Joe Skystriker XP-14F، وهو نموذج طائرة مقاتلة قبيح يشبه بالضبط طائرة F-14 Tomcat المقاتلة التابعة للبحرية الأميركية. أعرف هذا لأنني قرأت عن الطائرات الحقيقية في موسوعة الكتب العالمية. وكنت أمتلك نموذجين لطائرة Skystrikers. كنت أحوّل الأريكة الموضوعة في غرفة المعيشة إلى حاملة طائرات، حيث تتم عمليات إقلاع وهبوط متواصلة. وكان لديّ كتاب مصور بعنوان *"أشرعة وقضبان وأجنحة"*، أنتجه رسام من مجلة MAD. وكنت أعرف كل صغيرة وكبيرة وردت فيه وتخص السفن والقطارات والطائرات. كما كنت أنسخ الرسوم باستخدام ورق الاستشفاف، ثم أقوم بتلوين الصور باستخدام علب التلوين الخاصة بي من "ماركة" Crayolas، والبالغ عددها أربعاً وستين علبة.

كنت في العاشرة من عمري عندما انفجر مكوك الفضاء تشالنجر بعد إقلاعه بثلاث وسبعين ثانية، وحين صدر كتاب *"رحلة الدخيل"*. وقد

أدهشني كلا الأمرين. كنت أتخيل كريستا ماك أوليف وهي تعلمني مادة الدراسات الاجتماعية، وكنت أعرف أنها لن تصرخ في وجهي عندما أتجاهل أحد الواجبات المدرسية. ولم أكتفِ قطّ من قراءة رواية ستيفان كونت حول فريق من طياري البحرية ومقاتلات A-6 Intruder التي تتسع لطيارَيْن والقادرة على العمل في كل الظروف المناخية. كانت تلك المقاتلات قد أسرتني في حرب فيتنام. وكنت أتخيل نفسي مع مورغ وتايغر وجايك "ذو اليد البارعة" غرافتون ونحن نطارد "الغومرز" شمالاً، ونتبرم بشأن قواعد الاشتباك الخرقاء الخاصة بالبحرية. كان فيلم توم كروز "توب غان" قد عُرض للتو في دور السينما. غوس ومافريك وكوغر وتشارلي، كانت لديهم الصداقة القوية نفسها، وألقاب طيارين مثالية، وانظروا إلى الدمى التي يلهون بها! طائرات F-14A Tomcat تقلع من على متن حاملة الطائرات يو.أس.أس إنتربرايز وتنخرط في اشتباكات مع السوفييت الأشرار. وقد ذهبت لمشاهدة الفيلم في سينما ريغل الواقعة في يونكرز في أول أسبوع من عرضه، ثم شاهدته لاحقاً ثلاث مرات إضافية.

ماذا عساي أقول؟ بعض الأطفال يحبون سيارات الإطفاء، فيما يحب آخرون بطاقات البيسبول، أما أنا فقد أحببت قصص الحرب والعتاد العسكري. كنت أبني جدارية تحمل صور الجنود، وكانت لدي سترة طيران رمادية مموهة. وفي إحدى الرحلات التي ذهبت فيها مع والديّ إلى متجر للأغراض العسكرية والبحرية يقع في المدينة، اشتريت ملصق طيار وأجنحة طائرة وملصق Jolly Roger VF-84 ذي الجمجمة والعظمتين. وباستخدام عصا التحكم بالألعاب ولوحة المفاتيح، لعبت ألعاب فيديو صعبة تحاكي الطائرات المقاتلة. كانت تلك الأغراض الحمقاء هي مبعث السرور والبهجة بالنسبة إليّ، بينما كان الأطفال الآخرون يمارسون كرة القدم وكرة السلة.

كانت الأمور مملة في هاستنغز، حيث كان الآباء متحررين للغاية، وكانت الحرب على رأس قائمة الأشياء المُنهى عنها. بل إن العديد من أصدقائي لم يكن يسمح لهم حتى بالحصول على ألعاب أسلحة. ولعلّ هذا أحد الأسباب التي جعلت الأولاد يحبون المجيء إلى منزلي. فالأولاد القليلون في المدرسة الذين كانوا مولعين بالجندية كانوا على الجانب الخاطئ من الحياة. إذ كان آباؤهم إما يعملون لدى إدارة الأشغال العامة، أو عملوا كحراس للسجون. أما بالنسبة إلى العائلات التي انتقلت حديثًا إلى هاستنغز، فقد كانت الجندية عملاً يمتهنه آخرون. كانت حرب فيتنام قد انتهت منذ زمن طويل، و لم يكن أحد يلتحق بالجيش. كان ذلك في الثمانينيات. وكان الآباء حينها ينتقدون بالفعل الآثار الاجتماعية السلبية الناجمة عن ألعاب الفيديو العنيفة.

لا أدري بالضبط من أين استقيت هذا الشغف. لعل السبب كان الكتب التي كنت أقرأها منذ أن كنت صغيرًا، أو ربما بسبب استماعي إلى حكايات عن جدي الفرنسي في الحرب. ولكنه قطعًا لم يكن بفضل والديّ اللذين كانا قد وُلدا في بلدين مزقتهما الحرب و لم يشهدا شيئًا رومانسيًا فيهما. ولعلي أردت أن أحظى بشيء- ببعض الاهتمام أو الشغف أو الخبرة- يجعلني أتميز عن باقي الأولاد ويُشعرني بأن لي مكانة خاصة بشكل ما.

لم أركز على واجباتي المدرسية في المرحلة الابتدائية، ونادرًا ما كنت أنجزها، وآخر ما كان يشغل بالي هو العلامات. ولكن، بينما كنت *ألوّث* تقرير الصف الثامن الخاص بدرجات متدنية مثل ب وج، قرّر والداي أن الوقت قد حان للكف عن العبث في الفصل، وقال لي أبي بنبرة صارمة وغير متوقعة: "لقد حان الوقت لتصلح ما أفسدته".

وما الحل المرعب؟ مدرسة خاصة، أو بتعبير أكثر دقة، مدرسة هاكلي الواقعة في تيريتاون في نيويورك؛ وهي مدرسة إعدادية مبهرجة تأسست في

العام 1899 من قبل فاعلة الخير السيدة كالب بروستر هاكلي. وقد أدركت بشكل تام نوع الروح السائدة في المدرسة منذ اليوم الأول لي هناك، وذلك عندما ألقيت نظرة على موقف السيارات الخاص، والذي كان ممتلئًا بسيارات لامعة من طراز بورش، وبي أم دبليو، ونيسان 300 زد؛ وهي سيارة رياضية كانت قد طُرحت في الأسواق في العام السابق. فجأة، بدت مدارس هاستنغز أون هادسون العامة أشبه قليلاً بفيلم *بويز إن ذي هود*.

ومثلما اعتدت أن أفعل دومًا، قمت بما في وسعي لأجد حشدًا أتواصل معه، ولم يكن ذلك بمرافقة الطلاب المتفوقين. التحقت بفريق كرة القدم الأميركية، ولعبت في مركزَي المهاجم والمساك. لم تكن هاكلي ميدان كرة قدم مثالياً، وقد انضممت إلى فريق الاسكواش في العام الثاني. ولكن بشكل ما، لم تكن دعاباتي مرحة للغاية في هاكلي، ولم يحسِّن التحاقي بمدرسة خاصة من علاماتي. وفي نهاية السنة الثانية، قال لي ناظر مدرسة هاكلي بشكل مهذب ولكن بوضوح: "نعتقد أنك ستكون أكثر سعادة إن عدت إلى مدرسة عامة". وقد بدا لي أن والديّ يوافقان على ذلك، إذ لم يجدا سببًا وجيهًا يجعلهما يدفعان النقود لأتعلم في مدرسة خاصة ما دمت غير مستعد بعد لبذل المزيد من الجهد.

حينها، شعرت وكأن الحياة تدب في عروقي مجددًا.

الفصل الثاني

تجارة العائلة

ظهر الروس من دون سابق إنذار وحسب.

في صباح أحد أيام الربيع من عام 1988، وكنت حينها في الثانية عشرة من العمر، دخل رجل جناح مكتب والديّ الواقع في المبنى رقم 250 الواقع غرب الشارع رقم "سبعة وخمسون" بالقرب من مستديرة كولومبيا. كان طويل القامة وذا شعر أشقر، وكانت عيناه زرقاوان، ويمتلك بنية رياضية متناسقة. وقد بدا لي أنه في منتصف العقد الرابع من العمر، ويضع نظارة Tortoiseshell ويرتدي معطفاً طويلاً.

فقال له والدي: "صباح الخير، هل يمكنني مساعدتك في شيء ما؟".

فأجاب الرجل: "أود أن أطلب بعض الكتب".

كان يتحدث بإنجليزية واثقة مع لكنة أوروبية شرقية بسيطة. وبدا مثقفاً للغاية، وكأنه أستاذ أو باحث مقيم في معهد لدراسات السياسة الخارجية، وكانت نبرته ودوداً ولكنها صارمة.

فقال والدي للرجل: "لسوء الحظ، نحن لا نبيع الكتب إلى الأفراد، فلسنا متجرًا لبيع الكتب؛ على الرغم من اسم الشركة. أنا آسف للغاية". كان الخطأ الحاصل مفهومًا؛ ففي نهاية المطاف، اسم الشركة "كتب وأبحاث".

"بالطبع". قال الرجل وكأنه كان يعرف هذا مسبقًا، ثم تابع: "دعني أوضِّح رجاءً. اسمي توماخان، وأنا أعمل في الأمم المتحدة. أنا عضو في البعثة السوفييتية في نيويورك".

فأخبره والدي باسمه. عندها، أخرج الروسي بطاقته التجارية، ولكنه لم يقدّمها إلى أبي، وإنما أمسك بها فحسب كي يتمكن أبي من قراءة ما كُتِب عليها بحروف ذهبية بارزة: *البعثة الدائمة للاتحاد السوفييتي إلى الأمم المتحدة*. كما دُوِّن عليها رقم الهاتف وعنوان في مانهاتن، 136 شرق الشارع "سبعة وستون". كما ذكرت البطاقة أن توماخان يحمل رتبة عقيد.

قال العقيد توماخان: "أنا أعمل ضمن برنامج منع انتشار الأسلحة، ونزعها".

لم يكن لدى والديّ الكثير من العملاء، ناهيك عن عقداء من بعثة الاتحاد السوفييتي إلى الأمم المتحدة. لم تكن لدى أبي حينها شكوك محددة، وإنما كان يحاول فقط الحصول على صورة أوضح حول هوية توماخان هذا، لذا سأله: "هل يمكنني أن أسألك كيف سمعت عنا؟".

فأجاب الزائر: "لقد أوصاني زميل لي في الأمم المتحدة بالمجيء إليك. وقد قال زميلي إنك ربما تكون قادرًا على مساعدتنا في توفير بعض المواد من أجل مشروع نعمل عليه".

فكر أبي للحظة، ثم سأله: "هل تعرف ما تريده؟". فردّ العقيد السوفييتي: "بكل تأكيد، بكل تأكيد". لم يكن ليصبح ذا أهمية لو لم يكن شخصًا لطيفًا ومنظمًا؛ إذ سرعان ما أدخل يده في جيب معطفه وأخرج منها ورقة بيضاء مطوية إلى نصفين. وقد تضمّنت الورقة المكتوبة بخط منمق قائمة بأسماء الصحف والكتب الأكاديمية.

كانت هناك عشرة بنود لعناوين علمية غامضة مدرجة في القائمة، والتي ربما تكون ذات أهمية بالنسبة إلى طالب دراسات عليا في العلاقات الدولية، أو...

أجل، ملحق عسكري لدى الأمم المتحدة. كانت كل العناوين ضمن نطاق ما يسميه العاملون في مجال علم الأبحاث "مفتوحة المصدر"، وليست مقيدة أو سرية. وأي من هذه البنود كان من الممكن العثور عليه في مكتبة إحدى الكليات اللائقة، ولكن على الأرجح ليس في الشارع "سبعة وخمسون". كانت عناوين المواضيع معقدة: *التقرير السنوي للعام 1987 الذي يصدره معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام حول انتشار الأسلحة حول العالم ونزعها*، وإصدار خاص حول منع انتشار الأسلحة أصدرته *نشرة علماء الذرة*، *وجداول النفقات العسكرية حول العالم*، *وتقرير لمجلة فورين أفيرز* تحت عنوان "محاربون مترددون: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والتحكم في انتشار السلاح". وكانت ثمة عناوين أخرى مشابهة من المركز الإعلامي التابع لجامعة أوكسفورد، ومعهد بروكنغز، ومعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، ولكن لا شيء يخرج عن نطاق الاهتمامات الطبيعية لدبلوماسي ذي خلفية عسكرية.

بعد أن ألقى أبي نظرة على القائمة، قال: "لا يجب أن يمثّل هذا الأمر مشكلة. ما العنوان الذي يتعين علينا شحن الطلبية إليه؟".

فأجاب الروسي بوضوح: "كلّا، لن يكون هذا ضروريًا. سآتي لأخذها منك. هل تكفي مهلة أسبوعين؟ أم تحتاج إلى ثلاثة أسابيع؟ سأسدد لك المبلغ المستحق عندما أعود".

"يكفي أسبوعان". أجاب والدي قبل أن يرافق العقيد السوفييتي إلى الباب، ثم صافحه وودعه.

لم يكن والدي متيقنًا من الطريقة التي ينبغي له أن يتصرف بها، ولكنه شعر أنه لم يكن لديه أي سبب محدد ليشعر بالقلق. وقد كان منفتحًا على تطوير علاقات تجارية جديدة مع الأمم المتحدة، وقد فكر في سره في أن كل أولئك الدبلوماسيين الموجودين في الجانب الشرقي من مانهاتن يمكنهم أن

يشكلوا مصدر ربح هائلاً للشركة. ولكن، كانت لديه مسائل أكثر إلحاحًا يتعين عليه التعامل معها. لذا، في اللحظة التي خرج فيها الرجل من الباب، محى أبي الحوار الذي دار بينهما من رأسه، وعاد إلى مكتبه وأغلق الباب وانشغل بالعمل.

ولكن، ليس لمدة طويلة.

فبالكاد بعد ثلاثين دقيقة من مغادرة الرجل الروسي، كان ثمة نقر على باب المكتب، ثم قال عثمان- وهو أحد مديري الحسابات العاملين في الشركة- وقد بدا مرتابًا قليلاً: "ثمة رجلان هنا يريدان رؤيتك، وقالا إنهما يرغبان في التحدث إليك على انفراد".

كان أحدهما في العقد الخامس من العمر، فيما الآخر في منتصف العقد الثالث. وكان كل منهما ذا شعر أسود قصير جدًا، ويضع نظارة. ومثلما كان الحال مع الروسي الذي غادر للتو، وقف كلا الزائرين عند عتبة الباب وهما يرتديان معطفين طويلين داكني اللون.

ما سبب ارتداء هذه المعاطف الطويلة!؟ تساءل أبي أثناء تلويحه للرجلين طالباً منهما الدخول، ثم قال وهو يغلق الباب وراءهما: "من فضلكما، اجلسا. كيف يمكنني أن أساعدكما؟".

قدم الرجلان نفسيهما على أنهما عميلان خاصان لدى مكتب التحقيقات الفدرالي. في البداية الأمم المتحدة، والآن مكتب التحقيقات الفدرالي. ولم يكن الظهر قد حل بعد.

قال الرجلان إنهما يعملان في مجال مكافحة التجسس. لم تكن لدى أبي مشكلة في تصديق ذلك، فقد ظهرت عليهما علامات الضيق الشديد، وكأنهما كانا يحملان همًّا ثقيلاً لا يمكنهما الإفصاح عنه. ولم يهدرا الوقت في أحاديث جانبية، وكأنهما يجريان محاكاة لدور إفريم زمبالست جونيور في

إعادة الإنتاج لمسلسل مكتب *التحقيقات الفدرالي* الذي عُرض في الستينيات.

أخرج العميل الأصغر سنًّا صورة لامعة بمقاس ثمانية في عشر بوصات من ملف مانيلا، ووضعها على مكتب أبي، وكانت الصورة لوجه العقيد التابع للاتحاد السوفييتي.

"سيد جمالي". بدأ أكبرهما سنًا بالتحدث.

ففكّر أبي في سره: *إنهما يعرفان اسمي، إنهما يعرفان اسمي!*

واصل العميل حديثه: "قبل فترة قصيرة، أتى هذا الرجل إلى مكتبك. فما الذي تحدثت معه بشأنه؟".

باغته السؤال هكذا فحسب؛ إذ كان واضحاً ومباشراً، من دون أي تمهيد أو مجاملات لكسر الجليد. لم يفصح العميلان عمّا يعرفانه أو كيف عرفا به، ولكن أسلوبهما أشار بشدة إلى أن أبي ربما سيجيب عن سؤالهما؛ بما أنهما يعرفان كل شيء بشكل مسبق.

غير أن أبي لم يكن يعرف الكثير، حتى إنه لم يكن يعرف المقصود بكل ذلك. "كان هنا في وقت سابق. إنه عضو في بعثة الاتحاد السوفييتي إلى الأمم المتحدة، وقد أظهر لي بطاقته ولكنه لم يتركها. كما طلب منا بعض الكتب. هل هناك مشكلة؟".

لم يجب العميلان عن السؤال بشكل مباشر، وقال العميل الأكبر سنًّا: "نحن مهتمان بمعرفة ما طلبه".

لم يرَ أبي فائدة من الجدال، لذا قال له: "لدي القائمة هنا".

وناولها للعميل الأصغر سنًا الذي قرأها بتأنٍّ، ثم مررها إلى شريكه. وقد أومأ كل منهما بما يشير إلى معرفتهما المسبقة بمحتواها.

"هل يمكننا الحصول على نسخة منها؟". سأل العميل الأكبر سنًا. ومثل معظم أسئلته، لم ينتهِ هذا السؤال بعلامة استفهام.

فأجاب أبـــي: "بكل تأكيد. ولكن، هل يمكنكما إخباري بالمزيد قليلاً عن سبب كل هذا؟ فأنا لست معتادًا على مثل هذا النوع من الأمور. مـــن يكون ذلك الرجل؟".

فأجاب العميـــل: "الســـيد توماخـــان عنصـــر تـــابع للمخـــابرات السوفييتية".

سأله أبـــي: "المخابرات السوفييتية؟!".

فكرّر العميل كلامه: "المخابرات السوفييتية. نودّ الحصول على مساعدة منك في التعامل معه، فهل أنت مستعد لمساعدتنا؟".

بالنسبة إلى أبـــي، لم يكن السؤال بسيطًا مثلمـــا قـــد يبـــدو لـــبعض الأشخاص. فلقد أحب أميركا بالطريقة الخاصة التي يحبها بها المهاجرون. إذ كان قد أتى من مكان بعيد في العالم، واختار أن يجعل أميركا وطنه، و لم يكن لديه أي انجذاب خاص نحو الاتحاد السوفييتي. ولكنه أتى أيضًا من بلد تعتـــبر فيه مساعدة السلطات على مراقبة شخص ما عملية محفوفة بالمخـــاطر. و لم يفكر أبـــي قطّ في نفسه كمخبر.

سأله أبـــي: "هل الأمر خطير؟".

فطمأنه العميل الأكبر سنًا: "كلّا، على الإطلاق. لا يفترض وجود خطر من أي نوع".

"حسنًا، ماذا تريد مني أن أفعل؟ هل أنجز له طلبه؟".

قال العميل: "بكل تأكيد. أنجز طلبه، وعامله كما تعامل أي عميـــل. وعندما يعود- هذا إن عاد- فسنكون على تواصل".

لم يكن أبـــي واثقًا من شعوره حيال العميلين وطلبهما. ولكن بالنسبة إلى الوقت الراهن، قرر أنه سيمضي قدمًا في ما يطلبانه منه. وقبل أن يقـــوم بمصافحتهما وتوديعهما، قام كل منهما بإعطائه بطاقته.

قال العميل الأكبر سنًا: "سيد جمالي، نحن نقدر بشدة تعاونك في هذا الشأن".

يا له من صباح عجيب!

عادت أمي التي كانت خارج المكتب للحاق بموعد ما بعد مدة قصيرة من مغادرة عميلَي مكتب التحقيقات الفدرالي. حينئذٍ، أمضى أبي بضع دقائق لتجميع أفكاره، وأخبر أمي بشأن الزوار. إذ كان قد التقى للتو وجهًا لوجه مع طرفي الحرب الباردة، وقد أوضح لأمي: "الأمر برمته تجسس وتجسس مضاد". وقد بدا له أن كلا الطرفين لديهما أجندتهما الخاصة هنا غرب الشارع "سبعة وخمسون".

فسألته أمي: "كيف تشعر؟".

وأجاب أبي: "الأمر مثير نوعًا ما. عليّ أن أعترف بذلك". ثم أضاف: "ولكنه مثيرٌ للقلق أيضًا". و لم يكن مضطرًا إلى إخبارها أنه لم يكن نوع الرجل الذي يتحمس للإبلاغ عن شخص ما إلى الحكومة، أي حكومة. وقطعاً، لم يكن يرغب في الغوص في منتصف معركة شد الحبل بين الأميركيين والسوفييت. وقد قال أبي: "بصراحة، لا أدري كيف أتصرف حيال الأمر".

كانت لدى أمي آلاف الاستفسارات: "كيف عثر الرجل السوفييتي علينا؟".

"قال إن زميلاً له أعطاه اسمنا".

"ومن يكون زميله؟".

"لم يقل بالضبط".

"ألم تسأله أنت؟".

لم يجب أبي عن السؤال الأخير، إذ لم يكن مضطرًا إلى فعل ذلك.

"هل أي من هذا غير قانوني؟".

فأجاب أبـــي: "لا أظن ذلك. فمكتب التحقيقات الفدرالي منخرط في الأمر".

"ما الذي يعنيه ذلك؟".

"لا أدري. لا أدري فحسب".

"من اللطيف رؤيتك مجددًا يا نسيم". قال العقيد توماخان لدى عودتـــه بعد مرور أسبوعين. وبهذه التحية الحارة للرجـــل، كـــان ســـريعًا في بنـــاء الصداقات مع الآخرين. "جئت لأرى إن كانت كتبـــي جاهزة".

فأخبره أبـــي أنها جاهزة، وسار عائدًا إلى المخـــزن، ثم عـــاد حـــاملاً صندوقاً غير مقفل. وكانت الكتب وقصاصات الصحف قـــد وُضـــعت في داخله بشكل منظم، بالإضافة إلى الفاتورة التي كانت 163.75 دولارًا.

ناول توماخان أبـــي ورقتين من فئة مئة دولار.

فقال له أبـــي: "دعني أرى إن كان بإمكاني أن آتيك ببقية المبلغ".

غير أن العقيد الروسي قال له: "لا تقلق حيال هذا يا صديقي. لا بأس. اعتبرها وسيلة لشكرك على توفير هذه الأغراض لي في وقت سريع جدًا".

تبادل الرجلان الحديث قليلاً قبل أن يودّعه الروسي. إذ كـــان بوســـع أبـــي المزاح مع أي شخص.

سأله أبـــي: "إذاً، كيف تسير عملية نزع الأسلحة؟".

فأجاب الروسي وهو يتنهد نوعاً ما ويرسم ما يشبه الابتسامة على وجهه: "ما زال العمل مستمرًا. إنه عمل مستمر على الدوام، ولكننا نواصل المحاولة".

فقال أبـــي: "لا نود أن نشغلك عن عملك".

قبل مغادرته المكتب، سلّم الروسي أبـــي قائمة أخرى تتضمن أسمـــاء مقالات وكتب. لم تختلف هذه كثيرًا عن سابقتها، باستثناء شيء واحد، وهو

أن البندين الأخيرين لم يكونا أسمَي كتابين أو مقالَين، وإنما كانا منشـــورين رسميين لحكومة الولايات المتحدة.

ومجددًا، لا شيء منها كان مصنفاً على أنه شديد السرية، ولا شيء منها يحتوي معلومات حساسة، ولا شيء منها يصعب العثور عليه في مكتبة جامعة كولومبيا أو جامعة نيويورك. ولكن، بالنسبة إلى عملاء الشركة، كان يتعين عليهم طلب هذه الوثائق من NIST– المعهد الوطني للمعايير والتكنولوجيا– وهو مكان ضخم لتداول التقارير التقنية التي تنتجها الحكومة الفدرالية. ومن المنطقي الافتراض أن بعثة إلى الأمم المتحدة تابعة لحكومة معادية ستمر بوقت عصيب عند فتح حساب مدفوع لدى المعهد.

قال توماخان: "سأعود خلال شهر أو نحوه".

فطمأنه أبـــي: "يفترض أن يكون طلبك بحوزتي حينها".

لم يطلب عميلا مكتب التحقيقات الفدرالي من أبـــي الاتصال بهما عند عودة العقيد، بل قالا إنهما سيبقيان على اتصال. وبعد مرور ثلاثة أيام، كان العميل الأصغر يتحدث إلى أبـــي عبر الهاتف. وقد فكّر أبـــي في أن مكتب التحقيقات الفدرالي يراقب العقيد بطريقة ما. أم *تراه يراقبنا نحن عن كثب؟*

قال له أبـــي: "لقد كان هنا".

فأجاب العميل: "نعرف ذلك. هل بحوزتك العناوين؟".

قال أبـــي: "إنها بحوزتي".

فرد العميل: "سيد جمالي، كما ذكرنا آنفًا، نقدّر لك تعاونك معنا".

بالنسبة إلى العميل، كان هذا أسلوبًا آخر للقول مع السلامة.

وهكذا، بدأت علاقة غريبة امتدت لعقدين من الزمن بين عائلتي والعدو اللدود الأول للحكومة الأميركية؛ الاتحاد السوفييتي. وهو أمة نشأ أطفالها من أقصاها إلى أقصاها على الكراهية، وتملّك الخوف آباءهم دومًا؛ بدءاً من أزمة

الصواريخ الكوبية، ومرورًا بتدريبات استخدام القنابل في المدارس، ووصولاً إلى المخابئ الخفية تحت الأرض والواقعة في المنازل في ضواحي المدن. صدَّر الاتحاد السوفييتي الذعر النووي وكوابيس الحرب الباردة.

وهكذا أيضًا، بدأت العلاقة الموازية بين عائلتي ومكتب التحقيقات الفدرالي؛ حيث لم يكن أفضل عملاء مكافحة التجسس في أميركا بعيدين عن المشهد. ومع تطوّر كلتا العلاقتين، ستبدأ التصدعات المبكرة في الاتحاد السوفييتي العظيم بالظهور، وستنسحب القوات الروسية من أفغانستان مهزومة، وسيبدأ إضراب عن العمل في مصانع فلاديمير لينين للصلب الواقعة في نوا هوتا، وستعمّ الاحتجاجات العمالية في بولندا وتستمر لمدة شهور، *وستُسمَع أصوات مطالبة بالحرية في إستونيا* ولتوانيا ولاتفيا. *أما برنامج بيريسترويكا الذي قدم وعدًا بانفتاح أكبر من جانب رئيس الاتحاد السوفييتي ميخائيل غورباتشوف، فسيتبين أنه لا يكفي لإخماد نداء التغيير*. كما ستنتشر الانتفاضات المطالبة بالديمقراطية في أوروبا الشرقية، وسينهار جدار برلين ويتبعثر الاتحاد السوفييتي، وستغدو الرأسمالية- رأسمالية روسية فريدة من نوعها- هي النظام القائم اليوم.

أصر الروس بشدة على أنهم أضحوا أصدقاء لنا الآن.

ووسط الاضطرابات المتقطعة وغير المنتظمة التي غيرّت وجه العالم، والنجاحات والإخفاقات، والإشارات المشجعة، والآمال المتبددة، ما انفك رجال ذوو لكنة روسية من موسكو وأوديسا وسانت بطرسبيرغ يظهرون في مكاتب نيويورك الخاصة بشركة والدَيّ.

تغيّر النظام في موسكو، وانهار الاتحاد السوفييتي، ولحق الضرر بالعميلين الأميركيين ألدريتش إيمز وروبرت هانسن، ولكن علاقة والديّ بالروس صمدت أمام كل هذا. فطوال تلك السنوات، حافظ والداي على حدّ أدنى

من العلاقات؛ فكانا ينتظران عودة الروس، ثم يخبران مكتب التحقيقات الفدرالي بما يحصل، وبعد ذلك يعاودان العمل بسرعة. لم يتطلعا إلى تنمية عملهما أو توسيعه، فقد ظلت شركتهما كما هي دائمًا. ولعلّ هذا أحد أسباب بقاء العلاقة قائمة لفترة طويلة.

إذا نشأ سيناريو كهذا اليوم، فسيكون من الصعب أن يسير بشكل عادي للغاية. ولكنّ تلك كانت أوقات مختلفة. لم يسعَ والداي إلى استشارة محامٍ ما، ولم يطلبا أي شيء بصورة كتابية من مكتب التحقيقات الفدرالي، ولم يكن لديهما أعضاء مجلس إدارة أو ملاك أسهم أو مستشارون خارجيون لاستشارتهم. وكان أكثر ما يقلقهما هو كيفية تأثير مساهمتهما تلك في حياتهما. وكانا يشعران بقلق شديد على سلامتهما. ولكن بخلاف ذلك، لم يكن هناك جدال بينهما حول الأمر على الإطلاق. رأى أبي- وهو خبير مخضرم في علم الأخلاقيات- أنه لا وجود لغموض أو معضلة أخلاقية في مساهمة كهذه. ولم يشعر والداي بالتهديد أو بالضغوط من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي. وكانا ينظران إلى نفسيهما على أنهما مواطنان ممتنان لوطنهما الجديد؛ الوطن الذي أحبّاه وأنشآ بيتًا وعائلة فيه. وكان كل منهما قد وُلد على أنقاض الحرب والعنف، ولم يعتبرا الأمن والسلامة اللذين منحتهما أميركا إياهما من المسلمات. ما الذي كان يمكن النقاش حوله؟ ماذا الذي كان يتعين القلق بشأنه؟ وبقدر ما كانا قلقين، كان هذا فحسب الشيء الصائب الذي تعيّن عليهما فعله.

الفصل الثالث

العثور على ذاتي

بينما كان والداي مشغولين في المكتب، أعدت التواصل مع العديد من أصدقائي القدامى من مدرسة هاستنغز الثانوية. بل كنت أكثر قناعة بمبدأ أن الواجب المدرسي ينبغي ألا يتعارض مع الخروج برفقة الأصدقاء أو المسرح. وذات يوم، جاءت معلمة بديلة لحصة الصحة، فقررت أنه عليّ القفز من النافذة. وعندما اقتربت الحصة من نهايتها، رفعت يدي.

"أجل يا نافيد؟".

فسألتها بتهذيب: "هل يمكنني الانصراف باكرًا؟".

ولعلها شعرت بأن السماح لمهرج الفصل بالمغادرة سيجعلها تدرّس براحة أكثر، لذا ردت: "أجل".

فقلت لها مبتسماً ابتسامة متكلفة: "شكرًا لكِ". ثم نهضت ونظرت إلى الباب المؤدي إلى الرواق، وبعد ذلك استدرت واندفعت سريعًا عبر النافذة إلى العشب الفارغ. وبينما كنت أنهض واقفًا على قدميّ بعد أن قفزت من على ارتفاع أربع أقدام، كان بوسعي سماع زملائي وهم يضحكون بصوت عالٍ.

لم يرق للمعلمة ما فعلته، فكتبت شكوى بحقي وأرسلتها إلى مكتب المدير. أظهرت ورقة الشكوى لأصدقائي بكل فخر وقلت لهم: "ثمة تلميذ

غادر عبر النافذة و لم يعد". كنت أطوِّر حسًا فكاهيًا غريبًا خاصًا بـــي.

في ذلك الصيف، أعطاني والداي سيارتهما الفضية الرمادية القديمة مـــن طراز Honda Civic العائدة للعام 1984. كانت تلك السيارة تصنفني ضـــمن فئة المشردين في مدرسة هاكلي. ورغم أنها لم تكن أفضل سيارة لطالـــب في المدرسة في هاستنغز، إلا أن أصدقائي كانوا سعداء بما يكفي ليستقلوها معي. ظللت أستخدمها حتى حلول الربيع؛ إلى أن قام والداي ببيعها وأقنعتهما بأن يشتريا لي سيارة Pontiac Trans Am باللونين الأسود والذهبـــي وبخمـــس سرعات موديل العام 1984. شهدت السيارة أيامًا أفضل. كانت أبطأ مـــن حافلة صغيرة، ولكنها كانت سيارة جميلة الشكل! كنت أقوم بفتح سقفها، وأعتمر قبعة فريق أورلاندو ماجيك، وأضع قرطـــاً ذهبيًـــا صـــغيرًا في أذني اليسرى، وأخفض زجاج النوافذ وأرفع صوت المذياع، وأذهب إلى جـــادة سنترال كي يراني الناس فقط، أو أتجه إلى المدينة. كيف يمكنني أن أبدو مختلفًا عن والديّ بسيارة البيجو السوداء الخاصة بهما؟ كان هذا هو المقصود. كانا يجهلان تمامًا كم يبدُوا حمقاوين. كنت أودّ أن أبدو كما لو أنني أقيم في حي برونكس.

لم يكن هناك مكان للعلم في حياتي؛ إذ كنت ألتقي أصدقائي خـــارج المدرسة ليلَتي الجمعة والسبت، ثم نتجه معاً إلى منزل الرفيق الذي لا يتواجد والداه فيه. لم نكن أشقياء، وإنما مجرد صعاليك أوفر حظًا من غيرهم؛ مثـــل العديد من المراهقين الذين اعتبروا أنفسهم فوق المساءلة (هذا بالضبط مـــا لا أريده لأبنائي). كان لدينا مال وفير، والكثير من الشراب، والكثير من وقت الفراغ. حتى نحن أدركنا ذلك. كنا في ذلك الوقت نطلق على أنفسنا لقـــب "صفوة بلدة هاستنغز". ربما كان رجال الشرطة يكرهوننا ويكرهون كل ما كنا نفعله، ولكن ما الذي كان بوسعهم فعله بنا؟ فإذا حاولوا اعتقالنا، لـــن

يتطلب الأمر أكثر من اتصال والد أحدهم بمفتش الشرطة للتعبير عن انزعاجه الشديد. وكان الجميع يدركون ما سيحدث حينئذٍ.

راقبني والداي عن بعد وهما يشعران بالقلق كالمعتاد، وكانا مقتنعين أنني لا أستغل مواهبي بأقصى قدر ممكن، غير أنهما كانا يأملان أن يتبدل حالي عندما أصبح جاهزًا أخيرًا. ولكن للأسف، لم تكن هناك أدنى إشارة إلى ذلك.

وفي السنة الأخيرة، عجز ابن الرجل الذي يحمل درجة دكتوراه والمرأة التي تحمل درجة ماجستير عن الالتحاق بأي كلية. وقد تملصت من مواعيدي في مكتب الإرشاد، وتجنبت أسئلة الكبار القلقة كلها؛ إذ لم أرَ أي سبب للاندفاع نحو ما كان سيأتي تاليًا، أياً كان. كيف سيكون حالي أفضل مما هو عليه الآن؟ وخلال حفل التخرج، نادى مدير المدرسة باسمي، فصعدت على المنصة معتمراً قبعتي ومرتدياً ثوب التخرج، بينما جلس والداي مع الآباء الآخرين الحاضرين. ولكنني كنت الطالب الوحيد الذي حصل على ملف جلدي فارغ لا يضم شهادة داخله. وعندما تم الإعلان عن كل مؤهلاتي، تبيّن أن أحد المقررات ينقصني لسبب غير مفهوم. قلت لنفسي إنني لن أجعل هذا ينال مني، فدومًا ثمة سبيل للنجاح في أمر ما. ولكي أصبح خريج مدرسة ثانوية بشكل رسمي، التحقت بمقرر طويل للرسم في جامعة وستشستر. وقد اخترت هذا المقرر لأنني سمعت بوجود عارضات عاريات لديهم.

وكما اتضح، لم تظهر مهاراتي في الرسم أي قدرات خاصة، ولكنني شعرت بالسعادة حين تأكدت من أن شائعات العارضات العاريات كانت حقيقية، وذلك حتى السنة الثانية؛ حين تم استبدال رجال قصار القامة وبدن وهرمين في الخامسة والخمسين من العمر وذوي صدور كبيرة ولحى بالفتيات الصالحات للزواج. قلت لنفسي حينئذٍ لا بد أن هذا ما قصدته المعلمة عندما قالت: "يجب أن تعاني في سبيل الفن".

في شهر آب من ذلك العام، وبعد حصولي على الدبلوم، ذهبت برفقة والديّ إلى المدينة، والتحقت بدورات في كلية هانتر؛ وهي جزء من جامعة المدينة في نيويورك. لم ألتحق ببرنامج يمنح درجة ما؛ على الرغم من أن الدورات التي التحقت بها قد تؤهلني للحصول على واحدة. ولكنني على الأقل كنت أخرج من البيت في هاستنغز؛ إذ كان بوسعي القول إنني ذاهب إلى الكلية، وكان بوسعي الإقامة في شقة امتلكها والداي في ريفرسايد درايف، كما كان بوسعي انتقاء زملائي في السكن. وتساءلت إن كان بوسعي التخصص في قسم "التسكع فقط".

واظبت على حضور عدة دورات في العلوم السياسية، والتحقت ببرنامج تدريب يؤهل الطلاب للالتحاق بالجيش، ولم تكن للبرنامج شعبية في أوساط حرم كلية هانتر، أو في أي من كليات نيويورك الأخرى؛ وذلك حسبما يمكنني القول. كانت الوحدة الخاصة بنا من كلية هانتر صغيرة جدًا لدرجة أننا التقينا في حرم جامعة فوردام طلاباً من جامعتي كولومبيا ونيويورك، بالإضافة إلى جامعات أخرى.

لم أعتمد على زملائي في برنامج التدريب لبناء خبرتي في الكلية. كان لدي العديد من الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء ممن يعيشون في المدينة، وكان لدي الوقت للتواصل مع العديد منهم. وفي وقت باكر من السنة الأولى، التقيت شخصاً يدعى بيتر كان قد ذهب إلى المدرسة برفقة صديقي القديم من الروضة والذي يدعى جيسون. كان بيتر طالبًا مستجدًا في جامعة كولومبيا، ويعيش في الطابق الخامس في بناية شابيرو هول الواقعة عند تقاطع شارعي 115 وريفرسايد درايف، وذلك على بعد خمس دقائق سيرًا على الأقدام من مكان شقتي.

قلت له: "يجدر بنا أن نقيم معًا".

فرد موافقًا: "لنفعل ذلك".

ذهبت إلى حيث يسكن عدة مرات، والتقيت بعضًا من أصدقائه في جامعة كولومبيا. كانت جامعة كولومبيا إحدى جامعات رابطة اللبلاب[1]، ولكن لم يكن الأمر برمته مجرد اختبارات وواجبات بالنسبة إلى بيتر، إذ كنا نقضي ساعات في ممارسة لعبتَي دوم وديوك نوكم، وهما من ألعاب الفيديو.

كانت تقيم في الحجرة المقابلة لحجرة بيتر فتاة جميلة تدعى أفا برينت. كانت نحيفة، وذات شعر متموج وداكن. كما كانت ساحرة ولطيفة ومنفتحة على الآخرين من دون اندفاع أو صخب. وقد سمعت أنها متخصصة في مجال علم الأحياء.

وقد قلت لها ذات يوم بينما كانت تجلس في حجرة مشاهدة التلفاز الواقعة في الطابق الخامس، ممددة ساقيها على طاولة القهوة: "جوربان جميلان". فضحكت و لم تجب.

ثم فكرت في سري: *جوربان جميلان! حري بي التفكير في شيء أكثر ذكاءً وتأثيرًا لأقوله لهذه الفتاة.* وتعهدت في سري أن أختلق المزيد من الأعذار كي أحضر إلى حجرة بيتر. وبعد مضي أسبوع على مغازلتي الجوربين، رأيت أفا تجلس في حجرتها والباب مشرع، فأدخلت رأسي وسلمت عليها. وبعد أن تبادلنا مجاملات لطيفة، لاحظت كتابًا في خزانة الكتب الخاصة بها. كانت رواية توماس بينشون "*النداء على المجموعة رقم 49*"، والتي تدور حول زوجة من كاليفورنيا تدعى أوديا ماس، مات حبيبها

(1) رابطة اللبلاب: رابطة رياضية تجمع ثماني جامعات تعتبر من أشهر جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وأقدمها؛ وكلها تقع في الشمال الشرقي للولايات المتحدة. ويحصل أحياناً خلط بين الجامعات المتميزة في الهندسة- والتي يتصدرها معهد ماساتشوستس للتقنية وجامعة ستانفورد وغيرها- وبين رابطة اللبلاب.

السابق الثري، وتركها كمديرة شريكة في ممتلكاته. ثم ما لبثت أن اكتشفت ما قد يكون أو لا يكون مؤامرة عالمية، وأماطت اللثام عنها.

"هل تقرئين هذه؟". سألتها ومددت يدي وأخذت الكتاب عن الرف.

"أجل".

"هذه الرواية كانت غنية بالمعرفة بالنسبة إلي".

فوافقتني الرأي وقالت: "إنها رائعة".

لم يكن أحد من معارفي قد قرأ هذه الرواية من قبل، ناهيك عن وصفها بالرائعة.

سألتُ أفا: "إذاً، هل كان حبيبها عميلاً سريًا، أم المرأة مجنونة؟".

فردت قائلة: "كلا الاحتمالين واردان. الغموض هو ما يجعل هذه الرواية مثيرة للاهتمام".

لم تكن لدي أي فكرة عن كيفية تحوّل هذا الأمر إلى درس قوي في الحياة، ولكنني أتذكر بالضبط ما كنت أفكر فيه حين وقفت عند عتبة بابها وتناقشنا حول حقبة ما بعد الحداثة الخاصة ببينشون. *عجبًا! إنها ذكية وجميلة وتقرأ لبينشون؟* قد يكون هذا أمرًا جيداً.

ربما كانت هذه هي الطريقة التي ينشأ عليها الشباب في نهاية المطاف. فقد كان لدي عقل نشط، ولكن لم يجذب اهتمامي أي شيء سوى هوسي العجيب بالعتاد العسكري، ثم جاءت أفا. كانت فتاة يمكنني التحدث إليها. لم تكن تذهب إلى الجامعة لتخوض "تجربة الكلية" فقط، بل كانت في الواقع تذهب إلى هناك للدراسة واكتساب العلم. وقد ساورني شعور بأنها ربما تكون معجبة بي.

سألتها عن تاريخ ميلادها.

فقالت: "الرابع عشر من فبراير".

لا بد أن لذلك معنى، أليس كذلك؟

عقدنا اتفاقًا في تلك الليلة؛ فسنجتمع في يومَي ذكرى ميلاد كل منا، اللذين يفصل بينهما شهران. وقلت لها حينها: "لا يتعين أن يقضي أي منا ذكرى ميلاده وحيدًا".

بدأ وضعي المادي يتحسن؛ هكذا ظننت.

كان أول موعد حقيقي بيننا في الثاني عشر من فبراير من العام 1995، وقد تم في مطعم صيني أحبّته، واسمه *إمبراطورية زوشان*، ويقع غرب الشارع "ستة وتسعون". وفي موعدنا الثاني، أخذتها إلى مكان إيطالي أحببته، ويقع بالقرب من مجمع صالات السينما أوف برودواي غرب الشارع "اثنان وأربعون".

أخبرتني عن أبحاثها، وسألتني عما كنت أقرأه، فأخبرتها أنني منهمك في قراءة كتب حديثة عن حرب فيتنام. وكنت حينئذٍ أتلقى مقرراً عن مجزرة ماي لاي. ورغم كوني من أصول باكستانية- كما قلت لها- إلا أنني لم أكن مهتمًا بالحروب والاضطرابات السياسية التي تسود الشرق الأوسط. "أهتم بالمشكلات العالمية الكبرى على الأغلب؛ أي الحرب الباردة والاتحاد السوفييتي. أما الشرق الأوسط فلا يثير فضولي".

تبيّن أننا نتشارك الاهتمامات نفسها تقريباً. كانت أفا قد وُلدت في المدينة وانتقلت مع عائلتها إلى وستشستر. لكنّ والديها كرها الضواحي، فعادا إلى المدينة قبل عام من انتقال عائلة جمالي إلى الضواحي. وقد أمضينا كلانا مرحلة الروضة في المدينة؛ هي أمضتها في مدرسة بانك ستريت، فيما كنت أنا في مدرسة كالهون. وكانت أربعة شوارع تفصل بين مسكنينا. في فصل الصيف الذي تلا الصف السابع، كدنا أن نلتقي في مخيم باك روك الصيفي الذي أقيم في ملفورد في ولاية كونكتيكت. وكان السبب الوحيد

الذي حال دون لقائنا في المخيم هو أنني أرسلت إلى البيت بعد أن أصبت بالجدري خلال الدورة الأولى، وقد جاءت هي في الدورة الثانية.

قلت لها: "أتذكر ذلك الصيف. كنت أتناول البرغر، وأحاول ألا أحك حبات الجدري، وأستمع إلى أغنية من ألبوم *صباح الخير يا فيتنام*. وكان لويس أرمسترونغ يغني: *يا له من عالم جميل*. وما انفككت أستمع إلى تلك الأغنية مرارًا وتكرارًا، وكنت حينها في الثانية عشرة من العمر!".

لم تسخر من سلوكيات طفولتي الغريبة. والآن، بتنا نخرج معاً على بعد مبانٍ قليلة من حيث التقى والداي قبل ثلاثة عقود.

وقد قالت أفا عندما أخبرتها بذلك: "هذا غير مريح نوعًا ما".

فقلت: "أعرف ذلك، ولا أكترث".

وعلى الرغم من كل القواسم المشتركة التي كانت بيننا، إلا أن أفا كانت من عدة نواحٍ على النقيض مني تمامًا. فقد كانت مثقفة وذات عزيمة كبيرة، كما كانت طالبة متفانية بشكل لا يصدق. كانت تعمل في أحد المختبرات، وقد درست سبعة مقررات في فصل دراسي واحد؛ بما في ذلك مقرر حول علم الأحياء التطوري، وآخر حول جيمس جويس.

تطورت العلاقة بيننا بشكل أكثر جدية. وفي بداية العام الثاني، انتقلت أفا من حجرتها في جامعة كولومبيا، وقسّمت وقتها بين مكان إقامتي في الشارع 112 وغرفتها القديمة في المنزل. ابتعنا سمكتين حين كنا معاً، فراني وزوي. وقد غيّرتُ شخصيتي وتصرفاتي قليلاً؛ فانتقلت إلى برنامج يمنح شهادة في كلية هانتر. لا أستطيع إنكار أن جدية أفا حيال دراستها كان لها تأثير فيّ. لم أكن مؤهلاً لدراسة سبعة مقررات في فصل دراسي واحد، ولكنني أثناء مراقبتي لها بدهشة كبيرة، علمت أنه بوسعي العمل بكدٍّ أكثر بكثير. كانت تكدّ في الدرس، وتحقّق تقدمًا، وتثير إعجاب معلميها؛ ناهيك

عن إثارة إعجابـــي، كما كانت تحصل على علامـــات رائعـــة بشـــكل لا يصدق. و لم تحاول أن تُثير غضبـــي حيال هذا. ولكنني لاحظت الفرق بيننا.

بدأت أفكر تدريجيًا: *ربما كان بإمكاني تحقيق إنجاز أكبر هنـــا. وربمـــا استطعت تحقيق الوعد الذي قطعته منذ زمن طويل. ربما كان بوسعي بـــذل المزيد من الجهد.* وفي خريف العام الثاني، وباستخدام الآلة الكاتبة الموجودة في شقة والدَي أفا، وفيما كانت هي تجلس على الكرسي المجاور لي، كتبت طلبًا للالتحاق بجامعة نيويورك. وفي فصل الربيع من العام نفسه، علمـــت أنـــني قُبِلت، وحصلت على موافقة سريعة للحضور في بداية السنة الجديدة.

فما الذي حفزني أخيرًا؟

أردت أن أُسعد أفا، وأن أُظهر لها أنني لست مجرد صـــعلوك ســـاحر. ولكن، كان هناك أيضًا شيء ما في داخلي، صوت بذلت قصارى جهـــدي لكتمه، صوت تظاهرت طوال فترة وجودي في المدرسة الثانوية- بل وحـــتى قبلها- أن لا وجود له. والآن، مع تركيزي اهتمامي على أكثر شـــابة ذات عزيمة التقيتها على الإطلاق، كنت أخيرًا على استعداد للاستماع إلى ذلـــك الصوت. وقد قال: "حان الوقت للكف عن الاختباء. حان الوقت للمضـــي قدمًا واتخاذ سبيل نحو نهاية ما. حان الوقت للكف عن العبـــث". فأجبـــت الصوت برسالة شديدة اللهجة: "لا تفسد هذا الأمر".

الفصل الرابع

أميركا تتعرض للهجوم

أدركت أن مستقبل أفا واعد. لذا، لم أفاجأ كثيراً عندما علمت أنه قد عُرض عليها مكان في برنامج للدكتوراه انتقائي للغاية في جامعة هارفارد في مجال العلوم البيولوجية والطبية مع اهتمام خاص بعلم الوراثة. لم يشأ أي منا مغادرة نيويورك، ولكن جامعة هارفارد كانت في كامبردج في ولاية ماساتشوستس، وقد بدا لي أنه لن يتم نقلها من هناك. لذا، قمت أنا وأفا بتحميل سيارة الفايرهوك الخاصة بنا بالأغراض، وتوجّهنا إلى التقاطع 95 والحماسة تتملكنا لخوض هذه المغامرة الجديدة معًا.

عثرنا على شقة مريحة في الطابق الثاني في بناية في شارع كوينزبيري في بوستن فيناواي. انغمست أفا في برنامج الدراسات العليا، فيما كنت محظوظًا بالحصول على وظيفة في مجال البرمجة في جامعة هارفارد.

لا يُعرَف عن المبرمجين الاستيقاظ باكراً. فالساعات التي ينشطون فيها تمتد من الظهيرة إلى الساعة الثانية من بعد منتصف الليل. ومعظم المبرمجين الذين عملت معهم كانوا يعملون لساعات طويلة جدًا. ولكن حتى في الشركات الكبرى والجامعات الرئيسة، بالكاد كان المبرمجون يبدأون عملهم قبل التاسعة أو العاشرة صباحًا.

ومثلما حدث معي في العديد من الأمور في حياتي، لم أتكيف في ذلك المكان إطلاقاً. كنت أحب الاستيقاظ باكرًا، لذا كنت أتناول الفطور مع أفا قبل الفجر، أي قبل أن تهرع إلى مختبرها، ثم أتجه إلى مكتب أنظمة المعلومات الخاص بالجامعة والواقع في شارع كامبردج 1730، وكنت أصل في حدود السابعة والنصف أو السابعة وخمس وأربعون دقيقة. كنت أندفع إلى داخل المبنى، وآخذ كوبًا من القهوة من حجرة الطعام، ثم أصعد الدرجات نحو المركز الرئيس لمكتب أنظمة المعلومات الموجود في الطابق الثاني. ثم كنت أشق طريقي متجاوزًا المقصورات الفارغة والشاشات المظلمة كافة، وأمر قرب الكراسي القماشية ولوحة لعبة الأسهم المعلقة على الحائط، ثم قرب السيارات التي يتم التحكم بها عن بعد، وأطباق مليئة بسكاكر تويزلارز، متجهًا نحو الجانب الأبعد من منطقة العمل الواسعة. وكنت أستقر جالسًا على الكرسي المريح من ماركة آيرون الموجود في مقصورتي، ثم أمضي ساعتين هادئتين في كتابة شيفرات البرمجة قبل أن يصل بقية الحيوانات.

كان المكتب بالأساس أخوية للحمقى، وذا أجواء رتيبة وسط ضغط العمل. كانت هذه جامعة هارفارد، ولكنها لم تكن ذات أجواء متكلفة. فلو ارتديت بنطالاً ضيقًا وقميصًا ذا أزرار في المكتب، لسألني الناس على الفور: "هل أنت ذاهب إلى حفلة زفاف أم لديك مقابلة عمل؟". والأشخاص أنفسهم الذين قدموا الدعم الفني لهذه الجامعة العريقة كانوا أيضًا يعبثون بحواسيب بعضهم بعضاً، فيستبدلون كل الأيقونات بصور لبطل فيلم *باي واتش* ديفيد هاسلهوف وهو مبتسم. وبين الساعة الثامنة والنصف والتاسعة، وقبل مجيء معظم الموظفين، كنت أعود إلى الأسفل لأتحقق مما إذا كان أحدهم قد وصل باكرًا.

بدأ يوم الحادي عشر من سبتمبر من العام 2001 مثل أي يوم آخر في المكتب. ولكنني عندما تجوّلت في الأسفل قبل دقيقة أو اثنتين من الساعة

التاسعة صباحًا، لاحظت أشخاصًا متحلقين حول عدة شاشـــات في نهايـــة الحجرة. وعلى الرغم من أنني كنت على مسافة بعيدة تمنعني من تبين الوجوه، إلا أنه لم يكن من الصعب عليّ ملاحظة كيفية وقوف الجميع بلا حراك.

وعندما اقتربت، لم ينظر أي منهم إليّ؛ إذ كان انتباههم مركزًا بشـــدة على تمكنت من رؤيته حينها، وهو شعار موقع شبكة سي أن أن مع عنـــوان بالحجم الكبير *طائرة تصطدم بمركز التجارة العالمي*.

كان الخبر لا يزال عاجلاً وقتئذٍ، ومن دون أي إيضاحات. ولم يؤكـــد الحادثَ أي تسجيل؛ إذ لم يكن هناك سوى القليل من التفاصيل. ولم يكـــن أحد قد قال بعد ما إذا كان هذا حادثًا عرضيًا أو شيئًا أكثر إثارة للرعـــب. وكلّ ما نُقل في ذلك الحين هو أنه عند الساعة الثامنة وست وأربعين دقيقة، وفي صباح مشرق وصافٍ، اصطدمت طائرة من طراز بوينـــغ 767 تابعـــة للخطوط الجوية الأميركية بالطابق العلوي للبرج الشمالي في مركز التجـــارة العالمي الواقع في مانهاتن الصغرى. وقد وصلت سيارات الإسعاف، وكـــان عدد الوفيات كبيرًا.

ولدى معاودتي التفكير في الأمر الآن، أتمنى لو أنني قلت شيئًا ذا مغـــزى أو بليغًا أو عميقًا. ولكنّ كل ما قلته حينها: هو "تبًا!". ثم كررتها مجـــدداً: "تبًا!".

كان ذلك بداية الأمر فقط. فبعد فترة وجيزة من انتشار الخبر المفـــزع، أدركنا أن هناك الكثير مما لم نكنْ نعرفه. مثل أن الطائرة كانت قد أقلعت من مطار بوسطن لوغان الدولي الواقع على بعد أميال قليلة فحسب من مكـــان متابعتنا للحدث، وكانت متجهة إلى مطار لوس أنجلوس الدولي. وأنه بعد ربع ساعة من إقلاع الطائرة، قام خمسة أعضاء من تنظيم القاعدة بالسيطرة على قائد الطائرة والضابط الأول مستخدمين أدوات لفتح الصناديق. وأن أحـــد

الخاطفين، محمد عطا، قد سيطر على الطائرة وحوّل وجهتها جنوبًا نحو نيويورك. وأنه بعد مرور 102 دقيقة على الاصطدام، سيسقط البرج الشمالي أرضًا مخلفًا نتائج مدمرة. وأن هذه الطائرة واحدة من أصل أربع طائرات تعرضت للاختطاف في صباح ذلك اليوم، واثنتان منها أقلعتا من بوسطن، وأن نهاية كل منها كانت مفزعة.

عندما اصطدمت الطائرة الثانية بالبرج الجنوبي بعد سبع عشرة دقيقة مليئة بالرعب، علمنا أن الأمر ليس مجرد حادث عرضي. إذ كان هجومًا منسقًا على أميركا. إلا أن ما كان اليوم بأكمله يخبئه انكشف رويدًا رويدًا لي وللآخرين. كانت لدينا شاشات تلفاز مثبتة في أرجاء المكتب. ولكن كل ما كانت تعرضه هو أن ثمة ضغطًا على الشبكة والخادم، لذا لم يكن هناك بث مباشر. فمع ازدياد دخول العديد من الأشخاص حول العالم إلى الإنترنت لمتابعة تطورات الأحداث، بات تحديث موقع شبكة سي أن أن بطيئًا أكثر فأكثر. وبعد دقائق قليلة، ما عاد بالإمكان الدخول إلى الموقع. وحتى في ذلك الوقت، أدركت كيف يبدو الأمر مثيراً للسخرية، أي أن تكون في مركز التكنولوجيا التابع لأعظم جامعة على وجه الأرض، وفي أسوأ لحظة ممكنة، وتعجز تمامًا عن متابعة تطورات حادث يغير وجه العالم.

انتقلنا إلى حجرة الاجتماعات الواقعة في الطابق الثالث من المبنى، حيث عثر أحدهم على تلفاز ذي قاعدة كبيرة يعود إلى الثمانينيات بأذنين كبيرتين. شكرًا لله على زينيث.

وقتئذٍ، كانت الطائرة الثانية قد ارتطمت بالبرج الجنوبي، وكان التلفاز يعرض صورًا مباشرة لأشخاص فزعين يلوحون من الطوابق العليا للبرج بينما هرع رجال الإطفاء إلى داخل المبنى بالقدر نفسه من الفزع، قادمين من الشوارع التي تسودها الفوضى.

طوال ذلك الوقت، بدأ الموظفون بالظهور. كان بعضهم قد سمعوا بما جرى، فيما بعضهم الآخر لم يكن قد سمع بما حصل بعد. وأجهشت امرأة تدعى سوزان اعتادت على العمل في مركز التجارة العالمي بالبكاء وهي تفكر في كل الأشخاص الذين عرفتهم ولا يزالون يعملون هناك. وقد ذكر شخص آخر أن ستة من العاملين ضمن فريق خدمات المعلومات كان من المقرر أن يسافروا من مطار لوغان في صباح ذلك اليوم لحضور مؤتمر ما.

وتساءل أحدهم: "هل من الممكن أن يكونوا على متن إحدى الطائرتين؟". ولكنّ أحداً لم يجب، فلا أحد يعرف الإجابة. كان الأمر مريعًا للغاية حيث من الصعب التفكير فيه.

اتصلت بأفا في المختبر ولكنني لم أتمكن من التحدث إليها. إذ كانت قد غادرت كامبريدج مستقلة سيارة الفايرهوك وأوقفتها في المرأب الواقع على بعد شارعين من شقتنا في شارع كوينزبيري. وبينما كنت أسير متجهاً إلى المنزل، رأيت زوجين شابين يقفان على الرصيف ويضعان درّاجتين مخصّصتين لتسلق الجبال في سيارتهما. هل كانا غافلين تمامًا عما يجري؟! هل ينويان التوجه إلى الريف للهرب بسبب شعورهما بالفزع؟ لم أكن واثقًا من السبب، ولكن خيل إليّ أنني أدرك دافعهما. في تلك الساعات الأولى، لم يكن الواقع قد مس حياة الجميع بعد. ليس بعد.

كانت الأجواء في المدينة غريبة تمامًا. إذ كان ثمة أناس يتجولون في الأنحاء، ولكن الجميع بدوا صامتين. وكانت السماء هادئة أيضاً؛ إذ لم تكن الطائرات سابقاً تتوقف عن التحليق فوق فيناواي بشكل متواصل، ولكن ليس في ذلك اليوم. وبدا جليًا أنه تم إغلاق المطار. نظرت إلى الأعلى فشاهدت مقاتلتين من طراز F-15 تحلقان على ارتفاع منخفض، ممّا أتاح لي رؤية الصواريخ المحملة عليهما.

حينئذٍ انفجرت في البكاء، وهو شيء لم أفعله على الأرجح منذ عشر سنوات. ها أنذا، ذكر بالغ وواعٍ لذاته، يبكي أثناء سيره على طول شارع كوينزبيري. لم آبه لمن رآني، وقد بكيت طيلة الطريق المؤدي إلى المنزل.

دخلت الشقة الفارغة وأغلقت الباب بعنف. كنت أجهل ما الذي سيحميني. كان ذلك تفكيرًا لا إراديًا. وأخيرًا، قمت بتشغيل تلفاز سليم، وكان الكابل يعمل بشكل مثالي. بدأت بالتنقل بين قنوات الأخبار المختلفة، سي أن أن وفوكس وأم أس أن بي سي، والمحطات المحلية الخاصة ببوسطن. وكانت كلها تغطي الحدث بلا انقطاع. بدأت بالاتصال بأشخاص في نيويورك، وبوالديّ في وستشستر، وببعض الأصدقاء الذين كنت أعلم أنهم يعملون في قلب مانهاتن؛ إذ شعرت بحاجتي للاطمئنان عليهم جميعًا.

كانت أميركا تتعرض للهجوم، ولم يعلم أحد على وجه اليقين من المسؤول عن ذلك. وقد وُضعت منشآتنا العسكرية حول العالم في الدرجة الثالثة من مقياس الجاهزية الدفاعية DEFCON، وهي أعلى حالة طوارئ نصل إليها منذ حرب أكتوبر التي اندلعت في العام 1973 بين مصر وإسرائيل. وعندما انهار البرجان، كانت القوات الأميركية تجري تدريبات عسكرية بالقرب من الحدود الروسية.

انخرطت بلادنا في العديد من الصراعات، وكان لدينا أعداء كثر على مر السنوات. ولكن عند وقوع هجمات سبتمبر، كان عدونا اللدود والأزلي هو الذي بادر بالاتصال. فقد اتصل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بنظيره الأميركي جورج دبليو بوش. كان الرئيس الأميركي على متن طائرة *سلاح الجو واحد* عندما تلقى الاتصال. وقد عبّر بوتين عن تعازيه وتضامنه مع أميركا في مواجهة أعمال الإرهاب الوحشية. وقد أخبر بوش أنه بالنظر إلى ما قد حدث للتو ستنسحب القوات الروسية على الفور.

وفي وقت لاحق، تحدث بوش بامتنان عن مكالمة بوتين، قائلاً إنه في ظل أي ظروف أخرى، كان تواجدنا العسكري المكثف سيسبب "توترًا لا يمكن تجنبه". لكن مكالمة بوتين كانت "لحظة أكدت لي بوضوح أنه يدرك أن الحرب الباردة قد انتهت".

كانت الأفكار تتسارع في عقلي، ولكن لم تكن أي منها تبشر بالخير.

وأخيرًا، عادت أفا إلى البيت وسألتني: "هل الوضع سيئ؟".

فأجبتها "إنه سيئ".

حدقنا إلى التلفاز، وأجرينا اتصالات هاتفية طوال فترة ما بعد الظهيرة. وأخيرًا، التقطت أنفاسي.

وخلال ساعات قليلة، انتقلت من عدم التفكير إطلاقاً بسلامتي أو سلامة أحبائي أو استقرار المجتمع الأميركي إلى التفكير في شيء تافه آخر.

ولو أخبرني أحدهم في تلك اللحظة أن الكنديين قد سلحوا أنفسهم واستولوا على أميركا، لكنت قد قلت: "ولِمَ لا؟"، فقد بدا أي شيء- وكل شيء- محتمل الحدوث. فمن باستطاعته أن يعرف ما هو الأمر الطبيعي بعد الآن؟

عاصرت أفا الهجوم الذي تعرض له مركز التجارة العالمي في العام 1993. وقد كانت حينها طالبة في مدرسة ستوفيسنت الثانوية الواقعة على بعد شوارع قليلة من مكان الهجوم. وقد شعرت أن هذا الهجوم الجديد الأكثر ترويعًا من سابقه قد مسها بشكل شخصي أكثر مني، وقالت إنها تشعر برغبة طاغية في العودة إلى مدينتها، وسألتني: "لماذا لا نزال في بوسطن؟".

في يوم الجمعة الواقع فيه الرابع عشر من سبتمبر، أي بعد ثلاثة أيام من وقوع الهجمات، قدنا سيارتنا الفايرهوك متجهين إلى الجنوب. كانت قيادة السيارة هي الخيار الوحيد المتاح لنا؛ فالرحلات التجارية كانت لا تزال

متوقفة، وقد قمنا بتشغيل المذياع طوال الطريق. وعندما توقفنا عند التقاطع 95، بدا لنا أن نصف الهرم السياسي الأميركي متواجد في الكاتدرائية الوطنية في واشنطن؛ بمن في ذلك الرئيس جورج دبليو بوش.

"نحن هنا في خضم أحزاننا". هذا ما قاله الرئيس للمحتشدين. و لم يكن بوسع أحد أن ينكر أن تعافي أميركا من الصدمة يحصل باضطراد، وذلك في المراحل الأولى التي تلت الهجمات. وفي فترة ما بعد الظهيرة من ذلك اليوم، طار بوش إلى نيويورك. وقد وصل الرئيس إلى منطقة البرجين بالضبط بينما كنا نتجه إلى طريق ويست سايد السريعة نحو حي أبر ويست سايد. وقد رفعت صوت المذياع عندما بدأ بالتحدث مجددًا.

وقد قال عبر مكبر الصوت لمجموعة من عمال البناء والإنقاذ في موقع الانهيار: "أريد منكم جميعًا أن تعلموا أن أميركا اليوم تجثو على ركبتيها وتدعو من أجل أولئك الذين فقدوا حياقم هنا، ومن أجل الموظفين الذين يعملون هنا، ومن أجل العائلات التي تنتحب". ثم أضاف: "إن الأمة تقف إلى جوار أهالي مدن نيويورك ونيوجيرسي وكونكتيكت الصالحين، والحزن يعتصرنا لخسارتنا الآلاف من مواطنينا".

في تلك اللحظة، تعرض الرئيس للمقاطعة، إذ صاح أحد عمال الإنقاذ من الخلف: "لا يمكنني سماعك!".

فرد بوش عبر مكبر الصوت: "أنا يمكنني سماعك! يمكنني سماعك! بقية العالم يسمعك! وأولئك الذين أسقطوا هذين البرجين، سيسمعوننا جميعًا عما قريب!".

فانفجر العمال بالهتاف بصوت صاخب: "تحيا الولايات المتحدة الأميركية! تحيا الولايات المتحدة الأميركية! تحيا الولايات المتحدة الأميركية! تحيا الولايات المتحدة الأميركية..." وظلوا يرددونها لفترة طويلة.

بعد أن خرجنا من الطريق السريعة ودخلنا شوارع حي أبـــر ويســـت سايد، بدت بوسطن كما لو أنها تبعد آلاف الأميال عما يجري في الواقـــع. وقد أدركنا- أنا وأفا- أننا سنضطر إلى العودة إلى نيويورك بين حين وآخر.

وفي الصباح التالي، غادرنا شقة والديها، وبدأنا مسيرة طويلة إلى قلـــب المدينة. لم تكن الشوارع فارغة أو يسودها الصمت، ولكن الجميع بـــدوا في الحالة المزاجية نفسها؛ إذ كانوا يشعرون بالانزعاج. وكلما اتجهنا جنوبًا، بدا كل شيء أكثر غرابة. في الشارع "ثلاثة وعشرون" انعطفنا غربًا، وسرنا عند حافة تشلسي وغرين وتش فيلاج الواقعتين على طول الواجهة المائية لنـــهر هادسون.

حينئذٍ، أصبحت الرائحة قوية. كنا نعرف أن الحفرة لا تزال ملتهبـــة، وأنها ستظل كذلك لأسابيع أخرى. تطايرت الشظايا وقصاصات الـــورق في الهواء، وكانت رائحتها نفاذة، وكانت السماء مشبعة بالضباب. أثناء سيرنا في تلك الشوارع، احترقت عيوننا، وكذلك رئاتنا.

سرنا صامتين معظم الطريق، و لم نتبادل الحديث إلا نادراً. كنا تـــائهين تمامًا في أفكارنا.

كنا قد سمعنا عن الإجراءات الأمنية المشددة، وافترضنا أننا عندما نصل إلى شارع هيوستن أو شارع كنال، فسيعيدنا رجال الشـــرطة أو الحـــرس الوطني. ولكنّ أحدًا لم يوقفنا أثناء سيرنا عند حافة طريق ويســـت ســـايد السريعة.

واصلنا السير جنوبًا حتى وصلنا إلى مدرسة أفا الثانوية القديمـــة. خـــارج مدرسة ستوفيسان، ت كان ثمة طابور من سيارات شرطة نيويـــورك المحطمـــة متوقفة في الشارع. وكان بعضها قد نُزعت منه النوافذ. وكانت جميعها مغطـــاة بالغبار. كما كانت ثمة سيارة إطفاء متوقفة، وبدت وكأنه قد عفا عليها الزمن.

كانت أفا تعرف هذا الحي جيداً. سرنا شرقًا ثم شمالاً ثم غربًا فجنوبًـــا. ومن حيث وقفنا، كان بوسعنا أن نطلّ بشكل مباشر على الحديد المـــنحني وكومة الأنقاض الضخمة التي تشكلت بفعل انهيار الأبراج. وكان يقف هناك أربعة رجال من الحرس الوطني يحملون بنادق ويضعون أقنعة واقية من الغاز، وقد بدوا يافعين للغاية وخائفين حقًا؛ وكذلك نحن.

انعطفنا جنوبًا، ثم عدنا إلى شارع كنال.

في شارع كنال، كان ثمة طوابير طويلة لأشخاص يحـــاولون التوجـــه جنوبًا، ولم يكونوا مدركين أنه بإمكانهم الالتفاف وتجاوز الحواجز.

واصلنا السير شمالاً حتى وصلنا إلى ميدان واشنطن، فتوقفنا أخيرًا عـــن السير وبدأنا نتحدث.

فقد قالت أفا: "تبدو المدينة كما لو أنها خالية من الناس، وكأن المدنيّـــة قد زالت هنا".

فقلت لها: "اللافتات هي أكثر ما يزعجني حقًا". ففي كل أرجاء مانهـــاتن الصغرى، قام أشخاص فزعون بتعليق ملصقات، وهم يبحثون بيأس عن معلومات تخص أصدقاء أو أقارب مفقودين. كنا نعرف بالفعل أنه لن يتم العثـــور علـــى معظمهم أبدًا. بعد ذلك اتجهنا غربًا فجنوبًا في طريق عودتنا الطويلة إلى البيت.

بعد أن عبرنا مستشفى سانت فنسنت، رأينا أشخاصًا مصطفين للتبرع بالدم. كان ذلك هو المستشفى الذي تم نقل النـــاجين إليـــه؛ إلا أن غرفـــة الطوارئ كانت هادئة بشكل موحش في ذلك اليوم.

وعند اقترابنا من الشارع رقم "أربعة عشر"، سرنا جنوبًا مع أربعة مـــن رجال الإطفاء يرتدون زيًا لم يبدُ مألوفًا. فعلى ما يبدو، لم يكونوا من إدارة الإطفاء التابعة لنيويورك. سألنا الرجال عن المكان الذي أتوا منه.

فقال اثنان منهما: "من أستراليا".

بينما قال الآخران: "سان برناندينو، كاليفورنيا".

"شكرًا لكم، شكرًا لكم". قلت لهم جميعًا بينما كنت أصافحهم.

لا يستطيع المرء إخفاء إعجابه بهم؛ فكل هؤلاء الأشخاص أتوا من أماكن بعيدة جدًا وبأقصى سرعة؛ لا لشيء إلا بهدف المساعدة، حاملين معهم موهبتهم وخبرتهم وطاقتهم ودافعهم.

ماذا بوسع أي كان أن يقول سوى *شكرًا*؟

كانت تجربتي مع الحادي عشر من سبتمبر شبيهة بتجربة العديد من الأميركيين. عاد أحبائي إلى بيوتهم سالمين في ذلك اليوم، بيد أن كل أمر صغير تمّ تضخيمه. كان الخوف والقلق واضحين، وكانت الهواتف النقالة تعمل بشكل متقطع فقط، وكان العديد من الأشخاص في نيويورك- ممن عجزوا عن العودة إلى منازلهم- يبيتون مع أصدقائهم أو زملائهم في العمل. وقد استغرق الأمر منا عدة أيام قبل أن نعثر على ابن عمي جي دي الذي كان يعمل في الحي المالي. كان بخير، لكنّ اختفاءه أثار قلقنا بشدة.

أدركت في صباح ذلك اليوم أنه لا وجود لما يعرف بالأمن في هذا العالم. فالشرنقة التي كنت أعيش داخلها، وتجنبي الانضمام إلى برنامج تدريب الطلاب للالتحاق بالجيش، وعملي في جامعة هارفارد في وجود الأطباق المليئة بالسكاكر وكراسي أيرون، وشقتنا الدافئة الواقعة في شارع فيناواي، والعمل اليسير والمهنة الآمنة التي أمارسها، والمرتب اللائق والسيارات الجميلة؛ لا شيء منها يضمن سلامتنا. فقد يتغير العالم بشدة في طرفة عين. في الواقع، لقد تغير للتو.

كان هذا ما شعرت به، ثم بدأت أفكر: *ما الذي يمكنني فعله بحق الله؟* إذ كان لديّ شعور بأن ثمة عملاً حقيقيًا من الممكن إنجازه هناك في مكان ما، بينما كنت أجلس أنا في المنزل مشاهدًا التلفاز.

قلت لنفسي: "أريد أن أكون جزءًا من هذا. أريد أن أشعر بأنني أساهم بشيء ما هنا. أريد أن أشعر بأنني أجعل من هذا العالم مكانًا أكثر أمنًا، ولا أود الجلوس على مقاعد المتفرجين بعد الآن".

وخلال الشهور اللاحقة، أتممت التحول الكامل من شخص استمتع بحياته إلى شخص يدرك أن ثمة شيئًا يريد أن يكون جزءًا منه. ولكن، كان السؤال الوحيد: كيف السبيل إلى ذلك؟

الفصل الخامس

أحلام البحرية

كان الأمر سيتطلب مدة أطول مما أرغب كي أتمكن من إحداث تلك التغييرات في حياتي.

بقينا في بوسطن بينما كانت أفا تتقدم بثبات في برنامج الدكتوراه الخاص بها. وكان والداي يعملان بكدٍّ هناك في نيويورك؛ فيتوسعان في نشاط الشركة، ويستمتعان بحياتيهما في هاستنغز، ويشعران بالرضى عن كل ما أنجزاه بوصفهما أميركيين من الجيل الأول. بل إن والدي الباكستاني كان قد أصبح مواطنًا أميركيًا. وبالنسبة إليه، لم يكن ذلك تعبيرًا قويًا عن الوطنية الأميركية أو سؤالاً عن الهوية الوطنية؛ على الرغم من أنه أحب أميركا بالفعل. إذ كان قد أصبح مهتمًا بالسياسة المحلية في هاستنغز، وغضب كثيراً من زيادة الرسوم المفروضة على المدارس. وفي الحقيقة، لقد كره عدم تمكنه من التصويت في انتخابات البلدة. لذا، خاض اختبار الحصول على الجنسية الأميركية، وبالطبع تجاوزه بنجاح، وأدى القسم في أغسطس من العام 2001، وذلك قبل تحوّل ماهاتن الصغرى إلى موقع جريمة عملاق.

وفي الغالب، كان أصدقائي من المدرسة الثانوية والكلية يجنون المال من العمل في بورصة وول ستريت، أو يكملون دراساهم العليا. و لم يبدُ لي أن

أحدهم يشعر بأي ضيق بسبب حالة العالم. فإذاً، لَمَ كان هذا الشعور بالفراغ يتملكني!؟

لم يكن الأمر كما لو أن حياتي تضربها الفوضى، ففي الواقع كانت تسير على أحسن وجه. كنت بالكاد قد أكملت عامًا من العمل في هارفارد عندما تمّت ترقيتي من مبرمج في قسم الموارد البشرية إلى مدير لفريقي الخاص في قسم أنظمة المعلومات. وكانت تلك فرصة عظيمة بالنسبة إليّ وحدثًا جديدًا تشهده الجامعة. وبدا الأمر وكأننا ندير تجارتنا الخاصة تحت مظلة جامعة هارفارد. فقد أتيحت لنا الفرصة لكي نكون مبدعين ورواد أعمال. وفي الواقع، لقد تم تشجيعنا على ذلك. كان بوسعي إدارة فريقي كيفما أشاء. وإذا أبليت حسنًا في وظيفتي الجديدة، فسيكون لدي كل الحق في الاعتقاد أن هناك أمورًا أفضل تنتظرني في المستقبل.

كنت قد حصلت على تعليم جيد، وكنت مدللاً طوال حياتي، وكانت لدي كل المزايا التي يتمتع بها من يعيش في الضواحي الراقية في نيويورك. كما كنا- أنا وأفا- شابين نحبّ بعضنا، وكانت لدينا شقة جميلة وسيارة فايرهوك رياضية. وقد اشترينا سيارة عادية أيضًا من طراز Honda Civic موديل العام 1993 سوداء اللون، ويسهل ركنها، ومفيدة في الجولات السريعة في المدينة. شعرت أنني محظوظ بفضل كل هذه الفرص والمزايا، ولكن كيف تعاملت معها حقًا؟

لم أتعامل معها بشكل جيد بما يكفي. إذ لم يبدُ أي شيء أقوم به ذا أهمية على الإطلاق.

هل هذه حياة؟! أي بناء مواقع إنترنت لرئيس جامعة هارفارد لاري سومرز، وحضور اجتماعات لا تنتهي مع أناس يهوون الاستعراض ويناقشون مبادرات ما كنت لأهتم بها البتة. أهكذا أردت أن أمضي السنوات الأربعين

التالية؟! مختفيًا خلف جدران إحدى جامعات رابطة اللبلاب! كانت وظيفة لطيفة تعد بمستقبل مشرق، ومريحة إلى أقصى حدّ. ولكنني شعرت أنني لست في مكاني المناسب. كنت مثل بيتر غيبونز، المبرمج الساخط في فيلم *فضاء المكتب* الذي أخرجه مايك جادج. إذ يدرك بيتر في نهاية المطاف حقيقة وضعه ويقول: "ليس أمامنا الكثير من الوقت على هذه الأرض. ليس من المقدر لنا قضاء حيواتنا بهذا الشكل. ليس مقدرًا لبني البشر الجلوس في مقصورات صغيرة والتحديق إلى شاشات الكمبيوتر طوال اليوم". وقد كان محقاً؛ إذ شعرت أن حياتي بلا هدف تمامًا، وأنها لا تسير في الاتجاه الصحيح. ولكن هذا لا يعني أنني أعلم أين يكون الاتجاه الصحيح. لقد عرف جدي الأكبر أين يكون الاتجاه الصحيح. وكان يساورني شعور بأنني أهدر حياتي. وبكل تأكيد، سلطت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الضوء على ذلك. كانت حياتي تدور حول الأمن والراحة، وقد بدا لي حينها أن ذلك لم يعد لائقًا. كنت في الخامسة والعشرين من العمر، ولكنني كنت أتصرف كما لو أنني رجل مستقر وراضٍ عن نفسه في الأربعين من عمره. وتحتم عليّ القيام بتغيير ما.

ولكن، ماذا؟ وكيف؟ وأين؟

لم تلهب أحداث الحادي عشر من سبتمبر الشعور بالوطنية فحسب، بل ذكّرت الكثيرين أيضًا بأن ثمة فرصًا متاحة لفعل شيء ذي قيمة. وكلما فكرت في الأمر أكثر، أدركت أنه لا بد أن ثمة شيئًا أكبر وأكثر قيمة يمكنني فعله. وقد حصل ذلك عندما خطرت لي فكرة الانضمام إلى الاستخبارات البحرية.

لطالما قرأت الكثير عن الجيش. فمنذ أن كنت طفلاً، لهوت بدمى الجنود ونماذج الطائرات، كما أدمنت على مشاهدة أفلام الحروب والتجسس. وقد

لاحظت مؤخرًا أنني أغوص في هذه الأمور بشكل أعمق. وفي رحلات أيام السبت، كنت أذهب برفقة أفا إلى مكتبة بارنز ونوبل الواقعة في نيوتن، وكنت أختار الكثير من كتب العلوم السياسية؛ عناوين مثل *صدام: ملك الرعب* تأليف كون كوغلن. ولم تكن لأي منها علاقة بوظيفتي. كنت أحب فحسب أن أقرأ عن المغامرات التي تقع في أقاصي العالم، والأزمات الدولية المعقدة. وكنت أتخيل أنني منغمس في حدث عالمي عظيم من نوع ما، وأفكر في كيفية تعاملي مع المشكلات. كما قرأت عن قادة عظماء يواجهون بقرارات خطيرة. والتهمت الكتب التي حكت القصص السرية والتفاصيل الحقيقية التي لم تجد مكانًا لها في كتب التاريخ العادية. إذ أردت أن أعرف كيف استجاب أولئك القادة عندما واجهوا ظروفًا لا يمكن تصورها وأحكامًا مستحيلة. هل فعلوا الشيء الصحيح؟ هل أثرت اختياراتهم في مجرى التاريخ؟ هل تردد الرئيس كنيدي إبان أزمة الصواريخ الكوبية؟ كلّا. هل كان جدار برلين سيسقط من دون تدخل من رونالد ريغان؟ كلّا. هل كان اللواء ويستمورلاند استراتيجيًا عبقريًا، أم أنه أفسد تمامًا الحرب في فيتنام؟ كلا الأمرين. قمت باستخلاص كل تلك العِبر، وقيّمت نجاحات كل العظماء المزعومين وانكساراتهم. وعندما لم تكن أفكاري منصبة على الجيش الحقيقي، كنت مهووسًا بالقصص الخيالية. في عقلي الباطن، تعاقبت عليّ كل أنواع المسارات المجنونة. أي دور أرى نفسي فيه؟ بطل فيلم *"إنقاذ المجند رايان"*؟ أم بطل فيلم *13 يومًا*؟ هل كنت أملك موهبة التخطيط الاستراتيجي أم التكتيكي؟ هل كنت الشخص الذي يركل الأبواب ويقتل الناس أم الرجل الذي يجلس في الصفوف الخلفية ليضع قطع الأحجية معًا؟ كلا الدورين حاسمان. ولكنني كنت على يقين تام من أن مواهبي تكمن في الجانب العقلي.

كنت أشاهد تلك الأفلام، وأقرأ تلك الكتـــب، وأتقمـــص الأدوار في مخيلتي منذ أن كنت طفلاً ألهـــو بنمـــاذج طـــائرات Joe Skystrikers G.I. وملصقات جولي روجر الموضوعة على سترة الطيار الرمادية المموهة الخاصة بـــي. فعندما كنت طفلاً، كنت ألهو بتلك الألعاب قبل خلودي إلى النـــوم. والآن بعد أن كبرت وبات لدي أصدقاء يرتدون سترات حقيقيـــة خاصـــة بالقوات الجوية أو بوحدة الطيران التابعة للبحرية، بقي شيء وحيد من دون تغيير؛ وهو أنني اخترت ترك المغامرات الحقيقية لأشخاص آخرين.

ولكن، ليس بعد الآن.

كانت لدي خطة. وستبدأ بما أتقنه بالفعل، وهو استخدام التكنولوجيـــا لاكتشاف الأشياء. لو كانت ثمة مهارة أتقنها بشدة، فهي التنقيـــب عـــن البيانات. كنت آمل أن تعيدني قدراتي التقنية إلى حيث كان يفترض بـــي التواجد دومًا.

كنا لا نزال نستخدم محركات البحث البدائية؛ مثل ويب كرولر ودوغ بايل وآسك جيفز، وكنا نضع منشورات على المنتديات. كانت الإنترنـــت حينئذٍ تنمو ببطء، وقد أتاحت لنا التواصل مع أشخاص ما كان من المرجح قط أن نلتقيهم. أحالني شخص تعرفت عليه عبر غرفة دردشة تستخدم تقنية المحادثة المنقولة بالإنترنت IRC إلى موقع military.com، حيث قال إنه يمكنني الحصول على كل أنواع الاستشارات بشأن الالتحاق بالاستخبارات البحرية، ومن دون الانتظار لوقت طويل.

كان المدوِّنون على الموقع ضباطاً حاليين وسابقين ومجندين يعرفون قدرًا هائلاً من المعلومات. وما إن تأكدوا من أنني جاد حتى صاروا ودودين للغاية وعلى استعداد تام للمساعدة. لم أشعر بالخجل من الاستفسار، وقلت إنـــني أود أن أصبح ضابطًا في الاستخبارات البحرية، وذكرت أن لـــدي خلفيـــة

تقنية، وأريد العثور على وسيلة للالتحاق سريعًا. ذكر العديد من المدونين شيئًا ما يسمى برنامج *ضابط الخدمة المباشر* الذي لم أكن قد سمعت عنه قط. ولكنه بدا مثاليًا بالنسبة إليّ. كان البرنامج جزءًا من سلاح الاحتياط التابع للبحرية. لم يكن ذلك مسارًا وظيفيًا مناسبًا لشاب في الثامنة عشرة من عمره تخرج من المدرسة الثانوية للتو. إذ كان البرنامج مناسبًا لأولئك الذين امتلكوا وظيفة مدنية بالفعل، ولديهم مهارات خاصة ربما تحتاج إليها القوات البحرية؛ أي لعلماء فيزياء ومهندسين ومحامين ورجال دين وخبراء أرصاد جوية. كان بوسعي تخيل مذيعة نشرة الأحوال الجوية على التلفاز المحلي ضمن نشرة أخبار الساعة الحادية عشرة وهي تزيل مستحضرات التجميل عن وجهها بمنديل أطفال معطر وتهرع إلى القاعدة المحلية كي تخبر قباطنة المدمرات عن عواصف متوقعة. و لِمَ لا؟

ربما أنا لا أملك الخلفية اللازمة لتوقع أنظمة الضغط المنخفض، لكن متطلبات الالتحاق بالاستخبارات البحرية لم تكن محددة بشكل دقيق. كنت بحاجة فقط إلى "خبرة مهنية مدنية كبيرة في التخصصات ذات الصلة بالاستخبارات، أو المهن ذات الصلة بالإنترنت". قد يعني هذا أي شيء، أليس كذلك؟ علمت أنني أسير في الاتجاه الصحيح. كانت لدي المهارات الأساسية اللازمة للتجسس.

إذ كنت أقضي ساعات طويلة جدًا في مختبر الكمبيوتر في جامعة نيويورك. وحيثما كنت أعمل، كان يُعرَف عني أنني ملك عمليات البحث وتحويل الأفكار المبهمة إلى كود برمجي. وكانت تزين سيرتي الذاتية أسماء جامعات وشركات شهيرة- جامعات نيويورك وكولومبيا وهارفارد- تثير الإعجاب. و لم أكن مضطرًا إلى ذكر أوقاتي السيئة في هاكلي أو مغلف الشهادة الفارغ الذي حصلت عليه من هاستنغز. كنت أحد أولئك التقنيين الذين كان بوسعهم في

الواقع التحدث إلى الأشخاص على كلا جانبي العالم الرقمي؛ أي المبرمجين البارعين في فريقي والأكاديميين غريبي الأطوار من عملائنا. وأدركت أن وجود أصول باكستانية لدي لن يجلب الأذى. لم أكن أتحدث باللغة العربية، ولكنني على الأرجح قد أمر بشخص ما يتحدث بها عند ناصية الشارع.

سيطرت فكرة الالتحاق بالاستخبارات البحرية عليّ. إذ كانت جزءًا رئيسًا من استراتيجيتنا العسكرية. ولكن، لم يكن الهدف منها التفوق على العدو من ناحية العتاد، وإنما من ناحية الذكاء. وقد خُيِّل إليّ أن هذا واقع يمكنني التطور معه.

وبقدر ما داعبت الفكرةُ المراهقَ العاشقَ للمغامرة الذي يقبع في داخلي، أدركت أن كوني ضابط استخبارات بحرية في العالم الحقيقي لن ينطوي على مطاردات للسيارات، وعمليات إنزال سرية، وحكايات شبيهة بروايات جون لو كاريه، بل ستكون هناك عمليات بحث معقدة، وكتابة تقارير، وكل المهام المملة الأخرى. ولكن، لا بد أنها أكثر مرحًا وإثارة، وذات معنى أكثر بكثير من العمل في مختبر الحاسوب في إحدى الجامعات.

تعلمت قدر المستطاع عن الاستخبارات البحرية. وعلى افتراض قبولي في البرنامج، والأخذ في عين الاعتبار خلفيتي التقنية، إلى أي مدى قد يكون ذلك صعبًا حقًا؟ ألحقوني بدورة تلقين لبرنامج ضابط الخدمة المباشر في بنسكولا في فلوريدا. وفي اليوم الذي وقّعت فيه العقد، أصبحت ضابط خدمة كامل الصلاحيات وتابعًا لقوات الاحتياط التابعة للبحرية الأميركية. لم أكن بحاجة إلى أداء الخدمة الأكاديمية، أو الانضمام إلى برنامج تدريب الطلاب للالتحاق بالجيش، أو كلية الضباط المرشحين، أو الانتظار طويلاً لبدء المرحلة التالية من حياتي. وكما ذكر لي أحد المدونين على موقع military.com "ستكون مشغولاً في مهمتك الأولى، وسوف يؤدي الناس لك التحية".

كان ذلك التزامًا حرصت بشدة على القيام به. وقد توجّب عليّ الموافقة على الخدمة لثماني سنوات. وهذا يتضمن قضاء عطلة نهاية أسبوع واحدة كل شهر في التدريب، وقضاء أسبوعين في مخيمات صيفية. أو على الأرجح، وبالنظر إلى الطريقة التي تسير بها الأمور في عالم ما بعد هجمات سبتمبر، قضاء فترة تجنيد مطولة في قاعدة بحرية في الولايات المتحدة، أو في منطقة حرب في أفغانستان أو العراق، أو من يدري أين، أو ربما أقضي بعض الوقت في كلا البلدين؛ حسبما ذكر المدونون على الموقع. كان ذلك مسارًا مثاليًا بالنسبة إليّ، ومغامرة كنت أتوق لها وأنا جاهز تماماً لخوضها.

حين تستيقظ صباحًا ويكون لديك هدف محدّد فإن ذلك يمدك بنشاط لا حدود له. و لم يستغرق الأمر مني وقتاً طويلاً قبل أن أسعى خلف هدفي في الحياة.

قمت بملء نموذج "معلومات إضافية" عبر موقع برنامج التجنيد المباشر في البحرية. ونقرت على خيار "ضابط استخبارات". وبعد ذلك بيومين، تلقيت ردًا عبر البريد الإلكتروني من الملازم لينو كوفاروبياس، *الضابط المسؤول عن التجنيد في نيو إنغلاند في برنامج الخدمة المباشر، الذي كانت رتبته مماثلة للرتبة التي نقرت عليها، وقد بدا أنّ القوات البحرية كانت بيروقراطية مثلما كان الحال عندما انضممت إلى برنامج تدريب الطلاب للالتحاق بالجيش. قال الملازم إنه سيكون سعيدًا بلقائي. ولكن، يتعين عليّ أولاً حضور مؤتمر المعلومات الخاص بالتجنيد المباشر والمخصص للشعبة التي التحقت بها، الاستخبارات البحرية، في فورت ديفنس، وهي منشأة عسكرية خاصة بالضباط الاحتياط، وتقع بالقرب من وورشستر في ماساتشوستس، على بعد حوالي ساعة من شرق بوسطن. كما يتعين عليّ خوض اختبار بدني أساسي في إدارة الكشف الطبي والقبول MEPS، الواقعة جنوب بوسطن.*

وقد كتب القائد الملازم في رسالته: "سيتحدث في المؤتمر ضابط في الاستخبارات البحرية. وهذه أفضل وسيلة بالنسبة إليك للحصول على فكرة حول ما إذا كان هذا قد يبدو منطقيًا لك. أرسل لي رسالة عبر البريد الإلكتروني بعد المؤتمر إذا كنت لا تزال مهتمًا بالأمر. يمكننا أن نلتقي، وسوف أجيب عن أي أسئلة لديك، وربما أصطحبك لتناول الغداء".

فرددت بالقول: "عُلم".

أدركت أن المكان مزدحم عندما رأيت السيارات في موقف السيارات الخاص بقاعدة فورت ديفنس. كانت ثمة سيارة من طراز مرسيدس، وأخرى من طراز جاغوار، واثنتان من طراز بي إم دبليو. ولأنها متواضعة من ناحية السعر، أوقفت سيارتي الفايرهوك في الصفوف الأخيرة، ثم شققت طريقي نحو قاعة محاضرات مضاءة بالفلورسنت، وكان لا يزال هناك وقت فراغ أقضيه قبل أن تبدأ جلسة المعلومات عند السابعة مساء. لم أكن أول الواصلين، إذ إن مجموعة ممن بدا لي أنهم محترفون كانت قد تجمعت بالفعل، وكانوا حوالي الدزينتين من الأفراد، وكانوا في معظمهم رجالاً؛ باستثناء ثلاث نساء أو أربع أيضًا. قدمت نفسي وانضممت إلى نقاش كان يدور بين محامين وسمسار في البورصة ومدير مبيعات ومحاسب واثنين من موظفي الدرجة الوسطى. لم يكن أحد منهم كبيرًا في السن، ولكنني كنت من بين الأشخاص الأصغر سنًا الذين تواجدوا في القاعة، وربما من أقلهم نجاحًا. ولكن، منذ وقوع هجمات سبتمبر، شهدت البحرية الأميركية بعض التغييرات في طريقة التجنيد.

دلفت القاعة امرأة ترتدي بنطالاً وقميصًا كاكيي اللون وعرّفت عن نفسها. كانت قصيرة القامة وبدينة، وذات تسريحة شعر تلائم اعتمار الخوذة العسكرية. قالت إنها برتبة قائد ملازم في قوات الاحتياط التابعة للقوات

البحرية، ثم كررت معظم ما كنت قد قرأته على الموقع، ولكنها قالت ذلك فحسب وكأنها تحاول أن تقنعنا بألا نشغل أنفسنا بالتقدم.

"ربما كانت لديكم مفاهيم خاطئة عن حياة ضابط الاستخبارات. إذ لا يتعلق الأمر بالمغامرات ومطاردات جيمس بوند فقط. في الواقع، الأمر في معظمه لا ينطوي على أي مغامرات، فثمة الكثير من مهام جمع المعلومات، والكثير من التحليل، والكثير من عمليات التقفي لأشياء لا يود أعداء أمتنا أن نكتشفها".

صمتت قليلاً ثم واصلت كلامها: "ليست مهمّتي أن أعظّم عملنا، وإنّما إطلاعكم على الحقيقة. إن القوات البحرية تقدر اهتمامكم، ولكننا نودّ أن تقوموا بهذه المهمة- إذا قررتم أنكم تريدون القيام بها- وعيونكم مفتوحة على اتساعها. فنحن الآن في لحظة تاريخية". *إن إحدى الحقائق التي لا ينبغي لنا الاستهانة بها- حسبما ذكرت- هي احتمال تجنيدنا في أماكن بعيدة عن أميركا. "أعرف أننا نسميها قوات الاحتياط، وأعرف أن هذا يختلف عن الخدمة النشطة. ولكن، دعوني أحذركم، لم يعد ثمة شيء مثير بشأن قوات الاحتياط التابعة للبحرية. لا تنضموا إليها إذا كنتم غير منفتحين على فكرة انقلاب حيواتكم رأسًا على عقب".*

أدركت أنها ذكرت الأمر على سبيل التحذير. كانت القائد الملازم خبيرة في تثبيط حماسة أي شخص لم يكن متيقنًا بنسبة مئة وعشرة في المئة مما يريده. ولكنّ ما أدركته كان رسالة مختلفة، وفكرت مع سري: *أقلب حياتي رأسًا على عقب! بلى! ليت هذا يحصل!*

"إذا تم قبولكم في البرنامج، فثمة احتمال كبير بأنه سيجري استدعاؤكم للخدمة". وتوقّفت عن الكلام قليلاً بانتظار استيعابنا لما تقوله، ثم تابعت: "ثمة أثمان باهظة يتعين عليكم التفكير فيها بتأنٍ". *وبدأت بتعداد المخاطر المحتملة.*

"ثمة خطر يهدد وظائفكم وعائلاتكم ودخلكم؛ فالأشخاص الذين يعملون في وظائف ذات دخل مرتفع من المرجح جدًا تخفيض المقابل الذي يحصلون عليه". ولاحظت أن بعض الحاضرين بدوا عابسين. "لقد رأيت الكثير من السيارات باهظة الثمن تدخل موقف السيارات. إذا كنتم تعشقون تلك السيارات، فهذا البرنامج لا يلائمكم على الأرجح. لدينا هنا أناس كانوا يعملون سماسرة في البورصة؛ ممن يجنون ما بين أربعمئة إلى خمسمئة ألف دولار سنويًا. والآن باتوا يجنون سبعين ألفًا بوصفهم يحملون رتبة ملازم في البحرية. تأهبوا لذلك، واسألوا أنفسكم إن كان بإمكانكم القيام بذلك. لا بأس على الإطلاق إن قررتم أن هذا الأمر ليس ملائماً لكم".

لاحظت أن بعض الأشخاص في الحجرة يهزون رؤوسهم في عدم رضى، ويتحركون بتوتر على مقاعدهم. أما أنا فقد أومأت، وملت إلى الأمام وأنا أشعر بالإثارة.

كانت لدي بعض المخاوف بشأن حالتي البدنية، بل كانت مصدر خوفي الوحيد في الواقع. ففي نموذج الكشف الصحي الرسمي الخاص بالبحرية، كان بوسعي وضع إشارة على خيار "لا" في ما يتعلق بأمراض السرطان والقلب وقائمة طويلة من الأمراض المميتة وغير المميتة. كلا، لست مدمنًا على الهيروين والكوكايين أو أي مواد مخدرة أخرى! وكلا، لا أعاني من ورم في المخ! وكلا، ليس لدي قدم مفلطحة! ولكن في الحقيقة، لم يكن جسدي جميل الشكل. لم يختلف العمل في هارفارد كثيرًا عن العمل في العديد من الوظائف التقنية، فقد كنا نعمل لساعات طويلة. كنا نجلس في أماكن عمل مريحة على كراسٍ مريحة، وكنا بعيدين باستمرار عن إصابات الإجهاد المتكرر. وكنا نفرط في تناول المشروبات ذات نسب السكر والكافيين العالية. ونادرًا ما كان أحدنا يخرج لتناول الغداء؛ إذ كانت بيئة العمل بأسرها

مصممة لإبقائنا عند أو بالقرب من لوحات المفاتيح، وذلك لتحديث بنية النظام، وبناء الجيل القادم من مواقع الإنترنت، وكتابة سطور لا تنتهي من أكواد البرمجة. كانت علب الحلوى والسكاكر، وهمهمة آلات إعداد الكابوتشينو، وطاولة البوفيه المفتوح طوال اليوم مصممة للإبقاء علينا في أماكننا من دون أن يصيبنا الجوع. كان الغداء متاحًا لنا مجانًا في هارفارد، كما كانت وجبتا الفطور والعشاء مجانيتين أيضًا. وكانت بطوننا ونسب الكولسترول في أجسادنا هي التي تدفع الثمن.

علمت أن هذا الأمر قد يشكل مشكلة بالنسبة إليّ. لذا مباشرة بعد أن تلقيت رسالة البريد الإلكتروني من مسؤول التجنيد، وحتى قبل أن أذهب للاستماع إلى المرأة العظيمة التي حاولت ثنينا عن الالتحاق بالبحرية في قاعدة فورت ديفنس، ألزمت نفسي بحمية أتكينز الغذائية، وبدأت بممارسة الرياضة مجددًا. كان وزني يبلغ 177 رطلاً عندما بدأت، فيما يبلغ طول قامتي خمس أقدام وسبع بوصات. وقد أظهر مقياس نسبة الوزن إلى الطول أنه يجب عليّ إنقاص وزني ليصل إلى 168 رطلاً. وقد انشغلت في فعل ذلك على طريقة أتكينز. كنت آكل اللحم المقدد ولحم البرغر من دون خبز، وكميات هائلة من القرنبيط. وقد تجنبت تمامًا تناول الخبز والمعكرونة أو أي شيء غني بالكربوهيدرات، وبصراحة، تناولت القليل من الخضراوات. فما تنازلت عنه من حيث التنوع، عوضت عنه بثبات العزيمة. وفي الليلة التي سبقت الموعد المقرر في إدارة الكشف الطبي والقبول، أظهر الميزان أن وزني يبلغ 168 رطلاً.

وصلت إلى جنوب بوسطن عند الساعة الرابعة فجرًا. كان الوقت باكرًا جدًا؛ مما جعل أفا توافق على مرافقتي. وكانت قد استلمت للتو طلب إجراء عملية مراجعة لإحدى المقالات التي كانت قد أرسلتها إلى إحدى المجلات

العلمية، فقالت إنها ستنتظر في السيارة، وستؤدي العمل المطلوب منها هناك، بينما ذهبت أنا إلى الداخل ليتم تحسسي وتفحصي واختباري والصـراخ في وجهي. كانت أفا تشجعني، ولكن خُيِّل إليّ أنني رأيتها تتصـنع الابتسـام بسبب ما ورطت نفسي فيه.

جمعت المستندات التي كنت بحاجة إليه كلها- الفحص الصحي الخاص بـي، وبطاقة اللقاحات، ونسخة من شهادتي الثانوية، وبطاقة هوية صادرة عن إحدى الولايات- ثم غادرنا ناحية فيناواي عند الساعة الثالثة والربـع، واستقللنا سيارة الهوندا سهلة القيادة متجهين إلى جنوب بوسـطن. كانـت إدارة الكشف الطبـي والقبول تقع في شارع سامر 495، بالقرب من مدخل نفق تيد ويليامز.

"حظًا طيبًا". قالت لي أفا بينما كنت أقبلها.

لم أستطع تجاهل الفروق بين السيارات التي كانـت متوقفـة في موقـف السيارات. كان معظمها سيارات قديمة من طراز شيفروليه وتويوتا وفورد. كما شاهدت شاحنتين صغيرتين وشاحنات بيك أب قديمة. وبدلاً مـن السماسـرة والمحامين والمحاسبين، كان معظم الأشخاص الذين يتواجدون في حجرة الانتظار في سن الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وكان العديدون منهم يتحدثون عن الليلة التي قضوها في فندق Holiday Inn Express، على الأرجح إنها المرة الأولى الـتي يبيتون فيها بعيدًا عن منازلهم. كان بعضهم تتملكهم مشاعر مختلطة تجمع بـين الحماسة والهلع. كان هؤلاء الرفاق متواجدين هنـاك للانضـمام إلى القـوات البحرية الحقيقية. وعلى افتراض تجاوزهم مرحلة الكشف الطبـي والقبـول، فسيتم نقلهم في صباح اليوم التالي إلى مرحلة التدريب الأساسي.

بدا طاقم العاملين هنا مختلفًا أيضاً. فبدلاً من الضباط الصبورين الـذين يجيبون عن أسئلة السماسرة الساذجة، لم يبدُ لي أن طـاقم مـوظفي إدارة

الكشف الطبي والقبول الفطين سيتحملون أي شيء. ولو سلمنا جدلاً أن قاعدة فورت ديفنس كانت بمنزلة ضابط ولواء، فإن إدارة الكشف الطبي والقبول كانت بمنزلة مفرزة.

كنت أتنقل عبر فحوصات إدارة الكشف الطبي والقبول وكأنني سيارة تتنقل بين مراحل الغسل المختلفة؛ محطة تلو محطة، ولكل منها مزاياها الخاصة، لدرجة أنه تم فحص كل بوصة مربعة مني. فقد خضعت لكشف على العضلات، وكشف على المفاصل، كما أجري لي كشف على النظر، وعلى السمع أيضًا. ثم صعدت إلى الأعلى لسحب عينة دم مني، وأُجرِيت لي فحوصات دم وبول ومخدرات وكحوليات.

قال لنا أحد المراقبين: "سيروا مثل البطة". فأطاعه طابور كامل من المجندين، ونفّذوا ما قاله بالضبط، وساروا في الحجرة كالبط.

حملت حزمة أوراقي في مغلف مانيلا كبير، وتوجّهت إلى ركن فحص الوزن الذي تُرِك إلى النهاية. وكانت تلك هي المحطة التي يتملكني قلق شديد حيالها. وقف مجند يحمل مذكرة بجانب ميزان طبي من ماركة توليدو.

فقلت له وأنا أحاول رسم ابتسامة ساحرة على وجهي: "هنا حيث ينتهي كل شيء بالنسبة إلي. هل لديك أي نصيحة؟".

ولكن، لم يبدُ أن ما قلته قد سحره، فكل ما قاله لي هو: "اصعد". فصعدت على الميزان وأنا أتذكر كل شطائر البرغر واللحم المقدد التي التهمتها سابقًا.

قام بتحريك الذراع المعدنية إلى اليمين حتى توازنت على ما بدا بالضبط 168 رطلاً، ثم سألني: "إلى أين ستذهب؟".

فأجبته: "البحرية".

"إذًا، لا مشكلة لديك. سنعمل على تخفيض وزنك إلى 167 رطلاً".

ثم ختم بطاقتي وأمرني بالانصراف. كانت الساعة تشير إلى السادسة وخمس وعشرين دقيقة حين خرجت من هناك. وكان معظم سكان بوسطن لا يزالون مستغرقين في نوم عميق، فيما انتظرتني حبيبتي في السيارة لما يقارب ثلاث ساعات. لم أقوَ على الانتظار ريثما أخبر أفا أنني تجاوزت فحص الوزن. وكان لدي طلب وحيد: هل يمكننا رجاءً التوقف لفترة قصيرة في مخبز Au Bon Pain؟ وأخيرًا، باتت لدي مطلق الحرية لتناول الخبز المحمص الشهي مع جبن كريم البصل الأخضر.

وعندما سألتني عن كيفية سير الأمور قلت لها: "على خير ما يرام. ورجاءً، لا تطلبي مني أن أمشي مثل البطة".

الفصل السادس

القائد لينو

حلمت بأن أكون مثل لينو كوفاروبياس. أدركت ذلك بعد خمس دقائق فقط من جلوسنا معًا في مطعم Imperial Terrace الصيني الواقع في كوينسي في ماساشوستس. وحين سألته عن وظيفته السابقة في البحرية قبل أن يصبح مسؤولاً عن التجنيد أجاب:

"كنت ضابطًا في الحروب البرية. عملت في كل المجالات و لم أتقن منها شيئًا. وقد خدمت في البحرين المتوسط والأدرياتيكي، وعلى متن كل من الفرقاطات والسفن الحربية وحاملات الطائرات".

وهكذا، تحدث ببساطة ووضوح شديدين، وكأنه لم يكن بحاجة إلى تجميل كلامه أو التباهي حيال أي شيء، فأومأت له وأنا أتناول لفافات السبرنغ رول.

قال: "عندما تفجرت الأوضاع في منطقة البلطيق في أوائل التسعينيات، انضممنا إلى قوة حلف الناتو في محاولة لمنع تدفق الأسلحة إلى خارج كل من صربيا ومونتينيغرو. كانت الفكرة هي الحد من العنف بفرض رقابة على تدفق الأسلحة والذخيرة. كنا نفتش السفن، ونعترض تجارة الأسلحة القادمة من إيطاليا عبر السوق السوداء. ولكن بعض الأسلحة تسربت ليلاً على متن قوارب صغيرة تسير بسرعة ستين ميلاً في الساعة. لم نتمكن من إطلاق النار

عليها، ولكن تم إطلاق عشرات الطلقات في إحدى اللحظات. كنّا نركز على السفن الأكبر حجمًا التي كانت تنقل آلاف قطع السلاح. كان الشتاء صعبًا، وكانت أجواء البحر متقلبة للغاية، والريح تضرب بعنف من جهة جبال الألب. ولكننا نجحنا في التصدي لتدفق كميات كبيرة من السلاح خارج صربيا، يمكنني التأكيد على ذلك".

شعرت بالدوار، إذ كنت قد قرأت كل تلك الكتب التي تدور عن الجيش، وشاهدت مئات الأفلام والعروض التلفزيونية الحربية، وسمعت قصصًا وأنا صبي من جدي الفرنسي بشأن تجربته المروعة في الحرب العالمية الثانية، وخضت فترة قصيرة في فيلق تدريب قوات الاحتياط؛ بصرف النظر عما إذا كان الأمر يستحق ذلك أم لا. ولكن، لا شيء مما فعلته جعلني أشعر على هذا النحو؛ فقد كنت أجلس إلى طاولة في مطعم أمام هذا القائد الملازم في البحرية، ونجري حوارًا من رجل إلى رجل عن الحياة هناك.

قلت له: "لا بد أن ذلك كان مثيرًا".

فرد قائلاً: "أجل".

كنت قد نفّذت كل الخطوات التي طلب مني لينو القيام بها في رسالته. فقمت بملء حزمة من النماذج والطلبات، ووضعت إشارات في خانات "لا" حيث يجب، وقدت سيارتي الفايرهوك إلى مركز ضباط الاحتياط التابع لبحرية الولايات المتحدة والواقع في شارع سي 85. وعندها، حان الوقت للقاء الشخص الذي حدّد لي الخطوات التي ينبغي لي القيام بها.

كوينسي مدينة صناعية قديمة تقع على الساحل الجنوبي لبوسطن. وبالنسبة إلى شخص غريب عنها، لم تكن تبدو كثيرًا كمدينة قائمة بذاتها، وإنما بدت أكثر كحي آخر في بوسطن في طريقه إلى التجديد. كانت شوارعها متعرجة، وفيها منازل من ثلاثة طوابق، ومبانٍ كانت مخصصة لمصنع

وقد تم تحويلها إلى مكاتب وشقق. إلا أن كوينسي كانت لا تـزال لـديها هويتها الخاصة الراسخة. وكان كبار السن تروق لهم تسميتها "كـوينزي"؛ مستبدلين "س" بـ "ز". وقد سبق لي أن قرأت بشأن مكانـة كوينسـي في التاريخ الأميركي. إذ تم استعمارها في العام 1625، وقد حصلت على اسمهـا من قبل العقيد جون كوينسي، جد أبيغيل أدامز لأمها. كان زوجها جـون أدامز- الرئيس الثاني للولايات المتحدة- قد وُلد في كوينسي، تمامًا كما كان الحال بالنسبة إلى ابنهما جون كوينسي؛ حاكم ولاية ماساتشوستس المعروف لدى الأولاد بسبب توقيعه بخط سميك وجميل على إعلان الاستقلال.

لم يبدُ هذا الجزء من كوينسي ذا تاريخ عريق بالنسبة إلي. وكان النمط المعماري أشبه "بكتلة جمر كبيرة". تجاوزت مركزَي تسوق يضمّان محـلات بلوكباستر وماكدونالد وبيرغر كينغ وفريندلي. بدا المبنى بني اللون وذو الطابق الوحيد التابع للبحرية أشبه بالمدارس الثانوية التي خرجت من الخدمة. أوقفت سيارتي في موقف السيارات ومشيت إلى الداخل.

تقاسم المجندون المبنى مع أكاديمية شرطة النقل التابعة لهيئة النقل الخاصة بخليج ماساتشوستس. كان لمجندي الشرطة مدخل خـاص بهـم، ولمجنـدي البحرية مدخل آخر.

قلت لموظف الاستقبال: "أنا هنا للقاء القائد المـلازم *كافاروبيـاس*". وبذلت قصارى جهدي لنطق اسمه الأخير ذي المقاطع الصوتية الخمسة بشكل صحيح، فأومأ الموظف، واتخذت لنفسي مقعدًا.

انتظرت حوالي عشر دقائق بينما كان ذوو البذلات الزرقـاء يغـدون ويروحون من أمامي. لم يكن بوسعي تبيّن ما كانوا يفعلونه، ولكنهم بـدوا جميعًا مشغولين. حدقت إلى ملصقات التجنيد التي كانت تحمل صور شـبان وشابات ذوي هيئات لائقة يحدقون من على ظهر إحدى السفن، أو يقفزون

من المروحيات، أو يتنقلون بسرعة عبر الأمواج. كما كان بمقدوري سماع أصوات مجندي الشرطة عبر الرواق.

فجأة، دخل حجرة الانتظار رجل بدين الجسم. كان يرتدي زي ضابط كاكي اللون. قال لمرتدي البذلات الزرقاء بسرعة "صباح الخير"، ثم نظر إليّ. كان في مثل طولي، وذا شعر أسود كثيف فيه فرق من الجهة اليسرى. وقد عددت خمسة صفوف من الأوسمة على سترته. لم يكن بوسعي تبيّن أنواعها جميعًا، ولكنني رأيت شارة الأجنحة الفضية التي تُمنح للمظليين، ودبوس مجند، وشارة ذهبية تدل على خدمته في الحرب البرية.

قال لي بحماسة ملوحًا بيده اليمنى: "أنت، كيف حالك؟ أنا لينو. هل ترغب في تناول الغداء؟".

جذب حسه الودي والهادئ انتباهي بشدة، فقلت وأنا أنهض بسرعة: "أجل يا سيدي".

فقال لي مُنحيًا جانبًا كل مظاهر الرسمية: "نادني لينو".

فرددت: "حاضر يا سيدي، أعني لينو". كنت سأشعر بشكل أفضل لو ناديته "القائد الملازم".

سرنا مسافة شارع نحو المطعم الصيني الذي ربما كانت أجواؤه المريحة سبب اختياره له، وعلى الأغلب لم يختره بسبب البيئة المحيطة. كان المطعم مظلمًا، ومعظمه خاليًا. غير أن طاولة الطعام شملت كل الأطباق؛ هذا أفضل ما يمكنني قوله بشأنه. ملأ لينو طبقه بفطائر اللحم وشرائح السبرنغ رول، وفعلت أنا الشيء نفسه.

"إذًا، كيف التحقت بهذا المجال؟".

ثم بدأت بتناول الطعام، وبدأ لينو بالحديث. وحتى رغم الضوء الخافت، كان بوسعي رؤية الشحوم وهي تلمع على طبقه.

فقال مجيبًا عن سؤالي: "هذا ما أيقنت دومًا أنني سأفعله. ستلتقي بعض أعظم الشخصيات في القوات البحرية. إنه شيء تشعر بحق أنك جزء منــه. لقد قضيت أوقاتًا رائعة هناك". ثم بدأ بتعداد الموانئ التي زارها مع رفاقــه. "تولون في فرنسا، ملقة في إسبانيا، كورفو في جــزر اليونــان، وحيفــا في فلسطين المحتلة".

"هل كان الأمر رائعًا للغاية؟".

"أجل، كان كذلك. لا شيء في العالم يشبه أسطولنا البحري المرابط في المحيط الأطلسي وهو يصل إلى أحد الموانئ بعد أشهر قليلة من التجــول في البحر. فكما تعلم، نحن في البحرية نتميز بالانضباط. إذ لا يُسمَح لدينا بتناول الشراب على متن السفن. في حين أنه في العديد من القوات البحرية الأخرى، يسمح بتناول الشراب، أو مشاهدة فيلم ما، بل وحتى بالنوم طالما أن ساعات الخدمة قد انتهت. أما في البحرية الأميركية فلا يسمح بــذلك. ســتخرج لأسبوعين أو أكثر في البحر من دون أن يشتت انتباهك شــيء. إن فكــرة مقاطعة البحارة الأميركيين للشراب حقيقية تمامًا. وعندما تقضي يــومين أو ثلاثة في الميناء، فبإمكانك أن تحتسي الشراب بقدر ما تشاء".

بالطريقة التي تحدث بها لينو، جعل حتى الأمور السيئة تبدو جيدة. بدا لي أن حظر تناول الشراب على متن السفن- بصرف النظر عن المــدة- لــيس مشكلة كبيرة؛ وذلك عندما وصف روعة تلقي استدعاء من مينــاء آخــر. وأخبرني أن البحارة فعلوا على اليابسة أكثر من مجــرد احتســاء الشــراب والتسكع مع النساء والاسترخاء، فقد سعوا أيضًا إلى مساعدة الناس أينمــا استطاعوا.

"كنا نبني ملعبًا، أو نعيد ترميم دور الأيتام. وكنــا نُــدخِل المــال إلى المطاعم. كان الناس يقدرون عملنا. وفي أغلب الأماكن التي أُرسِلنا إليهــا،

كان الناس يشعرون بسعادة غامرة لدى رؤيتهم أسطولاً أميركيًا يصل إلى مرافئهم. معظم الناس يحبون الأميركيين".

بدا سعيدًا بما يكفي للتحدث، وكأنه من المريح أن يجد مجندًا يستفسر منه. علمت أننا سنتحدث بشأن برنامج التجنيد المباشر وفرصي في الالتحاق به، ولكنني شجعته على الاسترسال في الحديث عن خلفيته.

"كوفاروبياس، أهذا اسم يوناني؟".

فأجاب: "بل إسباني؛ فعائلتي مكسيكية أميركية. لقد نشأت في جنوب كاليفورنيا، عند ضواحي إل سنترو. إنها منطقة فقيرة جدًا تقع بالقرب من الحدود المكسيكية. وثمة منشأة تابعة لطيران البحرية في إل سنترو. وهي المقر الشتوي لفريق بلو أنجلز التابع للبحرية الأميركية. هل سمعت به؟".

كنت قد سمعت بالبلو أنجلز بالتأكيد؛ فريق العروض البهلوانية الأسطوري. استرسل لينو: "فمنذ أن كنت طفلاً وحتى المدرسة الثانوية، كنت أتابع فريق أنجلز كل فصل شتاء. كانوا يقيمون عروضًا جوية في القاعدة، وقد أصبحت متيمًا بالبحرية منذ اللحظة الأولى. كانت الشيء الوحيد الذي أردت القيام به. وكانت السبيل للهروب من فقر المناطق الإسبانية".

كان قد التحق بالبحرية مباشرة بعد تخرجه من المدرسة الثانوية في العام 1984. وبعد اجتيازه التدريب الأساسي، تم إلحاقه ببرنامج BOOST. "كانت القوات البحرية بحاجة إلى المزيد من الضباط. وكان برنامج BOOST مخصصًا للمجندين التابعين للبحرية، وهو يشمل سنة إعداد في سان دييغو تؤهلك للالتحاق ببرنامج تدريب ضباط الاحتياط التابع للبحرية في كلية في مكان ما".

لا بد أن لينو قد أبلى حسنًا في البرنامج. فقد كان واحدًا من بين عشرة طلاب في فصله فقط عُرضت عليهم أماكن في الأكاديمية البحرية الأميركية الواقعة في أنابوليس في ولاية ميريلاند. ولكنه لم يكن متيقنًا من أن هذا ما

تعين عليه فعله. كما تم قبوله في برنامج تدريب ضباط الاحتياط التابع للبحرية في جامعة كاليفورنيا في ولاية لوس أنجلوس. وقد شاهد كتيبات ملونة كاملة تخص الحرم الجامعي في لوس أنجلوس، وبدت له جميلة للغاية.

تذكر لينو: "جذبني قائدي جانبًا، وقال لي: *كوفاروبياس، أنت تنحدر من منطقة فقيرة، أليس كذلك؟ والداك لا يمتلكان المال، وبرنامج تدريب ضباط الاحتياط يدفع مقابل التعلم والكتب، وليس مقابل حجرة النوم والفراش. فمن سيدفع مقابل ذلك؟ هل يقدر والداك على دفع ثمن ذلك؟ يضطر معظم الناس إلى العمل. سأخبرك بما ستفعله. سوف تقلي قطع لحم البرغر. هل ذهبت إلى ميريلاند يومًا؟ أنا لم أسافر إلى أي مكان. لديهم أفضل مأكولات بحرية على الإطلاق. لست مضطرًا إلى العمل هناك، فكل شيء مدفوع الثمن مسبقًا. الخدمات مجانية هناك طوال الأسبوع للقوات البحرية. لن تُضطر إلى قلي الفطائر.*

السبب الذي دفعني للذهاب إلى أنابوليس لم يكن لأنها مؤسسة جيدة أو كلية راقية أو أي شيء من هذا القبيل، بل ذهبت لأن عائلتي لم تكن قادرة على تحمل نفقات استئجار حجرة وفراش، ولم أرغب في قلي لحم البرغر".

كان قد تخرج من الأكاديمية البحرية في العام 1989 وخرج بعدها إلى البحر، ولكن هذه المرة كضابط ينتظره مستقبل واعد.

تغير مجرى حديثنا، فبدأ يطرح أسئلة عني. أخبرته عن خلفيتي، عن أمي الفرنسية وأبي الباكستاني، وعن الابن البارع في التكنولوجيا الذي يواعد الآن امرأة مدهشة من نيويورك.

بدا أنه أعجب بكل ما قلته، وقال: "أميركا هي أمة المهاجرين. أحب على وجه التحديد المرشحين الذين ينحدرون من عائلات مهاجرة من الجيل الأول أو الثاني".

أخبرته أنه حين وقعت هجمات سبتمبر، شعرت أنا وأفا بخيبة أمل لعدم تواجدنا في نيويورك. وأنها عندما ستنهي برنامج الدكتوراه الخاص بها، سننتقل على الأرجح عائدين إلى هناك.

فقال إنه لا بأس في ذلك. فإذا تم قبولي في البرنامج، ستخبرني القوات البحرية عن المكان الذي سأخدم فيه، ولكنهم ما كانوا ليكترثوا بالمكان الذي سأقيم فيه حين أكون خارج الخدمة.

ومع استمرار حديثنا، كرر بعض الأمور التي كنت على علم مسبق بها؛ في ما يتعلق بالانتقائية الشديدة للبرنامج. وقد أكد على أن التخصص الأكثر انتقائية كان الاستخبارات البحرية.

وقال: "نحتاج إلى أشخاص موهوبين من أجل ذلك. إن العديد من عمليات المراقبة التي نقوم بها الآن تجري عبر الحاسوب. لذا، نحتاج إلى خبراء في التكنولوجيا. وربما في العام المقبل سيكون لدينا الكثير جدًا من التقنيين، وحينئذٍ سنحتاج إلى أشخاص يمكنهم التفكير. ثم سيقولون لي: *أرسل لنا كل أولئك المحترفين وحاملي درجة الدكتوراه*.

في أعقاب هجمات سبتمبر، بدأ هاتفي يرن، وكان المتصلون كل أولئك الأشخاص الذين لم يفكروا سابقًا في الانضمام إلى الجيش. كانوا أشخاصًا محترفين، وحاصلين على شهادات من كليات عريقة، ولديهم مهن جيدة بالفعل. وكانوا كلهم يقولون الشيء نفسه: *لقد كنت أنعم بحياة رائعة، ولدي عائلة رائعة، وتلقيت تعليمًا راقيًا، وأجني راتبًا ضخمًا، ولكنني لم أقدم أي شيء لوطني، وهذا لا يبدو صحيحًا*. هل يبدو أي من هذا مألوفًا لديك؟".

فقلت للينو إنه يقرأ أفكاري.

وقال لي: "ربما كنت مناسبًا لهذا المجال".

أخبرني أنه قرأ طلب التقدم الخاص بـــي. لا شيء مضمون كما قال لي، ولكنه اعتقد أنني أملك فرصة قوية للالتحاق بهم. "لديك سيرة ذاتية جيدة. إنك تمتلك مهارات تقنية قوية، والعمل في هارفارد أمر رائع. ولديك خلفية ثقافية متنوعة. ويبدو أنك تفعل هذا لأسباب وجيهة، وأنك تدرك ما أنـــت مقبل عليه".

كما قال إنه تملكه القليل من القلق حيال قلة خبرتي المهنية، وتابع: "لقد بدأت حياتك المهنية للتو. ولكنني أعتقد أنك ستكون مرشحًا منافسًا. وأعتقد أنك الأوفر حظًا".

واصل لينو الحديث، وواصلت أنا طرح الأسئلة عليـــه. فســـألته عـــن العظماء الذين التقاهم في البحرية، وعن كيفية تغيير الخدمة في البحرية لحياته ومنحها معنى، وبشأن كل المرح الذي حظي به. وبدت عليه الحماسة وهـــو يتذكر إحدى الرحلات البحرية التي قام بها عبر البحر المتوســـط، وبرنـــامج لتبادل الخبرات مع البحرية التركية. "هناك فرصة كبيرة للمساهمة".

حتى تلك اللحظة، لم تكن لـــدي أي فكـــرة عمـــا يفعلـــه ضـــابط الاستخبارات بشكل يومي. إذ لم يكن ثمة الكثير من التوضـــيح في الأوراق الرسمية؛ بخلاف حقيقة أن المتقدمين لا بد أن يكونوا من حاملي الشـــهادات الجامعية. وقد حاولت معرفة بقية المعلومات من غـــرف الدردشـــة التابعـــة للجيش؛ رغم أنني لاحظت أن ضباط الاستخبارات لم يكونـــوا يشـــاركون الآخرين بالتفاصيل إلا أن يثقوا بهم حقًا. سألت لينو إن كان قـــد تعامـــل شخصيًا مع أي من ضباط الاستخبارات، فأومأ وقال من دون الإسهاب في الحديث: "لطالما تمتعوا بالاحترافية".

سألته عما سأقوم به بالضبط إذا تم قبولي، فقال: "ستعرف أكثر بمجرد أن تصبح تابعًا لأحد الأساطيل. فهم سيطلعونك على ما سوف تقوم بـــه".

كان الأمر برمته مبهمًا قليلاً، وأشبه بشخصية *مافريك* في فيلم *توب غان* "إنها معلومات سرية. يمكنني أن أخبرك بها، ولكنني سأضطر بعدها إلى قتلـــك". ولكن، راقت لي حقيقة أنه تحدث إليّ وكأنه سيتم قبولي على الأرجح، فقد قال: "عندما يتم قبولك، قد ترغب في اختيار الالتحاق بوحدة قريبـــة مـــن حيث تعيش كي لا يؤثر ذلك بشكل كبير في بيتك أو حياتك المهنيـــة. إن ضباط الاحتياط يتكيفون بشكل جيد للغاية مع الحياة المهنية المدنية العادية".

لم يكن حديثه أكثر تفصيلاً، ولم يكن بوسعي معرفة مقدار ما يعرفـــه حقًا. سألته إن كان يعتقد أنني سأحصل على تدريب على الطيران أثناء عملي كضابط للاستخبارات، ولكنه كان بارعًا جدًا في عـــدم البـــوح بـــالكثير والظهور بمظهر المشجع في آن واحد، وقال: "هذا ليس مســـتحيلاً. فكـــل الأبواب مشرعة هناك. ومن الجائز حدوث الكثير من الأشياء المختلفة".

تمنيت لو أن الغداء لا ينتهي. وحين رفعت ناظريّ، لاحظـــت بعـــض الأشخاص الآخرين الذين يرتدون الزي العسكري في المطعم، فقلت له: "لقد سمعت أشياء جيدة وسيئة على حد سواء عن الطعام في البحرية. لقد كنت في الجوار، فأي الأماكن أفضل؟".

فقال من دون أي تردد: "طعام خدمات الغواصات هو الأفضل. فأولئك الرفاق يقضون ساعات طويلة تحت الماء، وليس هناك الكثير مما قد يشـــتت انتباههم".

فقلت له: "يبدو هذا منطقيًا".

كان بوسعي الاستماع إلى لينو وهو يتحدث طوال فترة ما بعد الظهيرة. ولكن الانطباع الرئيس الذي تركه لدي هـــو شـــعوري بـــأنني كضـــابط استخبارات في البحرية، سوف أقوم على الفور بشيء هام لمساعدة بـــلادي، وأن لديّ فرصة قوية للالتحاق بهم. وكان هذا كل ما أردت سماعه.

أدركت أنني كنت في صحبة أحد العسكريين المخضرمين. وأردت أن أنجز ما أنجزه هو؛ فقد قضى سنوات شبابه وهو يتنقل عبر العالم إلى بقع غريبة وملتهبة كفرد من أعظم قوة بحرية في العالم. وقد بدا ذلك مغريًا للغاية.

عندما خرجت من المطعم الصيني في كوينسي، كانت فكرة الانضمام إلى البحرية قد أسرتني.

وصلت الرسالة إلى شارع كوينزبيري صباح يوم السبت في السابع من شهر يونيو عام 2003. كانت أفا برفقتي عندما أخذت الرسالة من صندوق البريد. وكان عنوان المرسِل هو مقر قيادة التجنيد في البحرية، 5722 شارع انتغرتي درايف، ميلنغتون، تي إن 5057-38054. وكان المغلف نحيفًا.

أثناء صعودي إلى الطابق الثاني، تذكرت ما كان رفقائي في المدرسة الثانوية يقولونه عندما كانوا ينتظرون استلام الرد من الكليات: *أنت دومًا ترغب في استلام مغلف سميك محشو بقائمة المقررات وأماكن السكن ونصائح تخص يوم الانتقال. وعندما يتعلق الأمر بالمغلفات التي تحمل في طياتها أنباء مرتقبة، يكون نحفها فألًا سيئًا*.

كانت افتتاحية الرسالة على الشكل التالي:

"عزيزي السيد جمالي،

لقد تمت مراجعة طلبك الذي تقدمت به للانضمام إلى برنامج التجنيد المباشر في قوات الاحتياط التابعة للبحرية الأميركية بتأنٍ. ولكن للأسف، وبناءً على القيود التي يفرضها البرنامج، لم يقع الاختيار عليك".

قرأت الفقرة الأولى مجددًا، ولكن لم يتحسن شعوري.

ثم تبع ذلك الهراء اللطيف المعتاد: "سنحتفظ بطلبك لدينا لمدة عامين. ويجدر بك البقاء على تواصل مع أحد الضباط المسؤولين عن التجنيد في حال

فتح البرنامج أبوابه مجددًا في المستقبل، ويجوز له أو لها طلب إعادة تنشيط طلبك حال حدوث ذلك".

ثم أتى جزء المواساة: "كن على يقين رجاءً من أن عدم اختيارك لا يعني وجود سلبيات لديك، وإنما المنافسة شديدة للالتحاق ببرنامج ضباط الاحتياط في القوات البحرية." وختمت الرسالة بالقول: "نأسف لأن القرار لم يكن في صالحك. لكن اهتمامك بالانضمام إلى برنامج قوات الاحتياط التابعة للقوات البحرية محل تقدير بالغ لدينا".

وحمل توقيع الرسالة: "المخلص أس أم هيلر؛ القائد الملازم في قوات الاحتياط التابعة للبحرية الأميركية، ورئيس قطاع قوات الاحتياط غير النشطة وشعبة برامج الضباط وإدارة العمليات".

وفي الأسفل، كان ثمة سطر أخير كُتب فيه: "بتوجيه من القيادة". ممّا جعل الرفض يبدو رسميًا أكثر.

سمعت أناسًا يقولون إنهم عندما تلقوا أنباء سيئة شعروا كما لو أنهم تعرضوا للركل على معداتهم. حسنًا، لقد شعرت أنني تعرضت للركل على معدتي من قبل حصان من فصيلة كليديسدال.

"كنت ترغب في ذلك حقًا، أليس كذلك؟". سألتني أفا وقد بدت قلقة للغاية، ثم تابعت: "اعتقدت في بداية الأمر أنك تلهو؛ كما لو أن الفكرة قد أعجبتك لأنك ظننت الأمر مثيرًا للاهتمام، أو مليئًا بالمرح فقط. وظننت أنك ستفقد الاهتمام بذلك مع مرور الوقت".

فقلت لها: "لا أعتقد أنني رغبت في أي شيء في حياتي أكثر من هذا الأمر. كيف سأعود إلى العمل يوم الاثنين؟ يبدو كل شيء بلا معنى الآن". كنت أنضح بالشفقة على نفسي، وأتصرف كالضحية.

وكان رد فعل أفا ألا تقيم حفل عزاء لي. وعوضًا عن ذلك، أمسكت

بيدي، ونظرت إلى عينيّ وهي تتحدث إليّ بهدوء: "ماذا جرى للفتى الذي لم يلتحق بأي كلية ثم حسّن من نفسه والتحق بجامعة نيويورك؟ هل استسلم ذلك الفتى؟ كفَّ عن الأسى على نفسك، فسوف تفعل بالضبط ما كنت تفعله في كلية هانتر. ستضع قدمًا أمام الأخرى وتعيد المحاولة. إذا كان هذا ما تريده، فلا أهمية لعدد المرات التي ستحاول فيها، أو الفترة الزمنية التي سيستغرقها الأمر. إياك والاستسلام".

للحظة، ظننت أنها ستلكمني، بيد أن وجهها انبسط بابتسامة عريضة وقالت: "الجو جميل في الخارج، ولست مضطرة إلى التواجد في المختبر، فلمَ لا نستقل سيارة الفايرهوك ونفتح سقفها ونذهب في جولة إلى الشاطئ؟".

اتصلت بلينو صباح يوم الاثنين، وكان قد سمع بالفعل بما حصل، وقال لي: "لا تأخذ الأمر على محمل شخصي".

علمت أنه سيقول ذلك، كما علمت أنني سآخذ الأمر على محمل شخصي. فكيف لي ألا آخذه على محمل شخصي؟

سألته: "ما الذي حدث في رأيك؟".

فرد بالقول: "على الأرجح، يرجع السبب إلى خبرتك المهنية. فأنت لم تتخرج منذ مدة طويلة، وقد بدأت حياتك المهنية للتو".

ففكرت: *لقد تخرجت قبل خمس سنوات بالفعل. إلى متى يفترض بي الانتظار؟*

وتابع: "ربما كانت للجغرافيا علاقة بالأمر أيضًا. فبالنسبة إلى برنامج كهذا، تعتبر نيو إنغلاند المكان الذي تكثر فيه المنافسة. إذ لا يتعلق الأمر بجامعة هارفارد فقط، وإنما أيضًا بمعهد ماساتشوستس للتقنية وجامعتي يال وبراون. أعني، هناك الكثير منها. ربما لو كنت قادمًا من تكساس، لكان الأمر أسهل. إذ ثمة الكثير من السير الذاتية الجيدة هنا".

وكرر ما كان الآخرون قد أخبروني به، وهو أن الفشل في الالتحاق في المرة الأولى أمر عادي. وقال إن أمامي عدة بدائل أخرى. فعلى سبيل المثال، بوسعي الالتحاق بالبحرية من أجل اكتساب الخبرة، والانتقال للعمل مع الاستخبارات البحرية بتلك الطريقة، أو بوسعي اكتساب المزيد من الخبرة في مهنة أخرى ثم معاودة تقديم طلبي.

قال لي: "إذا أردت شيئًا بشدة، فلا ينبغي لك التوقف عن محاولة الحصول عليه. قد لا يقع عليك الاختيار في المرة الأولى، ولكن ربما يحصل ذلك لاحقًا. أعرف أشخاصًا لم يقع عليهم الاختيار بعد محاولتين وثلاث، ولكنهم ظلوا يحاولون حتى تم قبولهم في النهاية. لقد أرادوا الأمر بشدة، وبذلوا قصارى جهدهم، فحصلوا أخيرًا على ما يريدونه".

سألني إن كنت لا زلت أنا وأفا نعتزم العودة إلى نيويورك، فأخبرته أننا نعتزم ذلك.

فقال لي: "إليك ما كنت سأفعله لو كنت مكانك. إن أهم شيء هو أنك تحتاج إلى اكتساب خبرة ذات صلة بالبرنامج. إن كونك خبير تكنولوجيا في جامعة هارفارد أمر عظيم، ولكن كونك موظفًا في هارفارد فقط لا يكفي. فما تحتاج إليه حقًا هو الخبرة في مجال الاستخبارات، شيء ما يجعلك منافسًا قويًا في وجه المتقدمين الآخرين. لعله يجدر بك التفكير في العمل لصالح وزارة الخارجية أو مكتب التحقيقات الفدرالي أو إحدى جهات تنفيذ القانون التي تقوم ببعض الأعمال الاستخباراتية. يجدر بك أن تحاول العمل في هذا النوع من المجالات. لدينا أشخاص يعملون لدى جهتين حكوميتين، فيعملون في ولاية أخرى أو وكالات فدرالية لتنفيذ القانون، وفي الوقت نفسه ينتسبون إلى قوات الاحتياط التابعة للبحرية. وذلك يسير بشكل رائع بالنسبة إلى الجميع. لا يتعين أن يكون الأمر على هذا النحو بالضبط،

وإنما فقط شيء ما يمكنك إظهاره لتقول: *لدي خبرة حقيقية في المجال*، هل تفهم ما أعنيه؟".

"حسنًا". قلت محاولاً ألا أبدو واهن العزيمة للغاية.

وقبل أن يتمنى لي الحظ السعيد ويودعني قال لي: "نافيد، دعنا نبقى على تواصل، اتفقنا؟ أعلمني بأحوالك".

أدركت أن أفا ولينو محقان؛ إذ لا يمكنني الاستسلام. وعلى الفور، بدأت بالتفكير في ما يتعين عليّ القيام به تاليًا. الأمر الجلي هو أنه يتوجّب عليّ الحصول على درجة الماجستير. فعندما يتملكك الشك، اختبئ خلف الدراسات العليا. وبما أن هارفارد قد عرضت فرصًا للحصول على تعليم مجاني في كلية التعليم المستمر، لذا فكرت: *لم لا*؟ وهكذا، قدّمت طلبًا للالتحاق. ولحسن حظي، تم قبولي في برنامج الماجستير الخاص بالفنون الليبرالية. وبعد قراءتي كتاب سامانثا باور *مشكلة من الجحيم: الولايات المتحدة وعصر الإبادة*، قررت تركيز دراساتي على فكرة سيادة الدولة، ومفهوم أن بعض الجرائم تكون شنيعة، وأنه يتم تبرير تنفيذها. وقد تجادلت مع زملائي بحدة في جدلية أنه حين يصبح الشر شديدًا، فإنه يسمح بل ويفرض التدخل العسكري. كان ذلك في الشهور الأولى للحرب على العراق وتزايد الإدانة للإمبريالية الأميركية. ويمكنني القول إن حججي المناصرة للتدخل لم تلقَ قبولاً شديدًا في حرم جامعة هارفارد. إلى جانب ذلك، قررت تولي مسؤولية المستشار الأكاديمي للطلاب الجدد، ووجدت نفسي أساعد شبانًا في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من العمر ممن يتفقدون حرم الجامعة غير المألوف بالنسبة إليهم. وقد استبدلت سيارة الفايرهوك القديمة موديل العام 1999 بسيارة كورفيت من طراز Z06 فضية اللون بقوة 405 أحصنة تم طرحها في الذكرى الخمسين لتأسيس الشركة المنتجة. وقد ازداد شغفي

بالسيارة في بوسطن، فكنت أقودها على طريق نيوهامشير الـــدولي الســـريع وطريق لايم روك بارك. أما في عطلات نهاية الأسبوع فكنت أقوم برحلات بالسيارة عبر نيو إنغلاند.

لو كان أحدهم يراقبني، لبدا له الأمر أنني أعود إلى قناعاتي قبل هجمات سبتمبر، ولكنني كنت لا أزال أشعر أن هذه الأشياء كلها كانت تمثل بديلاً فقيرًا لما أردته حقًا؛ وهو العمل كضابط في بحرية الولايات المتحدة. كنت لا أزال أسير نحو المجهول. وفي يناير من العام 2005، وبعد أن منحت أفا درجة الدكتوراه في الوراثة، وضعت أنا والدكتورة الجديدة قطتينـــا في صـــندوق، واتجهنا والحنين يتملكنا عائدين إلى مسقط رأسنا.

الفصل السابع

عملاء خاصون

بدت بوسطن بسرعة جزءًا من الماضي.

كنا- أنا وأفا- نيويوركيين حتى النخاع. ومع بقاء آمالي في الانضمام إلى البحرية معلقة، لم يكن رحيلي عن بوسطن، وعدم إكمالي درجة الماجستير في هارفارد أمرًا صعبًا على الإطلاق. في البداية، فكرت في ما إذا كان عليّ تعليق استكمال دراساتي ومن ثم الانتقال أو التحول إلى برنامج دراسات عليا في نيويورك. ولكن، حتى ذلك بدا عذرًا آخر للتأجيل.

مثّلت العودة إلى نيويورك بداية جديدة لكلينا. عاودت العمل- بشكل مؤقت- في شركة "كتب وأبحاث". كنا بالكاد قد أفرغنا حقائبنا عندما اقترحتُ على أفا أن نفعل شيئًا مهمًّا الآن بما أننا عدنا إلى حيث وُلدنا. فقد قلت لها: "هيا بنا، لنتزوج".

لم يكن حفل الزفاف كبيرًا، إذ لم يرد أي منا ذلك. وفي التاسع من فبراير من العام 2005، أي قبل أسبوع من يومي ميلادنا، توجهنا إلى مجلس المدينة وقلنا كلمة: "أوافق".

وبعد ذلك بأسابيع، في صباح أحد أيام السبت، كانت أفا برينت جمالي تقرأ الصحيفة بينما هرعت أنا إلى داخل حجرة المعيشة. سألتها للمرة السابعة

والثلاثين على الأرجح: "أفا، بما أنني لم أعد في الكلية بعد الآن، فما رأيك بأن أحاول اكتساب المزيد من الخبرة المهنية في مجال البحرية؟ هل تظنين أن هذا سيساعدني؟".

أجابت من دون ترفع ناظريها: "أجل".

"حسنًا، أتعلمين؟ كنت أفكر في أنه ربما يجدر بي المحاولة والخضوع لفترة تدريب، مع مكتب التحقيقات الفدرالي ربما. فما رأيك؟".

وحين لاحظت أن صوتي بدا حماسيًا ومفعماً بالحيوية وضعت الصحيفة جانبًا ونظرت إليّ قائلة: "حقًا يا نافيد؟ هل تفكر في ذلك مجددًا؟". كانت تلك آخر مرة أقرر فيها الانضمام إلى البحرية.

"كلّا، أصغي إليّ فحسب".

فقالت: "حسنًا يا نافيد، لمَ لا تتصل بمكتب التحقيقات الفدرالي فحسب وتعرض عليهم خدماتك؟ ولكن في هذه الأثناء، إذا كنت تريد إنقاذ العالم، فهلّا جلبت لنا بعض صناديق المخلفات للقططة؟ فقد نفدت التي كانت لدينا".

قُبل التحدي في كلا الأمرين.

يوم الاثنين ذاك، سألت والدتي عن رقم هاتف آخر عميل فدرالي تعاملت معه هي وأبي، مفسرًا طلبي بأنني أريد أن أرى إن كان أحدهم لديه نصيحة لي بشأن الالتحاق بالبحرية. ربما بدافع الشفقة على حالي- فقد كنت ابنها الشاب الذي يحاول اتخاذ قرار حول ما سيفعله حين يكبر- أعطتني رقم أحدهم. وقالت بلكنتها الفرنسية الثقيلة: "كن حذرًا. هؤلاء ليسوا قومًا محل ثقة".

ففكرت في سري: *ميراث جيل السبعينيات، الاشتباه في "الرجل"*.

وبحماسة، طلبت الرقم الذي أعطتني إياه أمي، فردت العميلة عند الرنة الثانية.

"هل ثمة مشكلة إن ناديتك بامبـــي؟". سألتها بعد أن عرفتها بنفســـي، وقد حاولت أن أبدو ودودًا وعفويًا.

"إذا كان هذا ما تريده، فبالطبع". قالت ذلك وقد بدت مرتبكة قليلاً، ثم تابعت: "ولكن، إذا أردت رأيي، فلعله من الأفضل أن تنـــاديني بـــاسمي الحقيقي، أدعى راندي".

كان حريًا بـــي أن أعرف أفضل من ذلك بدلاً من أن أسأل أمي عـــن اسم العميلة. فبسبب اللكنة الفرنسية، بدا اسم "راندي" مثل "بامبـــي"، وقد جعلت من نفسي مغفلاً مع العميلة التي كنت حريصًا على إثارة إعجابهـــا. وهذا خطأ جسيم حين ترغب في بناء علاقة فورية.

شرحت لها أنني أتصل بالنيابة عن والديّ. وقد كان ذلك حقيقيًـــا إلى حدّ ما ومدخلاً أفضل للحوار؛ إذ فكرت في أن هذا أفضل من البدء بعبارة: "مرحبًا، هل توظفون أشخاصًا بدوام جزئي؟". قلت لها إن عضـــو البعثـــة الروسية قد مرّ علينا، وأنني من استلم طلبه، وتابعت: "كما تعرفين، والداي يكبران في العمر، وسوف يتقاعدان قريبًا. ومنذ الآن فصاعدًا، سأكون أنا من سيتعامل مع الروس".

ربما كانت تمر بيوم بطيء، وربما أرادت فقط أن ترى الفتى الأحمق الذي ناداها بامبـــي، ولكنها اقترحت أن أذهب إلى قلب المدينة وألتقيها شخصيًا وكذلك شريكها. اتفقنا على مكان اللقاء؛ وذلك خـــارج مقـــر مكتـــب التحقيقات الفدرالي في نيويورك الواقع في 26 فيديرال بلازا، بـــالقرب مـــن مجلس المدينة ومجمع المحاكم الواقع في مانهاتن الصغرى. وقالت راندي: "يمكننا التوجه من هناك إلى مكان ما سيرًا على الأقدام".

كان صباحًا ربيعيًا جميلاً عندما توجهت للقاء العميلين، وقـــد بـــدوَا سعيدين بلقائي.

بدت راندي امرأة شابة ذكية وذات دهاء. تنحدر عائلتها من كولومبيا في أميركا الجنوبية. قالت إنها عادت مؤخرًا إلى نيويورك قادمة من سياتل، حيث تملكتها الصدمة بعد أن اكتشفت أن حركة المرور تتوقف في اللحظة التي ترفع فيها قدمها عن المكابح، وذلك سواء أضيئت إشارة المرور أم لا. قالت: "الأمر يختلف بشدة هناك".

كان شريكها يدعى تيري. وقد بدا العميل الأصغر سنًا، ولم يبدُ أنه يكبرني سنًا. كان نحيفًا ويضع نظارة ويتحدث بصوت حاد قليلاً، كما كان ينحدر من عائلة إيطالية أميركية من بنسلفانيا.

عبرنا حركة المرور المزدحمة في شارع برودواي متجهين إلى متجر دانكن دونات للحلويات. وعندما قالت راندي محذرة: "توخَّ الحذر يا تيري"، داعبها بشأن عاداتها في عبور الطريق، وقال لها ضاحكًا: "لقد عشتِ في سياتل لفترة طويلة جدًا".

سألني تيري إن كنت أرغب في تناول أي شيء، فأجبت: "كلا، لا بأس. القليل من الماء فحسب".

وبابتسامة متكلفة، سألت راندي تيري إن كان يريد تناول بعض الفاكهة، فبدا غاضبًا ولم يعقب، فتابعت: "ماذا عن فطيرة تفاح؟ سمعت أن لديهم فطائر تفاح جيدة هنا".

تجهم وجه تيري وحسب. وراقت لي حقيقة أنه رغم كونهما عميلين فدراليين يبدو أن بينهما رابطة شخصية من نوع ما. فقد بدا لي أنهما أكثر مرونة عن الاعتقاد السائد عن العملاء الفدراليين. ثم قالت لي راندي شارحة: "يأبى تيري تناول أي شيء طبيعي، أو به ألوان مضافة. فهو لم يتناول أي فاكهة أو خضراوات أو أي شيء نباتي منذ سنين".

بدا ذلك غريبًا. لكن تيري استهجن ما قالته، لذا تجاهلت الأمر.

طلب ثلاث قوارير من المياه، وجلسنا إلى طاولة تقع في الركن وتحدثنا قليلاً. كررت ما قلته لراندي عبر الهاتف؛ وهو أن والديّ يعتزمان التوقف عن العمل، وأنني من سيتعامل مع الروس، وتابعت: "أعلم أن هناك علاقة قائمة منذ زمن طويل بين المكتب الفدرالي وعائلتي. وكنت أسمع بذلك طيلة حياتي. وقد حان الوقت بالنسبة إلي لأنغمس أكثر في الأمر".

لم أطلع العميلين على ما كنت أفكر فيه. فبصراحة، لقد كنت أنا نفسي أجهل التفاصيل قليلاً. ولكن لا بد أن هناك أمرًا مثيرًا وراء ظهور دبلوماسيين روس، وعملاء فدراليين، وتوالي الزيارات الخفية وإرسال التقارير السرية. وقد كنت متيقنًا تمامًا من أنني أريد أن أكون جزءًا من هذا؛ حتى لو كنت أجهل السبيل إلى ذلك.

كان من الواضح أن العميلين يفكران على نطاق ضيق أكثر. وأخيرًا، قالت راندي: "نقدّر تعاونك، ونود أن يتواصل هذا التعاون، لكن الأمر برمته يعود إليك. فإذا كنت تريد مواصلة القيام بذلك، فلا بأس. وإن لم تكن كذلك، فنحن نتفهم الأمر. فتعاونك تطوعي تمامًا".

أخبرتها أنني أتفهم ذلك، وأنني سأكون سعيدًا بمواصلة التعاون، بل ومتحفزًا للقيام بذلك. ثم سألتها: "إذًا، كيف سنواصل تعاوننا؟".

فسألتني بدورها: "ماذا تقصد؟".

فقلت: "ساعداني على فهم ما تبحثان عنه. ماذا تريدان مني أن أفعل؟ سآتيكما بالقوائم، ولكن هل ثمة أمور أخرى يمكنني المساعدة فيها؟".

لم يبدُ أن العميلين يدركان أن ما أطمح إليه بفعل هو أكثر من مجرد توفير نسخ من قوائم الشراء الخاصة بالروس.

"نحن نتمتع بعلاقة طيبة مع عائلتك يا سيد جمالي، وكل شيء يبدو أنه يسير على خير ما يرام. أبقِنا على اطلاع بالتطورات، وأعلمنا بما يحدث. افعل

فحسب ما ترتاح إليه نفسك. ورجاءً، أخبرنا حين تسمع أي خبر مجددًا".

فوعدهما بأنني سأفعل ذلك.

كان العميلان مسرورين تمامًا ومحترفين. وقد منحاني الكثير من الوقت يومئذٍ. ولكنّ أي أفكار كانت تراودني بشأن الانخراط بشكل أكبر مما كان والداي يفعلان وتلميع سيرتي الذاتية بخبرة في مجال الاستخبارات، كان من الواضح أنها ستؤجّل. لم أظفر بأي مهمة جديدة في لقاء التعارف ذاك، ولا يمكنني القول إنهما كانا متحمسين للتعرف إليّ. وقطعًا، لم يعرضا عليّ أي فرصة للتدريب، ولكنني حصلت على لمحة عن العمل الاستخباراتي من ذلك اللقاء. وقد لاحظت مع هدوء الحوار بيننا أن لا أحد منهما نهض ليغادر.

وأخيرًا سألتهما: "هل عليّ أن أغادر أولاً؟". فأومأ كلاهما، وهكذا غادرت. من دون أن أدرك، حصلت على لمحة عن الأساليب الخفية التي يتبعها العملاء في مجال مكافحة التجسس، وهذا أمر سيغدو ذا أهمية بالنسبة إليّ في الشهور والسنوات التالية. اتضح لي أنه كانت ثمة قواعد لا بد من معرفتها؛ مثل التحدث بصفة شخصية وليس عبر الهاتف. وأن العملاء يعملون في أزواج، وأنهم يتبعون تدابير حذرة مع من سيوافقون على العمل معهم. كما يعملون على حماية سرية العلاقة، وأن الثقة والانسجام يجري بناؤهما مع مرور الوقت.

إن مجرد إخباري العميلين أنني سأحل محل والديّ في العمل يعني أنني كنت أنخرط في شيء سري. سآخذ القائمة من الرجل الروسي، ثم سأسلمها سرًّا إلى المكتب الفدرالي. لقد كنت- عند أدنى مستوى ممكن- مصدرًا للمعلومات بالنسبة إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. شعرت أنني أقل حظًا من إد نورتون في فيلم *نادي القتال*، فأنا سأتعلم القواعد في الوقت نفسه الذي يفترض بي فيه الالتزام بها وقت اللعب.

بقيت على تواصل مع العميلين مثلما وعدت.

وفي المرة التالية التي أحضر فيها روسي من البعثة طلبًا جديدًا، اتصلت براندي وأبلغتها بما احتوت عليه أحدث قائمة. أتممنا الأمر كله عبر الهاتف. وقد كنت لطيفًا وكانت لطيفة هي أيضًا. ولكن، كان هذا أقصى ما بلغه التعامل بيننا. وعندما سألتها عن كيفية تمكني من أن أكون أكثر نفعًا، نحّت عروضي جانبًا، وقالت: "نحن نقدر ما تفعله. تعاونك مفيد للغاية". وأظن أنها لم تدرك ما كنت أطلب القيام به. وكي أكون صريحًا، أنا أيضًا لم أدرك ذلك، ليس بعد. لم أكن أدري أين سينتهي هذا؛ إن كانت له نهاية.

وبعد ثلاثة أشهر لاحقة، تحدثت إلى راندي. كنت خارج المكتب هذه المرة عندما ظهر الرجل الروسي، فحصل على ما طلبه وترك قائمة جديدة مع والدي. وعندما عدت، ذكّرت أبي بأنني أود أن أكون الشخص الذي سيتواصل مع العملاء، غير أنه لم يكترث.

قلت لراندي عبر الهاتف عندما اتصلت بها: "لدي معلومات لك، فهل يمكننا تحديد موعد لنلتقي فيه؟".

منذ اليوم الأول الذي التقيت فيه راندي وتيري، لم أكف قطّ عن التفكير بشأن كيفية تطوير علاقتنا المملة. فعلى الأقل، كنت أدرك أنني أريد فعل شيء مع مكتب التحقيقات الفدرالي يثير إعجاب القائمين على التجنيد المباشر في البحرية. فلا بد أن يكون هناك ما يمكنني فعله. عاودت التفكير في النقاشات التي كانت تدور إلى مائدة العشاء بين والدَيّ أثناء طفولتي؛ عندما اعتدنا على المزاح بشأن الرجال الروس ذوي المعاطف الطويلة، مفترضين أنهم جواسيس. وبعد مرور عشرين عامًا، وحتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وحدوث تغييرات كبيرة في العالم، لا يزال الروس يأتون إلى المكتب، ولا يزال مكتب التحقيقات الفدرالي يراقبهم. لا بد أن ثمة سببًا ما، أليس كذلك ؟

لكلا الجانبين. وأيًا تكن تلك الأسباب- واصلت إخبار نفسي- كنت في موقع مثالي للقيام ببعض البحث، وربما كان بإمكاني العثور على شيء ما لأكتب عنه للينو وزملائه.

لم أكن أود إخبارها عن رغبتي عبر الهاتف، و لم أشعر بالإثارة حيال قدوم عملاء فدراليين إلى المكتب؛ فقد كان يحيط بنا الكثير من الناس، مما يمنعنا من التحدث على انفراد. لذا، سألتها: "ما رأيك في أن نلتقي قبل العمل بالقرب من مسكني؟". لم تسألني عن السبب، ولكننا اتفقنا على الالتقاء عند الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي قبل أن أغادر إلى العمل.

أعتقد أنني ذكرت لأفا أنني سألتقي العميلين في الصباح، أو ربما لم أفعل؛ لست متأكدًا. ولكن، في كلتا الحالتين، لم يكن هذا أمرًا مهمًا. كانت قد غادرت بالفعل إلى معملها في جامعة نيويورك عندما اتصل بي تيري من الشارع، وقال لي: "نحن في منتصف الشارع المقابل لمسكنك".

استقللت المصعد ونزلت إلى الأسفل، والتقيت العميلين على الرصيف المجاور لسيارتهما؛ وهي سيارة فورد تاورس سوداء من الجيل الرابع. من مسافة بعيدة، كان بوسعي رؤيتهما وهما يضحكان، ويتشاركان ما خُيل إليّ أنه نوع من النكات بين العملاء. كان تيري يرتدي بذلة رمادية ويضع ربطة عنق حمراء. بينما كانت راندي ترتدي سترة وبنطالاً باللون الأزرق الداكن. لذا، قد يظن من يراهما أنهما في طريقهما إلى عملهما في مصرف ما أو مكتب للمحاماة. وما كان أحد لينظر إليهما مرتين أو يظن أنهما عميلان فدراليان، ناهيك عن كونهما يعملان على مكافحة التجسس.

وعندما اقتربت منهما، تغيّر سلوكهما وبدوَا أكثر جدية.

واقترحت راندي: "لِمَ لا نتجه إلى مكان ما للتحدث".

فسألتهما: "أتودان الصعود إلى الأعلى؟".

كنت أتحلى بكرم الضيافة بشكل ما، ولكنني أردت أيضًا أن يشاهدا شقتي. فقد اخترنا أنا وأفا بعض الأثاث القديم حسن الذوق الذي جمع بين الأرائك الفخمة والقطع الخشبية الحديثة، وقمنا بتثبيت تلفاز كبير ذي شاشة مسطحة. وبالنسبة إلى زوجين شابين، كانت شقة في مانهاتن مثيرة للإعجاب، وكأنها تقول على لساني: "أنا شخص ذو مكانة، ولست بحاجة إلى القيام بهذا. لذا، أنا لا أحاول أن أساعدكم من أجل المال".

تردد كل من راندي وتيري في البداية، ولكنهما بعد ذلك تبادلا النظرات وتجهّما، ثم قالت راندي: "حسنًا".

عبرنا الشارع ودخلنا البناية، وأومأتُ إلى الحاجب أثناء عبورنا من دون أن أنطق بكلمة، ثم استقللنا المصعد. وحين وصلنا إلى شقتي، فتحت الباب وقدت العميلين إلى الداخل.

لا بد أن التفكير المنطقي والحرفية التي يجب أن يتمتع بها العملاء الفدراليون يشيران إلى أنه ليس من الحكمة مقابلة أحد مصادر المعلومات في منزله. وحتى لو كان كل ما فعلناه- أنا ووالداي- يومًا هو توفير قوائم العناوين الخاصة بالروس للمكتب الفدرالي، فقد أصبحنا مصنفين كمصدر للمعلومات بالنسبة إليهم. وليس هناك سبيل أفضل لكشف الغطاء عن عملية سرية من أن يُشاهد العميل الحكومي وهو يدخل أو يغادر منزل أحد مصادر المعلومات. لكن مناقشة الأمور الحساسة لا تكون دومًا أمرًا سهلاً في الأماكن العامة. ولم أكن نوع مصادر المعلومات الذي يحتاجان إلى لقائه في الخفاء. لم يكن من المرجح أن يكتشف الروس راندي وتيري وهما يتسللان إلى بيتي. ولا بد أنهما اعتقدا أنه إذا جعلني صعودهما إلى شقتي أكثر ارتياحًا وقوّى العلاقة بيننا، فإن الأمر يستحق المخاطرة.

لذا، جلسنا إلى طاولة حجرة الطعام ذات الكراسي العشرة، وبدأت بالتحدث إليهما.

"هذا ما طلبه... وهذه نسخة من القائمة... وهذه هي الأغراض الجديدة... وهذه تكلفتها". أبدى كل من تيري وراندي اهتمامًا ضئيلاً بما أقوله: "حسنًا، صحيح".

راقبت راندي لأتبيّن رد فعلها. كانت تجلس باعتدال شديد، وبوجه خالٍ من التعابير. وكان تيري يراقبها وقد بدا قلقًا. اعتقدت أنني أدرك ما كانا يفكران فيه: *الأمر يسير بشكل جيد هنا. إنه ذو فائدة. فلِمَ العبث معه؟* كانت علاقة المكتب الفدرالي بوالديّ ذات عائد منخفض دومًا، ولكنها لم تتطلب الكثير من الجهد، ولم تكن من ورائها أي فائدة. لم يقل أي من العميلين هذا بالطبع، ولكن لا أظن أن حدسي كان خاطئًا. ومن يمكنه أن يلومهما؟ لم يكن لدي الكثير لأبلغ عنه. ولكن، بما أن هذا كان أول تقرير أقدمه، كنت أحاول أن أبدو ذا كفاءة بأقصى قدر ممكن؛ إذ أردت أن يعتقد العميلان أنني شخص ذو مهارة ومحترف. وكنت آمل أن أقنعهما سريعًا بأنني ذكي بما يكفي لأوسع من طبيعة علاقتنا.

أوضحت للعميلين كيف أن عمل والديّ ينمو بثبات، وكيف أننا سننتقل إلى مقر جديد ونوظّف المزيد من الأشخاص، وكيف أن قاعدة عملائنا تتوسع، وأننا نقتحم مجالات تقنية أكثر ونتولى مشروعات ذات عائد اقتصادي مرتفع. كما أوضحت لهما أنني أحتاج إلى التيقن من أن تعاوني مع المكتب الفدرالي- مهما بلغ مستوى هذا التعاون- لا يعرض عملنا للخطر.

عندها، لوحت راندي بيدها وقالت: "لا يفترض أن يؤثر تعاونك معنا في عملكم".

فكرت في الأمر، ثم حدقت إليها وأنا أشعر بالقليل من الانزعاج. "أتفهّم أنه يفترض بتعاوننا ألا يؤثر في العمل، ولكنْ ماذا لو حصل ذلك؟".

عندها قالت: "انظر، من الواضح أنك شخص شديد الذكاء ولبق في الحديث".

ابتسمت لمديحها الذي أنهت به الحوار؛ فقد أدركت ما كانت تفعله، وشعرت بالرغبة في الضحك، غير أنني قلت: "أحد الأشياء التي تعلمتها لدى تعاملي مع العملاء العسكريين المنحدرين من الجنوب، هو أنه يمكنك قطعًا سلب شخص ما قوته طالما أنك تنهي حديثك بمدحه". أردت منها أن تعرف أنهما لن يستطيعا التلاعب بي.

بدا تيري متوترًا، إن لم نقل مرتبكًا قليلاً، ثم تحدث قائلاً بوضوح: "نافيد، ما الذي تظنه؟".

فقلت له: "سأخبرك". ثم استفضت في الحديث، مقترحًا مستوى جديدًا من التعامل مع الروس. كنت أعتقد بشكل جازم أنهما منخرطان في شيء يتعدى حدود الدبلوماسية التقليدية. كان مكتب التحقيقات الفدرالي قد أخبر والديّ قبل عقدين من الزمن أن توماخان رجل استخبارات روسي. وقد بدا من المنطقي الاعتقاد أن الروس في الوقت الحاضر منخرطون بشكل أكبر في الأمر نفسه. "هل ثمة أي سبيل لإبعاد الروسي الذي يأتي إلى المكتب عن العمل الحقيقي؟ ما الذي يمكنني اقتراحه عليه ويجده مغريًا؟ شيء لا يضعني أنا أو المكتب في خطر حقيقي؟ أود التفكير في نقطة تركيز جديدة هنا".

سادت فترة صمت أخرى، بينما انهمك كل من تيري وراندي في التفكير. وبالنظر إلى الوراء، كان حريًا بي أن أفاجأ من رد فعلهما؛ فهما لم يرفضا عرضي على الفور، وقد بدا لي أنهما مهتمان تقريبًا.

ثم قالت راندي: "قم بإغوائه". وبدا أن التوتر قد خفّت حدّته قليلاً.

وبعد ذلك تابعت محذرة: "لا يمكننا توجيهه إلى مسار محدّد. إذ لا بد أن تأتي المبادرة منه".

تحدثنا لفترة أطول، ولكن كان هذا أقصى مدى بلغه الأمر. لم يمنحاني أي توجيه ذا فائدة أو حتى خطة. ولكن على الأقل، لم يأمراني بالتراجع. وبعدما بدا لي أن الأمور قد هدأت، سألتني راندي: "هل تمانع إن استخدمت مرحاضك؟".

فقلت لها: "كلّا، بالطبع. تفضّلي". وأشرت في اتجاه المرحاض الذي كان بلاطه أصليًّا وفيه نافذة تطل غربًا على هادسون. "إنه في آخر الرواق".

وبعدما نهضت راندي، نظرت إلى تيري الذي نظر إليّ بدوره. جلس كلانا هناك صامتين، وكأن أحدًا ما قد ضغط على زر إيقاف التشغيل. لم ينبس بكلمة، وأنا أيضًا. تساءلت في سري عن نظرته إليّ؛ فقد بدا لي شخصًا حذرًا ومتأنيًا ويقظًا. أهذا هو تعريف المكتب الفدرالي للشرطي الصالح/الفاسد أو العميل الثرثار/الصامت؟

عندما سمعت الماء يتدفق في المرحاض، لم أقوَ على منع نفسي عن التساؤل: هل كانت راندي تعبث بخزانة الأدوية وتدون أسماء العقاقير التي عثرت عليها؟ أليس ذلك ما يفعله عملاء المكتب الفدرالي؟ هل كانت تتحقق مما إذا كنت أتناول اللوزرازيبام؟ أم السياليس؟ في كلتا الحالتين، كنت متيقنًا من أن ما ستعثر عليه سيدوّن مباشرة في ملفي لدى المكتب الفدرالي. للحظة، تمنيت لو أنني كنت قد وضعت بعد العقاقير السامة هناك للتلاعب بالعميلين، أو لو أنني ملأت الخزانة بالحلوى "لدى المصدر مخزون من حلوى أم أنـد أم الخضراء".

وحين عادت من المرحاض، تبادلنا التحيات ثم غادرا الشقة.

سيطر عليّ الانطباع بأن علاقتنا لم تتطور، وتساءلت في سري: أين الأرضية المشتركة بيننا هنا؟ لم نعثر عليها، ليس بعد. وبدا لي أن راندي وتيري سعيدان بما يكفي بالطريقة التي تسير بها الأمور، بينما كنتُ متوترًا وفاقدًا الصبر ومتململاً، ومتشوقًا لتغيير الأمور وتطورها ونموها.

رُنَّ هاتفي المحمول، وكان الاتصال من المكتب. لم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير في أسئلتي، فقد توجّب عليّ التوجه إلى العمل. لذا، أخذت حاسوبي المحمول وتوجّهت إلى المرأب لأستقل السيارة.

أمضيت اليوم كله وأنا مكبل بالمهام المملة التي يتطلبها العمل، ونسيت تقريبًا لقائي مع العميلين الفدراليين. وعندما عدت إلى البيت، كان الظلام قد حل بالفعل في الخارج، وكانت الأنوار مشعّة في الحجرة الأمامية في شقتنا، لذا علمت أن أفا موجودة في الداخل. خلعت حذائي في حجرة المعيشة، وقلت بصوت عالٍ: "مرحبًا" فلم تُجب. لذا، قصدت حجرة النوم حيث كنا نقضي معظم وقتنا. وكانت أفا تقف هناك فحسب وقد شبكت ذراعيها على صدرها، وبدت غاضبة بشدة.

"ما الذي يجري؟". سألتها وأنا آمل أنني أبدو طبيعيًا، وأنني مخطئ في اعتقادي.

فردّت: "لا أدري. أخبرني أنت".

عندها، أدركت أن هذا السؤال مخادع، فأردت أن أكون حذرًا في الإجابة عنه. *ما الذي فعلته؟ بمَ أعترف؟ هل تركت الشقة في حالة فوضى في الصباح؟ هل كان يتعين عليّ ألا أقول تلك المزحة النابية المتعلقة بالعشاء الذي أقيم في معملها؟* في مواقف كهذه، ليس هناك رد صحيح بعينه، وليس هناك سبيل لكي تخرج نفسك من الورطة التي لا تعرف حتى أنك وقعت فيها.

سألتني أفا مجددًا: "هل ثمة شيء تريد أن تقوله؟".

هل فوتت ذكرى ميلادها؟ ماذا فعلت بحق الله!؟

كنت أحاول بيأس تخطي كل الألغام التي قد أواجهها. خطرت ببالي بضعة احتمالات، والشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالي هو الزيارة التي تلقيتها صباحًا من العميلين الفدراليين.

كانت لدينا مجموعة من رفوف الكتب في حجـــرة النـــوم. وعنـــدما استدارت، لاحظت على أحد الرفوف غطاءً أصفر اللون لامعاً، وقد بدا جليًا أنه ليس في مكانه الطبيعي. اتجهت أفا نحوه وحملته. لم أستطع تبيّن ما كـــان بالضبط. سألتني: "ما هذا؟".

"لا أدري". و لم أكن أدري حقًا. وكل ما علمته هو أن له علاقة بشيء خاطئ قمت به ربما.

"إنه غلاف منديل صحي، أيها الأبله".

الآن أصبحت أكثر حيرة. *كيف وصل إلى هناك؟! إنه شـــيء يخـــص النساء، فما علاقتي به؟*

"هل استقبلت أحداً اليوم؟".

فأجبتها: "كنت أعمل طوال اليوم". وهو ما لا يعتبر ردًّا دقيقًـــا علـــى السؤال، ولكنه حمل جانبًا من الحقيقة. عندما تكون في موضع شك، ابـــدأ بذكر الحقيقة. *هل تركت المفاتيح مع أي شخص؟ هل دخل أحد منزلنا؟*

"أتقول لي إن هذا ظهر فحسب بشكل سحري؟".

"ربّما كان هنا منذ عطلة نهاية الأسبوع. لا أدري ماذا أقول لـــكِ يـــا أفـــ..."

"أخرجنا القمامة صباح اليوم، أليس كذلك؟".

"أجل".

"ألم تفرغ صندوق القمامة؟".

"بلى".

"حسنًا، لقد عثرت على هذا خارج سلة القمامة في حجيرة المرحاض. وقد استحممتُ هناك بعد أن أخذتَ القمامة إلى الخارج، و لم يكن موجودًا هناك حينها. والآن وجدته هناك".

واصلنا الجدال، وكنت أماطل طوال الوقت على أمل أن أتذكر شيئًا.

ثم باغتني الأمر فجأة.

لقد تواجد كل من تيري وراندي في الشقة. وقد استخدمت راندي المرحاض.

كيف أفسر هذا؟ هل ستصدقني أفا؟ أي تأكيد شديد من قبلي يمكنه تخفيف الغضب الحاصل؟ *هل يتعيّن عليّ القول إنني على علاقة مع إحداهنّ؟ أو إنّ لدي هوساً غريباً بالمناديل الصحية النسائية؟ أو لا أحب النهوض من فراشي للتبول، وأجد منتجات النظافة النسائية مناسبة أكثر من استخدام زجاجة كوكا كولا؟*

تساءلت كيف سيبدو الأمر جنونيًا لو قلت فحسب: "حبيبتي أفا. أقسم لكِ، لقد كنت أقابل فحسب عميلين من مكتب التحقيقات الفدرالي، واللذين كانا يستخلصان معلومات مني عن شخص ما ربما يكون جاسوسًا روسيًا". لقد بدت الحقيقة غير معقولة أكثر من أي كذبة حمقاء.

لكنّني أخبرتها بالحقيقة: "قابلتُ العميلين تيري وراندي من المكتب الفدرالي هذا الصباح. ظننت أنّني ذكرت لكِ ذلك. فقد طلبت منهما الصعود إلى هنا، وقد تحدثنا في حجرة الطعام".

قالت أفا: "هل أحضرتهما إلى هنا؟ أرأيا شقتنا؟ وسمحت لهما باستخدام المرحاض أيضًا؟ هل قمت بتنظيف المرحاض أولاً؟".

"كلّا، لم أنظف المرحاض".

شعرت أفا بالإحراج. ولم يعد الأمر متعلقاً بغلاف المنديل الصحي أو الخيانة المفترضة التي كانت تحدث في شقتنا في منتصف الظهيرة. ففجأة، أصبحت المشكلة كلها تتعلق بنظافة البيت. لم أكن بالضبط قد نجوت من الفخ الأول، ولكن من المؤكد أنني سقطت في فخ آخر، وكان عميقًا مثل الأول تماماً.

في سرّي، صببت اللعنات على المكتب الفدرالي. أهذا هو الأسلوب العبقري الذي يتبعه المكتب في التحقيق؟ أهذه فكرته عن التحفظ؟ رمي منتجات النظافة النسائية أينما كان؟ ما الذي سيحدث تاليًا؟ هل سينكشف أمري للروس لأن لدي بقايا من ورق مرحاض عالق بنعلي؟

"هل طلبت منهما خلع حذاءيهما؟".

أجل، صحيح. وكأنني سأصر على أن يخلع عميلان فدراليان مسلحان حذاءيهما قبل أن أسمح لهما بالدخول! لكنني كنت أحاول التملص بيأس، لذا تمسكت بكذبتي البيضاء المنجية، وحاولت أن أبدو فزعًا مثلها وقلت: "بالطبع، جعلتهما يخلعان حذاءيهما. فعلت ذلك بالتأكيد".

كان ذلك هو اليوم الأول من بين العديد من الأيام الأخرى اللاحقة، الذي تصادمت فيه الجوانب المتعددة لحياتي المعقدة معًا؛ وظيفتي وزوجتي وسيارتي ووالداي والروس والفدراليون وهوسي بالسيارات؛ كانت لدي العديد من الواجبات. وأحيانًا، كانت تثقل كاهلي، ولم أكن دومًا ماهرًا في التحكم في كل شيء.

لكنّني تعلمت درسين في غاية الأهمية يومئذٍ. الأول، ألا أكذب أبدًا على أفا جمالي مجددًا؛ فالأمر لا يستحق ذلك مطلقًا. وثانيًا، عند بناء غطاء لعملية مكافحة تجسس، عليك أن تبني طبقة تلو الأخرى. إذ يستغرق الأمر القليل من الوقت والجهد والمهارة. ومن الممكن أن يذهب كل ذلك أدراج الرياح في طرفة عين بسبب شيء تافه كمنديل صحي نسائي.

الفصل الثامن

لقائي مع أوليغ

في المرة الأولى التي قابلت فيها أوليغ سوكيلوف، تواجد أبـــي أيضًا. حصل ذلك في أوائل ديسمبر من العام 2005. حيـــث غـــدت الأيـــام أقصر، وأزيلت الزينة من الشوارع بالفعل. لم تكن الحرارة قد أصبحت متدنية جدًّا بعد، لكنّ الريح كانت تعصف بقوة في هادسون، وكان الشتاء يقترب. قبل ذلك بشهر، كنا قد نقلنا المكتب من هاستنغز إلى جناح أكبر يقـــع في شارع 145 باليسادس في دوبس فيري؛ وهو حصن أبيض مـــن الجـــص ذو أربعة طوابق يطل على النهر، ويقع أسفل طريق منحدرة، وعلى بعد نصـــف ميل من محطة قطارات دوبس فيري مترو نورث. كان المبنى سابقًا يُســـتخدم كمنشأة للبحوث تابعة للقوات البحريـــة في الحـــرب العالميـــة الثانيـــة، ثم كمصنع لإنتاج نسخ من الكتاب المقدس. وكـــان الجنـــاح الـــذي يضـــمّ المكاتب يقع في الطابق الثاني، وفيه نافذة يظهر من خلالها أي شخص يأتي أو يذهب.

قبل الحادية عشرة بقليل في أحد أيام الثلاثاء، وفيما كنت أتحـــدث إلى أحد مديري الحسابات العاملين لدينا، انفتح الباب المعدني الضخم، ورأيـــت رجلاً قصير القامة في منتصف العمر يدخل.

لم يسلّم على أحد أو يقترب منا، و لم يجلس على الأريكـة في منطقـة الاستقبال، وإنما وقف فحسب أمام خزانة كتب بيضاء اللون كبيرة وممتلئـة بعينات من الكتب التي يرسلها إلينا الناشرون. وكنّا قد وجّهنا الدعوة للزوار لمساعدة أنفسهم واختيار كتاب أو اثنين إذا شدّ انتباههم شيء مـا. كـان الرجل يتصفح العناوين ويتمتم لنفسه.

علمت على الفور أنه لا بدّ أن يكون هذا أوليغ.

عبر السنوات، تعاقب إلى مكتبنا نصف دزينة من الروس، وربما أكثـر. وبشكل افتراضي، كانوا يقضون فترة خدمة تمتد إلى ثلاث سنوات مع البعثة في نيويورك. ولكن حلت فترة من الهدوء في بداية التسعينيات، بالتزامن مـع سقوط الاتحاد السوفييتي، وقد تساءل والداي عمّا إذا كانا قد تخلّصـا مـن التعامل مع الروس إلى الأبد. ولكن، بعد مرور عام أو نحوه، عاود الـروس تقديم الطلبات القديمة نفسها؛ أي الكتب والمقالات والمواد البحثية الـتي لم يتمكنوا من العثور عليها إلا عندنا.

كان هناك سيرغي وأليكسي وإيفان. وكان هناك اثنان آخران بالكـاد تركا لديّ أي انطباع.

كان معظم ما طلبوا الحصول عليه مفتوح المصدر ويبدو عاديًا. وبـين فينة وأخرى، كانوا يمررون طلبًا لشيء محظور أو مصنف على أنه من أسرار الحكومة الأميركية. ولكنّ والديّ كانا يرفضان دومًا إمدادهم بتلك المـواد، ولم يلح الروس في طلبها إطلاقاً.

وقد وقعت بعض الحوادث المثيرة للريبة عبر السنوات.

ففي صباح أحد أيام السبت، كنتُ مع والدي في متجر يبيع الألعـاب في دوبس فيري، وكنت أتصفح نماذج الطائرات. وحين نظر أبـي إلى الأعلى، رأى شخصين يحدقان إلينا من الجانب الآخر للمتجر. كان أحدهما سيرغي من البعثة.

كان أبـــي على وشك السير نحوهما وإلقاء التحية عليهما، ولكنه بعـــد ذلك فكّر في أنّ هذه الفكرة ليست جيدة. لذا، لم ينطق أبـــــي بكلمـــة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى سيرغي. ولكنّ ظهور الروسيين في مكـــان بعيـــد للغاية عن مجمعهما السكني الذي يقع في ناحية ريفرديل في برونكس أوضح شيئًا واحدًا؛ لقد كان الروس يعرفون أين يسكن والداي، وقد لاحظوا أنـــني ابنهما.

وفي حادثة أخرى، لاحظت أمي سيارة سيدان رمادية تسير ببطء ذهابًا وإيابًا أمام منزلهما. لم يقل أحد ما أو يفعل شيئًا، لكنّ أمي كانت على يقين من أنّها تعرفت على السائق على أنه روسي من البعثة.

كنتُ قد سمعت أبـــي وأمي يصفان آخر روسي التقياه، حيث كان قد حضر إلى المكتب مرتين أو ثلاث مرات في فصلي الصيف والخريف من ذلك العام.

قالت أمي: "إنه يختلف عن الآخرين".

ووافقها أبـــي الرأي بالقول: "إنه ليس معقدًا مثلهم، ويتميز بلكنة أقوى".

قالت أمي: "كما أنه ليس ودودًا أو سهل المعشر مثلهم. كنت أحـــب أليكسي وتوماخان".

"أو مثقفًا مثلهم". أضاف أبـــي مكملاً ما قالته، ثم تابع: "هذا الشخص ليس لديه ما يقوله".

لم يكن ذلك الرجل يمتلك سحر الرجال الآخرين من البعثة الروســـية الذين كانوا قد حضروا لطلب الكتب. إذ بدا أولئك الرجال أذكياء ومثقفين وأنيقين بصفة عامة؛ وذلك بصرف النظر عن الأنشطة الخسيسة التي يـــزعم مكتب التحقيقات الفدرالي انخراطهم فيها. ربّما كانوا جواسيس، ولكنّ كل ما عرفه والداي هو أنهم ربّما كانوا قتلة محترفين. ولكن ذلك لم يكن يعني أنه

ليس بمقدورهم أن يكونوا لطفاء. كان الدبلوماسيون الروس يحسنون التعامل مع والدَيَّ للغاية؛ تمامًا مثلما كان أصدقاء والدي الآخرون، ولكن ليس أوليغ.

قالت أمي: "إنه قروي".

فقال أبي مؤكدًا: "هذا هو الأمر بالضبط. إنه حاد الطباع، وذو شخصية متحفظة".

والآن، كان يقترب من خزانة الكتب، ويقف وحيدًا.

استغرقت هنيهة لإلقاء نظرة فاحصة عليه. كان طوله حوالي خمس أقدام أو ستّ ربما. وكان شعره فاتح اللون وأقرب إلى اللون الرمادي، وشاربه مشذبًا بعناية. كما كان شاحب اللون للغاية، حتى إنه بدا في حالة إعياء. ومن موقع وقوفي، كنت قادرًا على رؤية عينيه الزرقاوين حادّتي النظرات. وكان يرتدي قميصًا أبيض اللون ذا أزرار، وسترة ذات لون رمادي فاتح، ومعطفًا جلديًا طويلاً وواسعاً جدًا، ويضع ربطة عنق حمراء عريضة.

اعتقدت أنه يرتدي ملابس من متجر مين ويرهاوس، أو ربما من متجر جوس. وكنت أعلم أن متجرَي بول ستيوارت وبارنيز يقعان على بعد مسافة قصيرة مشيًا على الأقدام من مقر البعثة الروسية. لكن هذا الرجل لم يكن يتسوق من أي منهما.

وبينما كنت أختم حواري مع مدير الحسابات، سمعت أبي يحيّي أوليغ: "جيد. لقد عثرت على المكان الجديد. المعذرة، هل شكل ذلك مشكلة؟". خمّنت أنّ أبي لم يكن قد أخبره أنّنا سننتقل.

قال أوليغ: "لا بأس". وكاد صوته الناعم يتحول إلى غناء، أقسم إنه بدا كنسخة من بورات؛ عندما أدى ساشا بارون كوهين دور كازاخ في *Da Ali G Show* الذي تم عرضه على شبكة HBO. "لقد وجدت الطريق إلى هنا".

تحدّث بمصطلحات موجزة، وبلكنة روسية طفيفة فيها القليل من الإيقاع. كانت لغته الإنجليزية جيدة. هل كان يحاول تجنّب تسجيل حديثه؟ هل سبق له أن التحق بنادي السينما في مدرسته الثانوية في شبابه؟ لا يسعني سوى التخمين. لكنّ نبرته كانت ناعمة وهادئة وغير عدائية.

علمت أنّ هذه فرصتي. وفي الواقع، لم أهتمّ كثيرًا بما إذا كان والداي قد وجداه ساحرًا أم لا. فبعد محادثاتي مع راندي وتيري بشأن مساعدة مكتب التحقيقات الفدرالي في أمر الروس، كنت متحفّزًا للقاء الشخص الجديد.

قال والدي أثناء اقترابي منهما: "هذا ابني، نافيد. إنه يساعدني في إدارة الشركة الآن".

صافحني أوليغ وأومأ برأسه.

فقال له أبي: "دعني أحضر لك كتبك".

وبعد أن ابتعد أبي، حاولت أن أتبادل حوارًا مع الروسي، وسألته: "إذًا، إلى أي مدى تعجبك نيويورك؟".

فتلقّيت خمس كلمات كردّ: "إنها مركز كل شيء هنا".

"انتقلتُ مع زوجتي عائدَين من بوسطن. أُفضِّل نيويورك كثيرًا".

فسألني: "أتعمل هنا الآن؟".

فأجبته: "أجل. لقد انخرطت في هذا العمل؛ فقد تقدّم العمر بوالديّ كما تعلم".

لم يُثِر أيٌّ ممّا قلته اهتمامًا لديه. وبدا الروسي فاقدًا صبره، وكأنّه أراد فحسب أن يحصل على ما أتى من أجله ويعود أدراجه. وبقدر ما يمكنني القول، لم يكن لديه أدنى اهتمام بي أو بآرائي حول المزايا النسبية لمختلف المدن الأميركية.

لذا، حاولت تلطيف الأمور. لطالما كان حس الدعابة سلاحي السريّ، غير أنّني لم أكن واثقًا من نجاحه مع الروسي الكريه، ولكنّني راهنت على نكتة قديمة حول الغلاسنوست[1]. لقد تغيّرت الأمور بشدة الآن، وفكّرت في أنّ الجميع- بمن فيهم أوليغ الصارم- يمكنهم أن يضحكوا على الأيام الخوالي السيئة.

كانت النكتة شيئًا من قبيل أنّ "كلًّا من فكتور وبوريس كانا يقفان في طابور في الميدان الأحمر لاستلام حصتهما اليومية من الملفوف والحساء عندما استدار فكتور صوب بوريس وقال له: "لا أفهم. مع تطبيق سياسة الغلاسنوست، حسبت أن الأمور ستتحسن".

فردّ بوريس: "أوافقك الرأي يا صديقي. أنا شديد الحنق لدرجة أنّني مستعدّ لقتل غورباتشوف الآن. في الواقع، هلّا حجزت لي مكانًا في الطابور".

وحين عاد بوريس بعد أربع ساعات سأله فكتور: "إذًا، هل قتلته؟".

فأجاب بوريس: "للأسف لا، فثمة طابور طويل ينتظر للقيام بذلك أيضًا".

رماني أوليغ بنظرة ازدراء، ثم قال: "لا أعرف أي شيء بشأن ذلك".

أجل، أحيانًا أكون مغفلاً. ولكنّ أبي امتلك حسّ المنطق- أو لعلّه التوقيت المناسب- لينقذ الموقف قبل أن أظهر نفسي بمظهر أكثر سوءًا.

فقد وضع صندوقًا على الطاولة، وناول أوليغ فاتورته، ثم سأله: "هل أخبرك ابني أنه مهتم بأمور الجيش؟ يدرس نافيد للحصول على درجة الماجستير من هارفارد. أخبره عن أطروحتك يا بنيّ".

---

(1) هي سياسة الدعاية القصوى والانفتاح والشفافية في أنشطة جميع المؤسسات الحكومية في الاتحاد السوفييتي سابقًا، بالإضافة إلى حرية الحصول على المعلومات. وقد أطلقت هذه الدعوة بواسطة الرئيس الروسي السابق ميخائيل غورباتشوف في النصف الثاني من الثمانينيات.

هكذا كان أبـــي؛ فهو يعظّم إنجازاتي دومًا، ويأتي على ذكر هارفارد، ثمّ يتركني لأوضح الأمور. كنت قد هجرت الدراسات العليا منذ عام تقريبًا، ولم يبدُ لي أنّني سأستكملها.

فقلت له: "لقد كتبتُ عن الولاية القضائية العالمية وتأثيرها في الســيادة الوطنية، كما كتبتُ عن بعض المشكلات مثل المحكمة الجنائية الدولية والنقطة التي تصبح عندها أنشطة دولة ما شديدة الخطورة، ممّا يمنح دولاً أخرى الحق في التدخل. وكان أحد الموضوعات التي درسناها أزمةَ الصواريخ الكوبيـــة. ومن المثير للاهتمام كيف أنه تمّ الكشف عن الكثير من المعلومـــات الســـرية الخاصة بحقبة الحرب الباردة خلال السنوات القليلة الماضـــية. والآن، بـــات بوسعك دراستها بشكل أكثر انفتاحًا. يبدو أن الأمور قد تغيرت بحق".

فقال أوليغ: "حسنًا".

وواصلتُ الحديث: "كان ثمة رقيب روسيّ لا أتذكر اسمه، لكنه كـــان مسؤولاً عن الصواريخ النووية في كوبا. هل تعرف اسمه؟".

فأجاب أوليغ: "كلّا".

فقلت له: "حسنًا، لقد تغيّر الكثير منذ ذلك الحين".

وقف أوليغ في مكانه، وبدا لي أنه لا يواجه أي مشكلة في تتبع مســـار الحديث. لكنه بكل تأكيد لم يفعل أي شيء لإطالة أمد الحوار.

وأخيرًا، قال أبـــي: "حسنًا، لقد تمكنّا من إحضار كل ما طلبتـــه، مـــا عدا..." وحرّك سبابته فوق بند يقع في الثلث الأخير من القائمة وتابع: "هذا الكتاب. فقد تمّ تأجيل تسليمه".

بدا أوليغ راضيًا، وقال فقط: "لا بأس". ثمّ قام بدفع مبلغ وقدره ثلاثمئة دولار نقدًا؛ أي بما يتجاوز المبلغ المستحق بأربعين دولارًا، ورفض اســـترداد الفارق. لم ينطق بالمزيد من الكلام، وإنّما سلم أبـــي قائمة أخرى بعنـــاوين

كتب ومقالات وقال: "سأعود لأخذها لاحقًا".

ورغم أنّي قلت له: "كان من الجيد رؤيتك"، وقال له أبـــي: "أراك في المرة المقبلة"، لم يغادر أوليغ المكتب على الفور. بل أدخل يـــده في معطفـــه الطويل، وأخرج كيس قمامة أسود ومطويًّا بعناية، وسار عائدًا نحو خزانـــة الكتب الكبيرة البيضاء وأخذ كتابًا من أحد رفوف الكتب. لم أتبيّن العنوان من حيث كنت أقف، ولكنه أسقط الكتاب في الكيس الكبير، ثم التقط كتابًا ثانيًا وثالثًا ورابعًا. وخلال لحظات، كان يخلي الرفوف مثل طفل يهدم بيتًـــا من البطاقات. كان يتنقل بهدوء، ويستحيل أن يكون قد قرأ عناوين الكتب بينما كانت تنهمر داخل كيس القمامة.

ماذا سيفعل بها؟ هل سيرسلها إلى موسكو؟ أم سيبيعها على موقع إيباي؟ أم سيملأ خزانة الكتب الخاصة به في المجمع في ريفرديل كي يظن زملاؤه أنه مثقف؟ لم أعلم السبب، و لم يقل هو شيئًا.

بدا غريبًا بالنسبة إليّ أنّ أحدث عملائنا الروس مهووس بجمع الكتـــب المجانية. لم أكن أدري كيف أتصرف حيال ذلك. كما لاحظت كم كـــان متلهفًا للمغادرة. إذ لم يستغرق فتحه الباب ودخوله المكتب ثم إغلاقه الباب لدى مغادرته أكثر من خمس عشرة دقيقة.

عدت إلى مكتبـــي، وارتميت على مقعدي، وألقيت نظرة عبر النافـــذة الكبيرة. وبينما كنت أفعل ذلك، كان أوليغ يسير بخفة على الطريق المنحدرة حاملاً الصندوق وكيس الكتب. لا بد أن الحمل الذي كان يسير به ثقيـــلٌ جدًا. ولكن، لا بد أن أعترف بأن ذلك الدبلوماســـي الروســـي القصـــير الشاحب كان يمشي بنشاط على تلك التلة.

سألتُ أبـــي بمجرد أن غادر أوليغ حاملاً صندوقه الذي كُدِّس فيه مـــا طلبه، بالإضافة إلى كيسه الثقيل: "ما به؟ و لَمَ أخذ كل الكتب المجانية؟ يا لـــه

من شخص عجيب! عندما يذهب إلى مطعم ما، هل يملأ أكيـــاس الطعـــام المخصصة للكلاب بنعناع مجاني؟".

فأجاب أبـــي: "لا أدري ما الذي سيفعله بكل هذه الكتـــب. ربّمـــا سيبيعها إلى متجر ستراند". وهو متجر بيع الكتب المستعملة الشهير والواقع في غرينويتش فيلاج. "أو ربّما يهوى القراءة وحسب".

أدركت أن أبـــي لا يصدق ذلك. "لا يبدُ لي أنّ أوليغ شغوف بالقراءة".

أردت بشدة أن تكون بدايتي جيدة مع آخر روسي. فإذا كنت بصـــدد تحقيق نجاحات حقيقية مع المكتب الفدرالي، وإذا أردت الحصول على الخبرة التي أحتاج إليها للالتحاق بالبحرية، فعليّ أن أقنع الروس بـــالوثوق بـــي. وبالكاد كنت قد تحدثت مع أوليغ لفترة قصيرة. وخـــلال تلـــك الزيـــارة القصيرة، رأيت بنفسي ما كان والداي يتحدثان عنه. كان مختلفًا عن الروس الآخرين الذين كانوا يأتون إلينا؛ إذ كان أقل تعقيدًا وثقافة. ولأكون صريحًا، وأقل لطفًا.

قلت لأبـــي: "ربّما ما كان يجدر بـــي قول نكتة الغلاسنوست. كان الأمر برمّته غريبًا للغاية. وقد توقّعت أن يكون أطول قامة".

فقال أبـــي: "الطول ليس المشكلة الكبرى".

في ذلك الوقت، كان كل من أبـــي وأمي قد التقيا أوليـــغ مـــرتين أو ثلاث مرّات، ولم يكونا يعرفانه بشكل جيد، ولكنّهما عرفا ما يكفي عنـــه. وقد قال أبـــي: "إنّه لا يبذل أي جهد كي يكون جذابًا. وما يلفت انتباهي بشأنه حقًا هو أنه من الواضح للغاية أنه لا يرغب في التواجد هنا؛ وكأنه يجد أنّ التعامل معنا أمر يكاد يكون مهينًا. وكأنّه يشعر هكذا في أعماقه".

ذكرني ذلك بشيء ما، فسألت أبـــي: "لَمَ ذكرت موضوع الدراســـات العليا؟ أهذا ما تودّ أن يعرفه الروس عنّي؟ فكما تعلم، أنا لم أتابع دراساتي العليا".

"قلت إنك ربما ستعاود استكمالها".

قلت "لقد مرّ عام تقريبًا. وعلى الأرجح لن أعاود استكمالها. لم أنجزها وإنما هجرتها".

"حسنًا، لا ضير في إطلاع الآخرين على ما أنجزته بالفعل. فهو مدهش للغاية".

طرفت بعيني فحسب.

ثمة رسالة مخبأة في كلامه، وقد أدركتها بوضوح؛ وهي أنّه عليّ أن أستكمل الدراسات العليا، وأن أحصل لنفسي على لقب علمي. يتعيّن عليّ أن أضع قدر الإمكان الكثير من الأحرف في نهاية اسمي. كان أبي يبرع بحق في كيفية جعل الآخر يشعر بالذنب على الطريقة الباكستانية. بدا الأمر وكأنه يسألني: "متى ستمنحنا أحفادًا؟". هل سيدفع في هذا الاتجاه أيضًا؟ ربما بإمكانه في المرة القادمة أن يخبر الروسي: "يعمل نافيد على منحنا أحفادًا. أخبره عن هذا الأمر يا بنيّ".

سعدت أنا وأفا بالعودة إلى نيويورك. وبعدما أوشكَتْ الآن على إنهاء فترة ما بعد الدكتوراه في جامعة نيويورك، ستنتقل قريبًا من العمل طوال الوقت إلى قضاء وقت فراغ طويل، لذا بات من السهل توقّع كيفية سير حياتنا. كنّا نخوض العقبات المعتادة التي تواجه أي زوجين في أواخر العشرينيات، وكنّا نبني حياة مهنية ونفكر في تأسيس عائلة والاستقرار بشكل حقيقي.

بعد ساعة من مغادرة أوليغ حاملاً الكتب- تلك التي سدد ثمنها والتي لم يسدد ثمنها- اتصلت برقم تيري في 26 فيديرال بلازا. أدركت أن تلك فرصتي لجذب اهتمامه، وقررت أن الحديث المبهم هو السبيل الأمثل.

"مرحبًا يا تيري، أنا نافيد. لدي بعض المعلومات لك".

لم يتحدث للحظات، ثم قال ببطء: "حســ...سنًا، ماذا لديك؟".

"مررت بتجربة مثيرة اليوم".

فصمت عن الكلام مجددًا، ثم قال لي: "انتظر لحظة". وهذه المرة، أقسم إنه كان بوسعي سماع صوت نقر على الخط، وكأنّه ضغط زرًا أحمر كُتِبــت عليه كلمة *تسجيل*.

"إذاً، أخبرني".

"التقيتُ أحدث دبلوماسي روسي. لقد كان لقاءً كاشفًا للغاية. لــدي قائمة جديدة لك. هل تود مني أن أجلب لك نسخة منها؟".

فأجاب تيري: "بالطبع، فلنلتقِ. هل يناسبك يوم الخميس؟". اكتشــفت أن عملاء المكتب الفدرالي لا يجيدون تحديد المواعيد؛ إذ ليس من الممكن توقّع جداول أعمالهم، فهناك أمور تستجد دومًا. وإن كان اللقاء بعد يوم أو اثنين، فإن ذلك يعتبر وقت انتظار طويلاً بالنسبة إليهم.

قلت: "يوم الخميس مناسب. هل يمكننا الالتقاء قبل العمل؟".

"بالطبع".

فقلت له: "سألقاكما في المدينة".

فقال: "يمكننا المجيء إلى حيث تسكن. وسنتصل بك عندما نقترب من هناك".

بعد أن رحل أوليغ واتصلت بتيري، استغرقت لحظة لأفكــر في ثلاثــة أشياء كنت في حاجة إلى إنجازها، وكانــت كلّهــا متعلقــة باســتقلاليتي الشخصية. أولاً، عليّ حمل أوليغ على التعامل معي وحدي، وذلك بدلاً من التعامل مع والديّ. وثانيًا، عليّ أن أواصل بناء علاقتي الخاصة مــع مكتــب التحقيقات الفدرالي. وثالثًا، عليّ إقناع الطرفين بملاقاتي خارج المكتب. فقد كان مكتبنا أسوأ مكان يمكن التحدث فيه على انفراد. فهو واسع جدًا، ولا

أعرف أبدًا متى سيتواجد والداي. ونظرًا إلى دقة الموقف، إن حديقة تقع بعيدًا في شارع برودواي في منتصف شهر كانون الأول، أو مطعمًا رديئًا يقع في الضواحي كانا ملائمين أكثر بكثير.

في صبيحة يوم الخميس ذاك، قبل التاسعة بقليل، وبينما كنت أستعد للذهاب إلى العمل، ظهر رقم هاتف تيري على شاشة هاتفي المحمول، وقد قال لي: "نحن في الأسفل".

نزلت من الشقة، وكانت أفا قد غادرت إلى العمل. وكنت أضع في جيب سترتي الشتوية نسخة من أحدث قائمة خاصة بأوليغ. وما إن وطئت قدماي الرصيف حتى رأيت تيري واقفًا خارج سيارته التي كانت متوقفة إلى جوار مطفأة الحريق؛ مباشرة في الجانب الآخر من المبنى.

لم تكن راندي برفقته هذه المرة، بل كان يقف بجوار تيري رجل ضخم للغاية.

سألت لدى اقترابي منهما: "أين راندي؟".

فأجاب تيري: "لقد تمّ نقلها".

اللعنة! قلت في سرّي. هل سمع أحد ما بشأن فضيحة المنديل الصحي؟ ولكنْ كيف لهم أن يعرفوا؟! فأنا لم أكن قد أخبرتُ أياً كان بخلاف أفا. فسألته: "هل هي بخير؟".

قال تيري: "أجل. إنه شيء جيد".

شعرت بالسرور لدى سماعي ذلك، رغم أن عدم إفصاح تيري عن أي تفاصيل أطلق العنان لمخيلتي.

قال تيري: "هذا تيد". بلا اسم أخير. كان أشقر وضخمًا وقوي البنية. وكانت يداه ضخمتين للغاية، مثل يدَي شخص قادر على فتح جرَة عالقة في الثلاجة في زمن قياسي. تصافحت أنا وهو بحرارة، ومنحني ابتسامة كبيرة.

وقد بدا أكثر ودًا من تيري المتحفظ. لم يقل أيّ منهما ذلك، ولكن تولّد لديّ انطباع بأن تيد هو العميل الأكبر سنًا، مثلما كانت راندي أكبر من تيري. لكن تيد- مثلما كانت راندي- كان ودودًا بما يكفي.

قلت لهما: "لدي القائمة".

وأثناء حديثنا، لاحظت أن بعض جيراني يخرجون من البناية. ولحسن الحظ، لم يعبروا الشارع في طريقهم نحو قطار الأنفاق. ولكنّني أدركت أنها مسألة وقت فقط قبل أي يمر شخص ما بجوارنا ويقول "طاب صباحكم". بدا لي أن وقوفنا هكذا ليس أمرًا حكيمًا للغاية، فأنا أقف خارج المبنى غير حليق، ومرتديًا ملابس رياضية، ومنهمكاً في الحديث مع رجلين يرتديان بزتين مهندمتين عند الساعة الثامنة صباحًا.

لذا، قلت لهما: "أيها الرفيقان، هذا غريب قليلاً". و لم أدعُهما هذه المرة إلى شقتي، بل قلت: "هل تمانعان إن تجنبنا اللقاء أمام بنايتي؟ ثمة حديقة هناك".

كانت حديقة ستراوس على شكل مثلث، وتقع عند تقاطع شارع برودواي وجادة ويست إند في الشارع رقم 106. وكانت الحديقة الصغيرة تشتهر بتمثال برونزي نُصب في العام 1913 لحورية تحدق إلى مياه هادئة. نُحِت التمثال تخليدًا لذكرى إيسيدور ستراوس- وهو عضو في الكونغرس الأميركي وأحد مؤسسي سلسلة متاجر مايسيز- وزوجته، اللذين توفيا في الخامس عشر من أبريل من العام 1912، وذلك عندما غرقت سفينة *أس.أس تايتانيك* في شمالي المحيط الأطلسي.

كان آل ستراوس يقيمان في منزل في شارع برودواي على بعد حيٍّ إلى الجنوب من الحديقة. وعندما غرقت السفينة، رفضت إيدا الصعود على متن أحد قوارب النجاة مع النساء والأطفال الآخرين، وأصرّت على البقاء مع حبيبها إيسيدور.

جلستُ مع تيد وتيري على مقعد يقع إلى يسار التمثال. وفي هذا الصباح البارد من شهر ديسمبر، كنا نحن الثلاثة الأشخاص الوحيدين الذين جلسوا هناك.

سألني تيري مستهلاً الحوار: "كيف كان رد فعل أوليغ عندما تواصلت معه؟ كان يتوقع لقاء والدك فقط، أليس كذلك؟".

فأجبته: "حسنًا، ما كنت لأصفه بالشخص الودود بالضبط. ولسوء الحظ، أخبرته نكتة، ولكنّ الأمر لم يمضِ كما اعتقدت. إذ لم يعتقد أنها لطيفة".

فسألني تيد: "أخبرته نكتة! أي نوع من النكات؟".

"نكتة عن الغلاسنوست".

نظر كلا العميلين إليّ ثم تبادلا النظرات، وسأل تيري تيد: "هل تعرف أي نكات عن الغلاسنوست؟".

"لا أظن ذلك. وأنت؟".

فأجابه تيري: "ولا أنا". ثم سألني: "ماذا تقول النكتة؟".

"أتودان سماعها؟".

فأجاب العميلان في انسجام تام تقريبًا: "أجل".

أخبرتهما عن الرجل الذي سئم الانتظار في الطوابير في الاتحاد السوفييتي سابقًا فقرر اغتيال غورباتشوف، لكنّ طابور الأشخاص الذين كانوا راغبين في القيام بالمثل كان طويلاً جدًا أيضًا.

فسألني تيد: "ولم يعتقد أوليغ أنها نكتة لطيفة؟".

أدركت أن تيد يداعبني.

وقال تيري: "أظنها رائعة".

"أجل". ردّ عليه تيد.

أخبرت العميلين أن أوليغ لم يكن كثير الكلام، وأنه بدا أكثر ارتياحًا في التعامل مع والديّ، ولكنّه ليس مثال الشخص الذي يبدو مرتاحًا للغاية في التعامل مع أي كان. وأخبرتهما أنني تمكّنت من الدردشة معه قليلاً، وأننا تناقشنا في ما كنت أدرسه في الدراسات العليا، وأخبرته عن دوري في الشركة الآن.

"أعتقد أنني قد حقّقت بعض التقدم معه". قلت وقد بالغت قليلاً في إخبارهما بما جرى.

ناولت تيري القائمة الجديدة. وقلت إنني واثق من أن أوليغ سيعود في الأسابيع القليلة القادمة لأخذ تلك الكتب، وإنه سيطلب المزيد. ثم- وبأوضح ما يمكن- وصفت لهما نوع الشخص الذي بدا عليه أوليغ. وقد أكّدت بشكل خاص على موضوع الكتب المجانية.

فقد قلت: "يا له من بخيل أحمق! هل أفلس هؤلاء الرفاق؟ هل يتعيّن عليهم المجيء إلى المتاجر الصغيرة وأخذ الأغراض المجانية؟ أو صندوق من حبال النشر من محلات التنظيف الجاف؟ أو كمية من الكاتشب من ماكدونالدز؟".

بدأ تيد بالضحك، وقال: "أصدق ذلك. إنهم مقززون".

وقال العميل الأكبر سنًا إن بعض الدبلوماسيين يتلقون معونات من الأمم المتحدة لتسديد بدل عبورهم فوق الجسور وعبر أنفاق نيويورك.

"ثم يغيرون طريقهم ويستخدمون الجسور المجانية. يشتكون من أن الرسوم تدعم الحكومة الأميركية، وهم حقًا لا يرغبون سوى في وضع المال في جيوبهم".

أخبرتهما أن أبي لديه نظرية بشأن الشراب الذي كان الروس يشترونه عادة عندما يعودون إلى موسكو. "قال أبي إنهم لا يشترونه في الواقع. فهم يحصلون عليه بثمن بخس من البعثة، أو يحصلون على القليل من القوارير من متجر معفى من الرسوم الجمركية".

قال تيري: "يبدو هذا صحيحًا".

أعتبر تلك المحادثة التي جرت في حديقة ستراوس، والتي لم تدم أكثر من ربع ساعة، أول اجتماع عملي لي مع مكتب التحقيقات الفدرالي. إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي أبلغ فيها العميلين بشأن شيء عرفته في الميدان. ربّما لم أقدم الكثير؛ فقد عبّرت عن انطباعاتي الأولية فحسب، وذكرت بعض التفاصيل الجانبية الصغيرة. ولكنّني أجريت أول حوار شخصي مع دبلوماسي روسي، وقد أظهرت ذكائي للمكتب الفدرالي. لا أقول إن أيًا مما فعلته كان ذا قيمة. ولكن، هكذا تُبنى الثقة، وكنت آمل أنني أبني الثقة على كلا جانبي حقبة ما بعد الحرب الباردة.

عاد أوليغ إلى دوبس فيري بعد مرور تسعة أسابيع، وذلك من أجل كل الأسباب المعتادة؛ أي كي يستلم الكتب التي طلبها، ويطلب كتبًا أخرى. وأجل، كي يملأ كيسه الضخم بحمولة كبيرة من الكتب التي أخذها من الرفوف التي أعيد ملؤها. كنا في أواخر شهر فبراير، ومثلما جرت العادة، ظهر أوليغ ببساطة من دون اتصال مسبق أو حجز موعد. ومن دون لفت انتباه من أي نوع كان. كنت قد توقّعت ذلك، ولهذا كنت أحرص على التواجد في المكتب قدر الإمكان، فكنت أصل باكرًا وأبقى حتى وقت متأخر. لم أرغب في أن أفوّت فرصة لقاء أوليغ، وكنت آمل أيضًا أن يأتي في وقت يغيب فيه والداي.

وقد حقّقت النجاح على كلتا الجبهتين؛ إذ لم أفوّت فرصة لقائه ولم يكن والداي متواجدين.

عبَر الباب الأمامي ثمّ توقف في مكانه من دون أن يتقدّم خطوة واحدة. وبعد أن وقف هناك للحظة، سرت نحوه وقلت له: "مرحبًا".

فأجاب بصوته الناعم ببرودة: "صباح الخير. هل نسيم هنا؟".

فقلت له: "لا، ليس هنا. وأمّي أيضًا غير موجودة. هل ثمة ما يمكنني مساعدتك فيه؟".

سكت قليلاً ثم قال: "أرى ذلك. هل سيعودان لاحقًا؟".

"ليس اليوم".

"أرى ذلك. يجدر بي العودة في وقت آخر ربّما".

كنتُ أرغب في جعل علاقة أوليغ محصورة بي. وبما أنّ والدَيَّ في الخارج، كانت تلك هي الفرصة المثلى بالنسبة إليّ، و لم أُرِد أن تُفلِت من بين يديّ. فمن يدري متى سيعود أوليغ مجددًا؟ ولو ظنّ أنّ ثمة خطبًا ما هنا، فهل سيعود يومًا؟

فقلت له بإلحاح: "أنت مرحّب بك بشدة للعودة لاحقًا. ولكنّ والدَيّ يقضيان وقتًا أقل في المكتب في هذه الفترة. لقد أخبراك أنهما سيتقاعدان قريبًا، أليس كذلك؟ إنّ جدول مواعيدهما مضطرب للغاية. أتعلم؟ أكره أن تعود مجددًا ولا تجدهما".

بإمكاني التأكيد على تفحّصه لي، ومحاولته تحليل ما أخبرته إياه. وللمرة الأولى، بدا لي أن هناك احتمالاً حقيقياً بأن يكون الروس قد بحثوا في الأمر، وقرروا أن التعامل مع والدَيّ أكثر أمنًا بكثير من التعامل معي. فقد كنت مجهولاً بالنسبة إليهم.

فقلت له: "أنا على يقين من أنه بوسعي المساعدة".

أخذ نفسًا عميقًا، ثم وافق أخيرًا وقال: "أنا هنا لاستلام ما طلبته".

فقلت: "لا مشكلة. يمكنني الذهاب وإحضارها لك".

"حسنًا".

لم يساورني شعور بأنه لم يصدّقني، بل كان الأمر أشبه بتطور جديد بالنسبة إليه وكان يتقبله. و لم يبدُ كشخص يجيد التعامل مع المفاجآت.

عدت أدراجي إلى حجرة المخزن، وعثرت على الصندوق الخاص بــه. ومثلما جرت العادة، لم يكن قد تمّ إغلاق الصندوق بعد، وكانت الفـاتورة موضوعة فوقه. حملت الصندوق إلى منطقة الاستقبال، ووضعته على طاولة القهوة. وقلت له: "أعتقد أن لدينا كل شيء هنا". فلم يتحقق مما قلته.

ناولت أوليغ الفاتورة، فتصفّحها بتأنٍ، ثم دفع المبلـغ المسـتحق مـع البقشيش المعتاد. وترك قائمة أخرى، ثم أدخل يده في معطفه الطويل وأخرج كيسه الضخم، وانشغل عند خزانة الكتب.

عندما غادر، تملكني شعور بأنني حققت بعض التقدم هذه المرة. لم يكن قد توقّع أن أتواجد في المكتب، فقد افترض أنه سيلتقي أمي أو أبـي؛ مثلما اعتاد هو وكل الذين سبقوه من الروس. بوسعي القول إن ذلك لم يرق لــه. ولكنّنا على الأقل تحدثنا. وحتى إنّ ذلك الحوار القصير منحني الأمـل في أنّ علاقتنا ربّما ستسير نحو نهاية ما.

الفصل التاسع

حرب الشبكات

بغية وضع أيديهم على معلومات سرية، راق للروس استخدام أسلوب سُك في المتاجر الأميركية من قبل جيل كبار السن. في بلدتي، كنا نسميه "أسلوب التمرير خلسة".

"حسنًا، أريد وجبات معلبة من لين كوزين، وعلبة من صلصة من التفاح، وبطاريتين دي، وفرشاة أسنان لطفل، وعلبة فيها ست لمبات من ماركة باد. وأجل، عدد مجلة يو أس ويكلي". كنا نقول ذلك طوال الوقت، آملين ألا يرد علينا الموظف بعبارة: "انتظر لحظة! أنت مراهق!".

لا بد أنه كان لديهم أسلوب مشابه في روسيا.

عبر السنوات، كنّا أنا ووالداي نسخر من محاولة أحد الروس دسّ اسم مستند سريّ أو تقرير غير مسموح بنشره بين طلبات الكتب الروتينية. ولكن، كانت المرة الأولى التي شهدت فيها على قيام روسي بذلك في العام 2006. أي عندما ظهر أوليغ في المكتب في دوبس فيري من دون موعد مسبق كما اعتاد، خلال أحد أيام شهر أغسطس الحارة.

تفوّه ببعض المجاملات العجيبة، ثم ركز نظره- كما فعل دومًا- على رف الكتب المجانية. وبينما ذهبتُ لأجلب له ما طلبه، بدأ بوضع الكتب

المجانية في كيس القمامة. لم يكن قد حدث أي شيء غير المعتاد حتى تلك اللحظة. وبعد أن سدّد لي ثمن ما طلبه، ومنحني بعض البقشيش السخي، سلّمني أحدث قائمة لأمنياته. ضمت القائمة عشرات عناوين الكتب والمقالات، إلى جانب كتيب عن مؤتمر كان قد عُقد في واشنطن في وقت باكر من هذا العام.

"ما هذا؟". سألته وقد بدوت كموظف متعب بقي حتى السابعة مساءً في العمل.

فقال وكأنه كاد ينسى: "أجل، هل أنت عضو في هذه المنظمة؟ هل ستكون قادرًا على جلب محاضر الاجتماعات الخاصة بهذا المؤتمر لي؟".

نظرت إلى الكتيب الذي ناولني إياه. كُتب عليه "IDGA" أي اختصار "مؤسسة الدفاع والتقدم الحكومي. المؤتمر السنوي الخاص حول حروب الشبكات".

كنت قد سمعت عن حروب الشبكات. إذ كانت هذه النظرية قد وُضعت في التسعينيات من قبل الأميرال ويليام أوينز وآخرين في وزارة الدفاع. وكانت الفكرة الرئيسة الكامنة وراءها هي أننا نمتلك تكنولوجيا كمبيوتر أفضل بكثير مما يمتلكه كل أعدائنا، لذا يتعين علينا ترجمة التفوق الأميركي في مجال المعلومات إلى ميزة عسكرية عملية لقواتنا في ميدان المعركة. أنظمة الاستشعار الشبكي، والوعي الظرفي المشترك، والهيمنة كاملة الطيف، والتقييم السريع للهدف، والحد من تعطل العمليات؛ كانت تلك هي التعبيرات الطنانة لحروب الشبكات. كان ذلك الموضوع يخضع لجدال حامٍ في الأوساط الدفاعية عندما أبدى أوليغ اهتمامه به. غير أنّني لم أكن على علم بذلك المؤتمر. فحسب علمي، ربّما كان متاحًا لأيٍّ كان الاستعلام عنه. لكنّني وعدت أوليغ بأنني سأفعل ما أستطيع القيام به.

وبقدر ما أردت للحوار أن يستمر لأكتشف حقيقة هذا الرجل، إلّا أنّ تواجده في المكتب كان مخيفًا قليلاً. فقد لاحظت أن بعض الأشخاص ينظرون إليه نظرات تملأها الريبة، وكأنّهم يقولون: "هو مجددًا!".

لذا، وعدته يومئذ قبل أن يغادر المكتب: "سأنظر في الأمر من أجلك، وسأعلمك بما يستجد في كل الأحوال".

ثم غادر بسرعة كما جاء.

تشمل مؤسسة الدفاع والتقدم الحكومي- تذكرت الاسم بصعوبة- مسؤولين حكوميين أغلبهم من وزارة الدفاع، وأشخاصًا من الجانب التقني لصناعة الدفاع. وتنقسم إلى مجموعة الشبكات، ومنصة التدريب، ومختبر الأفكار. وقد كانت فعاليات المنظمة والصناعة بشكل عام "مخصصة للترويج لأفكار مبتكرة ولآخر التطورات في مجالَي الخدمات العامة والدفاع".

وإذا أردت ترجمة إنجليزية لما سبق ذكره، يمكن القول إنّ عباقرة صناعة الدفاع يجتمعون لتبادل المعلومات بهدف المرح وتحقيق الربح في الوقت نفسه.

وبعد أن أجريت بحثًا سريعًا عنه على جوجل، علمت أن مؤتمر حرب الشبكات كان قد عُقد في يناير في مركز رونالد ريغان للبناء والتجارة الدولية؛ على بعد حيٍّ واحد من البيت الأبيض. وأجل، بدا المؤتمر أكثر من مجرد تجمّع لهواة تكنولوجيا الانترنت. فوفقًا لملف صغير عثرت عليه عبر الانترنت، كان "فرصة فريدة لاكتساب العلم والتواصل مع أكثر من ثمانمئة من الزملاء العسكريين البارزين في هذا المجال". وقد كان المتحدثون من النخبة في هذا المجال، مثل الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة السابق الذي ألقى الكلمة الرئيسة. كما تحدّث أيضًا جون أشكروفت، المدعي العام الأميركي السابق.

مرّرت ما طلبه أوليغ إلى أحد الباحثين في المكتب مثلما كنت أفعل مع أي طلب غيره. إذ كنت أحاول التظاهر بأن أوليغ مجرد زبون آخر، وقلت له: "أحضر ما تستطيع إحضاره من هذه القائمة".

وبعد أيام قليلة، عاد الباحث وقال لي إنه حاول القيام بكل ما أمكنه التفكير فيه، ولكن ظهر الكثير من العقبات. وكانت الطريقة التي شرح بها الأمر هي القول: "ليس متاحًا للعامة. لا أعتقد أنه يمكننا مساعدته في الحصول على طلبه هذا. لا بد أن تكون عضوًا في المنظمة كي يتاح لك الوصول، أو لا بد أن تكون قد حضرت المؤتمر". وبدا أنّه ثمة تعقيدات في الحصول على تصاريح لأيّ من الوثائق الخاصة بذلك المؤتمر.

سألت الباحث عمّا إذا كانت لديه أي أفكار أخرى، فنفى ذلك. عندها، استنتجت أن الأمر لن يكون سهلاً. فليس من الممكن الحصول على محاضر المؤتمر ببساطة عبر الدخول من الباب الأمامي للمؤسسة. ولم أتخيّل نفسي وأنا أتدلى من السقف باستعمال حبال مثلما فعل توم كروز في فيلم *المهمة المستحيلة*.

ولكنّني لم أكن مستعدًّا للاستسلام بعد. فقد وجدت في ما طلبه أوليغ فرصة ذهبية لي. إذ كان يسأل عن وثائق بدا لي جليًا أنها بعيدة عن متناول يده. ولو كان قد طلب ذلك من والديَّ، لكانا قد رفضا الأمر ببساطة مثلما أخبراه هو ومن سبقوه مرات عديدة من قبل. هل التقط أوليغ إشارات الانفتاح لدي؟ أم قرّر تجربة حظّه معي؟ في كلتا الحالتين، كرهت أن أردّه خالي الوفاض. فإن أردت توطيد علاقتي به، لا يجب أن أفوّت هذه الفرصة الثمينة.

حرصتُ على التحدث إلى العميلين؛ فربّما كانت لديهما فكرة ما. وافق تيد وتيري على مقابلتي في حديقة الزهور الواقعة في كاتدرائية سانت جون

على بعد أحياء قليلة من مكان سكني. فطالما أنّ هناك عمــلاً بيننــا ينبغــي إنجازه، ظننت أنه بإمكاننا القيام بذلك في مكان لطيف. وفي شهر أغسطس شديد الحرارة، تعتبر حديقة الكاتدرائية إحدى البقاع القليلة الجميلة والمنعزلة في نيويورك.

أوضحت للعميلين: "كنتُ أحاول الحصول على محاضر المؤتمر من أجل أوليغ. وهي تختلف عن العناوين التي يسأل عنها عادة. لا أعتقد أنّ ذلك من قبيل الصدفة، ولكنّني وصلت إلى طريق مسدودة".

أخبرهما أنّني لست على استعداد للاستسلام بعد. "إذ أشعر أنّه ربّمــا يحوم حولي، محاولاً اكتشاف ما يمكنني الوصول إليه، وما يمكنني الحصول عليه من أجله. حتّى إنّني لستُ واثقًا من مقدار اهتمامه بالمؤتمر. أظنّ أنه يحــاول اختباري".

فطرح عليّ تيد السؤال البديهي: "لماذا؟".

فقلت معترفًا: "ليتني كنت أعرف".

لم يوافق كل من تيد وتيري على المضي قدمًا على الفور، ولكن بدا لي أنّهما معجبان بحقيقة أنّني كنت أفكر بطريقة استراتيجية وأحاول اكتشــاف دوافع الروسي. وعلى الأقل، لم يثنياني عمّا أنويه على الفور مثلمــا كنــت أخشى أن يفعلا.

وقال تيد: "هذا مثير للاهتمام جدًا".

"يمكنني أن أقول لأوليغ: *اسمع، لا يمكنني أن أحضرها لك، أنا آســف*. ولكن، ماذا لو كان ما أظنّه حقيقيًا؟ أي إذا كان يتأكد إن كنتُ حقًّا جاهزًا للتجسس لصالحه؟ يجب أن أحاول الحصول عليها من أجله، أليس كذلك؟".

بدا لي أنّ تيد وتيري قد أدركا ما أرمي إليه، ولكنّنا أنهينا حوارنــا في حديقة الزهور بعبارة غير ملزمة، إذ قال تيد: "حسنًا، لنفكر في الأمر".

لم تكن ثمة أي حاجة إلى العجلة، إذ كنّا ندرك أن لدينا ثلاثة أشهر تقريبًا قبل أن يعود أوليغ.

ولكن، ليس هذا ما حصل بالضبط.

فقد ظهر أوليغ في المكتب في منتصف سبتمبر، أي بعد أقل من شهر على آخر ظهور له. وكما جرت العادة، أتى من دون سابق إنذار. فقد رفعتُ ناظريّ فحسب، ووجدته ماثلاً أمامي. غدا سلوكه هذا مزعجًا بالنسبة إليّ؛ فقد جعل من التخطيط أمرًا مستحيلاً. وبما أنّني لم أشأ أن أفوّت فرصة مقابلته، توّجب عليّ البقاء بالقرب من المكتب. لم يكن سلوكه ذاك مريحًا، وقد تسبّب بإزعاج الموظفين الآخرين. إذ كانت قائمة عملائنا منتشرة عبر البلاد وعبر العالم، ولم تكن شركتنا مكانًا يظهر فيه العملاء بشكل عشوائي. وإلى جانب كل ذلك، لم أكن مستعدًا لاستقباله.

أسرعت الخطى نحو أوليغ بقدر ما استطعت. وبعد حديث سطحي قصير تبادلناه، انتقل بسرعة إلى ما افترضت أنه سبب عودته السريعة. "هل تمكّنت من جلب محاضر المؤتمر تلك لي؟".

كلّ ما تمكّنت من فعله هو إقناعه بالانتظار. إذ لم أشأ إخباره أنني قد حاولتُ إحضار ما يريده وفشلت في ذلك، وقلت له: "لقد كنت غارقًا في العمل هنا". الأمر الذي كان حقيقيًا، ولكنه لم يكن السبب. "سأحضرها عمّا قريب. سأحاول الحصول عليها من أجلك".

وما إن غادر أوليغ حتى كنت أتحدث عبر الهاتف إلى كلّ من تيد وتيري. وقد أخبرت العميلين: "ما زال يسأل بشأن المؤتمر. بوسعي المحاولة مرّة أخرى بمفردي لمعرفة إن كان بمقدوري الحصول على ما يريده. ولكن يتعيّن عليّ الحذر، فأنا لا أريد أن أثير شكوكًا حولي، ولا يمكنني إضاعة وقت طويل في هذا الأمر. فقد بات الناس في المكتب يتساءلون بشأنه بالفعل، ولا

يمكنني أن أسمح لهذا الأمر بتدمير عملي. علينا أن نقرر ما إذا كنا سنحضر له ما يريده أم لا، وكيفية قيامنا بذلك".

عندها، سألني تيد: "إذًا، كيف ترى الأمر؟ ماذا تريد أن تفعل؟". وراق لي فعلاً أنّه مهتم بسماع رأيي.

فقلت: "أتمنّى لو كان بمقدوري إيجاد طريقة لأجلب بها محاضر ذلك المؤتمر إليه. أعتقد أنّ هذا الأمر قد يؤسّس لثقة متبادلة بيننا".

عندها، قال لي تيري: "حسنًا، حاول مرّة أخيرة وأخبرنا كيف سارت الأمور". فقلت له إنّني سأفعل. ظننت أنّهما سيكونان أكثر نفعًا لي، ولكنْ على الأقل لم يخبراني أنّ تحليلي للوضع كان خاطئًا.

علمت بأمر المزيد من المؤتمرات؛ إذ كان هناك مؤتمر حول حرب الشبكات يُعقد في أوروبا، وكان بوسعي حضور ذلك المؤتمر وإبلاغ أوليغ بشأنه. بدا السفر إلى خارج الولايات المتحدة أمرًا ممتعًا بالنسبة إليّ، ولكنّ القيام بهذا لن يفي بطلبه حول مؤتمر واشنطن. وقد وصلت الأمور إلى الحدّ الذي توقعته في ما يتعلق بهذه الأمور؛ وهو أنّني لم أتوصّل إلى شيء. وهذا لا يعني أنّني قد أمضيت وقتًا طويلاً في المحاولة.

عاود أوليغ الظهور مجددًا في شهر أكتوبر، أي بعد شهر من زيارته الأخيرة. عندها، بدأت العلاقة بيننا تتّخذ مسارًا مختلفًا بكل تأكيد. ففي صباح أحد أيام الخميس الممطرة، نظرت إلى الأعلى من حيث أجلس إلى طاولة مكتبي، فوجدته واقفًا هناك. رافقته هذه المرّة إلى موقف السيارات في الخارج، ووقفنا هناك مثل تاجرَي مخدرات يتساومان على صفقة. وبعد فترة وجيزة، أتى على ذكر المؤتمر. فعلى ما يبدو، إن العسكري الروسيّ السابق شخص يكره ترك الأمور معلقة. لا بدّ أنّ الرجل يحمل معه قائمة مهام شديدة الأهمية!

أخبرته وقد بدأ صبري ينفد: "أنا أعمل على ذلك. ولكنّ هذا لا يشبه طلب كتاب لك. إذ سيستغرق الأمر بعض الوقت. أعتقد أنّه بإمكاني جلب ما تريده، ولكن يتعين عليّ أوّلاً أن أتجاوز بعض العقبات". وأخفضت نبرة صوتي وتابعت: "فكما تعلم، هذا الأمر مختلف. إنّه موضوع جديد تمامًا، ولست واثقًا حتى من قدرتي على جلب ما تريده. ربّما أستطيع العثور على صديق يمكنه المساعدة، ولكن هذا سيكلفك شيئًا ما. ولن يكون المقابل ضئيلاً، أتفهم ما أقوله؟".

فقال إنّه يتفهّم ذلك.

وحالما غادر، عدت إلى مكتبي واتصلت بالعميلين مجددًا.

قلت لتيري: "انظر، لقد ناقشت مع أوليغ الصعوبات التي تعترضني. وأحتاج إلى أن أكون واضحًا بشأن ما يتعيّن عليّ إخباره به. فهل ستتركانني عالقًا هكذا؟ أم يمكنكما المساعدة ليحصل على ما يريده؟".

فأجاب تيري: "ربّما". جعلني ذلك أعتقد أنّهما سيساعدانني على الأرجح. وشعرت بالارتياح حين أردف: "سأرى ما يمكننا فعله". فحتى من دون تأكيده الجازم بأنهما سيساعدانني، بدأنا نناقش ما سأقوله لأوليغ لأشرح له كيفية حصولي على الوثائق.

قلت: "التصرف المنطقي هو أن أقول له إنني اعتمدت على شخص آخر في شرائها. إمّا ذلك أو أنّني قد حصلت على عضوية في معهد الدفاع والتقدم الحكومي وسدّدت المصاريف". كنت أفكر بسرعة، وآتي بالأفكار وأعدّلها عندما أرى أنه ثمة مشكلة ما. وواصلتُ الحديث: "لعلّ حصولي على العضوية سيأتي بالنتائج المرجوة، ولكنّ ذلك سيترك دليلاً خلفي، ولا يمكنني الجزم بأن جماعة أوليغ لم تحاول القيام بذلك مسبقًا وأنها لا تعرف أنّ الأمر غير مجدٍ. قد يكون هذا مجرّد اختبار لي. وأعتقد أنه من الأفضل أن ندعه يظنّ أن لديّ

شخصًا ما في الداخل يساعدني". كانت تروق لي فكرة ترسيخ الاعتقاد بأنني أعرف الكثير من الأشخاص في الكثير من الأماكن. لذا، قلت وأنا أشعر بالرضى عن تحليلي للموقف: "بالنسبة إليّ، يبدو أنّ هذا هو السبيل الأمثل الذي يتعين السير فيه".

قال تيد: "لا يمكننا توفير مسودة إرشادات لك. ولكن، لا بدّ أن تبدو طبيعيًا. عليك أن تركّز على اللحظة الراهنة، وأن تثق بما تقوله. فإذا لم تكن واثقًا بما تقوله، فلن يصدقك". إذا كان أوليغ سيثق بي، فلا بدّ أن يكون التفاعل بيننا حقيقيًا وسلسًا، وكأنّ علاقة صادقة تجمعنا. ليس هناك تلقين في التجسس. "لذا، فالسؤال المهم هو: كيف تعتقد أنك حصلت على تلك المواد؟ ولا تنسَ، لا بأس أحيانًا في ترك الجواب غامضًا".

فوافقته الرأي: "لعلّ الغموض قد يجدي. في الماضي، لم يسأل الروس مطلقًا عن كيفية حصولنا على الكتب، بل كانوا يأخذون الأغراض التي نعطيهم إياها ويرحلون".

أشعرني العميلان بشكل متزايد بأنني جزء من المحادثة، وأننا ثلاثة أشخاص أذكياء نحاول ابتكار استراتيجية معقولة، وتخطّي تحدٍّ ماثل أمامنا. وقد أظهر ذلك بكل تأكيد شخصية المعلّم القابعة داخل تيد. وما انفككت أطرح عليه الأسئلة. ما كنت لأعتبره بمنزلة أبٍ لي؛ فقد كنا نمازح بعضنا كثيرًا، ولكنّه بدا وكأنّه يحب إسداء النصح لي.

هل كانا يخدعانني؟ هل كانا يثنيان عليّ كذبًا؟ أم كانا بحقّ يقدّران ما أقوله؟ دعوني أوضّح الأمر هكذا: لقد جعلاني أشعر أننا بصدد القيام بشيء ما.

بعد أيام قليلة لاحقة، كان تيري يتحدّث إليّ عبر الهاتف مجددًا. ولكن، هذه المرّة كان هو من بادر بالاتصال بي.

وقال: "حصلنا لك على ما أردته. وضعنا كل شيء على قرص مضغوط من أجلك. يجدر بك رؤية التعديلات التي أجراها رجالنا على ملفات الباوربوينت!".

فقلت له: "باوربوينت!".

كنت أكره برنامج الباوربوينت، وأعلم أن تيري يحاول دغدغة حسّ التكنولوجيا لديّ، ولكنه اختار البرنامج الخطأ لفعل ذلك. فعند وقوعه بين يدَي الشخص الخطأ، ينتزع البرنامج الحياة من الأفكار التي يفترض أن يعمل على تحسينها. فأيًا كان الموضوع- تغيير مرحاض حمام أم غزو العراق- فرض برنامج باوربوينت نظامه الممل، وحوّل حتى المواضيع المثيرة إلى فقاعات غير متمايزة. لم يكن خطاب مارتن لوثر كينغ جونيور الشهير "لديّ (وقفة/إخفاء/شريحة جديدة) حلم". وإن كنتُ مضطرًا إلى وضع قائمة أخرى بمساوئ البرنامج، فسأضطر إلى الانتحار في نهاية المطاف.

قال تيري: "هيّا يا نافيد، يجدر بك إلقاء نظرة عليها. ثمة عمل رائع تمّ إنجازه على القرص المضغوط".

فقلت له: "أعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعلهم يدفعون لكم مبالغ طائلة يا رجل".

لم تولّد الرسوم البيانية الخيالية أي إثارة لديّ. إلّا أنّ حقيقة أن القرص المضغوط بحوزتي هي التي جعلتني أشعر بالإثارة.

كان ما جمعه العميلان من معلومات عن المؤتمر مذهلاً للغاية. فثمة أجندة مفصلة بأعمال المؤتمر، وقائمة بأسماء الحاضرين، وملخصات للمناقشات التي دارت حول "المعلومات الاستخبارية الخاصة بحرب الشبكات ونتائج اختبار الشبكة المحمولة جوًا"، وكافة ملفات الباوربوينت، ونسخ من مجموعات شرائح التقديم، بل وحتى الملاحظات التي أبداها المتحدثون. لقد

كان القرص المضغوط محملاً بالكثير من المعلومات، وقد كان ذلك ثاني أفضل شيء حدث لي منذ عملي معهم. وأدركت جيدًا أنه حين ينـــزل العمـــلاء الفدراليون إلى الميدان تتحقق النجاحات.

لم يخبرني تيد قط مع من تحدث العملاء أو كيف فسّروا الأمر. حاولت بشتى الطرائق معرفة هذه المعلومة، أو حتى جزء منها، ولكنني فشلت. وقـــد واسيت نفسي بالقول إنهم يعملون بإمكانيات ضخمة. فعمليات البحث شبه الحكومية تغدو أسهل بكثير عندما تكون أول عبارة تخرج من فمك هـــي: "مرحبًا، نحن نتصل من مكتب التحقيقات الفدرالي".

لقد عثروا على ما عجزت عن إيجاده، وقد كنتُ سعيدًا بذلك.

استمر أوليغ على نهج الظهور المتسارع؛ إذ عاود الظهور في نـــوفمبر. وعندما شاهدته وهو يجتاز الممر المؤدي إلى شركتنا، نزلت إلى الأسفل مسرعًا واعترضت طريقه قبل أن يصل حتى إلى المدخل.

وقلت له: "لنقم بجولة في السيارة، فلديّ شيء أريد أن أريك إياه".

استقللنا سيارتي الذهبية من طراز Acura RL موديل العام 2005، وهي الأحدث في تعاقب سريع للمركبات، وتوجّهنا صوب جادة سيدار، وهـــي الطريق الرئيس الواقع في قلب دوبس فيري.

قلت وأنا أناوله القرص المضغوط الخاص بمكتب التحقيقات الفـــدرالي: "خذ. لقد حُفظ فيه كل شيء يخص المؤتمر. أعني كل شيء؛ بمـــا في ذلـــك مجموعات شرائح العرض والملاحظات الهامشية التي أبداها المتحدثون. ألستُ مدهشًا أم ماذا؟".

في الواقع، لم يُجب أوليغ عن سؤالي. وقد سُررت لأنه لم يُجب، ولكنه شكرني وقد بدا صادقًا في ذلك، ثمّ ناولني مغلّفًا أبيض بحجم مغلّفات الوثائق القانونية وبداخله نقود أميركية، ثم سألني: "هل تكفيك ألف دولار؟".

فأجبته: "عشرة آلاف دولار ستكون أفضل، ولكن لا بأس بألف دولار كبداية". وأدركت على الفور أنني قبلت بمقابل زهيد للغاية. "هذا لا يغني عن المبلغ المطلوب مستقبلاً". وشدّدت على هذه النقطة. "ولكن، لا بأس به كبداية".

لم يسألني أوليغ عن كيفية حصولي على الوثائق الخاصة بالمؤتمر، فلم تُتح لي الفرصة كي أسرد القصة الزائفة عن صديقي الذي ساعدني، وهو ما كان لحسن حظي الشديد. إذ ما كانت القصة لتصمد أمام التدقيق لثلاثين ثانية. *من كان هذا الصديق؟ وما دافعه لمساعدتك؟ وكم دفعت له؟ وهل سيساعدنا مجددًا؟* "لقد كان عملاً مضنيًا قليلاً". كان ذلك كل ما قاله أوليغ. وبالأساس، بدا سعيدًا لأنني تمكنت من جلب ما طلبه. ثمّ حول انتباهه إلى مهارتي في الركن.

فقد قال بينما كنت أوقف السيارة أمام متجر للكعك يقع في جادة سيدار: "هذا المكان ضيق جدًا. لا أعتقد أنه يمكنك الركن هنا".

فقلت له: "حقًا؟ راقب فحسب".

لماذا شعرت بمنافسة شديدة مع أوليغ؟ ولماذا تؤكد هذه الرغبة في التنافس نفسها في موقف للسيارات في الضاحية؟ كل ما أعرفه هو أنني ما إن وضعت السيارة في الاتجاه المعاكس وخففت قدمي على دواسة الوقود، حتّى همس صوت منخفض داخل رأسي بشأن الشرف الأميركي. وعندما أدرت المقود بشدة إلى اليمين، بدوت مثل سيلفستر ستالون وهو يكيل اللكمات لدولف لانغرين في الجولة الخامسة عشرة في الجزء الخامس من فيلم *روكي*.

كان لسيارة Acura مقود شديد الحساسية، وأجهزة استشعار احتياطية لا يمكنني الجزم إن كان أوليغ قد سمع بها من قبل. ولا داعي لكي أقول إنني كنت في حاجة إلى ركن السيارة في تلك البقعة بالذات من جادة سيدار.

لطالما كنت بارعًا للغاية في الركن المحاذي. ولكنّني أدرت المقود في اللحظة المناسبة تمامًا، ولم تتأذَّ أجهزة الاستشعار الاحتياطية. ركنت السيارة بشكل مريح في المكان الضيق، وذلك على أنغام أغنية جيمس براون "كيو" عندما قال "أحب العيش في أميركا".

فقال أوليغ: "جيد للغاية".

لم يطُل بقاؤنا في متجر الكعك، فقد بقينا فقط لاحتساء القهوة والدردشة لفترة وجيزة. ولم تكن علاقتنا قد توطدت بعد. ولكنّني أردت أن أحمله على الاعتياد على فكرة مغادرته المكتب برفقتي. وأردت أن أوضّح فكرة أن الأمور ربما تتغير بيننا عما قريب.

قلت له: "يستعد والداي للتقاعد، وأنا أحاول الحصول على مصدر جديد للإيرادات. إذ أظنّ أنّ بيع الكتب والوثائق لا يفي باحتياجات الحياة".

بدا أوليغ مفتونًا بما أقوله. ولم يكن بوسعي تبيّن ما إذا كان يفهم ما أقوله، أم يخشى من الإقرار بأنه لم يفهم كلامي لأنه لا يريد أن يُظهر أمامي أي ضعف من أي نوع كان. لذا، قلت له: "لعلّ تعاوننا يوجد فرصة لكلينا؟".

انتبه عندما قلت ذلك، ورد بالقول: "أجل. أتطلع باهتمام لانتهاز الفرص المتاحة".

فكّرت في سري: *ما هذا بحق الله؟ ومن الذي لا يتطلع لانتهاز الفرص؟*

حان الوقت لاختبار المياه، فاقترحت عليه: "ربما كانت هناك أشياء يمكنني فعلها من أجلك؟".

عندها، ارتسمت ابتسامة على شفتيه وقال لي: "نافيد، أنا مسرور للغاية لأننا تمكنّا من مغادرة المكتب واحتساء القهوة معًا. فالنقاش حول العمل وشرب القهوة سلوك جيّد". ثم رفع كوبه الورقيّ وكأنه يُقدّم نخبًا بكأس زجاجية مليئة وقال: "الآن، أخبرني، كيف تود أن يكون التعامل بيننا؟".

باغتني السؤال من دون سابق إنذار. لقد خرقت القاعدة التي يتعلمها كل محامٍ حديث التخرج قبل أن يدخل قاعة المحكمة لأول مرة، وهي: لا تطرح سؤالاً لا تعرف إجابته مسبقًا. أما وقد فتحت الباب للسؤال، فلم يكن أمامي بديل سوى الرد.

لذا، قلت له مستفيضًا في شرح ما ذكرته سابقًا: "إنّ هدفي... هو أن أتحوّل من تجارة الكتب والوثائق إلى مشاريع ذات طبيعة تكنولوجية أكثر. أودّ حقًا تغيير طبيعة تجارتي قليلاً. فنحن نعمل على مشاريع مختلفة للقوات البحرية وجهات حكومية أخرى، ومعظمها يتعلق بالبيانات العسكرية. ثمّة فرص كثيرة متاحة في هذا الصدد لكلينا. أنا مقتنع بذلك".

فقال أوليغ: "هذا مثير للاهتمام جدًا. قد يكون هذا مثيرًا للاهتمام جدًا".

وتابعت: "كما يمكننا أيضًا الحصول على مشاريع ذات صلة بالبحث في المكتبات. هل تعتقد أنه بوسعك مساعدتي في العثور على أمين مكتبة في روسيا يمكنني التحدث إليه؟".

لم يزودني بأي باسم، ولكنه لم يبدُ قلقًا من السؤال، ولم يرفض طلبي كليًا، فقد قال: "سأفكر في الأمر. إذًا، هل يروق لك العمل في هذا المجال؟ هل هذه... كيف أقولها؟... مهنتك؟".

"حسنًا". قلت له، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أحاول أن أشرح له كيف انجرفت في مجال التكنولوجيا. ومن طرف عيني، خلتُ أنني رأيت أحدهم يراقبني. بالكاد تعرّفت إلى السيّد العجوز كشخص أعرفه من طرف والدي. حاولت ألا أنظر إلى عينيه مباشرة، لأنني كنت متأكدًا من أنه سيقترب مني حينها. ولكن، كان الأوان قد فات. فبابتسامة وتلويحة، كان يشقّ طريقه نحونا.

"أنت نافيد، نجل نسيم، أليس كذلك؟ كيف حال والدك؟ وكيف حال تجارتك؟ ظننتك تعيش في بوسطن!".

فأجبت: "كل شيء على ما يرام حقًا. يجدر بك الاتصال به".

لم أقدم الرجل إلى أوليغ، و لم ينبس أوليغ بكلمة على الإطلاق، ولكن بوسعي القول إنه كان يبدي اهتمامًا. إذ كان يتابع الحديث من دون أن يلفت الانتباه، وقد بدا أنه يستمتع بالارتباك الذي بدا عليّ.

قلت للرجل: "آسف، أنا فقط في منتصف اجتماع عمل الآن. لنتحدث لاحقًا". وأعطيته بطاقتي، وطلبت منه المغادرة. عندها، نظر إلى البطاقة، وأدرك أنه قاطع شيئًا مهمًا فتراجع.

"آسف للغاية". قلت لأوليغ بعد أن غادر الرجل. "هذا عيب البلدات الصغيرة، أنها صغيرة".

لوّح أوليغ بيده ليبدد قلقي؛ وكأنه يبعد بعوضة صغيرة. ولكن، بدا لي وكأنه فقد الاهتمام بمواصلة حديثنا. إذ نهض عن كرسيه قبل أن أكمل جملتي، وارتدى سترته.

أدركت مسبقًا أن هذا يوم حاسم في علاقتي مع أوليغ التي تنمو بشكل متزايد. لم يكن استهلال العلاقة بالأمر السهل، ولكنّ نتائجها ستكون عظيمة. لستُ واثقًا ممّا كان سيحدث لو لم يؤمّن لي مكتب التحقيقات الفدرالي محاضر المؤتمر. لكنّني مسرور فحسب لأن ذلك قد حصل. لقد تمّ نقل الرسالة، فشكرًا جزيلاً.

أدركت منذ البداية أنّني إذا كنت سأقوم بعمليات تجسس مع أوليغ، فلا بدّ أن يتغير أسلوب التفاعل بيننا. سيحتاج الأمر إلى أن يكون أكثر من مجرّد زبون لديّ، وسيتعيّن عليّ أن أكون أكثر من مجرد بائع بالنسبة إليه. سيتعيّن علينا الابتعاد عن المكتب، ولا بدّ من وضع حدٍّ للمراوغات.

كما سيتوجّب عليّ خيانة وطني، وسيتوجّب عليه أن يطلب مـــني القيـــام بذلك.

علّقتُ بمساعدة العميلين الطُعمَ الذي وجـــده أوليـــغ مغريًـــا، وقـــد تناوله.

التقيت تيد وتيري بعد أيام قليلة لاحقة، فطلبا مني أن أجلب المغلّـــف الأبيض الذي منحني إياه أوليغ. وقد كنـــت مســـرورًا بتســـليمهما إيـــاه، بالإضافة إلى الألف دولار. فطوال المدة التي كان الروس يطلبون فيها كتبًـــا ويسدّدون لنا ثمنها، دومًا بمقابل يزيد قليلاً عن مبلـــغ الفـــاتورة، كـــان أي مال إضافي نحصل عليه منهم يسجّل ويوضَع جانبًا، وكنا نستخدمه وقـــت الحاجة.

لكنّ المقابل المدفوع كان يزداد باستمرار، وعلمت أنه لا يمكنني أخـــذ الأموال لنفسي فحسب. فالأمر أكثر من مجرد طلب كتب ببساطة. لم أدرِ ما هي الطريقة المثلى للتعامل مع الأمر، لذا سألت تيد وتيري.

فأجابني تيد: "لا يمكنك أخذ أموال من الروس. سلّمنا إياه، وســـنحرر لك إيصالاً به وستوقع عليه، ثم سنعطيك القدر نفسه من المال".

إذًا، هذا ما كنّا نفعله. كل شيء يتسم بالرسمية. ناولني تيري الإيصـــال كي أوقع عليه، فسألته: "ماذا لو رفضت التوقيع على هذا؟".

"عندها، لن نتمكن من تسليمك المال".

بدا ذلك عادلاً بما يكفي بالنسبة إليّ. إذ لم أكن قد انخرطت في هـــذا الأمر من أجل المال. وبالنظر إلى مقدار الوقت الذي كان الأمر يســـتغرقه، كان يجدر بـــي نشر إعلان على كريغزلست عن وظيفة جليســـة أطفـــال. ولكنّني كنت أتحمل النفقات. كانت عملياتنا المتوسعة تقتطع وقتًا من الوقت المخصص لعملي الأصلي، لذا لم يكن بمقدوري تمويل مجهـــودات مكافحـــة

التجسس الخاصة بالولايات المتحدة من خزينة الشركة. وقد بدا أن كلًّا من تيد وتيري تروق لهما فكرة أن- بطريقة ملتوية ما- الروس كانوا يدفعون لي المال حتى أخونهما. وقد راق لي ذلك أيضًا.

قلت لتيري: "سأوقّع على الإيصال".

الفصل العاشر

اجتماعات خارج المكتب

"أوليغ!". صحت عندما ظهر مجددًا بعد أسبوع من مناسبة الشكر. "لا يمكنك مواصلة المجيء إلى هنا فجأة كلما أحببت ذلك. فهذا لا يناسبني".

ودفعته إلى الخارج باتجاه موقف السيارات حتى قبل أن تتاح له الفرصة لأخذ كتاب مجاني واحد. وقفنا إلى جوار سيارتي وتحدثنا لبضع دقائق، وقلت له بحزم بأقصى قدرٍ ممكن: "منذ الآن فصاعدًا، سيتعيّن علينا الالتقاء في مكان مختلف، هل تسمعني؟".

وبحصوله على القرص المضغوط، أدركت أنني وأوليغ قد عبرنا عتبة من نوعٍ ما، حتى لو لم أكن متيقنًا مما ينتظرني في الجانب الآخر. كان قد طلب شيئًا صعب المنال، وقد سلمته إياه بمساعدة من مكتب التحقيقات الفدرالي. وقد دفع من دون تردد حزمة من الدولارات الأميركية. لم تكن مهمة العميل المزدوج هذه سهلة، وبوسعي رؤية ذلك بالفعل. ولكنّني بدأت أظنّ أنه ربما تكون لديّ بعض الموهبة في هذا المجال.

وعلى الرغم من أن تسليم القرص المضغوط سيثبت مصداقيتي لدى الروس، إلّا أن بعض النهايات المفتوحة لا بدّ أن تُغلق. كان البند الأكثر إلحاحًا على أجندتي هو أن أخرج أوليغ من المكتب إلى الأبد. فمن المستحيل أن نتمكن أنا

وهو من التحدث هناك. ففي كل مرة كان يظهر فيها مثّل الأمر احتمال حصول كارثة محتملة. فهو لا يحضر ويرحل بتكتم أبدًا. وحتى لو لم يطُل بقاؤه أكثر من ربع ساعة، إلّا أنّ الأمر بدا وكأنه مختبئ في الجوار. وكانت زياراته محط تركيز واضحًا، ومصدر فضول وشكوك لدى الموظفين الآخرين. إذ لم يتمكنوا من منع أنفسهم عن التساؤل بشأن الرجل الروسي الغامض وكيس القمامة الذي يضعه في جيب محفظته. وفي كل مرة كان أوليغ يغادر فيها، كنت مضطرًا إلى القيام بروتين معيّن تجنبًا لأسئلتهم، فكنت أشغل نفسي بالمكالمات الهاتفية التي لا يمكن مقاطعتها، أو باجتماعات لا يسمح فيها بالإزعاج، على أمل أن يكون الانتباه قد تحوّل نحو شيء آخر عندما أكون قد فرغت منها.

لم يكن أوليغ بحاجة إلى الظهور بهذه الطريقة، لا سيما وأنّ حضوره أصبح متكررًا بشدة. فأنا لم أعد البائع الخاص به بعد الآن، وقد تجاوزت العلاقة بيننا بالفعل المرحلة التي كانت عليها أيام والدَيّ؛ أي لم يعد الأمر متعلقًا بصندوق كتب يتحقق منه الروس القاطنون في نيويورك بانتظام ويبلغون رؤساءهم هناك في موسكو. لذا، يتعيّن عليّ أن أجد طريقة أفصل فيها بين بيع الكتب وعمليات التجسس.

كان بيع الكتب لا يزال جزءاً من المعادلة في علاقتي مع البعثة الروسية. وكانت لجمع المعلومات- وحتى المعلومات مفتوحة المصدر التي يتمّ تداولها في مجتمع مفتوح- قيمة كبيرة لديهم. وربما كانت أنواع التقارير والمقالات والكتب التي أرادها الروس متاحة، ولكنّ هذا لم يكن يعني أن عدوّ أميركا الأزلي كان يحصل على ما يشاء بسهولة. وتقريبًا، أينما توجّه الدبلوماسيون الروس، كانت معاطفهم الطويلة ولكنتهم ووثائقهم تثير بلا شك الاستغراب والشكوك، فيتساءل الناس: *لَم تريد هذا؟ هل هذا قانوني؟ هل سأتورط في المشاكل إذا أعطيتك هذا؟ أليس بلدك عدوًّا لبلدي؟ لَم يفترض بي أن*

أساعدك؟ وحتى عندما لا تكون هناك موانع قانونية، كان لأمتنا تاريخ جعل من الحصول على تلك الأشياء أمرًا بالغ الصعوبة. إلى أي مـــدى سيصـــل الروس؟ فهذه الأغراض لم تكن تُباع في بارنز ونوبل. وقد تركت الطلبـــات المقدمة عبر البريد أدلة ربما تؤدي إلى تشكيك في النوايا. كانت تلك المواضيع متخصصة ومحدودة وغامضة للغاية حيث لا يمكن أن تُطرح للعامة. وحتى لو لم يسأل أحدهم عن أهدافهم الحقيقية بشكل مباشر، فقد كانـــت وجهـــة نظري أن الروس شبه مهووسين بالعمل في الخفاء قدر المستطاع. كان مـــن الواضح أنهم لم يرغبوا في أن يعرف مكتب التحقيقات الفدرالي أو أي كيان حكومي أميركي آخر بما كانوا يسعون خلفه. وبفضل ما تمتلكه شركتنا من خبرة وعلاقات، كان بمقدورها الحصول على تلك الأغراض بسهولة ومـــن دون إثارة الشبهات. إذ لم تكن هناك نماذج تحتاج إلى ملئها، أو طلبات شراء متعددة، وكان مقرنا في نيويورك. وقد أتاح ذلك لأوليغ والذين سبقوه مـــن الروس أن يحضروا شخصيًا إلى مكتب خـــاص. فقـــد وفّـــرت شـــركتنا للدبلوماسيين الروس بديلاً مريحًا لأكثر شيء أرادوا تجنبه.

أمّا الآن، فبدأت الأمور تتبدل وتنمو وتغدو أكثر تعقيدًا. فبينما كـــان التعامل مع والدَيّ آمنًا ومريحًا، لم أعد أنا مجرّد مصدر ثانوي للمعلومات، بل أصبحت شخصًا يعملون معه بانتظام ويقدرونه، أو هكذا كنت آمل.

وفجأة، تغيّرت بشكل ملحوظ عقود من الكياسة المعتادة في التعامل مع الروس عندما غضبت من أوليغ في صباح أحد الأيام في أوائل شهر ديسمبر. ولكنه تقبّل على نحو مفاجئ طلبـــي بتغيير مكان اللقاء. لعلّه كـــره زيـــارة المكتب أكثر من رغبتي في استضافته.

وعلى الفور تقريبًا، ظهرت فوائد اللقاء خارج المكتب بوضوح. إذ كان بوسعنا التحدث من دون الشعور بالخوف من أن يسمعنا أحد. وقد طلـــب

مني رقم هاتفي المحمول، فأعطيته إياه. وقد عرض عليّ حساب بريد إلكتروني عام على ياهو! فدوّنت الحساب، ولكنّني أخبرته أنني لن أستخدمه على الأرجح، وقلت له: "عند تبادل المعلومات عبر البريد الإلكتروني، يصبح هناك سجل خاص بها".

فردّ قائلاً: "على الأقل ستحصل عليه". ولكنّني أظن أنّه أعجب بحذري.

وفي صباح ذلك اليوم، كانت الأجواء باردة في موقف السيارات، وكانت الريح العاصفة تضرب من جهة النهر. لكنّ محادثتنا بدت مريحة وطبيعية، ثمّ تطرّق أوليغ إلى السبب الذي جعلنا نتجمّد في الخارج.

فقد قال لي: "لقد فكرت في ما قلته لي. بدءًا من اليوم، سنلتقي في أماكن مختلفة. وإذا طلبت منك كتبًا، فستجلبها لي حينما نلتقي. لن آتي إلى هنا مجددًا. علاقتنا تتغير الآن".

اللعنة، كان ذلك سهلاً!

واصل أوليغ كلامه: "سأغادر وقت العطلة، ولكن سيكون لدينا الكثير من الأمور لمناقشتها عندما أعود. عندما نلتقي في المرة المقبلة، هل سيكون من الملائم أن نلتقي في أحد المطاعم؟". وأدخل يده في جيبه، وأخرج بطاقة وسألني: "هل تعرف أين يقع هذا المطعم؟".

كُتِب على البطاقة: *أونو بيزيريا أند غريل. طبق بيتزا شهيّ وأصلي من شيكاغو*. وكان العنوان يقع في جادة سنترال في مدينة يونكيرس، على الطريق الرئيس الممتد من الضواحي عبر هذا الجزء من مقاطعة وستشستر.

هل سنلتقي في أونو بيزيريا؟ هل الخيانة تُرتكب هناك حقًا في هذه الأيام؟

فأخبرته: "لا بأس في ذلك".

"سأتصل بك على هاتفك عندما أعود".

"وإن استجدّ شيء ما وكنت مشغولاً ولم أستطع مقابلتك، فكيف سأتواصل معك؟".

للحظة، شعرت بالقلق من أنني ربما كنت أطرح الكثير من الأسئلة، بيدَ أن أوليغ بدا أنه لا يمانع ذلك، وقال: "لا بأس في ذلك. سأنتظر، وإن لم تظهر فسأغادر، وسأتصل بك لنحدد موعدًا آخر للقاء".

لا بدّ أن أعترف أن أملي قد خاب بسبب المطعم الذي اختاره أوليغ ليكون مكانًا للقاءاتنا. فقد تخيّلت أننا سنتهامس ونحن جالسان إلى طاولة خلفية في مطعم "غرفة الشاي الروسية" الفاخر، أو سنتآمر ونحن نحتسي كأسًا من الشراب في مقهى يقع في أقصى مقاطعة ويست سايد. أونو بيزيريا؟! إنه لا يقارب حتى أيًا من تلك الأماكن في المستوى. فبدلاً من الالتقاء في مطعم حصل على تصنيف مثالي وفقًا لاستطلاع "زاغات"، سنلتقي في واحد من سلسلة مطاعم بيتزا ذات "موقف سيارات وأقسام واسعة" وفقًا لتصنيف "يلب". وبدلاً من تناول الفطائر مع الكريمة الحامضة والكافيار، توجّهت لتناول البيبروني والجبن. لم أكن واثقًا حقًا من سبب اختياره سلسلة مطاعم البيتزا. ربما كان هذا كل ما باستطاعة مبلغ المصاريف الخاصة الزهيد الذي يُمنح لأعضاء البعثة الروسية تغطيته من التكاليف. وإن كان مطعم أونو بيزيريا ما يظن أوليغ أنه مطعم أميركي جيد، إذًا فليكن لقاؤنا هناك. كنت سعيدًا فحسب لأنه لن يعاود الظهور في المكتب بعد الآن.

وعندما أخبرت تيد وتيري بما جرى، بدا كلاهما متفاجئين مثلي بالضبط. وسألني تيد: "هل أعطاك بريده الإلكتروني، وأعطيته رقم هاتفك المحمول؟ هذا كله جيد. إنّه يعد الأجواء للقاءاتكما السريّة. بدأ يثق بك".

"أجل. ولكن مطعم أونو بيزيريا!". قلت وأنا أهزّ رأسي غير مصدّق. "إلى أين سنتجه بعد ذلك؟ مطعم كنتاكي!؟".

قبل أسبوعين من الكرسمس، مررت قرب قاطرة كانت خارج تقـــاطع الطرق رقم 87 في يونكيرس. وعلى الحامل الخلفي للشاحنة، تمّ وضع سيارة من طراز كورفيت Z06 موديل العام 2006 سوداء اللون لم أكن قد رأيتها من قبل. ففكرت بجدية في شراء واحدة مماثلة لها. ففي تقديري، هذه السيارة تمثّل كل شيء صحيح في أميركا؛ أي الثقة، والقوة، والمهنيـــة، والأداء القـــوي. وكانت تعمل بمحرك من طراز LS7؛ وهو محرك كلاسيكي بســـعة ســـبعة ليترات من الوقود، وبقوة 505 أحصنة من الجيل الثامن، وبناقل حركة يدوي ذي ست سرعات. وتعتبر هذه ميزات عظيمة بالنسبة إلى مركبة بهذا الحجم. وكان عزم الدوران الخاص بها عاليًا للغاية. كان جيرمي كلاركسون، مقدم برنامج توب غير على شبكة بـــي بـــي سي، قد قال بحماسة شـــديدة إن تلك السيارة "يمكنها الانتقال فعليًا من السرعة صفر إلى سرعة 175 مـــيلاً في الساعة في نقلة سرعة واحدة!"، وإن الكورفيت قد حققت أرقامًا أفضل على حلبة نوربورغرينغ للسباقات من سيارات أغلى منها بعشر مرّات، وإن فيهـــا وسائل راحة حديثة مثل مذياع XM الذي يعمـــل بـــالقمر الاصـــطناعي، وخاصية الملاحة، وتحكم مزدوج في درجة الحرارة. باستطاعة هذه الســـيارة إيصالك إلى وجهتك بسرعة، ورغم ذلك ستستمتع برحلتك. باختصار، إنها السيارة الأميركية التي لم يكن الشباب من مارانيلو وشـــتوتغارت وبولونيـــا ليتمكنوا من تجاهلها، بقدر ما كانوا يرغبون في ذلك. كان مجرّد النظـــر إلى السيارة يشعرني بالانتماء إلى الوطن. لقد كنت متيمًا بها.

من وجهة نظري، صُنعت السيارات كي نقودها. وأي مركبة امتلكتها على الإطلاق، استخدمتها كجزء من حياتي اليومية. كان الكثير من النـــاس مأخوذين بمشهد المطاردة في فيلم "بوليت"؛ عندما تفوق ستيف ماكوين على سيارة باراكودا سوداء اللون بواسطة سيارة موستانغ خضراء ذات ســـقف

متحرك فتح كله. ولكنّ ما سحرني كان قيامه بقيادة السيارة يوميًا وركنها في شوارع سان فرانسيسكو.

هذا ما مثلته سيارة الكورفيت بالنسبة إليّ. فقد كانت جميلة واستثنائية وسريعة كالبرق. وكنت أشعر بفخر شديد عند ركنها في شوارع مانهاتن، بينما كان أصحاب سيارة الفيراري الفارهة يركنون محبوبتهم في مواقف سيارات باهظة التكلفة، ويشعرون بالقلق الشديد لدى قيادتها إلى إحدى المناطق الإدارية الخارجية. وإذا كنتُ بصدد امتلاك سيارة، فسوف أقودها إلى أي مكان وفي أي وقت، بما في ذلك أثناء التنقل في عملية مكافحة للتجسس تتطلب تجولاً متواصلاً بين دبلوماسي روسي وعميلين من مكتب التحقيقات الفدرالي. لم أشعر قطّ أن الأموال التي صرفتها على السيارات ذهبت هباءً. وقد تمسكت بالمقولة الشهيرة للاعب كرة القدم الأيرلندية الشمالية العظيم جورج بيست حين قال: "لقد أنفقت الكثير من المال على الشراب والطيور والسيارات السريعة. أما ما تبقى من المال فقد بددته فحسب".

في الأيام القادمة، يمكن أن تلعب سيارة الكورفيت دورًا داعمًا باستمرار. فإلى جانب قيامها بدور المركبة الرئيسة في لقاءاتي العديدة مع أوليغ، فقد تصبح بالنسبة إليّ وسيلة هامة للتنفيس عن النفس، وستساعدني في التخلص من بعض الضغط الذي كان يزداد داخلي باستمرار. إذ كان التعامل مع أوليغ يغدو مثيرًا للغضب بشكل مريع في بعض الأحيان. تعلمت ذلك مع مرور الوقت. أما التعامل مع المكتب الفدرالي فكان يصبح أكثر إثارة للغضب؛ إذ كنا نعاني في تحديد ما يتوجّب عليّ قوله وكيف ينبغي أن أقوله. وكنت أشعر بالقلق دومًا من أن تُلغى العملية، أو أن ينكشف أمري، أو أن يحدث ما هو أسوأ. فعند حدوث أي من هذه السيناريوهات، أدرك أن اللوم سيُلقى عليّ. وبما أنه لديّ عقل لا ينفك عن التفكير، فقد فكرت في كل

الظروف المحتملة وفي كيفية انتهائها؛ أحيانًا بشكل جيد وأحيانًا أخرى بشكل سيئ. وامتلاكي القدرة على محو كل هذا من وعيي- حتى إن كان ذلك لدقائق قليلة- بالضغط على دواسة الوقود والتحليق بالكورفيت، ولّد في داخلي نوعًا من السكينة. وما كنت لأحب أن أفوّت فرصة المرور على هذا المشهد السريع إطلاقًا. أي عبور الطرق المتعرجة في جبل بير، ثم عبور القمة الواقعة إلى يمينه، ثم الانسلال بثقة من المنعطف الأيسر التالي لها.

ومثلما كان الحال في بوسطن مع سيارة الكورفيت الأولى، شرعت في تمضية الوقت مع مجموعة من هواة السيارات مثلي الذين لم يكونوا يسعون خلف المتاعب. وعندما كانوا يرغبون في إضفاء صفة رسمية على أنفسهم، كانوا يطلقون على مجموعتهم اسم: نادي نيويورك للسيارات. كانوا يسعون فقط خلف النعمة النقية التي جلبتها قيادة السيارات. كنا نلتقي في وقت مبكر جدًا من صباح أيام الأحد خارج المدينة، ثم نتوجّه إلى الطرق الخلفية والطرق الريفية السريعة، ونقود بسرعات يستحيل مطلقًا الوصول إليها بعد ساعات قليلة لاحقة عندما تزدحم الطرق. وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع، عندما بدأت السيارات العائلية البطيئة بسلوك تلك الطرق الخلفية، تحوّلنا إلى وادي هادسون الضبابي، والتقينا في بلدة صغيرة لشرب القهوة وملء خزانات الوقود الخاصة بنا.

وبينما كنا نجلس على الطريق أمام سيارتي، بدأ صديقاي مات ولاري بالتحدث عن بعض ألطف الأشخاص الذين التقيناهم على الإطلاق.

وقال مات: "عمِل خالي لحساب الاستخبارات الأميركية. كان شخصية شديدة التكتم، و لم يعرف أحد ما كان يفعله في ذلك الوقت. ولكنه شخصية رائعة بشكل متحفظ للغاية".

وقال لاري: "من الجنون التفكير في أن هناك أشخاصًا يفعلون ذلك. ولكنك لا تعرف أبدًا، هل تظن أنه قتل أي شخص؟".

وبقدر ما أردت المشاركة في الحديث، إلّا أنّني أبقيت فمـــي مغلقًـــا، باستثناء قولي: "أشكّ في ذلك. ولكنه على الأرجح جرح مشاعر عدد قليل من الناس".

سرقت تلك الجملة من روبرت دينيرو في فيلم رونين، فقد كنت أنتظر استخدامها منذ سنوات.

عندما لا نكون بصدد التوجه إلى حلبة لايم روك للسباقات أو القيـــام بجولات في الصباح الباكر، كنا نتسكع معًا، ونخطط لما كنا نطلـــق عليـــه "جولات الأنا". كنا نتوجه معًا إلى ميدان التايمز أو إلى مكان مزدحم يرتاده الكثيرون، ونوقف سياراتنا من دون أن ننطق بكلمة. وبينما كنا نقف بجوار سياراتنا ونراقب المارة، كان المارة المبهورون يصابون بالدهشة، ويطرحـــون علينا الأسئلة، أو يتوقفون لالتقاط الصور معنا. كانت مصافحة الغرباء لنـــا، وتوسّلهم إلينا كي نقلهم في سياراتنا شديدة اللمعان أمرًا محرجًا ومبـــهجًا في آن واحد.

غدت الجولات التي أقوم بها بالسيارة، وأسلوب الحياة المرتبط بهـــا أحـــد الأسرار الصغيرة التي أخفيتها عن مكتب التحقيقات الفدرالي. إذ أصبح العميلان مرتبطين بـــي بشدة، وقد بدا إخفاء بعض الأمور عنهما أمرًا جيدًا. بعض الناس يحتسون الشراب، وبعضهم يدمنون على المخدرات، وهناك آخرون يحبّون القفز من الطائرة، أو يضربون كرة على عشب مشذّب بانتظام باستعمال المضرب. لم أكن مهتمًا بأي من ذلك، بل كنت أقود سيارتي كالمجنون.

كنت أعلم أن المكتب الفدرالي سيعترض على التهور في القيادة، أو على مرافقتي بعض أصحاب تلك السيارات. وكان من المرجح أنـــه ســـينظر إلى السباقات على أنها علامة ضعف، ودليل على افتقادي إلى حس المســـؤولية والنضج اللازم لتنفيذ المخططات التي كنا نُعِدُّ لها. وبكل تأكيد، لن يرغب في

التعامل مع شخص مغامر، لا سيما وأنه لم تتح له الفرصة لتقييم مستوى الخطر بتأنٍ.

ولكنّ ما لم يطّلع عليه تيد وتيري ما كان ليؤذيني. لذا، في منتصف نهار أحد الأيام في ديسمبر، عندما أُنزلت السيارة عن القاطرة التي تنقلها، خضت جولتي الأولى بها، وشعرت بالإثارة بفضل كل تلك القوة التي صارت بين يدي. ملأني شعور بالثقة. لم يكن ثمة شيء لا يمكنني تعلم القيام به بالقليل من الممارسة، سواء أكان ذلك السيارات أم عمليات التجسس.

التقيتُ أوليغ أربع مرات في النصف الأول من العام 2007، وقد عُقدت لقاءاتنا كلّها في مطاعم عادية في جادة سنترال. التقينا مرتين في أونو بيزيريا، وذلك في شهرَي يناير وفبراير. وفي أبريل، التقينا في تشارلي براون، وهو أحد المطاعم في سلسلة مطاعم عائلية تقدّم شرائح اللحم. وفي يونيو، التقينا في مطعم إل دورادو الكلاسيكي للغاية. و لم يكن ثمة طبق من الحساء الروسيّ أو نادلة روسية مثيرة في أي من تلك الأماكن.

في كل مرة التقينا فيها كنّا نتّبع الأسلوب نفسه. إذ كان أوليغ يتصل بي هاتفيًّا، ويسألني إن كان بإمكاني أن ألتقيه على الغداء، عادة في اليوم التالي. لم نلتقِ على العشاء أو الفطور أو لتناول العصير إطلاقًا، وإنما كنا نلتقي دائمًا على وجبة الغداء. لم أرفض طلبه قطّ، وكنت أوافق على لقائه دومًا؛ حتى لو ترتب على ذلك إعادة تنظيم الخطط الأخرى أو إلغاؤها. وكان هو دومًا من يحدّد الوقت والمكان. ففي نهاية لقاءاتنا، كان يسلّمني بطاقة أو قائمة وهو يقول: "سنلتقي هناك في المرة المقبلة". ثم كنت أنتظر اتصاله كي يخبرني بالموعد.

كانت رقصتنا طويلة ورتيبة، وكانت تتطور بخطى مؤلمة ومتأنية في كل مرة نلتقي فيها. مما ذكّرني بمشهد في فيلم التجسس المثير XXX الذي قام

بدور البطولة فيه فين ديزل عندما تلتقي الشخصية الرئيسة- زاندر كيج- جاسوسة روسية تُدعى يلينا، والتي كانت تراقب إرهابيين مشتبهًا بهم في وسط أوروبا. إذ تقول لزاندر كيج: "أعمل هنا في الخفاء منذ عامين". وهو لا يصدق أنها تقوم بهذا العمل منذ مدة طويلة جدًا، فيسألها: "عامان؟! ما كانت خطتك؟ أن تتركيهم يموتون هرمين؟".

وبقدر ما شعرت أن الأمور تتطور ببطء، كان الشعور بالإثارة باديًا بجلاء على كل من تيد وتيري. كانا يشجعان الرقصة، وأحيانًا يقدمان إرشادًا مبهمًا لعميلهما الجديد. وقد اشتملت نصائحهما بشكل رئيس على إخباري أن أكون على سجيّتي، وأن أترك الأمر يبدو "كمحادثة عادية". ولكنّهما لم يقدّما لي أي رأي حيال الطريقة الفضلى لأتحكّم بأوليغ. بل كانا يتصرفان فحسب وكأن الجزء المهم في الأمر هو أن أبلغهما بالتطورات.

كانت ثمة مناسبات قدّما لي فيها نصيحة واضحة تشتمل عادة على تحذيرات صارمة. فقد قال لي تيد ذات مرة: "إياك أن تدخل في منافسة مع أوليغ في احتساء الشراب؛ تحت أي ظرف كان".

ففكرت في سرّي: *هذا أسلوب ظريف لتوضيح الفكرة. غير أنني سألته:* "ماذا!؟".

بدا تيد الهادئ عادة متوترًا على نحو غير متوقع، وقد كرّر تحذيره بتأكيد أكبر: "بالنسبة إليهم، احتساء الشراب مهارة يجري تطويرها وتنميتها في سن مبكّرة. وأيًا كان ما تحسب نفسك قادرًا على فعله، لا يمكنك التفوق عليهم في هذا الأمر".

أتساءل عمّا إذا كان أيّ من هذين الرفيقين قد حضر يومًا حفلاً جامعيًا أميركيًا. لكنني أصغيت إليهما. حسنًا، لا تتناول الشراب مع أوليغ أبدًا. عُلم.

متسلحًا بذلك التحذير، خضت أول رحلة لي إلى أونو بيزيريا في ظهيرة أحد أيام الثلاثاء في منتصف شهر يناير. طلب أوليغ كأسًا من الشراب، فيما طلبت الشاي المثلج.

كان لقاء مبهجًا، ولكنه ليس مثلما توقعت. كنت قد جلبت طلبية الكتب الخاصة به وسلمتها له. ظهر ببذلته الرمادية الرسمية اللطيفة مع ربطة عنق متوسطة العرض. وكان يضع حول عنقه شريطًا قصيرًا تتدلى منه بطاقة هوية ثبّتها على الواجهة اليمنى لجيب قميصه. كان لا يزال يبدو مثل رجل أعمال متجول، ولكنه بدا أكثر ارتياحًا من الرجل الذي كان يزورنا في المكتب. أخبرني أنه نشأ في غرب روسيا، وليس في موسكو، وأنه التحق بالأكاديمية البحرية في فلاديفوستوك؛ وهي مدينة ساحلية وعرة لا تبعد كثيرًا عن حدود روسيا مع كل من الصين وكوريا الشمالية. قال إنه أراد الالتحاق بالقوات البحرية منذ أن كان صبيًا. وكانت الأكاديمية هي السبيل الذي أتاح له فرصة الالتحاق بالبحرية برتبة ضابط، وذلك بخلاف أكاديمياتنا أو برنامج تدريب الطلاب للالتحاق بالجيش. قال لي: "كان الأمر صعبًا. إذ كان علينا ممارسة رياضتَي الجري والضغط وكل تلك الأنشطة البدنية. لقد عملت بكدٍّ للغاية، ولكنني كنت ثابت العزيمة. وقد تجاوزت الأمر بنجاح".

وبالطريقة التي قصّ بها أوليغ حكايته، لم يترك أي مجال للشك. ورغم مظهره الخارجي، عندما تحدث عن نفسه كان ثمة الكثير من الاختيال والفخر. وربما- حسبما ظننت- القليل من المبالغة.

أتى على ذكر زوجته وابنته المراهقة، إلا أنه لم يذكر اسميهما. لاحظت أنه يلبس في إصبعه خاتم زواج، ويضع دبوسًا ذهبيًا على شكل غواصة؛ أي مثلما يضع الطيار التابع للقوات الجوية الأميركية دبوسًا عليه شعار الأجنحة والذي نقشت عليه كلمة MINI، أو مثلما يضع منتسبو وحدة القوات

الخاصة في البحرية دبوسًا عليه رمح ثلاثي على طية صدر السترة. سألتُ أوليغ: "هل كنت ضابطًا على متن غواصة؟". فأجاب: "أجل، كنت ضابطًا على متن غواصة. إنّه واجب هام للغاية". وقال إن ذلك الجانب من حماية الوطن شمل تسيير دوريات عند ساحل الولايات المتحدة مع صواريخ نووية موجهة نحوها. كان قد أُرسل إلى أماكن عديدة حسبما قال، وقد ذكر تركيا. كما قال إنه شغل منصبًا دبلوماسيًا في كندا قبل أن ينتقل إلى نيويورك.

والآن، بات هنا، وهو يستمتع كثيرًا بالتواجد في هذه المدينة الكبيرة. "إنّها قلب العالم، وقلب كل شيء".

لم يكن لديّ أي سبيل لمعرفة مقدار الحقيقة في حكايته، ولكنّني شعرت أنها في معظمها حقيقية. كان أوليغ دبلوماسيًا محترفًا، ومثلما أصبح جليًا أكثر فأكثر، رجلاً ميالاً إلى التجسس. اشتبهت في أنه قد استوعب- أيًا كان نوع التدريب الذي تلقاه- الدرس المهم نفسه بشأن الكذب الذي أتعلمه الآن؛ وهو أن الأكاذيب تكون مخفية بشكل أفضل بكثير عندما يتم تغليفها بحقائق واضحة. وحسبما يمكنني القول، لم يكن أي من هذه الأشياء ذا أهمية حقًا، لذا ما المانع من ذكرها بشكل مباشر ؟

لكنّني تساءلت عن السبب الذي دفع أوليغ للاسترسال في الحديث على هذا النحو. إذ لم يبدُ كشخص تصدر عنه الاعترافات بشكل طبيعي.

قال إنّه أحب والدَيّ، وأخبرني أن التعليم هام، وسألني عن الكلية التي ذهبت إليها. فقلت له إنني التحقت بجامعة نيويورك، وذكرت أنني كنت جزءًا من برنامج تدريب الطلاب للالتحاق بالجيش هناك، ولكنّني انحرفت بعيدًا نحو التكنولوجيا. عندها، لاحظت تغيرًا في ملامحه على الفور. كان يقول شيئًا لطيفًا على سبيل المديح لي، ثم يدس سؤالاً يبدو في ظاهره بريئًا.

قال إنه استمتع بمشاهدة كرة القدم الأميركية على التلفاز، وربطها بالشباب الأميركيين اليافعين، وسألني إن كنت أشاهدها أنا أيضًا.

فأخبرته على الفور متخطيًا موضوعًا ربما كان على الأرجح قد درسه لصالحي: "قيادة السيارات هي رياضتي المفضلة".

بدت لقاءاتنا في مطعم بيزيريا في بادئ الأمر مثل ضجيج أبيض في البداية. وقد اتضح لي لاحقًا فقط ما كان أوليغ يفعله. إذ كان يروّضني، وقد استخدم فكره المنفتح بجلاء كي يجعلني أشعر بالارتياح في الكشف عن نفسي. كانت خطته- كما اتضح لي الآن- هي دفعي إلى حالة من الاسترخاء كي أجيب عن أسئلته بشكل تلقائي. وإلى مدى معين، كنت قد فعلت ذلك. وكان ذلك برهانًا على مهارة أوليغ كمحقق- حسبما أفترض- فعندما كنت برفقته، شعرت بالارتياح وتخليت عن حذري للحظة.

بينما كنتُ أدردش معه، كان هو يؤدي عمله. لذا، تحتّم عليّ التركيز مجددًا؛ إذ ثمة خطر واضح محتمل. كنت قد سمعت حكايات أملت ألّا تكون أفا قد سمعت بها، مثل حكاية ألكسندر لتفيننكو المفزعة؛ وهو صحفي متخصص في التحقيقات الاستقصائية وضابط استخبارات روسي هارب مات مسمومًا في شهر نوفمبر الماضي في لندن. كان أوليغ متواضعًا للغاية وحازمًا بشكل لا يوصف. ولكنه عمل لصالح الطرف نفسه المشتبه به في قتل لتفيننكو، و لم يكن لديّ أي شك في ما يمكن لرفقاء وطنه القيام به.

ومع ذلك، لا يمكنني التساهل. لن أكون الشخص المتهاون أبدًا. فلديّ عمل ينبغي لي إنجازه، ولن أستسلم لمخيلتي المظلمة.

قررت أيضًا أنه بقدر ما يبدو أوليغ عازمًا على معرفة المزيد عني، فأنا بحاجة إلى معرفة المزيد عنه. وكانت المعلومات التي أفصح عنها بشأن التحاقه بالبحرية كاشفة، ولكنّه ذكرها متعمدًا كي يشجعني على الاسترسال في

الحديث. كان ثمة المزيد في ما يتعلق بهذا الرجل المتفاخر بكونه قائد غواصة سوفييتية تحوّل إلى دبلوماسي روسي، وقد أردت معرفة كل شيء.

في المرة الأولى التي أخبرت فيها تيري باسمه، تملكني إحساس جليّ بأن أوليغ كان شخصًا تدرك حكومتنا من يكون بالضبط، وتوليه اهتمامًا كبيرًا. فهو شخص يراقبه مكتب التحقيقات الفدرالي عن كثب. لم يفصح العميلان عن تفاصيل سيرته الذاتية سريعًا، ولكنّني عندما بحثت عنه عبر الإنترنت، وتصفحت بعض قواعد البيانات، وأجريت بعض التخمينات، تبيّن لي أنه لم يكن دبلوماسيًا روسيًا عاديًا. إذ كان قد خدم في لجنة الأركان العسكرية للأمم المتحدة. وأثناء توليه ذلك المنصب، تفاعل مع دبلوماسيين عسكريين رفيعي المستوى جاءوا من بلدان مختلفة حول العالم. وكانت تخميناتي في ما يتعلق بتخصصه صحيحة طوال الوقت. كان أوليغ ضابطًا في مديرية الاستخبارات الرئيسة التابعة للقيادة العامة للقوات المسلحة الروسية، GRU، وهي اختصار لعبارة Glavnoye Razvedyvatel'noye Upravleniye.

كان الرجل الهادئ وغريب الأطوار الذي دأب على ارتداء بذلات سيئة وأسوأ معاطف طويلة ضابطًا برتبة تصنّف بين المتوسطة والرفيعة في الاستخبارات العسكرية الروسية. وكان هناك المزيد بشأنه. فقد كان ضابط مهمات؛ أي الضابط المسؤول عن مهمتي. وكان قد تدرب على إدارة العملاء البشريين، وتجنيد العملاء الأجانب المحتملين. وكانت مهمته تتمثل في مراقبة الأشخاص الذين قد تشكل معرفتهم وعلاقاتهم قيمة للاتحاد الروسي، ومن ثم العمل باجتهاد على تجنيدهم.

أي الأشخاص مثلي.

كنت على علم بلقب ضابط المهمات من *الكتب والمقالات* التي كنت قد قرأتها. كان ذلك منصبًا خاصًا في الاستخبارات العسكرية الروسية، وهو

منصب متنقل ورفيع. وعلى الأقل، ثمة شخص واحد وصل إلى أعلى مرتبة ممكنة؛ فخلال خدمته في الاستخبارات الروسية، وأثناء شقه طريقًا نحو الرئاسة، عمل فلاديمير بوتين ضابطاً في الاستخبارات الروسية.

بانتهاء شهر يناير وحلول شهر فبراير، بدأ صبري ينفد وأنا أنتظر اتصال أوليغ. ما الذي كان يفعله؟ ما الذي قلته له؟ هل ثبّطت من عزيمته؟ هل اختفى وحسب؟ شغلت نفسي بالعمل أثناء النهار؛ محاولاً ألّا أفكر في مهنة العميل المزدوج الأخرى. ولكنّني لم أحاول بجدية؛ إذ كنت كل ليلة أقرأ كتبًا عن التجسس مثل آمس وهانسن وبولارد. وقد حلّلت التكتيكات التي تمّ استخدامها، وتساءلت إن كنت سأبلي بشكل أفضل من أولئك الأشخاص. وأدركت أنه في الكثير من الحالات، كانت الغطرسة هي السبب في إخفاق أولئك العملاء. إذ كانت قد منحتهم الثقة في بادئ الأمر، ولكنها جعلتهم متساهلين بعد ذلك. كلما فكّرت في عمل التجسس هذا، تبيّن لي أكثر من قبل كيف أن خداع شخص كأوليغ يتمتع بمثل هذه الإمكانيات تحدٍ عظيم، بل إنه بحق التحدي الأعظم. وكلما قرأت أكثر وتمعّنت بدقة في الأساليب المستخدمة من قبل أولئك الجواسيس المشهورين، ازدادت حماستي لمعاودة اللعب مع أوليغ.

وبينما كنت أنتظر، عقدت اجتماعات مطولة مع كل من تيد وتيري. وبقدر ما كنت متحفزًا للمضي قدمًا مع أوليغ، إلّا أنّني لم أكن أيضًا راغبًا في أن ألقى حتفي في العملية. لم أعتقد أن أفا سيروق لها ذلك، وكنت واثقًا من أنه لا يروق لي أيضًا. كان ثمة جانب مثير في العيش على الحافة، ولكنّني لم أرغب في السقوط عنها. لذا، حاولت إيجاد توازن يمكنني العيش به. فعلت ذلك بتأنٍّ وبلا خبرة، وبشكل متقطع وغير منتظم.

وخلال أحد لقاءاتي مع العميلين الفدراليين، أثرت موضوعًا كان يقلقني كثيرًا، وسألت تيري: "هل تعتقد أنه مسلح؟".

فأجاب العميل: "على الأرجح لا".

"على الأرجح لا؟". فلفتت انتباهي عبارة *على الأرجح* تلك.

وتابع العميل كلامه: "لا أعتقد أهم قد يخاطرون بجعل دبلوماسي رفيع المستوى يحمل سلاحًا. فأي منطق يكون هذا حينها!؟".

عندها سألته: "إذًا، لماذا أنت لست متيقنًا؟ ما *المرجح* في الأمر؟".

فأجاب: "في عملنا هذا، *الترجيحات* هي كل ما نحصل عليه".

اتصل أوليغ في أحد أيام الخميس شديدة الدفء من شهر فبراير، وسألني إن كان بمقدوري أن ألتقيه على الغداء يومئذٍ، وقد أجبت بنعم. وقبل نصف ساعة من الموعد، عرّجت أولاً على منزل والدَيّ وتقيأت. تسمم إشعاعي، وأسلحة. ما انفك عقلي يعمل بلا توقف. قمت بغسل وجهي بالماء البارد واستجمعت قواي، ثم قدت الكورفيت كالمجنون، في محاولة مني كي لا أتأخر. وأثناء توجهي إلى هناك، أجريت اتصالاً أخيرًا بتيري وأعلمته أنني ذاهب للقاء أوليغ: "كي تعرف فقط".

"كن على سجيتك فقط، وستكون على ما يرام".

على الرغم من قيادتي المتهورة وقت الظهيرة، تأخرت على أوليغ ربع الساعة. وجدته جالسًا وإلى جواره النادلة، وهو يتظاهر بالاهتمام بقائمة الطعام الخاصة بالمطعم.

لمحت مسحة من الغضب على محياه عندما دخلت، ولكنه استعاد السيطرة على نفسه سريعًا. وأيًا يكن ما كان يشعر به حقًا، فقد أبدى نظرة ارتياح عندما اقتربت منه، وقال راسمًا ابتسامة على شفتيه، ومصافحًا يدي بحرارة: "صديقي، من الجيد رؤيتك!".

بادلته ما يشبه الابتسامة؛ فمسحة الغضب تلك التي رأيتها على وجهه لفترة وجيزة جعلتني أشعر بالتوتر. لم أقوَ على منع نفسي من اختلاس النظر

بحثًا عن أي شيء بارز تحت حزامه. إلّا أنني لم أرَ شيئًا. قلت له فورًا: "أنا آسف للغاية. فقد حصلت مشكلة في العمل، وقد استغرقتُ وقتًا طويلاً ريثما حللتها".

بدا مرتبكًا بسبب ما قلتُه، وقال: "مشكلة!". أظن أنّه لم يسمع هذه الكلمة من قبل. ولاحظت أنه لم يفلت يدي. هل كان ذلك بدافع سلوك اجتماعي غريب فقط؟ هل كان اختبارًا من نوع ما؟ هل كان يتحقق مما إذا كان نبضي يتسارع أثناء محاولتي تفسير سبب تأخري؟ لم يبدُ أيٌّ مما فعله أوليغ بدافع الصدفة.

أوضحت له: "أتانا عميل غاضب، وقد استغرق الأمر وقتًا أطول عبر الهاتف".

نظر إلى وجهي لجزء من الثانية ربما، ثم ابتسم وأفلت يدي، وقال لي: "هلّا جلسنا".

ما إن جلسنا، حتى واصل أوليغ مزاحه الودي الذي كان قد بدأه في آخر اجتماع غداء عقدناه في مطعم أونو، قاصًا حكايات عن حياته، وساعيًا إلى معرفة المزيد عني. قال إن ابنته تدرس اللغة الفرنسية في المدرسة، وتذكّر أن أمي تنحدر من فرنسا، وسألني: "هل تتحدث الفرنسية؟ هل تملك جواز سفر فرنسيًا؟ هل تسافر إلى هناك؟".

فأجبته: "أتحدث بها". واكتفيت بهذا الرد، إذ لم أكن أملك جواز سفر فرنسيًا؛ على الرغم من أنني سافرت إلى فرنسا مرات عديدة مع والديّ. وتملّكني إحساس بأن أوليغ يطرح عليّ هذه الأسئلة عن السفر لسبب ما يتجاوز الفضول.

لكنه لم يتوقف كثيرًا عند هذه النقطة، بل قال لي: "الفرنسية لغة جميلة". ولم يُشر إلى أصول أبي الباكستانية أو يسألني إن كنت أتحدث الأوردو.

كنت قد جهّزت حكاية خاصّة بـي أردت أن أقصّها عليه، وهـي أن زوجتي كان لديها قريب كان بدوره قريبًا بشكل ما لتروتسكي؛ المنظـر الماركسي الثوري والقائد الأول للجيش الأحمر. فكرت في أن أوليغ سيعجبه ذلك، وقد حصل ما توقعته.

فقد سأل وهو يشعر بالإثارة من ذكر الاسم: "ليون تروتسكي؟".

فأجبته: "بشحمه ولحمه".

كنت قد أثرت إعجابه، ولكنه استعاد السيطرة على نفسه سريعًا، وسألني إن كنت مهندسًا كهربائيًا. "هل كان ذلك مجال تخصصك في الجامعة؟". فأوضحت له: "لا، بل كنت أتخصص في مجال الحواسيب. خلفيتي تكنولوجية".

بدت كل تلك الأسئلة عادية بما يكفي. إذ لم يكن يطرح أسئلة عن أي شيء ما كنت لأكشف عنه في حوار قصير مع أي شخص غريب يجلس بجواري على متن طائرة. وقد سبب لي ذلك صعوبة في الحفاظ على أي حائط دفاعي. كان يطرح أسئلة تبدو بريئة، ولم أتمكن من التفكير في أي سبب وجيه يدفعني إلى الكذب. وقد رحب جزء مني حقًا بهذا الانفتاح في الحوار؛ فقد رغبت في توطيد علاقتي معه، وذلك بقدر رغبته في توطيد علاقته معي.

ولكن مع كل استفسار جديد، كانت العقدة التي أشعر بها في معدتي تزداد ضيقًا. لم يكن الأمر وكأنني أفشي أسرارًا، ولكنني لاحظت كيف أنه يدير الحوار بكل سهولة. كنت ألزم نفسي بسيرة ذاتية محددة ومفصلة من دون أن أدرك الغرض من وراء ذلك. على الأقلّ، كان عليّ أن أتذكر ما أخبره إياه كي لا أخبره بنقيضه لاحقًا. ظلت نبرة الحوار لطيفة ومليئة بالودّ. ولكن كلما طال أمد الحوار، غدا مثيرًا للتوتر أكثر. شعرت أنه كان يقودني

نحو وجهة ما، وأيقنت أنها لن تكون جيدة. طوال حياتي، ما كنت أرتاح بالجلوس على مقعد الركاب؛ لا سيما عندما كنت أجهل المكان الذي سأذهب إليه، أو الطريق التي سأسلكها.

طلبت الحساب وسدّده أوليغ نقدًا. لطالما سدّده نقدًا. وعندما هممنا بالمغادرة، وقعت محفظته من يده، فأمسكتها وهي تسقط في الهواء وأعدتها إليه، فقال لي: "شكرًا لك، شكرًا لك".

كنت أفكر مجددًا: *هل كان ذلك حادثًا عرضيًا؟ هل كان اختبارًا؟ هل كان يتحقق ليرى ما إذا كنت سأحاول النظر داخلها بشكل غير إرادي؟ هل أنا مذعور؟* تسبّبت أسئلته البريئة في تسارع الأفكار في عقلي. ولو أن هذا كان اختبارًا، فأنا أعتقد أنني قد تجاوزته بنجاح. ولكن، في كل مرة التقينا فيها، تملكني شعور بأن أوليغ يحاول معرفة ما يدور في رأسي. وإن كان زرعُ القليل من الذعر داخلي أحد أهدافه، فقد نجح في ذلك.

كان ينبغي لي أن أعثر على طريقة أكسب بفضلها القليل من السيطرة. إذ لم تكن جلسات الأسئلة الملتوية تلك مسببة للآلام في المعدة وحسب، بل كانت شديدة الخطورة بالنسبة إليّ. فمع إجاباتي المبهمة ولكن الصادقة، لن يكون الروس قادرين على تحديد الطريقة المناسبة التي ينبغي لهم التصرف وفقها معي، ومن ثم سأكون قد أهدرت كل هذا الوقت. أو قد يحدث ما هو أسوأ، فقبل أن آتي بأي حركة، قد يأتون بطلب ما أو خطة لن تعجبني على الإطلاق. يمكنني أن أتخيل فقط: *حسنًا، لقد عرفنا ما نريده. نريد منك أن تستأجر سيارة "فان" وتقودها في أنحاء واشنطن وتلتقط صورًا لبنايات حساسة. لا، انسَ الأمر.*

نريد منك الزواج من امرأة تُدعى أنا كي تتمكن من الحصول على البطاقة الخضراء. كلّا، شكرًا جزيلاً لكم! لا بدّ أن أجلس على مقعد السائق.

كان تيد قد أخبرني محذرًا عندما عبّرت عن مخاوفي: "إنهم انتـــهازيون. وعلى الأرجح، إنهم لا يدركون بعد كيفية تمكّنهم من التعامل معك. ولكن، حالما يدركون ذلك فسيحاولون استغلالك، صدّقني".

ما قاله أصاب كبد الحقيقة. فعندما يقررون ما يريدونه مني، ينبغـــي لي التيقن من أنه سيكون شيئًا يمكنني إنجازه، أو بتعبير أكثر دقة، ينبغـــي لي أن أحملهم على الاعتقاد أنه بوسعي إنجازه.

الفصل الحادي عشر

لماذا اخترت التجسس؟

لم تسنح لي الفرصة كي أغيّر اسمي أو هويتي الأساسية، فقــد عــرف الروس عائلتي قبل عقدين من الزمان. وقد تركني استخدام اسمــي الحقيقــي معرضًا للخطر. وإذا أراد الروس المجيء والنيل مني، فهم يعرفون بالضبط أين يمكنهم العثور عليّ. لم أسهب في أحاديثي مع أوليغ حول التفاصيل الشخصية المتعلقة بحياتي، و لم آتِ قطّ على ذِكر الحي الذي أسكن فيه أو أفــا، وإنمــا ذكرت فقط أنني متزوج. ولكن، لم تكن تساورني أي أوهام بشأن حمايــة خصوصيتي أو قدرة الروس عن التنقيب في حياتي. وقد افترضت أنهم فعلــوا ذلك مسبقًا. إذ ليس الأمر صعبًا للغاية؛ فقد كان لدي رقم هاتف معروف، وقدت سيارات مسجلة باسمي. لذا، إن إجراء بحث بسيط ســيخبرهم عــن المكان الذي أعيش فيه، ومن هم جيراني، ومن المرأة التي تزوجت منها، وإلى أي كلية ذهبت، وأين عملت سابقًا، وحسب علمي، عدد المرات التي نسيت فيها سداد تذاكر الركن حتى تضاعفت قيمتها مع فوائدها وغراماتها.

(نسيتُ مرتين فقط. أقسم لكم!)

قلت لتيد ذات يوم: "لا بدّ أنهم يعرفون الكثير بشأني. فما مقدار الخطر المحيط بــي؟".

فأجاب بأسلوبه المتزن المعتاد: "ليس بالقدر الكبير، حسبما نعلم".

"*ليس بالقدر الكبير، حسبما نعلم*! ما معنى ذلك؟".

"ليس لدينا أي سبب يدفعنا للاعتقاد بأنك في خطر محدق. لمَ سيرغبون في أذيتك؟ فهم يأملون في أن تكون ذا نفع لهم".

أدركت أنه يحاول تهدئتي. لكن هذا لم يفلح، فقد سألته: "هل يمكنهم التنقيب في حياتي؟".

فأجاب تيد: "يمكنهم القيام بعمليات بحث مفتوحة المصدر بالطبع".

لم يحدد على وجه الدقة ما قد ينطوي عليه ذلك في رأيه، لكنّني كنت أعرف المزيد بشأن عمليات البحث مفتوحة المصدر، أكثر منه. فقد شملت استشارة شركة LexisNexis، والبحث على جوجل، وتصفح حساباتي على موقع الفيسبوك وتويتر ولنكدإن. ويستطيع الروس البحث عني لدى وكالة Equifax أو أي وكالة أخرى تعنى بتصنيف الائتمان الخاص بالأفراد. إذ يستطيع الكثيرون الوصول إلى تلك المعلومات بسهولة. ويمكنهم أيضًا التحدث إلى جيراني، ورؤسائي السابقين. هل يمكنهم زرع أجهزة تجسس داخل شقتي أو في هاتفي؟ هل كانوا يتبعونني؟ ماذا عن أفا؟ "من غير القانوني بالنسبة إليهم إجراء عمليات مراقبة". أكد لي تيد، متجنبًا الإجابة عن السؤال بدهاء.

هل كان هذا حقًا أفضل رد لديه؟! وهو أنّ الروس لن يفعلوا أي شيء غير قانوني!

فقلت له: "لكن أوليغ يتبع لمديرية الاستخبارات الروسية". ومجددًا، لم يجب تيد بشكل مباشر، ولكنّ عجزه عن الإنكار كان كافيًا بالنسبة إليّ، فواصلت الكلام: "أتقول لي إن الاستخبارات الروسية ليست لديها أي مصادر لتحرقها في مواجهتها عدوها الأول؟ الدبلوماسيون في هذه المدينة لا

يسددون حتى ثمن تذاكر ركن السيارات، فهل تتوقع منهم اتباع قواعد أشد صرامة؟ إنهم يريدون مراقبة الرجل الذي يساعدهم على التجسس على الولايات المتحدة، ولكنهم لن يفعلوا ذلك!".

ضحك تيد على ما قلته.

كان الأمر برمته جديدًا بالنسبة إليّ، ولكنّني لست مغفلاً. إذ يتعين عليّ أن أفترض أن أوليغ قد كلف أشخاصًا للتحقق من أمري؛ هذا إن لم يكن قد فعل ذلك بنفسه. وأولئك الأشخاص سيحاولون بلا شك تفسير أي شيء وكل شيء قلته. لذا من الأفضل ألّا أكذب عليه بشأن تفاصيل حقيقية إلّا إذا اضطررت إلى ذلك.

بوسعي أن أضيق نطاق البحث، وأن أضخم من حجم الحقيقة. وبوسعي إخفاء الحقائق المزعجة والتركيز على التفاصيل المحرفة. ولكن، أيًا كانت الطريقة التي سأقدم بها سيرتي الذاتية ودوافعي، فستخضع كلّها لفحص دقيق من قبل الروس في الخارج وفي روسيا. سيتحققون بما يكفي إلى أن يثقوا بي. لذا، كل ما أقوله لا بد أن يكون له ما يبرره، حتى لو لم يكن حقيقيًا بنسبة مئة في المئة. إذ لا يجب أن يكون هناك لغو، ولا يجب ذكر أي شيء من دون التفكير فيه بتمعن. فمهما كانت الأكاذيب التي سأخبرهم إياها، لا بدّ أن يدعمها جانب من الحقيقة. لا بدّ أن يصدقني الروس. كان الأمر بهذه البساطة وهذا التعقيد في آن واحد.

وعلى الرغم من أنني التزمت باسمي الحقيقي وسيرتي الذاتية الأساسية، فإن شخصيتي ودوافعي كانت متاحة للجميع. كان أوليغ يعرف بالفعل من أكون، ولكن كان بيدي أنا أن أبيّن له من أكون. وقد اكتشفت أن فكرة العميل المزدوج ليست علاقة صريحة. في الواقع، لقد اضطررت إلى ابتكار شخصية جديدة تخدمني بشكل أفضل من شخصيتي الحقيقية. وقد تبيّن أن

إنجاز ذلك على النحو المطلوب أمر شديد الأهمية، ويحمل في طياته متعة كبيرة.

بالأساس، تعيّن عليّ أن أتصف بالحماقة الشديدة أثناء تعاملي مع أوليغ أكثر مما أنا عليه فعلاً. وأن أبدو نافد الصبر دومًا، وسريع الغضب، ومغرورًا، وذا شخصية كريهة، وأنانيًا وحسب، وأن أركز على المال قبل أي شيء آخر. أقنعت نفسي بأن هذه هي الطريقة الأكثر فعالية في التعامل مع الأمر، إذ كان أوليغ شخصية صعبة المراس. وكان قد تحمل الظروف الصعبة في البحرية الروسية وظفر بوظيفة يطمح إليها الكثيرون في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى منصب مهمّ في نيويورك. وأكثر ما يثير الإعجاب هو أنه تحوّل من العمل لصالح الاتحاد السوفييتي إلى العمل لصالح روسيا الاتحادية بمفرده. وتلك ليست إنجازات رجل ضعيف. وإذا أردتُ الصمود في مواجهة شخص كهذا، إذًا ينبغي لي أن أكون صلبًا أنا أيضًا.

وللمرة الأولى، تحررت من كوني شخصًا ودودًا ومطيعًا ولبقًا مثلما حاولت دائمًا أن أكون. فبرفقة كل الناس، كنت أستنكر أي خطأ بشكل لا إرادي، وقد أحببت جعل الناس يضحكون معي، وأردهم أن يحبوني. أمّا شخصيتي الثانية فكانت غير أخلاقية ونرجسية ومختلة عقليًا. إذ كان يتوجّب عليّ فعل كل ما لم أحلم به مطلقًا. لعله لم يكن يجدر بي الاعتراف بأنني قبلت سريعًا القيام بدور المغفل الكبير. عندما كنت أتقمّص دوري وأنا مع أوليغ، لم أكن أكترث إن كرهني أو تمنّى لي الموت، فكلّ ما كنت أكترث له هو أن ينجح سلوكي، وأن يقيني مركزًا وعاقلاً وفعالاً تحت الظروف التي كنت أجهلها تمامًا. وقد اكتشفت أن ذلك يمنح شعورًا غامرًا بالحرية.

شعرت أنه ليست لديّ خيارات كثيرة. فالشخص الذي عرفه أصدقائي ووالداي وزوجتي لا يقوى على بيع بلاده مقابل حفنة من المال. كانت لدي

بوصلة أخلاقية. وكنت أهتم كثيرًا بشأن احترام أولئك الـــذين يحترمـــونني. أحببت النوم ليلاً. وإذا كانت هذه الخيانة العظمى ستصبح معقولة، إذًا ينبغي لي أن أبتكر شخصية يمكنها أن تنخرط بشكل معقول في عملية التجســـس. وتلك الشخصية لا بد أن تكون ذات عزيمة لا تلـــين، وكاملـــة النضـــج، ومقدامة. ولا بد أن تنطق شخصيتي وسلوكياتي وأسلوب حديثي بـــالقول: "بالطبع، سأبيع وطني، ولكنّني لن أفعل ذلك من دون مقابل".

الخبر الجيد هو أنّني أتّصف ببعض النقائص التي يمكنني الاعتماد عليهـــا. فقد كنت أُكثِر من القسم. (تذرعت بأنني "من سكان نيويورك الأصليين"). وكان حس الفكاهة لديّ يقارن عادة بحسّ الفكاهة لدى فتى يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، ولم يكن يقصد بذلك الإطراء عادة. وما زلـــت أضـــحك لدى سماعي شخصًا ما يقول "حوت المني". وفكرتي عن الترفيه تتقاطع مـــع تلك الخاصة بفتى يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا؛ فقد شاهدت الكثير جـــدًا من الأفلام الساخرة، ولهوت بالكثير جدًا من ألعاب الفيديو الغريبـــة. لـــذا، بشكل ما، كان لدي الأساس المتين لبناء نافيد الذي كان أوليغ يتعرف عليه. تخيلوا كم سيكون هذا التحول صعبًا لو أنني بقيت أحمق تمامًا!

لكنّ نقائصي لم تكن مصدر إلهام فعالاً. ففي سبيل الحصول على توجيه احترافي كي أصبح شخصًا بلا أخلاق تمامًا، لجأت إلى الخـــبراء الـــذين لا يقهرون في عالم صناعة الشخصيات؛ هوليوود. فإن كان هناك أحد يعـــرف كيف تتم صناعة الشخصيات، فهم الأشخاص الذين يؤلفون قصص الأفلام والمسلسلات.

لذا، بينما كانت علاقتي بأوليغ تتوطد، بدأت في إقامة مهرجان الأفلام الخاص بـــي لشخصيات الجواسيس والعملاء المزدوجين على شاشة التلفـــاز المسطحة في غرفة المعيشة. بحثت عن الشخصيات التي يمكنني تقليدها والتعلم

منها. لم يكن ثمة نقص في عدد تلك الشخصيات. *ميامي فايس وسباي غيم ورونين وهيت وكولاتيرال وكازينو رويال ومانهانتر وبوليت*، شاهدتها كلّها حتى أضحت عيناي تدمعان وتعين عليّ الخلود إلى النوم. كانت كلها أفلامًا شاهدتها من قبل، وأفلامًا لم أسمع بها قط، وحلقات عشوائية من مسلسلات قديمة. حفظتها كلها عن ظهر قلب عمليًا. ثم كنت أقف أمام المرآة في الحمّام وأتدرب على بعض الجمل القوية وكأنني أحاول تقليد ستيلا أدلر بأن أحشر نفسي في دور صعب وخاص.

"لم نأتِ إلى هنا لنجرب العمل. تجربة العمل تخصصنا". جامي فوكس في فيلم *ميامي فايس*.

"اتخاذ قرارات خاطئة أفضل من عدم اتخاذ أي قرار". جيمس غاندولفيني في مسلسل *ذا سوبرانوس*.

"كيف أبدو ظريفًا؟ أعني، هل أنا ظريف وكأنني مهرج؟ هل أسبّب لك البهجة؟ هل أجعلك تضحك؟ هل أنا هنا لأدخل البهجة إلى نفسك؟". جو بيسي في فيلم غود *فيلاس*.

لعل هذا يبدو حماقة الآن، ولكنْ أقسم إنّ ذلك علمني الكثير عن بناء أسطورة جديدة أقوى لنفسي. وقد ساعدني ذلك على تقمص الشخصية أكثر من أي شيء آخر. وقفت عدت مرات أمام المرآة، وكنت أتحوّل إلى شخص جديد. وفي الثلاثين ثانية التي استغرقتُها لمحاكاة آل باشينو في فيلم *سكارفيس*، "لا أنطق بغير الحقيقة، حتى عندما أكذب". كان بوسعي التحول من نافيد جمالي؛ الشخص العادي، إلى نافيد جمالي؛ العميل المزدوج الغاضب.

كانت الشخصيات التي قلّدتها من بعض أذكى الشخصيات. وفي العديد من تلك الأفلام والمسلسلات، لعبت الشخصية الرئيسة دورًا مزدوجًا من نوع ما، إما دور شرطي متخفٍ أو جاسوس سريّ. وقد ركزتُ على رد فعل أولئك

الشخصيات عندما جرى اتهامهم بأنهم ليسوا كما يزعمون- حيث كانوا كذلك بلا شك- وبقدر ما يمكنني القول، خير وسيلة للدفاع هي الهجوم الكاسح.

أحببتُ الطريقة التي ردّ بها كل من كروكيت وتابز (كولين فاريل في دور دون جونسون العجوز، وظهور فوكس في دور فيليب مايكل توماس) في فيلم *ميامي فايس* عندما قال لهما زعيم المنظمة ييرو: "بخلاف نيكولاس، من يعرفكما بحق الله؟".

إذ ردّ كروكيت هائجًا وصوته ينضح بالتعالي: "أبي وأمي يعرفانني". ثم وضع مسدسًا على الطاولة، وأزال منه المسمار، وبدأ بالتشكيك في مصداقية ييرو: "أتريد أن تعرف بعض الترهات؟ من تكون بحق الله؟ عقدت صفقة جانبية مع جمارك الولايات المتحدة تقضي بفتح الساحل في بضعة موقع. وفي المقابل، ستسلمهم بعض الهاربين من أمثالنا!".

فسأله تابز وهو يفتح قميصه: "هل تضع جهاز تنصت؟".

وقاطع كروكيت كلامه قائلاً: "أم تتبع إدارة مكافحة المخدرات؟ هل تتبع مكتب التحقيقات الفدرالي؟".

استعاد العميلان زمام الأمور فجأة.

يمكنني أن أتخيل نفسي وأنا أفعل شيئًا مماثلاً مع أوليغ؛ باستثناء الجزء المتعلق بالمسدس بالطبع.

كان هناك الكثير من البدائل التي يتعين عليّ الاختيار من بينها، والكثير من العمل الذي ينبغي لي إنجازه. وبمجرد أن أتخلى عن شخصيتي الأساسية، يجب أن أصبح عاجزًا عن الصبر وسريع الغضب ومهووسًا بالمال، ويتعين عليّ أن أتصرف كمجرم. كنت قد قمت بالكثير من التصرفات الحمقاء، ولكنّني لم أرتكب جريمة في حياتي، ناهيك عن ارتكاب شيء خطير مثل الخيانة أو التجسس. وكل ما كنت أملكه في ترسانة خبراتي هو تجاوز السرعة

المسموح بها، أو التسلل إلى داخل مكان يمنع عليّ دخوله وأنا لم أبلغ السن القانونية بعد. وفي صغري، كانت تلك التصرفات تجعلني بالكاد أحصل على تحذير خطيّ من شرطة هاستنغز الهائجة. وبكل تأكيد لا يحصلون على صورة جنائية تعريفية لك، ولا يكون لديك سجل جنائي.

لذا، ما الذي يقوله أو يفعله المجرم الحقيقي؟ والأهم من ذلك، كيف يتوقع أوليغ والروس أن يبدو ذلك المجرم؟ فبما أنه ضابط جيش محترف ودبلوماسي، على الأرجح لم يتعامل أوليغ مع مجرمين حقيقيين بالقدر الكافي، ناهيك عن الخونة المستعدين لبيع بلادهم مقابل مغلفات مليئة بالنقود. وأفترض أنه كان يبني توقعاته على أساس المسلسلات والأفلام الأميركية مثلما كنت أفعل بالضبط، فلطالما سمعت أن هوليوود أعظم مصدّر في أميركا.

في الأفلام، كان كل المجرمين- ومن بينهم ذوو الحديث اللبق- سريعي الغضب. وما كانوا يخافون قط من الانسحاب من صفقة ما إذا لم يكن الأمر كما يريدون. كما كانت لديهم لغتهم الخاصة ومجموعة قواعد لا مثيل لها.

في فيلم *سباي غيم*، يشتكي توم بيشوب الذي يقوم بدوره براد بيت، إلى ناثان موير- شخصية روبرت ريدفورد- من أنه ترك أحد مصادر المعلومات يلقى حتفه.

يقول موير: "لقد كان أحد مصادرك، شخصًا ما تستفيد منه للحصول على المعلومات".

فيرد بيشوب: "حبًا بالله، أنت لا تبادل هؤلاء القوم وكأنهم بطاقات بيسبول! الأمر ليس لعبة!".

فيعاود موير الكلام: "بلى، إنه كذلك. هذه حقيقة الأمر بالضبط. وهي ليست لعبة للأطفال أيضًا، بل إنها لعبة مختلفة تمامًا، وهي حقيقية وخطيرة. وليست لعبة تود أن تخسرها".

التجسّس عمل صعب، هذا ما ظهر واضحًا من كل الأفلام. وهو ليس لضعاف القلوب. فلا مجال فيه للشكوى والنحيب. إنه مثلما قال عنه الشرطي العجوز فنسنت هانا، الذي لعب دوره آل باشينو، لنيل ماكولي، اللص الذي يسطو على مصرف في فيلم هيت ويقوم بدوره روبرت دي نيرو: "حياتي منطقة للكوارث. لدي ربيبة دُمرت حياتها لأن والدها الحقيقي هو هذا الأحمق الكبير. ولدي زوجة نتجاوز أنا وهي بعضنا بعضًا على منحدر الزواج، وهي زوجتي الثالثة؛ لأنني أقضي كل وقتي في مطاردة أمثالك. هذه حياتي".

فيقول ماكولي: "أخبرَني رجل ذات مرة: *لا تربط نفسك بشيء لست على استعداد للتخلي عنه خلال نصف دقيقة فقط إذا شعرت باللهيب في الجوار*. والآن، إذا كنت تسعى ورائي ويتعين عليك الذهاب أينما أذهب، فكيف تتوقع أن تحافظ على مشروع زواجك؟".

بارك الله في الأفلام والمسلسلات.

ثم برز سؤال عن دافعي. فلماذا يرتكب شخص مثلي فعل التجسس؟ انشغلت في القراءة حول ما يدفع الناس إلى التجسس. فالتاريخ والخيال العلمي- قديمًا أو حديثًا- حملا في طياتهما الكثير حول هذا الموضوع. وتحمل كتب التجسس والأفلام والمسلسلات الخاصة بالتجسس في طياتها نظريات عن دوافع خفية وأخرى ظاهرة للتجسس. وفي المراحل الأولى من أبحاثي، اطّلعت على نظرية مايس MICE.

استنادًا إلى هذه النظرية، يرتكب الناس أفعال التجسس لأربعة أسباب أساسية: المال والأيديولوجيا والإكراه أو الغرور. وأحيانًا يكون ذلك بسبب خليط من سببين أو ثلاث، ولكن الأشخاص الذين فكروا في هذا بتعمق أكثر مني بكثير قالوا إن تلك هي التصنيفات الأربعة الرئيسة. ولكل منها قوته

بطريقته الخاصة، ومن السهل جدًا العثور على أمثلة على تلك التصنيفات الأربعة.

لعل المال هو الدافع الأكثر شيوعًا. فمن أجل الحصول على المزيد من المال أو سد حاجة ماسة إلى النقود، يوافق الناس عادة على إفشاء أسرار بلادهم. ولهذا، يخضع أي شخص يتقدم للحصول على تصريح أمني للتحقق من وضعه المادّي والائتماني. وقد كُشف أمر العديد من الخونة بسبب إنفاقهم الباذخ من دون حساب. ويعتبر جون أنتوني واكر مثالاً ممتازًا على ذلك، إلا أنه وللأسف ليس الوحيد. فمساعد قائد البحرية الأمريكية السابق الذي أدين بالتجسس لصالح الاتحاد السوفييتي من أواخر الستينيات إلى منتصف الثمانينيات كان دافعه إلى حد كبير الإغراءَ الشديد للعملة الصعبة. وقد أقر وزير الدفاع الأميركي حينها كاسبر واينبيرغر بأن خيانة واكر مكّنت السوفييت من الوصول إلى طيف واسع من الأسرار العسكرية الأميركية "مثل الأسلحة، وبيانات أجهزة الاستشعار، والتكتيكات البحرية، والتهديدات الإرهابية، والتدريبات الخاصة بالقوات البرية والبحرية والجوية، ومدى الجهوزية، والتكتيكات المتبعة".

تعتبر الأيديولوجيا حافزًا للخيانة شائعًا أيضًا. فمن أوائل الوطنيين مثل ناثان هيل ووصولاً إلى الناشطين في مجال إلغاء العبودية مثل هاريت توبمان، كان بعض أعظم أبطال أميركا يقومون بالتجسس بسبب دوافع أيديولوجية. لقد كانت ممارسة التجسس بسبب الأيديولوجيا عنصرًا في كل أمة وفي كل حرب تقريبًا. اذكُر هدفًا وشخصًا شهيرًا تجسس من أجله. الشيوعية، تجسس لصالحها كل من كيم فيلبي وكلاوس فوش. مناهضة النازية، نشط فيها كل من فرتز كولبي وخوان بوخول. دعم كوبا، أنا مونتيس. وتتواصل القائمة وتصنع تاريخًا مدهشًا.

الإكراه، رغم أنه أقل شيوعًا، إلّا أنه لعب دورًا أيضًا. فالتعذيب أوضح الأمثلة وأشدها قسوة وتطرفًا؛ على الرغم ربما من أن التهديد يكون بالقدر نفسه من القسوة. وما إن يُلقى القبض على الجواسيس حتى يزعم بعضهم- الذين تحركهم دوافع المال أو الأيديولوجيا أو الغرور- أنهم قد أجبروا على التجسس. ولكن هذا يحدث، وأحيانًا بشكل مبتكر. فخلال الحرب العالمية الثانية، ألقي القبض على *ماثيلد كاري التي عملت لصالح المقاومة الفرنسية* من قبل النازيين، وهُددت بالتعذيب أو بما هو أسوأ ما لم تصبح عميلة مزدوجة. وقد أخبر أمن الدولة السوفييتي سفيتلانا تومانوفا أن عائلتها المقيمة في الاتحاد السوفييتي في خطر ما لم تتجسس لصالحه. ولإضفاء المزيد من الشك، ادعى رونالد هامفري أنه ساعد فيتنام الشمالية كي يسهل إطلاق سراح زوجته الفيتنامية. وعلى مدى قرون، أجبر ضباط الجيش والدبلوماسيون على التجسس بتهديدهم بفضح ميولهم الشاذة. وبسبب القلق من هذا الاحتمال، تحقّقت وكالات الاستخبارات بشكل روتيني من تاريخ المتقدمين إلى العمل لديها، وذلك خوفًا من أن يخضع "بعض الأشخاص غير الأسوياء" للابتزاز. يعتبر هذا النوع من التجسس جزءًا من الماضي، إلا أن أي شخص يشغل منصبًا حساسًا لا يزال هدفًا محتملاً للابتزاز مقابل التجسس.

الغرور، الإثارة، الغموض، الغطرسة؛ سمّ الدّافع كما تشاء. إذ يتّجه الكثير من الناس إلى العمل في التجسس لأنه يحمل الكثير من المتعة؛ حتى لو كانت الدوافع الأخرى تلعب دورًا. ويمثّل روبرت هانسن أحد الأمثلة الرئيسة على ذلك. إذ كان عميلاً فدراليًا تجسس لصالح الاتحاد السوفييتي، وقد انخرط في ما سُمي "أسوأ كارثة استخبارية محتملة في تاريخ الولايات المتحدة". وقد كان مدفوعًا بالرغبة في إرضاء الذات. جوناثان بولارد مثال آخر. فقد كان مدنيًا أميركيًا يعمل كمحلل استخباري، وقد أُدين ببيع أسرار

إلى الإسرائيليين، ولكنه لم يكن يتوقّع أن شخصًا في مثل ذكائه سيتم الإمساك به. وكريستوفر كوك- وهو ملازم في القوات الجوية الأميركية- قام بتسريب بيانات تخص صاروخ تايتان 2 إلى سفارة الاتحاد السوفييتي في العام 1981، وقد عانى من الإحساس المفرط بالغرور نفسه. كان مغرمًا بالتجسس للغاية، لدرجة أنه عجز عن كبح جماح نفسه عن الغوص فيه. على الأقل، هذا ما أخبر به المحققين الذين لم يبدوا أي تعاطف معه.

لذا، ما الذي سيكون دافعي للتجسس؟ أهو المال أم الأيديولوجيا أم الإكراه أم الغرور؟ لا بدّ أن أختار أحدها. ولا بدّ أن يبدو الأمر حقيقيًا، ولا بدّ أن أبدو على سجيتي. كنت واثقًا من أن أوليغ كان قد قرأ عن نظرية مايس مثلي بالضبط. وكان يعرف جيدًا ما يبحث عنه. ألم يكن الهدف من المحادثة التي جرت في ذلك المطعم اكتشاف ذلك؟ لم يكن يستمتع بشرائح الجبن!

كان المال هو الجواب بالنسبة إليّ. فمن بين كل الدوافع المعقولة لخيانتي، كان المال أكثرها مصداقية. لأنّني إذا كنت بصدد التظاهر بالتجسس، فلن يبدو أي شيء آخر حقيقيًا بما يكفي لاتخاذه كدافع. فأنا لم أكن مناصرًا لأيديولوجيا ما، ولم أكن إسلاميًا أكثر من أبي، ولم أكن أناقش مع أوليغ مواضيع مثل الدين أو الشيوعية أو عظمة الاتحاد الروسي أو أي شيء من هذا القبيل مطولاً. كما أنّني لا أكنّ مشاعر عداء تجاه الولايات المتحدة، بل في الواقع على العكس تمامًا. أضف إلى ذلك أنّني لم أنتمِ إلى أي منظمة تخريبية، إلّا إذا اعتبرتم نادي قيادة السيارات بسرعة منظمة تخريبية. ولم أكن أحمل بطاقة عضوية لأي منظمة، باستثناء بطاقة المكتبة العامة وبطاقة رابطة الصليب الأزرق والدرع الأزرق ربما. ولم أعد أملك بطاقة مؤسسة بلوك باستر للترفيه.

كانت حجة المال بسيطة ونقية، فقد كنت شغوفًا بالمال. ومثل بقية الناس، كنت أحب ما يستطيع المال شراءه. إذ يشتري المال شقة جميلة، ووقتًا للمتعة، والراحة لعائلتي، والسيارات الأميركية السريعة حقًا. اعتقدت أنني لو بالغت في حبي للمال، فسيكون ذلك شيئًا يستطيع أوليغ تفهمه. فقد نشأ في ظل الاتحاد السوفييتي الشيوعي، وقد سخروا لعقود من الأميركيين بسبب قيمهم الرأسمالية الجشعة. ولكن، يظهر أنه تأقلم على المنهج الرأسمالي الواسع الذي يبدو أن بلاده تتبعه الآن. كنت أشك في أنه شغوف بالمال هو أيضًا، وأنه يمكنه بسهولة رؤية نمط حياتي- بما في ذلك السيارات والملابس والوظيفة والشقة- كدليل على ذلك.

ومثلما فعل الكثير من الجواسيس الحقيقيين، أضفت الغرور إلى دافعي الأساسي. إذ ثمة شيء من الغطرسة والغرور حين يتعلق الأمر باتخاذ قرار بارتكاب فعل مشين كهذا؛ فعل من النوع الذي كنت أتظاهر بالقيام به. كان كل من بولارد وهانسن متغطرسين، وكذلك كان معظم الجواسيس. وقد تشاركت شخصيتي الحقيقية وشخصية العميل المزدوج بعضًا من ذلك. لم يكن بوسعي إنكار الأمر. وكان حافزي إضافة جرعة من التفوق إلى ما أردت للروس تصديقه، وقد كان ذلك سهلاً. ففي لقاءاتي مع أوليغ، كنت أحاول باستمرار أن أقنعه أنني أفوقه ذكاءً. وقد مارست الألاعيب نفسها في الكثير من الأحيان مع مكتب التحقيقات الفدرالي. و لم أشكّ للحظة في قدرتي على التفوق في الدهاء على كلا الطرفين. ومثلما كان الحال مع قدوتي الحقيقية من تاريخ التجسس، أدركت أنني أكثر مكرًا ممن يتتبعونني.

كانت تلك شخصية يمكنني تقمصها؛ شخصية رجل مهووس بالمال ويثق في نفسه ثقة عمياء. لم تكن تلك شخصيتي الحقيقية بالضبط، ولكنها كانت قريبة الشبه منها بما يكفي.

ربما لم تكن تلك الأفلام والكتب المعلم المثالي، ولكن بالإضافة إلى تيد وتيري، كانت المعلم المتاح أمامي. لحسن الحظ، كان لدي هذان العميلان لصقل الطرائق التي تعلمتها ذاتيًا. لذا، قبل أن ألتقي أوليغ مجددًا، تشاركت معهما ما ظننت أنني قد تعلمته.

قلت للعميلين: "لا بدّ أن يكون دافعي هو المال، مع إظهار القليل من الغطرسة. فلا شيء غير هذا سيبدو منطقيًا. فأنا لست شيوعيًا، ولا أكره أميركا، وإنما أحب امتلاك الأشياء وحسب. لذا، لا يمكنني التظاهر بأنني عالم نووي لأنّني لن أكون قادرًا على إقناعه بذلك. ورغم أنه بإمكاني التحدث عن معظم الأشياء، إلّا أنه لا يمكنني إقناع خبير في أمر ما بأنني أعرف أكثر منه في ما يتعلق بذلك الأمر؛ طالما أنني لست كذلك في الحقيقة. فمن المستحيل معرفة المعلومات السرية التي يخفيها أوليغ. لذا، الرغبة في المال مبرر يمكنني إقناعه به دومًا".

فقال تيد: "يعجبني ذلك".

بعد أن ضمنت موافقتهما على ما قلته، صعدت إلى السيارة وذهبت إلى العمل.

ما إن غادرت الشقة وابتعدت عن أفا التي ما انفكت تراقب كل شيء، بدّلت شخصيتي. حينئذٍ فقط كان بمقدوري أن أرى مباشرة مقدار التغيير الذي طرأ عليّ. إذ طرأ تغيير على سلوكي، وغطرستي، والهالة التي أحطت نفسي بها، والطريقة التي كنت أقود بها. (حسنًا، ربما ليس الطريقة التي كنت أقود بها. فأنا لم أخجل أثناء القيادة مطلقًا). وعلى الرغم من أنّني لم أكن أحمل سلاحًا، إلّا أنه كان عليّ التحلي بالثقة بالنفس وعدم إظهار أي قدر من الخوف. لذا، حتى مع ارتدائي ملابسي التقليدية، ومغادرتي شقتي الحقيقية، وقيادتي سيارتي الحقيقية، ومعرفة الروس بالاسم الوحيد والحقيقيّ لي لي؛ رغم كلّ ذلك تقمصت دور

رجل ما جُبل بالكامل من أجل أوليغ، بشخصيته وسلوكه.

ومن أجل استكمال عملية التحول، في كل مرة كنت أقود فيها السيارة للقاء أوليغ، كنت أختار بعناية قائمة المقاطع الموسيقية التي أستمع إليها. وقد ساعدتني حقًا على تقمص شخصيتي الجديدة. ففي طريقي إلى مكان اللقاء، استمعت إلى الكثير من المقاطع التي حفّزتني؛ كأغنية جي-زد "99 مشكلة"، وأغنية أم أي ايه "طائرات من ورق"، وأغنية فريق أوديو سليف "ظل عند الشمس". ولدى عودتي إلى المنزل، وأثناء استعادتي شخصية نافيد الحقيقية، كنت أستبدل الأغاني الصاخبة بأخرى هادئة لتهدئتي؛ مثل أغنية إيدي فيدر "شمس حارقة"، وأغنية أر جي دي 2 "الكاتب الشبح"، وبعض أغاني فريق يلكو التي كانت مثالية لهذا الغرض.

كنت أضع حزمة من الوثائق بجانبي؛ كوسائل دعم يمكنني اللجوء إليها لتعزيز مصداقيتي. وقد منحتني تلك الوثائق الثقة في أن لديّ شيئًا ملموسًا أقايض به والإحساس بأن عقلي له قيمة أكثر لدى الروس وأنا حي أكثر منه وأنا ميت.

عندما ركنت سيارتي، كنت شخصًا آخر. فقد تبخر أي شعور بالخوف لديّ؛ وكأنّني ضغطت على زرٍّ ما، وتحوّلت تقريبًا إلى شخص بارد كالأموات من أجل ما سأفعله تاليًا.

أجل، كان لعب دور العميل المزدوج أرضًا غير مألوفة بالنسبة إليّ، ولكنّني لم أمانع خوض هذه التجربة الجديدة. وفي الواقع، كنت منغمسًا فيها بأكثر من جانب. كما ساعدتني خبرتي التكنولوجية؛ فقد كنت معتادًا على استخدام التكنولوجيا الجديدة. وفي مجالي المهني، كان هذا هو المتوقع. سواء أكان الأمر جملة استفهام أو تكرارًا أو كائنًا أو اختيارًا، فإذا فهمت المفاهيم الأساسية، فليس عليك سوى تطبيقها بأحدث صيغة.

الأمر ذاته ينطبق على التجسس ومكافحته. لم أكن أعرف الكثير عــــن التجسس، ولكنّني كنت أعرف الطبيعة البشرية، وأعرف أنه بوسعي التعلم. كانت هذه تجربة جديدة لها مفاهيمها الأساسية ولغتها الخاصة، وكنت أتعلم كيف أتأقلم عليها.

عندما جمعت كل قطع الأحجية معًا، أدركت أنني أمتلك ما يتطلبه الأمر لإقناع الروس بأنني صفقة رابحة.

الفصل الثاني عشر

امتلاك زمام المبادرة

كان وقت البيع قد حان، وأنا السلعة.

عندما التقيتُ أوليغ في شهر أبريل في مطعم تشارلي بـــراون الواقـــع في يانكرس، لم أنتظره حتى يستجوبني. فأثناء تناولي قطـــع دجـــاج ضـــخمة، وصفت له خططي للشركة، وكيف أنني أطمح إلى تحويـــل تجـــارة عائليـــة متواضعة إلى شركة عالمية لتوفير البحوث والبيانات. أوضحت له أن لـــدي طموحات كبيرة، وقلت: "استخدام الورق بات جزءًا من الماضي. فالعـــالم يتجه إلى التكنولوجيا الرقمية، ويتعين علينا فعل ذلك أيضًا". وقلت إنني ملتزم بالسيطرة على حصة أكبر من السوق العالمية. "يتعين علينا أن نجعل تجارتنـــا أكبر مما هي عليه الآن. وسوف أجعل هذا الأمر واقعًا".

شرحت الأمر لشريكي أثناء تناول الغداء وأنا أشعر بالفخر. لقد كـــان شعوري بذاتي متفجرًا! إذ ثمة مال يمكن الظفر به! إذًا، أنا قادر على فعل أي شيء!

كان كل ما سبق يتميز بالواقعية الشديدة، حتى إن لم أكن فعلاً علـــى وشك الهيمنة على العالم المالي. وكما توقعت، كان التمسك بقصـــة المـــال أسهل بكثير من صب اللعنات على الإمبريالية الأميركية المتوحشة، أو التذرع

بدافع ديني. ومن أجل دعم شخصية رجل الأعمال الشاب التي لا تزال في طور التشكل، أغرقت أوليغ في كومة من ملفات إكسل التي تظهر النمو الثابت والزخم المتنامي للشركة، فبدا مندهشًا. كانت الحقيقة- رغم أنها مبالغ فيها نوعًا ما- بسيطة على هذا النحو. وقد انهمر الحديث عن طموحي التجاري من بين فكيّ.

أخبرت أوليغ أنني كنت أضع برامج جديدة يمكنها أن تسهِّل عملية تتبع الطلبات التي تأتينا. إذ كان كل شيء يتم على الورق سابقًا، لذا لم يكن من السهل الحصول على لمحة عامة عن الأمر، وقلت: "أما الآن، فسيكون بمقدورنا تتبع المواد باستخدام تكنولوجيا الباركود وتخزين المعلومات. كما يمكننا أن نتحقق من كل كتاب يرد أو يباع".

ذكرت أنّه ربما سيطلب منا تحويل كمية ضخمة من البيانات العسكرية إلى صيغة رقمية. وتحدثت عن جامعة الدفاع الوطنية وبعض المشاريع الأخرى التي تلوح في الأفق. "بمجرد أن ننتهي من تلك المشاريع، سنبدأ في مشاريع جديدة أخرى ربما تثير اهتمامك".

"تابع". قال لي ذلك وهو يميل إلى الأمام، منتظرًا سماع المزيد.

فقلت له: "نظريًا فقط، لنقل إنك مهتم بصواريخ توماهوك. حاليًا، أنت لا تعرف المعلومات المتاحة عنها، أليس كذلك؟ ربما يمكنني الوصول إلى قواعد بيانات بعينها. يبدو أن هناك الكثير من الأمور التي تفوتك هنا". صمتُّ قليلاً ثم قلت مكررًا: "نظريًا، هل ستكون مهتمًا بشيء ما إلى جانب ذلك؟".

فردّ قائلاً: "ربّما". كلما استرسلت في الحديث، تقلصت فرصه في طرح أسئلة عليّ بشأن عائلتي وخلفيتي وحياتي الشخصية. وقد قال لي: "أنت شخص طموح للغاية".

القصة والدافع والنفوذ؛ كانت القطع كلّها تتجمع معًا في جلسة غـــداء سيئ واحدة.

قبل أن ألتقي أوليغ، عقدت جلسات الحوار الاستراتيجية المعتادة مع كل من تيد وتيري. كنا نناقش ما يمكنني أن أقوله أمامه. قلت لهما إنني متحفـــز للحصول على شيء مغرٍ وسريع. وقد مازحتُ العميلين بشأن من يبدو أبطأ في تحركه وأكثر بيروقراطية؛ مكتب التحقيقات الفدرالي أم أوليغ. وذات يوم، وبينما كنا نتباحث بشأن سيناريوهات محتملة ومتنوعة، طرح عليّ تيد سؤالاً على الطريقة الروسية: "بالمناسبة، هل تمانع ارتداءك هذه الساعة في المرة المقبلة التي ستقابل فيها أوليغ؟".

كان يمسك بساعة يد سوداء من ماركة G-Shock ذات حزام Velcro أسود اللون. كانت الساعة من النوع الذي قد يرتديـــه قائـــد في وحـــدة العمليات الخاصة، أو عضو في وحدة سوات أو مغني راب لامـــع. كانـــت شاشتها رقمية، وفيها بوصلة. وما كان بوسعك رؤية البوصلة إلّا إذا قلبـــت الساعة، وهناك مسجِّل رقمي سريّ في داخلها.

لم يزعجني طلب تيد. فنظرًا إلى الطريقة التي طلب بها ذلك، لم أشعر أنه ثمة مشكلة لديّ في الثقة فيه أو في تيري أو مكتب التحقيقـــات الفـــدرالي. وكنت أفترض طوال الوقت أنهم يستمعون إلى حواراتي مع أوليغ. كما كنت أعتقد أنه تمّ زرع أجهزة تنصت في الطاولة أو تحت المقعد المجاور لنا... وربما النادلة ليست نادلة بالأساس. فربما كانت عميلة خاصة تضع جهاز تنصت.

منذ تلك اللحظة وحتى النهاية، أدركت أن عمليات المراقبة ومكافحتها ستغدو جزءًا من حياتي؛ حتى لو لم أعرف متى أو كيف. حاولت جاهدًا ألا أصبح مهووسًا بالأمر، وحاولت أن أجزّئه. ولكنّني لم أقوَ على منع نفسي عن التساؤل بشأن روتين عملي اليومي، *هل يتتبعني ذلـــك الفـــان المتوقـــف في*

الشارع الذي أسكن فيه؟ هل يستمع الزوجان الجالسان إلى المائدة المجاورة إلى ما نقوله؟ ربما، وربما لا . ولكنّني اكتشفت أخيرًا أنّني إذا أردت أن أبعد شبح الخوف عنّي، يتعين عليّ إذًا كبح جماح مخيلتي الواسعة. وإذا كان لدي استفسار أو مبعث للقلق، فلا يمكنني أن أغدو مهووسًا به، بل يجدر بي ملاحظة ذلك والإبلاغ عنه والمضي قدمًا. لم أكن وحيدًا، إذ ثمة بعض المحترفين إلى جواري.

مزحنا حول الساعة. "لديّ رسغ نحيف". قلت ذلك لتيد وتيري، وتابعت: "هذه ساعة ضخمة. وكي أقول الحقيقة، تبدو كالتي يرتديها فلافور فلاف. هل اشتريتموها منه؟ هل عرضها للبيع على موقع إيباي؟".

فقال لي تيد: "إما هذه أو مفتاح فوب".

"مفتاح فوب؟".

"أجل، مفتاح فوب. إنه أحد تلك الأشياء التي تُعلّق في سلسلة المفاتيح".

فقلت: "أعرف ما هو مفتاح فوب". ولكنْ كانت هناك أنواع كثيرة منه. فقد رأيت فتيات مراهقات لديهن سلسلة مفاتيح على شكل قطة صغيرة، ونساء هرمات لديهن مفاتيح فوب تفتح سيارة من طراز Oldsmobile موديل العام 1998. "هل كنتم ستضعون المُسجِّل في مفتاح فوب؟".

فأجاب تيد: "كان من الجائز أن نفعل ذلك. ولكننا اخترنا الساعة بدلاً من ذلك. أعتقد أنها أجمل. وقد صنعت لك خصيصًا. لا أحد غيرك يمتلكها".

وافقت على أن الساعة كانت اختيارًا أفضل، إذ لم يمسك جيسون بورن بأي أحد باستخدامه مفتاح فوب.

أتت الساعة مع جهاز للشحن. وقد تعيّن عليّ تركه موصلاً بها كي تصبح جاهزة عندما أذهب للقاء أوليغ. وبقدر ما كنت أعرف، لم ينتبه لأمر الساعة مطلقًا.

غيّرت الساعة الكثير من الأمور. فبشكل بارع، غيّرت الشخصية التي شكلتها. وعندما بدأت بتسجيل اجتماعاتنا، شعرت أنني أصبحت عميلاً مزدوجًا حقيقيًا.

وكان تيد قد حذرني: "سنضطر إلى مقابلتك بعد ذلك وتحميل كل شيء".

"أتفهم ذلك".

"في كل مرة ستلتقيه فيها، سيتعين عليك تسجيل كل شيء. وهكذا، كل ما ستخبرنا به سيكون من الممكن التحقق منه".

منذ ذلك اليوم، سيعرف رؤسائي في المكتب الفدرالي ما إذا كان ما أخبرهم به أكاذيب أم لا. كنت على ثقة بالفعل بأنهم يصدقون ما كنت أخبرهم به. فقد استثمر العميلان ما يكفي من الوقت والجهد فيّ. ولكنني وعلى نحو غريب كنت سعيدًا بتبديد أي شكوك قد تكون لا تزال تحوم حولي. كانت المعلومات التي أنقلها ترقى إلى المستوى المطلوب، ولكن فقط بالقدر الذي يمكنني تذكره ممّا قيل. والآن، يستطيع العميلان التوثّق بشكل مستقل من أي كلام يقال.

كان هناك سبب آخر لإعجابي بفكرة ارتداء الساعة التي تحتوي على المسجل الخفي؛ إذ سوف يبيّن ذلك لكلٍّ من تيد وتيري كيف كنت أتعامل مع أوليغ بذكاء، وكم كنت مفاوضًا بارعًا (الغرور). لقد كنت فخورًا بمواهبي كمراوغ، ولم أمانع ولو للحظة أن يسمعني العميلان وقت العمل منذ الآن فصاعدًا.

لقد حصلا على أذن في عين المكان.

اتصل بي أوليغ في أوائل شهر يونيو، والتقينا في مطعم إل دورادو الواقع في جادة سنترال في سكارسديل. وقبل دخولي المطعم، تأكدت من أن

لا أحد يراقبني، وفعلت ما علّمني إياه تيد وتيري. إذ خلعت الساعة عن رسغي، وضغطت على الزرين اللذين يفعّلان المسجل، وتحقّقت من وجود ضوء صغير خفي يومض في الجانب السفلي. وقد أكّد لي ذلك أن المسجل يعمل قبل أن أعيد ارتداء الساعة.

حملت كومة من الأوراق في حقيبة الكمبيوتر الخاصة بي. إذ اعتقدت أنه من المهم التأكيد لأوليغ على نقطتين محددتين، وهما أن الشركة كانت تشهد زيادة مثيرة في الأرباح، وأنني المسؤول عنها بالفعل. ما إن جلست إلى الطاولة حتى وضعت الأوراق على الطاولة بيننا، وعرضتها عليه واحدة تلو الأخرى. كانت عبارة عن عقود وشهادات حكومية، وبالإضافة إلى كل ذلك، نسخ من شهادات الأسهم تُظهر أنّ والديّ كانا قد نقلا ملكية أسهمهما في الشركة إلى اسمي. كنت مالك السجل.

صافح أوليغ يدي بحرارة، وقال وهو يبتسم مبتهجًا: "تهانينا. يبدو أن لدينا شيئًا نحتفل به اليوم!". فعلى الرغم من أنه قد تربى على الجماعية في الاتحاد السوفييتي الشيوعي، إلّا أنه كان يدرك أن المالك أفضل من العامل بكثير.

تحدّث عن فرنسا مجددًا، وكان كل ما نطق به: "فرنسا بلد جميل". ثم سألني بشأن أفا: "ما اسم زوجتك؟".

لم يرُق لي أنه يسألني بشأنها. ولكنّني عرفت أن هذه المعلومة عامة، وما من فائدة في محاولة التملص من الإجابة عن سؤاله أو الكذب عليه. وعندما أخبرته باسم أفا سألني: "هل لديك أولاد؟".

كان أوليغ يسألني مجددًا، ولكن ليس بلطف مثلما كان يفعل سابقًا. لم أرغب في أي من ذلك، ولكنّني أجبت عن سؤاله على أي حال.

"الله عظيم، فقد أنعم عليكما بهذا النجاح". كانت جملة غريبة، وشديدة التكلف. وكان من الواضح جدًا أن الغرض منها هو اختبار مدى التزامي

الديني. كان يجس النبض ليكتشف ما يحفزني، وأردت التحكم بهذا الأمر، إذ لم أرغب بأن يتحكم به هو. لذا، كان عليّ أن أوقف هـذا الاستجواب الودي الزائف. ولحسن الحظ، كانت قصتي متسقة بشكل جيد. وللمرة الأولى، انفجرت في وجه أوليغ في مكان عام، ورفعت صوتي صارخًا ليطغى على أصوات الأطباق التي تحدث صخبًا حولنا، وطلبات الشراء في المطعم، وقلت: "اسمع، إياك أن تتحدث معي عن زوجتي". فحملقت بنا النادلة، ولم يفتني ذلك. "وإياك أن تتحدث معي عن الله، فنحن هنا بهدف العمل. لذا، لا أود التحدث عن عائلتي. فقد تحدثنا عن هذا الأمر بما يكفي. دعنا نناقش كيفية إنجازنا العمل".

وفجأة، انخرطت في العمل بحق، وبدأت به على الفور. بقيت جادًا للغاية، ولكنّني أخفضت صوتي وسألته بشكل مباشر: "ما الذي يمكنني فعله من أجلك يا أوليغ ويمكنك أن تسدد لي المال مقابله؟ لا يمكنني مساعدتك ما لم تخبرني بما تريده. وحينها سأخبرك إذا كنت قادرًا على القيام بذلك أم لا، والمبلغ الذي يتعين عليك دفعه. القرار عائد لك. الأمر متبادل وبسيط وواضح. هذا كل ما يهم. وهذا كل ما يمكنني فعله. أما في ما عدا ذلك، فلست مهتمًا بالحديث عن أي شيء آخر".

بدا أوليغ غير مسيطر على أعصابه. مرت بضع ثوانٍ، ثم بدأ الناس الجالسون إلى الطاولة خلفنا يتحدثون مجددًا.

قال أوليغ: "حسنًا، لا بأس. أجل، نحن هنا من أجل العمل".

كلّ ما كنت آمله هو أن المسجِّل المخبأ في الساعة قد سجّل كل شيء.

الفصل الثالث عشر

كسب ثقة العميلين

لم يحدث ذلك سريعًا، ولكنني شعرت أن عميلَي المكتب الفدرالي تزداد ثقتهما بـي تدريجيًّا. إذ ما انفككت أتلقى إشارات صغيرة. ففي أحد أيـام فصل الصيف، عندما التقينا إلى مائدة الفطور في مطعم مترو الكـائن عنـد تقاطع برودواي والشارع رقم 100، أتيا بملابس عادية كالتي كنت أرتديها. فقد ارتدى تيد بنطال جينز وقميصًا قصير الكمين، بينما ارتدى تيري بنطالاً ضيق الساقين وقميصًا ذا أزرار وكمين مثنيين. ربما كنت أعطي الأمر اهتمامًا أكثر مما ينبغي، وربما كانا فقط قد سئما من التنقل في الأنحـاء كمـديري جنازات يجري استدعاؤهما إلى المنازل. ولكن، ما إن جلسنا إلى طاولة خلفية، حتى بدا لي أن بعض الجدية التي كانت تطغى على علاقتنا قد تبددت. إذ لم يبدُ الأمر وكأنني أنقل لهما التقارير أو أنهما يصدران إليّ التوجيهات، بل بدا الأمر وكأننا كنا نتحدث ونتبادل الأفكار ونمازح بعضنا بعضًا.

سألني تيد: "هل تعرف ذلك الرجل من مسلسل *"الضائعون"* ؟". ذلـك المسلسل الذي يتحدث عن طائرة تحطمت وقد أنهى موسمه الثالـث للتـو. "ذلك الممثل الذي يقوم بدور الرجل العراقي؟ يمكنه تمثيـل شخصـيتك في فيلم ما".

فأجبته وأنا أحاول أن أبدو أنني قد شعرت بالإهانة: "هذا عنصريّ يا تيد. أنت أيرلندي. ماذا لو أخبرتك أن كولين فاريل سيمثل شخصيتك؟ أو ميكي روني؟ أو حتى أسوأ، ميكي رورك؟".

كنت قد تعرفت على راندي لوقت قصير، وقد كان كل شيء جادًا حين كنت برفقتها. وحتى عندما كانت هي وتيري يمزحان معًا، كانت جادة للغاية في التعامل معي. ولكن بمرور الوقت، وبعد أن أصبح تيد وتيري في فريقي، انحسرت جدية العلاقة بيننا، وأصبحنا نتبادل الأحاديث بالطريقة التي كنت أتحدث بها إلى أصدقائي. وقد قلت لتيري مرة عند انتهائنا من تناول العشاء، مشيرًا إلى طبقه المملوء بعناية وقطع البطاطا التي لم يمسها قط: "حقًا يا صاح، كيف لا تزال على قيد الحياة؟ ذكرني، ما الذي تأكله؟".

وفي كل مرة ذهبت فيها إلى مطعم ما برفقة تيري، فعل بالضبط ما كانت راندي قد اتهمته به، حيث رفض تناول الفاكهة والخضراوات أو أي شيء يعزو سبب وجوده إلى معامل الكيمياء.

"أنا آلة تعمل بانضباط". أعلن بجدية كاملة بينما كان يعد ما تبقى من طعام في طبقه.

"من الطعام المعالج!". تدخّل تيد في الحديث.

فنظرت إلى طبق البيض المخفوق الخاص بي وسألته: "إذًا، هل تأكل الجبن؟".

فأجاب تيري: "أجل، الجبن الأصفر".

فقلت معترضًا. "لا يا رجل، هذا لا يعتبر جبنًا حقيقيًا. فهو مزيّف مثل قصة أوليغ المزيفة".

ضحكنا جميعًا، لكن تيري ظل ممتنعًا عن تناول البطاطا.

وعندما توقفنا عن الضحك، قررت أنه قد حان الوقت للاعتراف بشأن أمر ما كان يؤرقني، فقلت: "اسمعا أيّها الرفيقان، ثمة شيء أحتاج إلى الاعتراف لكما به. وقد كنت أخفي هذا السر منذ مدة".

نظر كل من تيد وتيري إلى بعضهما بقلق، وقد لاحظت تيري وهو يتململ على مقعده.

"لقد سببتما لي مشكلة كبيرة. ليس أنت يا تيد، فأنت لم تكن متواجدًا حينها، لكن تيري كان هناك". ثم أخبرتهما بشأن اليوم الذي اكتشفت فيه أفا غلاف المنديل الصحي اللامع في شقتنا.

وما إن انتهيت من إخبارهما بما حصل، حتى ارتسمت على وجه تيد ابتسامة ساخرة، بينما ظل تيري فاغر الفاه وحسب.

ثم قلت: "لم يكن الأمر لطيفًا؛ فقد كاد أن يكلفني حياتي الزوجية أيها الرفيقان. لم يكن من السهل تبرير الأمر لأفا؛ إذ إن إخفاء الأسرار عنها أمر صعب. وفي الوقت الراهن، ليس لدي الكثير من الأشخاص لأتحدث معهم".

فقال تيد وهو يناولني بطاقته: "ليست لدي أي فكرة عن ذلك". وطلب من تيري أن يفعل مثله، ثم تابع: "نحن نتفهم تمامًا أن الأمر كان محرجًا. إذا كان لدى أفا أي استفسار، أو أي شيء تعتقد أنها يجب أن تسمعه منا، فسنكون سعيدين بالجلوس معها. لا مشكلة. نحن نتفهم حاجتك إلى دعم زوجتك. أعطِها بطاقتينا من فضلك".

"شكرًا، أقدر هذا حقًا. أنتما على الأرجح لديكما وظيفة ثانية في مجال الاستشارات الزوجية".

"لا مشكلة. وأعدك أنني وتيري لن نترك ملمع الشفاه وطلاء الأظفار في شقتك".

كانت علاقتنا بسيطة. وكانا محترفين، ويمتلكان خبرة في التعامل مع مصادر المعلومات. ولكنّني أظن أن الأمر يتجاوز ذلك. لعلي أبدو وكأنني أهذي، ولكنّني أظن أنهما كانا يستمتعان بالتعامل معي. فقد كنت مختلفًا قليلاً عن معظم المصادر التي تعاونا معها في مجال مكافحة التجسس الروسي. ربما كنت أكثر تفهمًا لثقافة فن البوب، وربما أكثر تعليمًا، أو أكثر تمسكًا بالثقافة الأميركية، أو ربما كنت أشبههما أكثر.

وفي الوقت نفسه، لاحظت أن تيد وتيري لم يكونا صديقين لي حقًا. فعلى الرغم من أننا كنا نضحك ونمرح في الأنحاء ونستمتع بحق بصحبة بعضنا بعضًا، إلّا أن مرافقتهما لي لم تكن بسبب حس الدعابة لديّ أو غروري. إذ كانت علاقتنا احترافية؛ فكل منا لديه ما يصبو إليه، وستستمر شراكتنا طالما أن فيها فائدة. ولكنهما لن يترددا لحظة واحدة في التخلص مني عندما أفعل شيئًا لا يروق لهما، أو إذا قرّرا أنني أمثّل عبئًا أكثر من كوني ذا قيمة. فحينئذٍ، لن نلتقي على العشاء مجددًا. وإذا قمت بأمر سيئ للغاية، فأفترض أنهما سيقومان باعتقالي أو ربّما سيقومان بما هو أسوأ.

الحقيقة هي أنني كنت أكن لهما احترامًا شديدًا. إذ كانا يهتمان بإنجاز العمل على أكمل وجه، وقد أخذا قوانين اللعبة على محمل الجد تمامًا. وفي الواقع، على الرغم من كل التخطيط الاستراتيجي والمناورة، لم يعتبرا الأمر لعبة قط. كانا يعملان في مجال مكافحة التجسس لصالح مكتب التحقيقات الفدرالي، ولم أرَهما قط يتعاملان مع هذه المسؤولية إلا بأقصى درجات الاهتمام. كانا يتّبعان القواعد؛ حتى تلك التي تحكم على كيفية التعامل مع الروس. وعندما سألتهما عن سبب عدم منحهما أوليغ وثائق سرية بطريقة ما، ثم قيامهما باعتقاله، رد تيد قائلاً: "هناك فرق بيننا وبينهم. فنحن لا نختلق الأدلة، بل ننجز مهمتنا بشكل نظيف".

فسألتهما: "ممّ أنتما قلقان؟ أمِن خداعه؟".

كانت تلك كلمتي وليست كلمتهما. لكن، بدا لي أن هذا بيت القصيد. أجاب تيد: "ثمة قواعد علينا أن نتبعها. إذ لا بد أن يكون الأمر نظيفًا". كانت تلك هي الكلمة التي لم يتوقفا عن استخدامها. *النظافة*. كان جليًا بالنسبة إليّ أنهما أرادا إنجاز الأمر بالشكل الصحيح. كنت لا أزال أتعلم القواعد، ولكن بالنسبة إليّ، كان هذا يعني أنه لا توجد سبل مختصرة.

ومع ذلك، بدا لي أن هناك شيئًا ما ليس في مكانه الصحيح. أمضيت الكثير من الوقت وأنا أفكّر في الجواسيس الأجانب الذين يعملون في بلادي بهدف تقويض أميركا وتخريبها ومهاجمتها. فقد تجاهلوا القوانين المحلية والدولية. ولكن، يمكنني القول إنّنا كنا مقيدين بقوانيننا في ما يتعلق بالوسائل التي يمكننا استخدامها مع أولئك الذين لم يبدوا أي التزام بأي قواعد. ما كان بمقدورنا مكافحة النار بالنار، وقد تعيّن علينا الاعتماد على التخطيط المتأني والحكمة للتفوق عليهم في الدهاء والبراعة. وبقدر ما يبدو هذا الأمر جنونيًا في بعض الأحيان، فقد فهمت أيضًا أنه لو تمكن العملاء من إنجاز الأمور بلا دليل، لما تمكنت من الحصول على هذه الوظيفة.

راقبت خطوات التحقيقات التي يتبعونها بتأنٍ، وتعلمت منهما باستمرار. كانت في أغلبها أمورًا صغيرة. فعلى سبيل المثال، عندما كنا نجلس في مطعم وتُقبِل النادلة إلينا، كان تيد وتيري يقلبان بشكل تلقائي الأوراق رأسًا على عقب. وقد أبقى تيد رخصة القيادة الخاصة به مقلوبة في محفظته. ولطالما كانا مدركين بحرص لما يحيط بهما، ويتحققان من الأمور باستمرار. *من يجلس خلفنا؟ ما الذي يمكن أن يسمعه الناس؟ هل يتوقفون عن الكلام عندما نبدأ نحن بالكلام، وكأنهم يصغون إلى ما نقوله؟* وكانت لديهما طرائق معينة في التعامل معي. فعندما كنّا نلتقي، كانا يفضّلان أن نأتي ونذهب بشكل فرديّ

كي لا يرانا الكثيرون معًا. ولاحظت أنه بعد جلوسي مع العميلين في مطعم ما، غالبًا ما كان أحدهما يستأذن ويذهب إلى المرحاض. ما سبب ذلك؟ هل كانا حقًا يريدان التبوّل؟ أم أن أحد العميلين كان يذهب إلى المرحاض ليشغّل جهاز تسجيل من نوع ما؟ لم أكن متيقنًا من السبب. لعلي قرأت الكثير من روايات التجسس، أو لعلي أصبحت بارعًا في ملاحظة الطريقة التي يسير بها هذا العمل.

وبالنظر إلى ما كنّا نحن الثلاثة نحاول إنجازه معًا، كان للذعر ما يبرره. كان العميلان حذرين طوال الوقت، ويلجآن إلى طرائق ظننت أنه يتعين عليّ اتباعها أنا أيضًا. ولكن لسوء الحظ، كنت شخصًا متهورًا، والحذر لم يكن ميزة فطرية لدي.

بينما كنا أنا وتيد وتيري نتحدث ذات يوم ونحن جالسون إلى الطاولة، أقبلت نحونا امرأة- لم تكن النادلة- وطلبت بعض المال. كانت شديدة الإلحاح، وظلت واقفة في مكانها. كان تيد قد قلب الأوراق بالفعل. فرحت أراقب المرأة والعميلين. رفضا إعطاءها النقود مرتين أو ثلاث مرات، غير أنها لم تبارح مكانها.

وبما أنه العميل الأكبر سنًا، بدا تيد وكأنه يشعر بأن مسؤوليته هو تفرض عليه أن يُظهِر الثقة والقيادة- حتى إن كان هذا الموقف مزعجًا وغير متوقع- وأن يكون عميل المكتب الفدرالي الناضج. وأعتقد أنه كان بمقدوره إبراز شارته أو إظهار سلاحه. ولكنه لم يكن بحاجة إلى القيام بذلك. فرغم جلوسه هناك وتعرضه للإزعاج من قِبل تلك المرأة، لم يرفع تيد صوته إطلاقًا. ظننت للحظة أنه سيحدق إلى المرأة بغضب. ولكنه بدلاً من ذلك، جأر. ثم كرر الأمر مجددًا بصوت أعلى. حتى أنا شعرت بالخوف من زئير تيد، وابتعدت المرأة سريعًا.

نظرت إليه وأنا أشعر بالصدمة نوعًا ما وبالقليل من الإعجاب. لكـــن، عليّ أن أقر بأنه أظهر أن السلوك غير المتوقع يأتي بنتائج في بعض الأحيان.

بدا تيد راضيًا تمامًا من نفسه، وقال: "مهلاً، هل أفلح الأمر؟".

ففكرت في سري: *يتعين عليّ أن أثق في هذا رجل*. وقد كنت أثق فيه فعلاً.

ساعدتني علاقتي معهما على التأقلم في هذا العالم الجديد. وكانت لدينا بعض المسائل الجادة التي تعيّن علينا حلها. كنت على يقين بأننا قد بلغنا لحظة هامة في العملية، و لم أرغب في أن تفوتنا.

"أعتقد أنه من العدل القول إننا الآن نحظى باهتمام أوليغ". قلت ذلـــك لتيد وتيري في ذلك اليوم في مطعم مترو، ثم تابعت: "إذًا، كيف سنواصـــل الأمر؟ وماذا سنفعل معه؟". وقبل أن يجيبا، واصلت الحديث: "الأمـــر كلـــه يرتكز حول المعلومات".

لا أعتقد أنهما قد فهما ما قصدته. إذ كنت أفكر في ما قاله كوزمو- وهو الحاسوب الشقي الخاص بالقرصنة والذي يملكه بين كنغسلي- في فيلم سنيكرز؛ وهو أول فيلم أنتجته هوليوود ويركز على إدارة الأمن القومي. إذ قـــال: "ثمـــة حرب هناك في الخارج يا صديقي العجوز؛ حرب عالمية. ولا يتعلق الأمر بمـــن سيتلقى رصاصات أكثر، بل يتعلق بمن يسيطر على المعلومات. فما نراه ونسمعه، وطريقة عملنا وأسلوب تفكيرنا... كل ذلك يتعلق بالمعلومات!".

ابتسمت وأنا أتذكر قوله ذاك. و لم يكن مهمًا بالنسبة إليّ أن العمـــيلين كانا يجهلان المصدر الذي أستلهم منه أفكاري. "ما المعلومات التي سنقدمها له؟ وكيف؟".

حسبما فهمت التحدي الماثل أمامنا، كان يتعين علينا أن نعِـــد أوليـــغ بشيء مغرٍ بما يكفي للمحافظة على انتباهه، وذلك من دون تمرير أي أسرار

عسكرية حقيقية قد تسبب أي ضرر. فآخر ما أود القيام به هو تعريض الأمن القومي الخاص بالولايات المتحدة للخطر. ولا أعتقد أن العميلين سيسمحان لي بذلك، حتى لو حاولت.

لذا، سألت العميلين: "إذًا، كيف بإمكاننا أن نحدث توازنًا؟ كيف نضيّق نطاق التركيز على ما نفعله؟".

على مدى عدة أشهر، كنت أسقط تلميحات إلى أوليغ بشأن كل المشاريع الجديدة التي تتولاها الشركة، وقدرتي على الوصول إلى معلومات هامة نتيجة لذلك. إذ كنّا نقدم استشارة لجامعة الدفاع الوطني في ما يتعلق بالتحول من استخدام الورق إلى استخدام الحاسوب. كما كنا نقوم بمشروع تحويل ذي أثر رجعي لصالح وزارة الداخلية، وكنا نتلقى استفسارات من الجميع؛ بدءًا من قيادة العمليات الخاصة ووصولاً إلى وحدة سيل التابعة للبحرية الأميركية.

قلت للعميلين: "ولكنّ كل ما قلته له كان مبهمًا للغاية. وإذا تركنا الأمور معلّقة، فسيبدأ بطرح أسئلة عن أشياء لا يمكننا أو لا نود إطلاعه عليها. فنحن لا نريد أن يبدأ بالتشكيك في الأمور؛ لأن هذا خطر. لذا، يتعين علينا أن نحمله على الاعتقاد بحقيقة شيء زائف".

أومأ العميلان بالموافقة.

سألتهما: "هل تعرفان أن الحلفاء استخدموا في الحرب العالمية الثانية مدرعات مزيفة لإقناع الألمان أن الغزو الكاسح لن يحدث في نورماندي؟". نظر إليّ تيد وهزّ رأسه، فواصلت الكلام: "بنى الحلفاء هذا الجيش العظيم المزيف الذي بدا حقيقيًا عندما حلّق النازيون على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. لم تكن خطة مثالية، لكنها كانت كافية لخداعهم من مواقع المراقبة الخاصة بهم. نحتاج إلى شيء مخادع كهذا؛ شيء ما يتناسب مع ما أخبرت به أوليغ حتى الآن. شيء ما يجعله يشعر أنه قابل للحدوث؛ استنادًا إلى ما أخبرته إياه".

تناول تيري لقمة من البيض ونظر إلى أعلى وقال: "نحتاج إلى مشروع يبدو حقيقيًا ولكنه ليس كذلك في الواقع؛ مشروع يمكن الاقتناع به بسهولة".

"بالضبط. ولكن، ما هي القواعد؟ ما الذي يمكنني فعله؟ وإلى أي حد يمكنني إغواؤه؟".

قاطعني تيري وقد بدت نظراته جدية: "يجب أن يصدر الأمر منه. إذ لا يمكن أن يأتي الأمر منّا أو منك. الأفضل أن يقول: *أريد منك أن تأتيني بهذا*، على أن تقول أنت: دعني *أحضره لك*. علينا أن نوجد بيئة يكون هو الذي يطلب منك فيها ما يريده".

فسألت: "ولكن، ألا يتعين علينا التركيز عليه؟ فالله وحده يعلم بما قد يطلبه".

تدخّل تيد في النقاش وقال: "إذا كنت بصدد رمي طعم أمامه، فيجب أن يكون مثيرًا ولكن ليس للغاية. يجب أن يكون جيدًا بلا إفراط. فهم يرغبون في الحصول على المعلومات أكثر بقليل من رغبتهم في السيطرة".

لم أكن متيقنًا ممّا يعنيه ذلك عمليًا. رشفت من قهوتي، والتزمت الصمت للحظة، ثم فكّرت في سرّي: *عظيم، أحتاج إلى إثارة اهتمام هذا الرجل من دون الإيقاع به، كما أحتاج إلى فعل ذلك قبل أن يفقد اهتمامه ويقرر المغادرة. حظًا طيبًا.*

يجب حمله على الاعتقاد بأن لديّ شيئًا ذا قيمة له من دون الإيقاع به. قد يكون هذا تمييزًا دقيقًا. يتعين عليّ الحذر قبل عرض شيء ما، وفي الوقت نفسه تقديم ما يكفي من المعلومات له كي يطلبه. أين الحد الفاصل؟ كان ذلك تمييزًا ما انفك كل من تيد وتيري يعزفان على أوتاره. يمكننا رمي طعم له، ولكن الأمر يعود لأوليغ لاتخاذ خطوات جدية.

سألتهما: "أيًا كان ما سنقدمه، هل يلزم أن يكون حقيقيًا؟ مشروعًا أعمل عليه بالفعل؟".

فكر تيد. "ليس بالضرورة. لا تعرض فحسب شيئًا لا يمكنك تقديمه". وقال إنه يُكن قدرًا هائلاً من الاحترام المهني لأوليغ. "إنهم محاربون مثلنا بالضبط، ومخلصون لوطنهم، ولديهم هيكل القيادة والتحكم الخاص بهم، ويعيشون تحت العديد من الضغوطات؛ مثلنا تمامًا، ولديهم مصادرهم الخاصة".

على الرغم من أنني لم أفكر في الأمر مليًا، إلا أن ما قاله تيد كان حقيقيًا. كان على أوليغ أن يتواصل مع رئيسه الذي بدوره كان يتعين عليه التواصل مع رئيسه، وهلمّ جرًا. وجميعهم، على طول سلسلة القيادة، سيبحثون في صحة أي شيء أخبرت به أوليغ. ومن جهتهم كان لديهم الوقت. كانوا هم الذين يحددون جدول اللقاءات، وهم الذين يضبطون إيقاع الأمر. وكان بوسعهم تعليق لقاء معي إلى أن يتأكدوا من كل شيء قلته. أدركت أن إقناع أوليغ كان جزءًا من المعركة. ولكنّ تجاوز اختبار كشف الكذب في موسكو كان نصرًا معتبرًا.

الآن على الأقل، شعرت أننا قد اتفقنا على الخطوط العريضة لخطة ما. يمكنني مواصلة استغلال شركتي كغطاء ومبرر للوصول إلى أشياء قد يرغب فيها أوليغ. لقد أثبتُّ له أنني حقيقي، وقد نصب الفخ، والآن لم يتبقَ سوى أن نلقي له الطعم.

تذكرت كيف كان أوليغ متحمسًا للحصول على التقارير الخاصة بمؤتمر حرب الشبكات، والجهد الذي بذله العميلان في إعادة هيكلة كل تلك البيانات. لذا، اقترحت عليهما: "ربّما كان بإمكاني حضور بعض المؤتمرات من أجله بدلاً من المعاناة للحصول على محاضر مؤتمرات قصيرة انتهت منذ

شهور. ألن يكون من الأسهل أن أحضرها؟ يمكنني تدوين الملاحظات حول العروض الرئيسة، والتقاط كل كتيب يتمّ تداوله في الحجرة. وبعدئذٍ، يمكنكم التدقيق فيها والتأكد من أنني لا أسلم أي شيء قد يسبب ضررًا، أو يمكننا دسّ معلومات مضللة عمدًا والعبث معه".

اعتقدت أن ما أقوله ذكي في الواقع، فضلاً عن أن ما اقترحته قد يكون وسيلة أخرى لزيادة انخراطي في الأمر. وقد بدا أن الأمر يحمل بعض المرح، فسألت: "ألن يكون ذلك أكثر يسرًا من إعادة هيكلة البيانات لاحقًا؟". فأومأ العميلان، ولكن بشكل يوحي بأنهما سيفكران في الأمر أولاً.

لم تكن هذه فكرتي الوحيدة. وفي الواقع، لم تكن أفضل أفكاري؛ حتى لو كانت الوحيدة التي ستجبرني على الذهاب إلى أماكن مثل فنلندا، والبرتغال، وأستراليا. كلما كان المكان أقرب إلى الوطن، كنت أفكر في احتمال التعامل مع متعاقد حكومي بدلاً من التعامل مع الحكومة نفسها. فنظرًا إلى طبيعة عملي مع العديد منهم من أنحاء مختلفة من البلاد لسنوات، أدركت أن الشركات الخاصة تخفي الأسرار بشكل أفضل من الحكومة. وكنت أملك عقودًا حكومية ساعدتني على إثبات تلك النقطة.

سلمت تيد قائمة، وتيري قائمة أخرى، وقلت: "مشكلة العقود الحكومية هي أن هناك سجلات لها، وهي متاحة للعامة، والعديد منها مدرج في أرشيف محرك البحث جوجل. وإذا قمنا بفبركة شيء ما يُفترض أنه من إنتاج الحكومة، فسيتمكن الروس حينها من اكتشاف الأمر بكل سهولة، ولن يستغرق الأمر منهم أكثر من نظرة خاطفة قبل أن يدركوا أن ما كنت أعرضه عليهم كان مفبركًا".

صمتُّ قليلاً ثم واصلت حديثي: "لكن، ماذا لو تعاملنا مع سجلات الشركات الخاصة؟ فحينها، لن تكون هناك سجلات عامة يمكن تتبعها".

توقّفت عن الكلام قليلاً ريثما يستوعبانِ ما أقوله، ثم تابعت: "لذا، ربما يتعين علينا التفكير في العمل مع القطاع الخاص بدلاً من الحكومة. فهذا يحد من الحاجة إلى العمل في العلن".

كان ذلك شيئًا ما أعرف كل شيء بشأنه. وذلك لأن العديد من عملائنا كانوا وكالات تابعة للحكومة الفدرالية، وكانت تلك العقود متاحة لأي شخص يود الاطلاع عليها. وإذا أردنا العمل مع أوليغ في الخفاء، إذًا يتعين أن يكون العمل الذي ننجزه لحساب كيان خاص، سواء أكان حقيقيًا أو خياليًا، أي أن يكون شيئًا لا يمكنه هو أو الأشخاص في موسكو التأكد منه بسهولة.

أقبلت النادلة لملء أكواب القهوة، فتثاءب تيد وأمسك بالوثائق لتغطية فمه، بينما وضع تيري كومة الأوراق على حجره وأمسك بيده الأخرى الخبز المحمص بمرونة. بدأت بتصفح الأوراق الموضوعة أمامي، متظاهرًا بالبحث عن شيء ما. وما إن ابتعدت النادلة، حتى تمّت تنحية الأوراق جانبًا وتواصل حديثنا. و لم نضيع ثانية واحدة.

كان تيري أول من ذكر شركة نور روب رومان. كان مقر المتعاقد الدفاعي الضخم يقع خارج واشنطن العاصمة، ولكنها كانت تتولى عملية تصنيع وهندسة كبيرة في لونغ آيلند. "إنهم يحتفظون بسجلات أرشيفية. ربما كان بإمكانك العمل على شيء كهذا".

الآن، بدا ذلك منطقيًا بالنسبة إليّ.

الفصل الرابع عشر

محاولة ثانية

بينما كنت أنخرط أكثر مع أوليغ ومكتب التحقيقات الفــدرالي، أردت أن أتأكد من أنني لم أنسَ الدافع الكامن وراء قيامي بذلك في المقام الأول، أو أحد الأسباب الرئيسة على كل حال. فقد أردت أن أنضــمّ إلى القــوات البحرية. وكنت قد ذكرت ذلك للعميلين مرات قليلة، ولكنّني لم أسهب في الحديث عن الأمر أو آخذ وعدًا منهما بالمساعدة. كان ذلك الطموح يقبع في الخلفية، وخاصة في رأسي. ولكن كان الوقت يمضي سريعًا، وكانت ثقتي في العملين تزداد بما يكفي لكي أبوح لهما بطموحي بالانضــمام إلى البحريــة ومحاولتِي الفاشلة الأولى. وبقدر ما كنت مستمتعًا بدوري كعميل مــزدوج، أدركت أن التجسس الحر ليس مهنة ذات مستقبل واعد. فعملاء التجسس لا يحصلون عادة على معاشات أو خطط لرعاية الأسنان أو رواتب ثابتة مــا لم يتمّ تعيينهم من قبل شخص ما. كنت سعيدًا بمناوراتي الماكرة مــع مكتــب التحقيقات الفدرالي، ولكن ما أردته بحق هو أن أنخرط في شيء ما هام طوال الوقت، وأن أعيش خلف الستارة العملاقة، وأن أتعلم ما كان يجري حقًــا. كنت متحمسًا لفعل شيء ما أكثر قيمة من إدارة تجارة عائلية. كمــا أردت دعم نفسي، وبناء أسرة، وقيادة سيارات جميلة، وتحمل ثمن تذكرتين لحضور

فيلم في مانهاتن. كانت أفضل فكرة خطرت في بالي، وكنت مقتنعًا أنها ممتازة، هي أن أنضم إلى الجيش كضابط استخبارات احتياطي.

عندما حاولت مجددًا، كان الأمر مختلفًا. كان ينبغي أن يكون مختلفًا. فأنا الآن في قلب عملية مكافحة تجسس ضد الاستخبارات العسكرية الروسية. كنت بطلاً لقصتي الخاصة، وأعيش دراما تجسس خفية حقيقية. أليس من الممكن أن يكون ما أقوم به الخبرةَ العملية التي قال المسؤولون في القوات البحرية إنني أفتقر إليها؟ لا بد أن خداع ضابط بارز في الاستخبارات الروسية له قيمته. وألم يكن المكتب الفدرالي يقف بجواري؟

حينما أثرت الأمر مع كل من تيد وتيري، قالا لي ثلاثة أشياء. أوّلاً، إنّ الأمر لن يكون سهلاً ربّما. ثانيًا، إنهما لا يضمنان النتائج أو سيخالفان الإجراءات المتبعة في البحرية. وثالثًا، سوف يساعدانني قدر استطاعتهما من دون الكشف عن أكثر مما هو مسموح لهما به. بدت العملية برمتها محاطة بهالة من الغموض. فقد قال تيد بشكل مبهم: "إنه أحد تلك المواقف الصعبة". ومع ذلك، تعهد هو تيري بالمحاولة، وفعلا ذلك بالفعل.

قبيل حلول مناسبة الشكر في العام 2007، أعطاني تيد بطاقة مسؤولة تجنيد في نيويورك تولت مسؤولية التعامل مع المتقدمين إلى اللجنة بشكل مباشر. كانت تُدعى الملازم جولي شميدت. وقد كانت- بشكل أو بآخر- أهم مسؤولة في نيويورك. قال تيد إنها تنحدر من الساحل الجنوبي للونغ آيلند، وإنها التحقت بالأكاديمية البحرية في أنابوليس بولاية ميريلاند. وكان لديها مكتب في المبنى نفسه في مانهاتن الصغرى حيث يقع مكتب التحقيقات الفدرالي، في 26 شارع فيديرال بلازا.

قلت عندما تحدثت مع مسؤولة التجنيد عبر الهاتف: "مرحبًا حضرة الملازم. اسمي نافيد جمالي، وقد طُلِب مني أن أتصل بك".

فأجابت: "مرحبًا. أنا مسرورة لأنك اتصلت".

كانت لطيفة وعلى استعداد للتعاون. وبدت ذكية جدًا، وقد كان بوسعي الشعور بذلك على الفور. يبدو أن أنابوليس لم تقبل الكثير من الحمقى.

لم تذكر قطّ مقدار ما تعرفه عن مغامراتي الأخيرة مع المكتب الفدرالي والروس؛ على الرغم من أن العميلين كانا قد أخبراني أنهما التقياها، ويفترض أن يكونا قد تشاركا معها بعض المعلومات. ولكن، كان من الواضح أنها تعرف أنه تمّ تحويلي إليها من قِبَل المكتب الفدرالي. أخبرتها بشكل موجز عن تاريخي مع القوات البحرية. "لقد تقدمت بطلب للالتحاق ببرنامج التجنيد المباشر في العام 2003، وفشلت في الالتحاق به. وأرغب في المحاولة مجددًا".

وفي ما يتعلق بعملي كعميل مزدوج، لم آتِ على ذكر انخراطي مع المكتب الفدرالي في عملية مكافحة للتجسس، ولم تسألني هي بشأن ذلك. وقد ذكرتُ فحسب ما حققته منذ أن قدّمت طلبي إلى البحرية، وأخبرتها أنني أدير تجارة تقدر بمليونَي دولار، وأتعامل بانتظام مع مسؤولين فدراليين بارزين لتلبية احتياجاتهم البحثية المعقدة. وقد اعتقدت أن هذا سيرفع من قيمة سيرتي الذاتية.

فقالت مسؤولة التجنيد: "هذا مثير للاهتمام جدًا". وبدت وكأنها تعني ذلك حقًا.

ولكن، بما أن أي شيء ذا قيمة لا يمكن الظفر به بسهولة، ولأنه مرّت أربع سنوات منذ أن رُفض طلبي، تعيّن عليّ تقديم طلب جديد تمامًا، والخضوع لكل الاختبارات مجددًا، وكذلك المقابلات الشخصية. "إذا كنت مستعدًا لذلك، فيمكننا البدء على الفور".

فأجبتها: "إذًا، هيا بنا".

قالت إن عليّ البدء باختبار ASTB الأساسي التابع للبحرية. لم أرد إفساد الأمر. ولكن، كانت قد مرّت بضع سنوات منذ أن تدربت على خوض الاختبارات. لذا، وبينما كنا- أنا والعميلان- نستعد للقائي التالي مع أوليغ، اشتريت كتابًا ضخمًا حول الاستعداد للاختبارات، والتزمت بالمذاكرة مثلما لم أفعل منذ حصة التاريخ في الصف الثامن.

في يوم الجمعة السابق للكرسمس، توجّهت إلى مكتب التجنيد وخضعت لاختبار عبر حاسوب. كان يشبه اختبارات تقييم المستوى والاختبارات العامة المنقحة، عدا عن أن كل الأسئلة كانت تركز على الطيران والبحرية. كانت ثمة رسوم للطائرات من زوايا مختلفة. "هل هذه الطائرة تنعطف باتجاهك أم تنعطف مبتعدة عنك؟".

لم يكن ذلك صعبًا، بل كان مستحيلاً! إذ يتعين عليك أن تحدد اتجاه طائرة ما من رسم ثنائي الأبعاد من دون الاستفادة من أي إطار للمراجعة. ما كان ثمة سبيل للاستعداد لهذا النوع من الأسئلة. كنت أخمّن الإجابات حتى لا ينفد مني الوقت. وقد شعرت أنني مستعد بشكل أفضل للأسئلة التي تطلبت حسابات أو حفظًا. *حوّل العُقد إلى أميال في الساعة*. يمكنني الإجابة عن هذا. *سمِّ الأجزاء المختلفة من السفينة. أيها الجانب الأيمن؟ ما هي السلوفية؟* أسئلة سهلة.

وبينما كنت أجيب عن الأسئلة، انفجر صوت صياح عالٍ على بعد بضع خطوات مني. كان تيري كينغ، منسق المكتب، يجري اجتماعًا عبر الهاتف مع قيادات التجنيد المختلفة، وكان أحدهم غاضبًا بما يكفي لأن الناس لم ينضموا إلى الاتصال في الوقت المحدد. لم أفهم سبب غضب ذلك الشخص الشديد، لكنّني وجدت أن صياحه يسبب لي التشتت قليلاً أثناء محاولتي تحديد ما إذا كانت طائرة مقاتلة أخرى تتجه نحوي أم تبتعد عني.

أنهيت الاختبار وأخذت نفسًا عميقًا. لم أكن واثقًا مما إذا كنت قد بلغت الحد الأدنى من الإجابات الصحيحة. دخلت مكتب كينغ وحاولت التحدث معه، وقلت مازحًا: "ما خطب ذلك الاتصال؟ بدا ذلك الرجل غاضبًا. ماذا فعلت البحرية لذلك الرجل المسكين؟".

"ماذا فعلت *له*؟". سألني كينغ، ثم تابع: "أصغِ إليّ، بعض الناس لا يتصرفون بشكل جيد تحت الضغوط. ولكنّ هناك أسلوبًا في التعامل مع الناس، وأنا واثق تمامًا أنه يتعامل معهم بشكل خاطئ بالمطلق".

ثم قام بحساب المجموع، وقارنه بالدرجات المطلوب تحصيلها. كانت تلك الثواني القليلة مؤلمة. وأخيرًا، ألقى لي بحبل النجاة حين قال: "يبدو أنك قد أبليت حسنًا فحسب".

بدا كينغ مرتاحًا لأنني قد بلغت الحد الأدنى من الإجابات الصحيحة. وهذا يجعل منا اثنين. وبينما كان ينجز الأعمال الورقية، أخبرني أن بعض الأشخاص يعانون مع اختبارASTB. وأتى على ذكر امرأة كانت قد بدأت مؤخرًا بالخضوع للاختبار على الحاسوب نفسه الذي كنت أجلس إليه. "ذهبنا لنتفقد أحوالها، وكانت قد اختفت فحسب، اختفت. أنجزت الاختبار، ولا بد أنها أدركت أنها قد أخفقت، فقالت لنفسها: *هذا ليس لي*، ثمّ غادرت. لم نسمع منها مجددًا. ولكن، ليس عليك القلق حيال ذلك. فقد أبليت حسنًا".

لم أكن أدرك العلاقة بين اختبار ASTB وكوني ضابط استخبارات في البحرية؛ باستثناء أنه يتعين عليّ اجتيازه، وأن ثمة حوالي ستة آلاف اختبار آخر يجب تجاوزها. سوف تكون هذه عملية طويلة ومستنزِفة. توجّهت إلى مركز الدعم التشغيلي التابع للبحرية والواقع في برونكس للخضوع للفحص الطبي. وقد تعيّن عليّ القيام باختبار للدم في لونغ آيلند، ثم العودة إلى برونكس لإجراء اختبار للسمع.

بدا أن التحدي الأكبر يتمثّل في اكتشاف الخطوات المطلوبة ووضع جدول زمني لها. وعلى الدوام، كانت هناك عمليات إلغاء ومتابعة وإجراءات لم أسمع بها من قبل. فلو كان لديهم اختبار ذو اسم مختصر، كنت أخوضه. كان ثمة جو من العشوائية المزعجة يصاحب كل شيء. ولكن، لحسن الحظ، بدت جولي على صلة بالأشخاص المناسبين، وعرفت كيف تحافظ على سير العملية.

كنت شخصًا مشغولاً، وكانت لديّ تجارة أديرها مع كل ما يصاحب ذلك من مشقات. وكانت لديّ زوجة، وكنا لا نزال نبدأ حياتنا معًا. وكانت هناك السيارات التي أحبها، والتي لا يسعني تجاهلها، وأوليغ بالطبع. وكان ذلك يعني ضرورة الحفاظ على الفصل التام بين الشخصيتين. وفوق كل ذلك، كنت أتقدم للانضمام إلى القوات البحرية مجددًا. وفي بعض الأيام، كنت أجهل ما ينبغي لي التركيز عليه، وأي القبعات يجدر بي اعتمارها. هل كنتُ الرئيس؟ أم العميل المزدوج؟ أم الزوج؟ أم المجند؟ أم الشاب الشغوف بالتمتع بالسيارات السريعة؟ فكل دور تطلب مني القيام بشيء مختلف.

وكي تغدو الأمور أكثر تعقيدًا، على الرغم من أن القوات البحرية ومكتب التحقيقات الفدرالي كانا كيانين حكوميين، إلّا أنهما مثّلا عالمين مختلفين تمامًا. كان كل ما يتعلق بالبحرية على درجة عالية من البيروقراطية، مع آلاف القواعد والمتطلبات وطبقات الإشراف التي لا تنتهي، والتي كانت بلا إجابة واضحة على أي شيء. وعلى النقيض من ذلك، لم يطلب مني أحد قط دراسة كتيب صادر عن المكتب الفدرالي، الفصل الخامس عشر، القسم العاشر، الفقرة الخامسة والعشرون، كي أعرف كيف أقص شعري أو أتحدث إلى الروس. كنا- أنا والعميلان- نتمتع بحرية التصرف حسبما نراه مناسبًا،

ولم يكن ثمة أحد يراقبنا على ما يبدو. وكان هذا هو الجزء الأفضل. حتى الآن، كنا ناجحين تمامًا.

وبينما كنت أشق طريقي عبر عملية جولي، سعى كل من تيد وتيري إلى مطاردة بعض الحلفاء الكبار لمساعدتي في مهمتي. فقد رتّب لي تيد لقاءً مع القائد في البحرية جيفري جونز. لم يكن ذلك القائد جزءًا من عملية التجنيد العادية، وكان يتبع بشكل مباشر جنرالاً في البنتاغون بثلاث نجوم. ولا أظنّ أنه قد أجرى مقابلة لتجنيد ضابط احتياط من قبل. كان ملحقًا بالبعثة الأميركية في الأمم المتحدة، ولديه مكتب في مبنى الأمم المتحدة، ولكنه وافق على لقائي في مكتب التجنيد الواقع في وسط المدينة.

ما إن التقيته حتى أدركت أنه شخص مرن ومهني، ولم يكن الأمر يتعلق فقط بالفكين القويين أو العينين الثاقبتين أو البذلة الرمادية المحاكة بشكل جميل. فقد كان ذكيًا بشكل مخيف، ومتواضعًا تمامًا، وجامد الوجه مثل الكوميدي بارد الصوت ستيفن رايت.

قال بمجرد أن جلست قرب المكتب الفاصل بيننا: "أحب الاستيقاظ باكرًا. يستيقظ معظم الناس عند الساعة الخامسة صباحًا للقيام بعلاقة حميمة مع زوجاتهم. أما أنا فأكون في طريقي إلى المكتب حينئذٍ".

كان يتحدث من دون أن يطرأ أي تغيير على طبقات صوته، ثم انتظر ليرى كيف سيكون رد فعلي. غير أنني لم آتِ بأي رد فعل؛ فهذا الرجل كان يسعى إلى التعاون معي.

سألني عن خلفيتي، وعن عائلتي، وعن المكان الذي نشأت فيه، والجامعة التي قصدتها، وعمّا كنت أفعله مؤخرًا. سألني تقريبًا عن كل شيء باستثناء ما كنت أفعله برفقة تيد وتيري. وفي الوقت نفسه، تملكني شعور بأنه كان يعرف أكثر بكثير مما كان يفصح عنه.

بدا حريصًا على إقناعي بفكرة أن أصبح دبلوماسيًا عسكريًا. فقد قال لي: "ستكون ملحقًا عسكريًا مثاليًا. سيرسلونك إلى مدرسة. وبما أن لديك أمًا فرنسية وتحدثت بالفرنسية طوال حياتك..."، شكرًا لكِ يا أمي، "... فقد ينتهي بك المطاف في بلد أفريقي ما. وهذا عظيم. إذ ستستقدم عائلتك، وسيخصصون لك سائقًا، وسيدفعون أقساط المدرسة".

لا بد أنني كنت مبتسمًا.

وقد واصل القائد حديثه: "ليس من السهل العثور على أشخاص مناسبين لتلك المناصب. فعندما سأغادر، سيتم إحضار أحدهم ليملأ مكاني. وسيكون محاميًا؛ إذ إن معظم من يتمّ إحضارهم لشغل المناصب محامون ومستثمرون مصرفيون أو يعملون في مهن أخرى، كما أنهم مهذبون ومثقفون للغاية، ولكنْ لديهم فكرة ضئيلة عمّا يعنيه جمع المعلومات في الواقع، وعن العيش في هذا العالم. ثمة اتجاه في القوات البحرية للعثور على أشخاص يقومون بتلك الأدوار ويكونون أكثر تنوعًا وثقافة. وأنت مهذب للغاية. أراك حقًا في ذلك المنصب".

قال إنه من المقرر أن يتقاعد خلال الشهور القليلة المقبلة، وإنه حريص على كتابة تقرير إلى الأميرال بشأني قبل أن يغادر. فهو يعتزم التوجه إلى البنتاغون قريبًا، ويريد الإعراب عن مشاعره.

أخبرته أن الأمر كله يبدو مدهشًا بالنسبة إليّ، وسألته: "هل يتعيّن عليّ فعل أي شيء الآن؟".

فقال لي محذرًا، ومحاولاً كبح شيء من حماستي للمضي قدُمًا: "لا يمكنك التقدم بطلب كهذا مباشرة. إذ ينبغي لك أوّلاً الالتحاق بالبحرية. ولكن، ربما كان بإمكانك التفكير في الحصول على بعض الدورات التدريبية الآن. أحسب أنك سوف تجدها مثيرة للاهتمام، وسوف تؤهلك للمستقبل بشكل جيد".

وأخبرني أنه يجدر بـــي التحقق من معهد الخدمات الخارجيـــة التـــابع لوزارة الخارجية. وعدته بأنني سأفعل ذلك، ثم أخبرته أنني ســـعدت بلقائـــه وشكرته على وقته.

بعد أن غادرت المكتب، لم تكن ثمة حدود للحماسة الـــتي تملكـــتني. اتصلت بتيد على الفور، وقلت له: "لقد حزمت حقائبـــي! كـــان يحـــاول إقناعي ببرنامج الملحق العسكري، وسوف أتكيف مع ذلك بشكل كامـــل. متى يمكنني البدء؟ لقد جعل الأمر يبدو لطيفًا ومثيرًا للغاية. القائـــد جيـــف جونز، حتى إن اسم الرجل وقعه لطيف".

فقال تيد: "بالطبع". ثم أدار دفة المحادثة نحو أوليغ مجددًا.

الفصل الخامس عشر

أعداء ذوو قيمة

سألني تيري: "هل أنت جاهز لتناول الغداء؟".

فأجبت: "بالطبع، أين تريد أن تذهب؟".

فقال: "لا تقلق حيال ذلك".

منذ أن غادرتُ المكتب برفقة أوليغ لأول مرة، كنا- أنا وتيد وتيري- نسخر من ذوق الروسي في المطاعم. إذ كانت منطقة العاصمة في نيويورك بأسرها أمام أوليغ ليختار منها، وكان لديه حساب مصروفات تابع للفدرالية الروسية، ومع ذلك بدا دومًا أنه يجد طريقه نحو سلاسل المطاعم الأميركية السيئة. لا بد أن أحدًا ما في موسكو قد أخبره بأن "الوجبات الغذائية المعلبة والمتبلة هي ما يحبه أهل نيويورك!". وأملت أن يبدأ كل من تيد وتيري في الذهاب إلى مطاعم من الدرجة الأولى في نيويورك؛ إذ كان لديهما حساب للمصروفات أيضًا. وعلى الرغم من أن هذا لم يحدث قط، إلّا أنهما أظهرا موهبة في العثور على مطاعم محلية راقية.

وبينما كنا متّجهين إلى شرق المدينة في سيارة تيري من طراز فورد تاورس، كان هو وتيد غامضين بشكل غريب في ما يتعلق بالوجهة التي نقصدها والغرض من هذا الغداء. وقد قال تيد عندما ألححت عليه للكشف

عن المزيد من التفاصيل: "هناك بعض الأشخاص الذين يجدر بــك لقــاؤهم فقط، وسوف تخبرهم بالقليل عما كنت تفعله فحسب؛ فربما كان بإمكانهم المساعدة بشكل ما، لا أدري. إنّهم يريدون لقاءك فحسب، هذا كل مــا في الأمر".

هل لهذا اللقاء علاقة بالعملية الروسية؟ أم بالتحاقي بالبحرية؟ أو هــل أولئك الأشخاص أقرباء لتيد وتيري طالما كانوا يرغبون في مقابلة أميركــي فرنسي باكستاني يعشق السيارات السريعة؟ لم تكــن لــديّ أدنى فكــرة، وافترضت أننا لسنا بصدد لقاء عادي وعشوائي. فقد كنا نحاول إبقاء أنشطتنا في الخفاء. وأيًا يكن الأمر، كنت قد قضيت يومًا آخــر وأنــا بعيــد عــن مكتبــي، وكنتُ جالسًا في السيارة بالفعل. لذا، لم أشــعر أن أمــامي أي بديل، فضلًا عن أن فترة الظهيرة كانت قد حلت تقريبًــا، وكنــت أشــعر بالجوع.

أخذًا في الاعتبار كل الحديث عن ذوق أوليغ السيئ في المطاعم، شعرت بالدهشة قليلاً عندما توقفت السيارة أمام مطعم تشيليز الواقــع في طريــق سيفورد أويستر باي السريعة في بيثبيج في لونغ آيلند. هل حصل العمــيلان على نسخة من *دليل الدبلوماسيين الروس للمطاعم في نيويورك*؟ كنت أعرف أن هذا المطعم لا يمكن أن يكون أفخم مطاعم لونغ آيلند.

كان بانتظارنا قرب الطاولة عميل من خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية. كانت لدى القسم مهمة كبرى، وهي التحقيــق في التهديــدات الجنائية والإرهابية، وتهديدات الاستخبارات الأجنبية التي تستهدف البحريــة الأميركية وقوات مشاة البحرية التابعة للولايات المتحدة والقضاء عليها. "في البر، وفي البحر، وفي فضاء المعلومات"؛ مثلما يحب عملاء الخدمــة القــول دائمًا. وفي التلفاز أيضًا. كان معظم الناس يعرفون اسم المنظمة فقط كعنوان

للبرنامج الذي تبثه شبكة سي بـــي أس منذ زمن طويل من بطولـــة مـــارك هارمون في دور العميل الخاص ليروي جوثرو غيبز. وقد أحضـــر العميـــل الحقيقي برفقته طيارًا سابقًا تابعًا لمشاة البحرية، والذي يعمل الآن لحســـاب نورثروب غرومان. إنه المتعاقد الدفاعي الذي كان تيري قد ذكره ســـابقًا. وكنت أعلم أن لديهم منشأة كبرى في بيثبيج.

كان اجتماع غداء شديد الغرابة.

بعد أن حصلنا على طلباتنا الـــتي تنوعـــت بـــين الطعـــام الأميركـــي والمكسيكي، تحدّث العميل من خدمة التحقيقات الجنائية التابعـــة للبحريـــة لحوالي أربعين دقيقة عن حميته الغذائية ونظامه الرياضي، وأعلن بفخـــر: "لم أتناول السكر أو الدقيق منذ خمس سنوات". بصدق، كان ينبغي إقامة منافسة في عادات الأكل الغريبة بينه وبين تيري؛ أي اللحم الغريب المعالج في مواجهة الخس المقطع! حظًا طيبًا للحمية الغذائية الأغرب! واصل الرجـــل حديثـــه، وذكر مقدار الوزن الذي فقده، وكم كانت نســـبة الـــدهون في جســـده منخفضة، وكيف كان في هيئة رائعة جسديًا وعقليًا. كان يبدو نحيفًـــا وفي صحة جيدة. ولكنّه لا يتناول السكر والدقيق، فكيف يمكن أن تكون لذلك قيمة؟ وعلى ما يبدو، لم تكن لديه خطط للغوص في طبق الكويساديلا، وهذا سبب آخر يدعو إلى التساؤل عن سبب تناولنا الغداء هنا مـــن بـــين كـــل الأماكن.

وفي لحظة ما، قام طيار مشاة البحرية- وهو شخص لطيف في منتصف الثلاثينيات- بسرد بضع حكايات سريعة عن قفزه من مروحيته فوق ســـطح الماء، والتقاطه من قبل "بيدرو، طائر الإنقاذ". ولو كان لديه الوقت الكـــافي ليسرد القصة بالشكل الملائم، فلعلها كانت ستثير الاهتمام. وقـــد أوضـــح سريعًا أنه انتقل للعمل لدى المتعاقد الدفاعي بعد تركه لمشاة البحرية.

أثناء جلوسي هناك، شعرت أنني عالق في مشهد من فيلم دوغ *فايت*، الفيلم الذي قام ببطولته ريفر فونكس؛ ذلك المشهد بشأن مجموعته من المارينز ومنافستهم الحامية لاصطحاب أقبح فتاة إلى العشاء، ومن ينجح في ذلك ينتصر. كان العميل من خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية هو من أحضر طيار المارينز، فيما أُحضرت أنا من قِبَل المكتب الفدرالي. جلسنا هناك نحملق إلى بعضنا بشكل مهذب، ولم نتحدث كثيرًا. وأخيرًا، ناولني الطيار بطاقته وقال بصوت منخفض: "يمكنك إعطاء صديقك هذه البطاقة". تفاجأت قليلاً عندما أومأ العميلان الفدراليان، وقد بدا لي ذلك مثيرًا للمتاعب على الفور.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أشاهد فيها المكتب الفدرالي وهو يُشرك أي شخص من خارج المكتب أو عائلتي- أي غريب بشكل مطلق- في العملية؛ فيما كنا قد اتفقنا على أنها علاقة بالغة السرية بيني وبين الجاسوس الروسي. كما كانت أيضًا المرة الأولى التي أسمع فيها بشأن قيامي بدور وسيط بشري بين الروس وأي جهة أخرى. ألم يكن الغرض من تسليم بطاقة معلومات الاتصال الخاصة بك إلى شخص ما أن يتصل بك ربما؟ بعبارة أخرى، ما إن أسلّم أوليغ هذه البطاقة، حتى يصبح بإمكانه التواصل بشكل مباشر مع السيد الطيار البارع الذي هوجمت مروحيته. بعد كل ما قمت به من تواطؤ وعمل ميداني، هل كانت عمليتنا النشطة تنعطف نحو اتجاه آخر من دوني؟

لم ألزم نفسي بأي وعود تجاه كلا الطرفين. وبما أن العميل من خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية بدا أنه قد أنهى المحاضرة التي كان يلقيها بشأن الحمية واللياقة البدنية، كان لدينا جميعًا مطلق الحرية للمغادرة. وحين استقللنا سيارة تيد، لم يبدُ لي أن العميلين لا يزالان معجبين بالعميل من

خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية أكثر مني. فقد قال تيد: "يا له من مغفل! قدنا كل الطريق إلى هنا كي نستمع إلى السيد جيني كريغ؟".

وقال تيري: "إنه لا يتناول إلا ما لا أتناوله من الأطعمة. وأنا لا أتناول أيًا ممّا يتناوله. لماذا التقيناه مجددًا؟".

بقدر ما يمكنني القول، وبقدر ما كان كل من تيد وتيري مستعدين للبوح به، كان العميل من خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية على الأرجح سيربط العميلين بالبحرية من أجلي، وكان الطيار نوعًا ما جهة التواصل بيننا وبين نورثروب غرومان. كان الوضع سيكون أفضل لو أن كلاً من تيد وتيري قد ذكرا لي ذلك أثناء دخولنا المطعم. ألا نعمل معًا؟ هل ثمة شيء أكبر يجري؟

سألت: "لماذا يتعين عليّ إعطاء أوليغ تلك البطاقة؟ هل أنا المستبعد الآن؟".

بدا العميلان مندهشين قليلاً من سؤالي، وسألني تيري: "المستبعد؟".

فقلت: "أرى منذ الآن كيف ستسير الأمور. سأعطي أوليغ البطاقة، وسيبدأ كلاهما بالتواصل معًا، وسيصبح هو الشخص الجديد الذي سيتواصل معه أوليغ. وهكذا، سيتابع أوليغ عمله مع ذلك الرجل، ولن يكونا بحاجة إليّ مجددًا. وسأُترك عاجزًا، وسيتمّ استبعادي من العملية بأسرها. أي قيمة يحملها لي ذلك؟".

فأجاب تيد: "لا أحد ينوي ذلك. فطيار المارينز ليس إلا حلقة وصل بيننا وبين شركة نورثروب غرومان. وقد يساعدنا في بعض الأمور إذا احتجنا إلى ذلك".

فقلت: "لماذا يتعين عليّ القيام بذلك؟ لقد أخبرتَ عميل خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية أننا في حاجة إلى دخول شركة نورثروب

غرومان، وقد قرر أن يرسل شخصًا ما تابعًا للجيش ويعمل لحساب الشركة بالفعل، واستبعدتموني. فجأة، أمسيتُ جزءًا من الأمس".

كلما تحدثت في الأمر أكثر، ازداد قلقي حياله. كنت أقنع نفسي رويدًا رويدًا بأن المكتب الفدرالي ما عاد بحاجة إليّ. تواصلت المحادثة لفترة قصيرة، وكان ثمة ازدحام شديد. وعندما عدنا إلى نيويورك لم نكن قد أنهينا حديثنا بعد. ولم يقُل أي من تيد أو تيري أي شيء لطمأنتي بشأن إضافة شخصين غريبين إلى الخليط وجعلي وسيطًا لتمرير البطاقات.

كنت لا أزال أحس بالغضب عندما التقيت العميلين في مطعم مترو بعد مرور بضعة أيام على تلك الحادثة. حضرت بعد أن أعددت تقريرًا مفصلاً للعميلين، وهو رسم بياني شبه رسمي عن جهودنا ونتائجها.

قال تيد عندما رأى الرسم البياني: "هذا مدهش للغاية! هل فعلت ذلك على حاسوبك؟".

فقلت: "انظرا، هذا مستوى الجهد الذي يتعين عليّ الالتزام به. كما أن لديّ التزامًا تجاه الشركة أيضًا؛ فالشركة تتحمل تكلفة. لا أعني بذلك تكلفة مالية، فأنا أغيّر نشاط الشركة. والآن تريدان مني إشراك شخص آخر في الأمر! يبدو لي بكل تأكيد وكأنه يتم استبعادي بعد بذلي كل ذلك الجهد".

فقال تيد: "لا. إنهما شخصان قد يكونان مصدرًا للمساعدة".

"إذًا، لَم يتوجّب عليّ تمرير بطاقة الطيار إلى أوليغ؟".

"لم يقل أحد إنه يتعين عليك إعطاؤه البطاقة. احتفظ بها وحسب. فربما كانت شيئًا يمكنك استخدامه لاحقًا، وربما لا".

لم أشعر بالرضى بشكل كامل. إذ كان من الواضح أن ثمة الكثير من الأمور التي تجري من دون علمي أو مشاركتي، مما وضعني في موقف صعب من كل الاتجاهات. وقد أظهرت تذمرًا أكبر حيال الطريقة التي تم بها الترتيب

للقاء الغداء بأسره. بدا واضحًا لي أن تيد لم يحب العميل من خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية، وأدركت أن هذا الأمر لصالحي. وقد قال تيد: "أنا لا أدافع عن الرجل. ولكن، دعنا نرى إذا كان مفيدًا لنا".

فقلت: "لو أنكما أخبرتماني فقط أننا سنلتقي أشخاصًا قد يساعدوننا في دخول نورثروب غرومان، لما شعرت أنه يتم الإيقاع بي. فضلاً عن كون عميل خدمة التحقيقات الجنائية التابعة للبحرية مهرجًا، وهو بلا فائدة بالنسبة إلينا".

عندها، سألني تيد: "هل أنت قلق حقًا من ذلك؟ لا داعي للقلق. لا أحد يريد استبدالك، ويمكنني التأكيد لك على أن هذا لن يحدث".

"جيد". قلت ذلك وشعور بالشك لا يزال يتملكني. وأكثر من أي وقت مضى، شعرت بحماسة شديدة لتعزيز قيمتي كمصدر للمعلومات لن يرغب العميلان في خسارته. لحسن الحظ، كانت لدي فكرة، "فالمستقبل هو لمركز معلومات التقنية الدفاعي".

على مدى شهور، كان ثمة شيء يلحّ على تفكيري. فعلى مرّ السنوات، كان هناك الكثير من المواد التي طلبها الروس، فكيف عرفوا ما يجدر بهم طلبه؟ وكيف عرفوا بوجوده من الأساس؟ سألتُ تيد وتيري: "أيها الرفيقان، هل بحثتما من قبل في كيفية معرفة الروس بالعناوين التي يطلبونها؟ الأمر لا يبدو لي منطقيًا. فقد عرف الروس بطريقة ما بوجود هذه المواد، ولكنهم عجزوا عن الحصول عليها؟ أليس هذا غريبًا قليلاً؟ إذ ليس الأمر وكأن معظم هذه المعلومات قد تمّ نشرها من قبل".

بدا العميلان مندهشين.

فأخبرتهما: "قمت بالتنقيب بحثًا عن معلومات عن الروسي الذي أتعامل معه. وقد بحثت عن قواسم مشتركة في الوثائق التي طلبها الروس. أتت

التقارير من وكالات مختلفة، وقد كُتبت في أوقات مختلفة. بعضها- وليس كلها- كان متاحًا للشراء عبر مكتب الطباعة الحكومي. فما القاسم المشترك بينها جميعًا؟ تطلب الأمر مني بعض الاستقصاء، ولكنّني عثرت على الرابط بينها".

أخبرت تيد وتيري أن كل تلك المعلومات وأكثر يمكن الحصول عليها من قاعدة بيانات حكومية يديرها مركز معلومات التقنية الدفاعي، وتابعت: "يشبه نظام المركز نظام التقارير الداخلية في غوغل. إنه أسلوب للتمشيط السريع داخل الملايين من عناوين التكنولوجيا العسكرية الغامضة والمثيرة للسخرية، وإذا كانت لديك صلاحية الدخول، فبإمكانك الحصول على التقارير الحقيقية". ثم ملت إلى الأمام لإضفاء التأثير الدرامي اللازم، وأخفضت صوتي إلى حد الهمس وتابعت: "بقدر ما يمكنني القول، إن كل تقرير طلبه الروس على الإطلاق محفوظ في مركز معلومات التقنية الدفاعي. علينا أن نستخدم المركز كأداة نفوذ مع أوليغ".

لم يكن هذا ليبطئ تقدمنا على جبهة نورثروب غرومان. لقد أوضحت ذلك. إذ يتعين علينا أن نمضي قدمًا مع أي كان ما يمكننا الحصول عليه من المتعاقد الدفاعي وأن نعرضه على أوليغ. وفي الواقع، يمكن لنورثروب غرومان أن تكون اختبارًا جيدًا لمنهجي في التعامل مع المركز. "ولكن الجائزة الحقيقية هي ما سيأتي تاليًا. ومن الآن فصاعدًا، علينا أن نكون نحن من يحدد البدائل. علينا أن نعرض عليه ما يبني كتيبًا. وهكذا سنبتعد عن قيامه بطلب المواد، وسنصبح نحن من يمسك بزمام الأمور".

بدا العميلان متقبلين للفكرة، وقد وافقا على بحثها مع رؤسائهما والعودة إليّ. لذا، انتهى لقاؤنا بملاحظة إيجابية. ولكن، كم كانت رحلة الوصول إلى تلك النقطة عاطفية. أحيانًا، يثير كل من تيد وتيري غضبي

حقًا. فأنا أتفهم أننا جميعًا نعمل على مشكلة معقدة، ولكنّ كل شيء بدا بطيئًا وغامضًا إلى حد الجنون. وما انفكت تلك العروض الجانبية تظهر باستمرار. بلا مزاح.

بادرت بالحديث أخيرًا: "يا إلهي، كان ذلك مجهدًا! تيد، أنت عدو ذو قيمة! لا تجعل أحدًا يخبرك بخلاف ذلك".

بدا أنه قد ذُهل مما قلته، إذ كرر كلامي: "عدو ذو قيمة!". قال ذلك وترك الجملة عالقة في الهواء. "هذا اختيار مثير للكلمات".

الفصل السادس عشر

إل دورادو

كان وجهه متورمًا بشكل سيئ، وخداه يبدوان كالمطاط تقريبًا. وكان بالكاد ينطق كلماته الإنجليزية بلكنته الروسية الدقيقة. أعرف ألم الأسنان بمجرد رؤيته، وكان فم أوليغ ينضح بالألم. ما إن جلسنا إلى الطاولة في مطعم إل دورادو الواقع في جادة سنترال صباح ذلك اليوم الكئيب من شهر أكتوبر، حتى شعرت بالأسى لأجله.

سألته: "هل تعرضت للّكم؟".

لا أظنّ أنه وجد السؤال ظريفًا، إذ قال من دون أن يبتسم؛ ولم يكن قادرًا على القيام بذلك على أي حال: "أنا من يلكم". ثم تابع: "لا أتعرض للّكم".

فقلت مضيفًا، وأنا غير مستعد للسماح للروسي بتوجيه اللكمة الأخيرة في هذا النزال: "إلا من قبل أطباء الأسنان".

فقال موضّحًا إن لديه خُرّاجًا، وقد اضطُر طبيب الأسنان إلى خلع الضرس. تساءلت إن كان يتوقع تناول القليل من الشراب كنوع من التخدير. هناك في الأكاديمية التابعة لمديرية الاستخبارات الروسية الواقعة في شارع نارودونغو أوبلشينيا في موسكو، ربما كان أوليغ- وربما لا- قد تلقى

إرشادات حول انحسار القدرة على التحكم في اللسان بسبب الألم الناجم عن خلع الأسنان، ولكنه استوعب بالتأكيد الدروس الخاصة بالسيطرة على الغرائز. وأفترض أن الاعتراف بالألم لم يكن ضمن حسابات أوليغ؛ تمامًا مثل الاعتراف بالضعف. وقد أقسم إنه يشعر بشكل جيد. لا بدّ أن مدربيه في مديرية الاستخبارات الروسية سيفخرون به.

أشفقت على موظف تفريغ المحادثات في المكتب الفدرالي الذي كان يتعين عليه تفريغ هذه المحادثة من مسجل الساعة. العنوان: ضرس روسي متعفن!

كان هذا أول لقاء لي مع أوليغ منذ أن تحدثت إلى تيد وتيري عن مركز معلومات التقنية الدفاعي. لم تطرأ أي تغييرات على عمليتنا، ولم يطلب مني أحد عدم التقاء الروسي، ولم أتلقَّ أي توجيهات في ما يتعلق بموضوع تمرير بطاقة الطيار التابع للمارينز إليه أو إلى أي شخص آخر. في الواقع، بدا لي أن الأمور قد عادت إلى حالتها الطبيعية.

بذلت قصارى جهدي لتجاهل مشاكل الأسنان والتركيز على العمل الذي بين يدينا، وأخبرت أوليغ: "لديّ بعض الأنباء. ربما سأنضم إلى البحرية".

"أتعني البحرية التابعة للولايات المتحدة؟".

أي بحرية أخرى سأنضم إليها؟! وأجبته: "هناك برنامج خاص يسمى برنامج التجنيد المباشر. إنه برنامج انتقائي للغاية. ولكن إذا تمّ قبولك، فستحمل رتبة ضابط على الفور".

ارتسمت ابتسامة ضئيلة على وجه أوليغ المتألم. كنت أعلم أنه سيروق له سماع ذلك، فقد كان قائدًا في البحرية الروسية، ولا يزال في الخدمة، وقد كُلِّف بمسؤوليات دبلوماسية في نيويورك؛ والتي تُعرف أيضًا باسم التجسس.

شرحت له المزيد بشأن برنامج التجنيد المباشر، وأخبرته أنه يخصّ ضباط الاحتياط، لذا بوسعي الاحتفاظ بوظيفتي، وقلت: "لذا، لن تتغير الأمور بالنسبة إلينا".

فرد أوليغ: "بل قد تصبح أفضل. قد يكون هذا شيئًا ما جديدًا لنحتفل به".

أسرعت من وتيرة الحديث. "أريد أيضًا أن أخبرك بشأن مشروع شركة نورثروب غرومان. سيكون مشروعًا ضخمًا. لم يحدث ذلك بعد، ولكنه سيحدث في نقطة ما. إذ سيرسلون لنا وثائق ورقية، وسيكون الإطار الزمني ضيّقًا. لذا، أريد أن أعرف إذا كنت مهتمًا".

فقال: "أنا مهتم. ولكنّ ذلك سيعتمد على ما تحتويه الوثائق".

فقلت: "بكل تأكيد". وناولته البطاقة الخاصة بطيار مشاة البحرية، وتابعت: "إنه مصدر للمعلومات لي هناك".

وضع أوليغ البطاقة في جيبه، وناولني حزمة من الأوراق بعد أن وضع إشارة قرب بندين فيها. وعلى هامش أحد البندين كتب "اعرف الثمن".

أخبرته بأنني سأنظر في الأمر. وبدت لي هذه اللحظة مثالية للإشارة إلى مركز معلومات التقنية الدفاعي في مجرى المحادثة، فقلت: "إذا كان بوسعي ربطك بقاعدة بيانات فدرالية تضم طيفًا واسعًا من معلومات التكنولوجيا الدفاعية، بما في ذلك العناوين التي سألت عنها للتو، فهل سيكون هذا الشيء ذا فائدة لك؟ إن كان الأمر كذلك، فهذا أمر يمكننا مناقشته بكل تأكيد".

لم يقوَ على الابتسام، ولكن وجهه أشرق وهو يقول: "أجل، سأكون مهتمًا بذلك".

فتابعت: "ما أود أن أكون قادرًا على فعله هو أن أعرض عليك قائمة بالوثائق- ربما كانت قائمة طويلة- التي قد أتمكن من تأمينها لك. ويمكنك

أن تحدد لي الوثائق التي ترغب بها وتريد مني إحضارها لك من القائمة، وسأخبرك بالمبلغ الذي سيتعين عليك تسديده ثمنًا لها".

"أتعني أنك ستعرض عليّ القائمة، وحينها سأخبرك بما يثير اهتمامي بها؟".

"بالضبط".

"سأكون مهتمًا بذلك".

فقلت: "سيتعين علينا الاتفاق على المقابل المالي. ولكن، أظن أنه يمكننا فعل ذلك".

كان هذا مثاليًا. فقد عرضت على أوليغ للتو إمكانية الوصول إلى قاعدة البيانات التي أعتقد أن رؤساءه كانوا يحاولون الوصول إليها منذ سنوات. سوف يعتبرونه بطلاً إن تم ذلك. وبالنسبة إلى كلينا، كان من الصعب جدًا ألا نبتسم.

أراد أن يخبرني بالمزيد، فقد وشت نظرته إليّ بذلك. ولكن، كان الوقت قد حان لترك هذا الموضوع والعودة إلى سبب وجودي هناك. "ما يمكنني فعله في موضوع نورثروب غرومان مجرد مثال صغير على ما يمكنني أن آتيك به". لا أدري إلى أي حد شعر بخيبة الأمل لأنني تراجعت قليلاً عمّا وعدته به، ولكنّني كنت بحاجة إلى أن أبيّن له أنني أمسك بزمام المبادرة. "نورثروب غرومان ليست إلا بداية".

فقال بتأنٍّ مرددًا كلماتي: "ليست إلا بداية".

على العشاء في ذلك اليوم، لم يتمحور الأمر فقط حول قواعد البيانات، وإنما عرّجنا- أنا وأوليغ- على عدة مواضيع أخرى. كانت لديه أجندته الخاصة أيضًا، فقد أتى على ذكر فرنسا مجددًا، وقال: "اللغة الفرنسية لغة جميلة. أنت محظوظ لأن لديك أمًا فرنسية". ما خطب أوليغ مع فرنسا؟ بدا

من الواضح أنه يحاول التلاعب بـــي لغرض ما. ولكنني كنت أجهل فحسب ما هو. وعلى ما يبدو، كان متوافقًا مع أمي التي كانت تقـــول لي منـــذ أن كنت صبيًا: "نافيد، إن السفر يزيد من ثقافتك". لم تشدد هي وأوليغ كثيرًا على علاقة العمل الموجزة بينهما، ولكنهما بكل تأكيد اتفقا على ذلك.

ثم سألني: "هل تحب السفر؟ هل تحب السفر إلى الخارج؟".

كان تعريفه للحوارات الصغيرة إما تافهًا جدًا أو شديد الشفافية. مـــن الذي لا يحب السفر؟ إلامَ كان يرمي؟ فأجبت: "بالطبع أحب السفر. لكـــنّ الأمر بات صعبًا قليلاً الآن لأنني أدير شركة. لكنّني أحبه بالطبع".

"هل ثمة أماكن لطالما أردت زيارتها؟".

أدركت أن ما قلته غباء ما إن أجبته. لكنّني بادرت بالقول: "المكسيك".

لم أصدق أنني قلت ذلك. ولكن، لسبب ما، وبينما كان يســـتجوبني، كنت أفكر في فيلم *ذي فالكون وسنومان*، وهو فيلم من بطولة كل من شين بين وتيموثي هاتون عن صبيين ثريين من كاليفورنيا يقومان ببيع وثائق سرية إلى الاتحاد السوفييتي في السبعينيات. وعندما تقودهما أفعالهمـــا المتـــهورة إلى المكسيك تقع أمور سيئة.

فقال أوليغ بحماسة: "المكسيك... المكسيك بلد رائع. يجدر بنا زيارتـــه يومًا ما". عظيم! هل شاهد الفيلم؟

هل أريد حقًا الذهاب إلى المكسيك برفقة أوليغ؟ ها أنذا أنظر إلى أثـــر الانتفاخ على وجهه بسبب خلعه سنّه وأتخيل ما قد يفعلـــه بـــــي ضـــباط الاستخبارات الروسية خارج أميركا؛ وأنا في وادٍ مكسيكي مكسو بالغبـــار، وثمة رجل ضخم يمسح يديه بمنشفة بعد أن اقتلع أول ضرسين من فمـــي، في محاولة منه لإجباري على الكلام. سرحت بشكل لا إرادي في نسختي الخاصة من فيلم *سبايز لايك أس* أو جواسيس مثلنا، حيث يقوم المحقق الروسي الذي

قام بدوره جيمس دوتون، باستجواب إميت فيتز هيوم الجاسوس المشتبه بـه بدور تشيفي تشيس، ويقول: "كل دقيقة تمرّ من دون أن تخبرنا فيها بسبب وجودك هنا، سأقطع إحدى أصابعك".

فيسأل تشيفي: "من أصابعي أم أصابعك؟".

"أصابعك".

"تبًّا!".

ما زلت لا أصدق أنني اقترحت المكسيك.

"أجل، أجل". قلت مستخفًا بما استرعى انتباه أوليغ، ومحاولاً الابتعاد عن أي زيارات تتعدى حدود أميركا الجنوبية: "عندما نلتقي في المرة المقبلة، ربما يمكننا التحدث أكثر بشأن مركز معلومات التكنولوجيا الدفاعي. وسنرى كيف سار الأمر مع نورثروب غرومان".

فقال أوليغ: "أجل، فكرة جيدة".

وبعد أن انتهينا من تناول الطعام وسدَّد ثمن الفاتورة- نقدًا كما هو الحال دومًا- سرنا معًا إلى الخارج نحو موقف السيارات الخاص بالمطعم. وكانت تلك أوّل مرة يرى فيها سيارة الكورفيت الجديدة الخاصة بي.

فقال بحماسة: "آه! لقد اشتريت سيارة جديدة؛ سيارة موستانغ جميلة".

شعرت حينها كما لو أنه انتزع ضرسًا من فمي في موقف السيارات باستعمال كماشتين صدئتين، وبلا مخدر موضعي.

"موستانغ!". نضح صوتي بالاشمئزاز. "هل قلت موستانغ؟!".

فاتسعت عيناه وارتخى فكه. لم تكن لديه أدنى فكرة عما قاله خطأً.

سألته: "هل أبدو لك غبيًّا؟ إنها من طراز كورفيت يا أوليغ. لا تُهني هكذا. إنها من طراز كورفيت".

فقال أوليغ: "أجل، يبدو أنها من طراز كورفيت. تعجبني كثيرًا".

"إنها من طراز كورفيت". قلت مجددًا. "كورفيت. وليست موستانغ".

"كورفيت". قال أوليغ.

وعندما التقيت تيد وتيري لاحقًا بعد ظهر ذلك اليوم، أعجبا بالكورفيت قليلاً. وخاصة تيري الذي كانت لديه سيارة كورفيت خاصة به، وقال: "هنيئًا لك. من الذي يخلط بين الموستانغ والكورفيت؟ إنها كورفيت".

فقال تيد: "أجل، تبًا له!".

لم يكن العميلان سعيدين بموضوع المكسيك. فعندما ذكرت ذلك الجزء من المحادثة، بدت عليهما الجدية.

وسألني تيد: "فكرة من كانت زيارة المكسيك؟ فكرتك أم فكرته؟".

فقلت معترفًا: "كانت فكرتي. ولكن، ألا يمكنكما مرافقتي؟ إذا لم يكن بمقدوركما القيام بذلك، ألا يمكنكما تكليف عميل لحمايتي بينما أنا هناك؟".

فرد تيري بعنف: "ما خطبك؟".

عندها، فكرت في سري: *حان وقت التخفيف من حدة التوتر باللجوء إلى الدعابة*، فقلت: "يمكنكما إرسال عميلة أنثى لتتظاهر بأنها زوجتي، أي مثل لندا هاملتون في فيلم *تيرمينيتور 2*".

فقال تيري بوجه جامد: "سيتعين عليّ البحث في الأمر". واكتفى تيد بهزّ رأسه فحسب.

وهكذا، أوضح العميلان أنه يستحيل تحت أي ظرف كان أن أغادر البلاد برفقة أوليغ، لا سيما إلى المكسيك. وأحد أسباب ذلك أن سلطة مكتب التحقيقات الفدرالي في قضية كهذه تقتصر على الولايات المتحدة. وقال لي تيري شارحًا: "تخيّل فحسب ما سيحصل إذا تملك الروس بعض الشك في أنك تعمل لحساب المكتب الفدرالي. فإن حصل ذلك فستكون هذه خطتهم. وأوّل ما سيرغبون في القيام به هو استدراجك إلى خارج البلاد؛

بعيدًا عن حماية المكتب الفدرالي. حيث لا يراقبك أحد، وحيث تكون بعيدًا عن متناول أيدينا".

الآن، بات لديّ شيء جديد لأقلق بشأنه. ألهذا السبب أثار أوليغ الأمر؟

وقال تيد لتيري: "سيكون ذلك عظيمًا. سنسلمه فحسب إلى وكالة التقاعس عن العمل المسيحي".

لم يسبق لي من قبل أن سمعت بهذا الاسم المستعار للاستخبارات الأميركية، على الرغم من ثقتي بأنه حمل عقودًا من التنافسية البيروقراطية.

وقال تيد: "ثق بي، أنت لا تود العمل مع أولئك الرفاق".

الفصل السابع عشر

أكاذيب سهلة

لم ينطق كل من تيد وتيري بالكثير في السيارة.

قبل أسبوعين من الكرسمس، كنا ثلاثتنا متّجهين شرقًا مجددًا، مستقلّين سيارة تيري من طراز فورد تاورس، في طريقنا إلى نورثروب غرومان. بدا لي أن شيئًا ما في طريق لونغ آيلند السريع يكسر حدة صمت العميلين. فقد ذكر العميلان أننا سنتوقف أولاً في نُزل قريب، حيث يمكننا وضع خطة عمل.

خطة عمل؟!

"إذًا، ما سبب كل هذا؟". سألت حين كنا في منتصف منطقة مزدحمة في مكان ما في كوينز الشرقية.

فأجاب تيري بحزم: "سنناقش الأمر عندما نصل إلى النُزل". ثم تحدّث سريعًا في موضوع آخر، واصفًا كيف نظف سيارته صباح ذلك اليوم، من الداخل والخارج. "حتى إنني استخدمت منظف أرمور أول".

فقلت متمتمًا: "هنيئًا لك". فلا شيء مما فعله سيجعل سيارة تاورس تبدو أفضل على الإطلاق.

كنت أشعر بالقليل من التوتر حيال رحلتنا الميدانية الصغيرة. وكان لديّ

شعور بأن العميلين يشعران بالتوتر أيضًا. لا بدّ أنهما باتا يعلمان الآن أنني لا أحب المفاجآت.

يصف نُزل ذي ميدوبروك موتور لودج نفسه بأنه "أبرز نُزل في لونغ آيلند للمسافرين ذوي الميزانية المحدودة". ويمكنني القول إن التركيز كان على "الميزانية" وليس "الجودة". توجّه تيد إلى طاولة الاستقبال وأحضر مفتاح الغرفة، ثم دخلنا الغرفة جميعًا. أحضرنا أنا وتيري كرسيين، بينما جلس تيد على حافة الفراش.

قال تيد: "هذا ما سيحدث، سنذهب إلى نورثروب غرومان وننزلك قرب المبنى حيث يحتفظون بسجلّاقم. إنه يشبه المكتبة بالضبط، وثمة أناس هناك يمكنهم مساعدتك. ادخل إلى هناك، واحصل على أي شيء مما يتعين عليك اقتناؤه".

أشعرني هذا الكلام بالقلق. إذ لم تكن لديّ أدنى فكرة عن المكان الذي سأذهب إليه ما إن أدخل المبنى، أو من سألتقيه هناك، أو ما سأسأل عنه، أو حتى ما سأحصل عليه. وعندما أدركت أن تيد قد انتهى من استعراض "خطة العمل" الخاصة به سألته: "ما الذي سأحصل عليه من هناك؟".

فأجاب تيد: "لا أدري. الأمر عائد إليك".

لماذا يجيبان عن أسئلتي بهذه الطريقة على الدوام؟ لعلهما لا يعرفان أكثر مما كنت أعرف، وهو ما يثبت حاجتنا إلى طيار المارينز في الداخل.

"إذًا، هل سأدخل ذلك المكان فحسب وأسأل عن بعض الوثائق؟ أي وثائق؟ كيف سأبرّر وجودي هناك؟ هل أخبرهم بأنني أتبع قسم الأدب وأنني هناك لأبحث عن نعوت ضائعة؟". حسنًا، كان ذلك غباءً، ولكنّني كنت أشعر بأنني أطير وأنا مغمض العينين. "هل يمكنكما على الأقل أن تخبراني بما إذا كان ثمة أحد يتوقع حضوري؟".

فأجاب تيري: "إنهم يعرفون أن شخصًا ما قد يمرّ عليهم. افعل ما تتقنه فحسب، وأخبرهم قصة عن البحوث والحاجة إلى القيام بنسخ رقمية عن الوثائق، والحاجة إلى بعض الكتيبات التقنية".

بدأت أعتقد أنني ربما سأكون بحاجة إلى وضع خطة خاصة بي، وذلك كي أنسحب من هناك بأمان. وتذكرت ما قاله سام- شخصية روبرت دي نيرو في فيلم *رونين*- بعد أن خبّأ سلاحه في زقاق خلف مطعم تملكه إحدى العصابات: "سيدتي، أنا لا أدخل أبدًا مكانًا لا أعرف كيفية الخروج منه". هل كنت على وشك خرق هذه القاعدة؟ كنت سعيدًا لأنني أضع مئتي دولار في جيب بنطالي الخلفي، وسجلت رقم الهاتف 6666-666 الخاص بخدمة كارمل لتأجير السيارات على هاتفي.

كنت أعرف كيف يشعر العميلان إزاء ضرورة إبقاء تلك التفاعلات طبيعية. كانا مثلي بالضبط، يتجنبان التقيد بمخطوطات مفصلة. ولكن، ماذا عن القليل من التوجيه هنا أيها الرفيقان؟ "أفترض أنه لا يمكنني ذكر السبب الحقيقي لوجودي هناك، أليس كذلك؟".

فأجاب تيري: "هذا افتراض صحيح".

نظرت إلى تيد، ولاحظت الطريقة التي كان يجلس بها على حافة الفراش، وقدمه اليسرى على الأرض، واليمنى مستقرة على الفراش. كان بوسعي رؤية مسدسه نصف الآلي من طراز Glock موديل 20 بطلقات تسعة ملليمترات يبرز من أسفل قراب المسدس المصنوع من الجلد، وكان مصوبًا باتجاهي مباشرة. كنت أعرف أنه يحمل هذا النوع من الأسلحة، ولكنني لم أرَه بهذا الوضوح من قبل.

أثق أنّ هذا قد حدث من قبيل المصادفة، أليس كذلك؟

قال تيد: "اسمع يا نافيد، هذا عمل تطوعي بالكامل. وحريّ بك القيام

بما تشعر بالراحة لدى قيامك به. فنحن لا نريدك أن تشعر بأنك مرغم على القيام بذلك".

لم أظنّ أنه تعمّد إبراز المسدس، إلّا أنه بوسعي أن أقسم إنه كان هناك لمعان في عينَيه. "تطوعي؟! إذًا، لديَّ مطلق الحرية للنهوض والخروج من هنا، أليس كذلك؟".

بدأ الاستياء يظهر في عينَي تيد.

سألت: "ماذا سيحدث إذا بدأ أحدهم يتساءل عن سبب قيام شخص مجهول بالدخول والخروج وهو يحمل كومة من الوثائق؟ ماذا سيحدث إن قاموا باستدعاء الأمن؟".

قال تيري: "سننتظرك في موقف السيارات".

فكرت في الأمر لوهلة أخرى. إذًا، كان يُتوقع مني الدخول إلى مكان حيث ينتظر الناس بغموض- في أحسن الأحوال- شخصًا ما، ولكن ليس أنا على وجه التحديد. ثم سأتحدث بلباقة للحصول على شيء ما، لا أدري ما هو ويمكننا استخدامه في العملية. ومجددًا، لم يرغب المكتب الفدرالي في أن يترك آثارًا خلفه في أي من هذا. كانوا يتحكمون في الأمر عبر مسافة ثلاثين ألف قدم، أو على الأقل على مسافة مئات الياردات داخل موقف السيارات. وعلى الجانب الآخر، كنت على ثقة بأنه لو سارت الأمور في الاتجاه الخاطئ، فإن كلاً من تيد وتيري لن يتركاني أتعفن في السجن. فهما عميلان فدراليان. ولا بدّ أن لديهما أصدقاء في وكالات تطبيق القانون؛ حتى هنا في لونغ آيلند.

لذا وافقت. وعلى الرغم مما كان يتملكني من شكوك، فقد وثقت في نفسي ووثقت في العميلين، ولم أكن على استعداد للتخلي عن الإطاحة بأوليغ بعد.

ابتسمت ونهضت عن الكرسي في غرفة النُزل، وقلت: "حسنًا. لنذهب للتسوق".

قاد تيري السيارة باتجاه موقف السيارات. وعندما توقفنا، أشار إلى البناية التي تُحفَظ السجلّات في داخلها، ثم استدار ونظر إلى وجهي مباشرة وقال: "إنّنا نثق فيك وفي حكمك. توخَّ الحذر فقط، فأولئك الشبان ثرثارون. وإن لم تكن حذرًا، فقد تعلق هناك لساعات".

وأضاف تيري: "أجل، معظم من في الداخل من المتقاعدين والمتطوعين، ولديهم وقت فراغ طويل".

عظيم! يتعين عليّ الآن أن أحذر من الثرثارين الهرمين. ترجّلت من السيارة ودلفت إلى داخل البناية.

عرّفت عن نفسي باستخدامي اسمي الحقيقي، ولم أكن أعرف إن كان ذلك سيسهّل المهمة أم لا. ثمّ أخبرتهم قصة- مثل معظم الحيل المحبوكة- تحمل جانبًا من الحقيقة. أخبرتهم أنني أعمل لحساب "كتب وأبحاث"، وهي متعاقد حكومي وشركة لجمع المعلومات، وأننا كنا نعمل على مشروع التحويل الرقمي ونحتاج إلى بعض المواد البحثية التي يمكننا أن نختبر النظام عبرها.

"هل لديكم أي مواد يمكننا أخذ صور عنها بالماسح الضوئي؟". سألت الموظف المفيد.

"أعتقد ذلك. ماذا تريد؟".

كنت أعرف أن شركة نورثروب كانت قد بنت بعض الطائرات الحربية الرئيسة في الترسانة الأميركية. وفي ستينيات القرن الماضي، بنت أيضًا وحدة الهبوط على القمر الخاصة ببرنامج أبولو. وعلى الرغم من السباق الفضائي المحموم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الذي غدا رمزًا لحقبة الحرب الباردة، لم أكن أعتقد أن أوليغ يهتم كثيرًا بالسفر عبر الفضاء.

ولكن، كان هناك الكثير من البنود الأخرى في "كتالوج" نورثروب غرومان يمكن الاختيار من بينها. "ماذا عن بعض الطائرات العسكرية التي

تحظى الشركة باحترام بالغ بفضلها؟". اقترحت عليه مع القليل من الإطراء.

لم يُبدِ الموظف أي تردد، وأشار إلى عدة مقاتلات حربية كنت قد سمعت بها، وكانت مقاتلة F-14 إحداها، فقلت: "حسنًا. لنلقِ نظرة على تلك".

سار الأمر على هذا النحو، إذ يُفصِح الموظف بفخر عن أسماء خطوط الإنتاج الخاصة بنورثروب غرومان بينما أقول أنا: "هل يمكنني إلقاء نظرة على تلك أيضًا؟".

لم أوقّع على أي شيء، ولم أبرز هويّتي، ولم أتعهد بإعادة أي شيء. ولكنّني أعطيتهم بطاقتي التجارية التي كُتب عليها "كتب وأبحاث"، ولكن كان بوسع أي شخص طباعة بطاقة شبيهة بها في كنكو. ولم يذكر أحد أنهم كانوا يتوقعون مجيئي. ولم يأتِ أحد على ذكر طيار المارينز الذي التقيته أو أنه بشكل ما قد شهد لي. ولم يأتِ أحد على ذكر مكتب التحقيقات الفدرالي. في الواقع، لم أحصل على أي إشارة بشكل أو بآخر حول ما إذا كان المكتب الفدرالي قد مهّد لي الطريق أم لا.

في كلتا الحالتين، غادرت شركة نورثروب غرومان وأنا أحمل قائمة مشتريات تضم وثائق مغرية عن أهم الطائرات العسكرية الأميركية، والتي تكفي لملء صندوق- كما آمل- والإيقاع بجاسوس روسيّ. عدت سيرًا على الأقدام إلى كل من تيد وتيري اللذين كانا بالضبط حيث تركتهما في موقف السيارات الخاص بالمتعاقد الدفاعي. سيكون الحصول على تلك القائمة مهمة للعميلين الآن.

كانت حركة المرور في طريق عودتنا إلى النُزل شديدة الازدحام. راجعت قائمة المواد التي استلمتها، ويجدر بي القول إنها بدت مذهلة بأكملها.

كانت حركة المرور خانقة عند جسر كوينزبورو، فقلت لتيد وتيري: "سحقًا لحركة المرور. ألا يمكنكما تشغيل صفارة الإنذار أو ما شابه؟".

كانت السيارة متوقفة في مكانها، فاستدار كلاهما ونظرا إليّ.

وقال تيري: "لا يمكننا ذلك".

"ما الذي تقصده بقولك إنه لا يمكنكما ذلك؟ أنتما عميلان فدراليان، فلمَ لا يمكنكما ذلك؟ من سيعرف بالأمر؟".

فأجاب تيد: "نحن سنعرف بشأنه".

لا أظن أنه كان يمزح، إذ لم ترتسم ابتسامة على شفتيه.

وعندما وصلنا أخيرًا إلى الشارع الذي أسكن فيه، توقّف تيد أمام الرصيف المقابل لصنبور الحرائق. كانت الخطة تقتضي أن أترك صندوق الكتيبات في حوزة العميلين الآن. ولكن، قبل أن أترجّل من السيارة، استوقفني تيد وقال إن لدينا بعض الأوراق التي يتعين علينا إكمالها، ثم قال لتيري: "لمَ لا تعطيه إياها؟".

كانت وثيقة مطبوعة من ثلاث صفحات. كُتب على رأس الصفحة الأولى "مدونة قواعد السلوك". كانت الوثيقة مفصلة نوعًا ما، وقد شملت قائمة طويلة من البنود التي يُتوقع مني الموافقة عليها. ومن بينها وعد بأنني لن أقدم نفسي بصفتي عميلاً للمكتب الفدرالي، والإقرار بأنني أخضع لكل القوانين الفدرالية والوطنية والمحلية. كما تذكر الوثيقة أن أي شيء تلقيته خلال فترة التحقيق يجب ردّه إلى مكتب التحقيقات الفدرالي على الفور.

كان ثمة المزيد من البنود، لكن تيد أبى الانتظار إلى أن أنتهي من تصفحها كلها، وقال: "حسنًا، هناك مكان للتوقيع في الأسفل".

قلّبت الصفحات بحثًا عن مكان التوقيع.

قال تيري: "لن توقّع باستخدام اسمك الحقيقي".

كان هذا أمرًا جديدًا. فقد استخدمت اسم نافيد جمالي منذ أن بـــدأنا العملية. "حسنًا".

قال تيد: "ستوقعها هكذا، الكريبتونايت الأخضر".

فسألته: "الكريبتونايت الأخضر؟! ما هذا بحق الله؟". هل حصلت على اسم حركيّ؟

فقال تيد بفخر: "أجل، إنّه اسم حركيّ رائع. لقد تحققـــت منـــه، لم يستخدمه أحد بعد".

خمّنت أنهم يتبعون قاعدة عدم تكرار استخدام الأسماء الحركية في المكتب الفدرالي. كنت على علم بأن تيد من عشاق الرسوم الهزلية الخاصة بالأبطال الخارقين. وكنت على يقين من أنه لم يقع على هذا الاسم عن طريق الصدفة. وكنت أعرف ما يكفي عن الكريبتونايت. ففي وجوده، تحول سوبرمان إلى شخص ضعيف ومريض، وقد برزت عروقه وأصبح لون جلده داكنًا، وفقد قواه الخارقة وبات معرضًا لخطر الموت. لقد كان الكريبتونايت مادة شديدة القوة!

فقلت ساخرًا: "إذًا، لقد تم استخدام اسمَي واندر وومان وماي ليتل بوني بالفعل، أليس كذلك؟ أدرك أنكم تبحثون عن وسيلة لزرع الهلع في قلـــوب أعدائنا. ولكن، سوبرمان! يبدو هذا كاسم تمّ اختياره من قبل شخص ما في العقد الرابع من عمره ويعيش في قبو أمه ويلعب كثيرًا بلعبـــة وورلـــد أوف واركرافت. أنتما لا تعرفان أي شيء عن ذلك، أليس كذلك؟".

زمجر تيد، غير أنني في الحقيقة لم أستطع التوقف عن الابتسام الآن بعـــد أن مُنحت اسمًا حركيًا من قبل المكتب الفدرالي.

وفكّرت في سري: *رائع! اسم حركيّ*. كان هذا رائعًا للغاية لدرجة أنني نسيت تمامًا كل المخاوف التي كانت تتملكني سابقًا. من يكترث بشأن الخطر

وهديدات الأسلحة والحصول على وثائق سرية من متعاقد حكـــومي؟ فأنــا رجل بالغ، ولدي اسم حركيّ. آه لو أن الصبـــي الصغير الذي كنت عليــه حين كنت في السادسة من العمر يتمكن من رؤيتي الآن!

وعلى الرغم من أنني لن أعترف بذلك لتيد بتاتًا، إلا أن اختياره كـــان رائعًا. لقد بدا اسم الكريبتونايت الأخضر رائعًا جدًا بالنسبة إليّ.

الفصل الثامن عشر

تسارع وتيرة الأحداث

اتفقت مع أوليغ على مواصلة اجتماعات الغداء في مقاطعة وستشستر في مطعم فاونتن الواقع في هاتسديل. كان يجلس إلى الطاولة بالفعل عندما دلفت إلى المطعم في صبيحة أحد الأيام في أواخر شهر ديسمبر. وبعد أن حيينا بعضنا، استأذن على الفور لاستخدام مرحاض الرجال.

ما بال أولئك العاملين في مجال التجسس؟ وما قصة استخدامهم المتواصل للمراحيض؟ العميلان وأوليغ، لم يكن ثمة أحد على كلا جانبي حقبة ما بعد الحرب الباردة لا يتردد إلى المرحاض باستمرار. كنت سأكره الخروج في رحلة بين البلدان المختلفة مع أي من هؤلاء القوم؛ إذ كنا سنتوقف كل حين من طريق تيرنبايك في نيوجيرسي وحتى فري واي في سانتا مونيكا، وسيبدو الأمر وكأنني أسافر في سيارة تعجّ بأولاد صغار في السادسة من العمر. وسنموت هرمين قبل أن نصل إلى المحيط الأطلسي.

التقطت قائمة الطعام الطويلة وراقبته وهو يشق طريقه سريعًا إلى مرحاض الرجال. إذا كان أوليغ يخبئ جهاز تسجيل مثلما أفعل، فلماذا توجّه إلى مرحاض الرجال؟ ألا يمكنه الضغط على زر *التسجيل* في موقف السيارات؟

عندما عاد إلى الطاولة، دخلت صلب الموضوع مباشرة: "لقد بحثت عن المقالات التي طلبتها. ولديّ فكرة جيدة عن المكان الذي يمكنني الحصول عليها منه. ولكنّني عثرت على مقالين فقط. وهذا لا شيء. كما ذكرت في المرة السابقة، أحسب أن لديّ حلاً أفضل بالنسبة إليك".

نظر أوليغ إليّ، ولكنه لم يبدُ سعيدًا. هل كان يعتقد أنني أماطل؟

"لدى الحكومة الفدرالية الكثير من قواعد البيانات. بعضها يثير الاهتمام أكثر من البعض الآخر؛ فهي تركز على كل الأشياء من مختلف المجالات. إحداها- التي كنت قد حدثتك عنها في المرة السابقة- تُسمى مركز معلومات التقنية الدفاعي. وهي تغطي بعض المجالات التي أحسبك تهتم بها للغاية". وبذلك، أكون قد سلّمته رصاصة الرحمة؛ وهي مرجع معد بدقّة ومؤلّف من عشرين صفحة ويشتمل على مقالات عن صاروخ كروز من طراز توماهوك.

منحته دقيقة للتنقل بين الصفحات والشعور بالامتنان، ثم حذرته: "يمكنني الحصول عليها، لكن ثمنها لن يكون قليلاً. لا أعرف كم سيبلغ المقابل بالضبط، ولكن بذلك المبلغ ستحصل على كل ما تريده".

فتساءل: "كل ما أريده؟".

"ستحصل على الكثير. قد تجد ذلك ذا عائدٍ كبير على استثمارك، وقد أتمكن أيضًا من بحث شروط التعامل".

فقال أوليغ وهو يومئ ببطء: "حسنًا، يروقني ذلك".

"على سبيل المثال، لنقل إنك مهتم بصواريخ توماهوك. إذًا، يجب عليك أن تقول لي: أريد وثائق عن صواريخ توماهوك. وحينها، سيكون بمقدوري منحك قائمة طويلة كهذه. ستنظر إلى القائمة، وستخبرني عن العناوين التي تثير اهتمامك، وسأحصل عليها من أجلك. الأمر يشبه طلب طبق من قائمة طعام في مطعم روسي. هل ترغب في الكعك أم الكافيار؟".

"مثل ماذا؟".

فأجبته: "لا عليك".

كان يستوعب الفكرة ببطء، وقال: "ستريني القائمة، وسأخبرك بما يثير اهتمامي؟".

فقلت: "بالضبط".

"سأكون مهتمًا بذلك. أجل، سأكون مهتمًا. لنفعل هذا".

أخبرته أنني أظن أن تكاليف التسجيل ستبلغ حوالي عشرة آلاف دولار، ثم ستكون هناك مصاريف كل بضعة أشهر.

لم يكن يحمل الكثير من النقود، ولكنه قال إنه سيعطيني ما في حوزته، أي ألفين وخمسمئة دولار، مع وعد بسداد بقية المبلغ في المرة المقبلة التي سنلتقي بها.

كان ذلك تطورًا هامًا. ولا أقصد المال هنا؛ فقد حصلت على المال منه من قبل. ولكنه خطا خطوة إلى الأمام من دون الحصول على موافقة مسبقة من رؤسائه في موسكو. لقد أظهر اعتدادًا بالنفس وتملكًا لزمام المبادرة. وقد نظرت إليه بعين الاحترام بسبب استعداده للرد بشكل إيجابي.

حذّرته مسبقًا بالقول إن هذا الأمر قد يستغرق بعض الوقت. تعين عليّ في البداية التسجيل في قاعدة البيانات، وأن يتم قبولي. وقد تعيّن عليه إمدادي بالنقود اللازمة لسداد مصاريف التسجيل. وقلت ملمحًا إلى رحلة لونغ آيلند: "في هذه الأثناء، ربما يكون لديّ شيء ما مثير للاهتمام بالنسبة إليك من مشروع نورثروب غرومان".

"ما هو؟".

فأخبرته: "إن له علاقة بالطائرات المقاتلة".

اللعنة، لقد بدأت أبرع في هذا! فقد علمت أيّ الأزرار يتعين عليّ النقر عليها.

عندما وضعت النادلة الأطباق التي طلبناها وابتعدت مسافة تكفيني لمواصلة الحديث، أخبرت أوليغ: "ينبغي لنا الاستعداد للتصرّف سريعًا".

لم أكن متعجلاً على الإطلاق، إذ كنت لا أزال أنتظر أن يأتيني العميلان من مكتب التحقيقات الفدرالي بالوثائق من شركة نورثروب غرومان. ولكن، بينما كنت في انتظارهما، أردت المزيد من السيطرة على الوتيرة التي تسير بها الأمور. لم أرغب في أن يعضّ أوليغ أصابعه في كل مرة يكون متأهبًا فيها كي أقفز. "عندما أحصل على الوثائق من نورثروب غرومان، لن يكون بإمكاني الانتظار لمدة شهر أو اثنين إلى أن أتلقى اتصالاً منك. فلا وقت كافي لذلك. لذا، سيتعين عليّ التواصل معك على الفور".

كان هذا الأمر قد أغضبني منذ فترة طويلة؛ أي فكرة التواصل من جانب واحد. وباستعمال سلطة التعجل الزائفة من جهتي، ربما تُتاح لي الفرصة لبناء قناة تواصل من اتجاهين. "أحتاج إلى وسيلة للتواصل معك، ولا أقصد هنا البريد الإلكتروني. فأنا لا أستخدمه، لأنه يترك الكثير من الآثار. لديّ فكرة أخرى".

أخبرته أنني عندما أحتاج إلى التواصل معه، سأرسل له إشارة بأنني أريد منه الاتصال بي. "سنستخدم موقع دنفر كريغسلست؛ قسم المفقودات والموجودات. سأنشر إعلانًا أقول فيه إنني قد فقدت سترة نورث فيس سوداء اللون. وستكون هذه هي الإشارة التي ستتلقاها كي تبادر إلى الاتصال بي. تصفّح موقع كريغسلست باستمرار. وعندما ترى الإعلان، ستعلم حينها أنني جاهز للقاء".

وكي أتيقن من أن أوليغ فهم ما قلتُه، أعطيته ورقة تخص موقع كريغسلست، وفيها شرح خطوة بخطوة للمكان الذي يجدر به أن يبحث فيه، وما يجب أن يبحث عنه. وبدا أنه يعتقد أنه بمقدوره القيام بذلك.

قبل أن نودع بعضنا، أخبرني أوليغ أنه سيعود إلى روسيا في فترة الاحتفالات، ثم أضاف مبتهجًا: "ولكنني أتطلع لرؤيتك في العام الجديد".

غادر المطعم وهو يكاد يطير فرحًا.

في أواخر شهر يناير، نشرت رسالة على موقع دنفر كريغسلست، قلت فيها إنني قد فقدت سترة من طراز نورث فيس سوداء اللون، وإنني أعرض مكافأة مقابل استعادتها. لم أتلقَّ أيّ رد لبضعة أيام، وبعد ذلك اتصل أوليغ.

عندما رنّ جرس هاتفي المحمول، كنت أنا وأفا والعديد من الأصدقاء نتناول العشاء في مطعم شهير يقع أسفل طريق ويست سايد السريع ويُدعى ديناصور باربكيو. كان أوليغ يتصل من رقم يبدأ بـ 718 لم أتعرف إليه. ساورني شعور بأنه ربما كان هو المتصل، لذا رددت على اتصاله.

قال لي: "لقد رأيت الرسالة على الإنترنت، ولكن ليس بمقدوري أن أقابلك".

كان الضجيج يملأ المطعم، فلم أتمكن من سماع كل ما قاله. طلبت منه الانتظار للحظة، وسرت نحو مكان أهدأ بقليل، ولكن كان لا يزال من الصعب بالنسبة إليّ الاستماع إلى ما يُقال.

كرّر ما قاله مجددًا: "أنا آسف، لا يمكنني مقابلتك. سأتصل بك مجددًا عندما يكون بمقدوري ذلك".

ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ قلت: "لا بأس، إلى اللقاء". ولكنني كنت مستاءً بشدة. فقد خلتُ أنني أوضحت له أن أيّ محاولة من جهتي للتواصل معه تعني أنني أتحرك ضمن نطاق ضيق. وقد شدّدت على فكرة العجلة عدة مرات. ثم يتجاهلني أوليغ؟! هذا ليس لطيفًا.

قبل أن أعود أدراجي إلى الطاولة، سرت صوب الرصيف حيث يمكنني أن أسمع، واتصلت بالرقم 718. لم يرُد أوليغ على الاتصال. وبدلاً من ذلك،

وجدت نفسي أتحدث إلى شخص آخر ذي لكنة روسية ثقيلة. حاولت التحدث إليه، وكانت المكالمة قصيرة.

سألت عن أوليغ، وكان الرجل يعرف ما يكفي من الإنجليزية كي يرد: "لقد غادر".

عندما فكرت في الأمر لاحقًا، استنتجت أن فكرة مقدرتي على الوصول إلى أوليغ برمتها لا بدّ أنها مثيرة للقلق بشدة بالنسبة إلى الروس. إذ لم تسنح الفرصة لأوليغ لإبلاغ رؤسائه في موسكو، فلم تكن لديهم الفرصة لتهيئته لمقابلتي. والوقت غير كافٍ كي يقرروا إلى أي مدى يمكنه المضيّ. كما أن فكرتي لم تمنحهم وقتًا كافيًا لإنجاز بروتوكولات اللقاء التي كانوا يتبعونها. وإذا بادرت أنا بالاتصال، فسأكون قد سلبتهم أيّة ميزة ظنوا أنهم يمتلكونها.

وبقدر ما كنت أكره ذلك، كنا قد عدنا إلى أسلوب الظهور المفاجئ، والالتقاء.

كلما طالت فترة ممارستك لهذا العمل، فقدت صوابك قليلاً. هذا ما اكتشفته على أيّ حال. إنّها حقيقة حياة العميل المزدوج.

لم أطلع أحدًا على ما كنت أعتزم القيام به. فأنا قطعًا لم أكن أتوقّع أن يحتفظ أصدقائي بسرّ مثير كهذا طيّ الكتمان. ففي اللحظة التي أبوح فيها بأي شيء عن حياتي السرية إلى شخصٍ ثانٍ أو ثالث، لن يلبث أن يعرف به عشرات آخرون. وأحدهم بكل تأكيد سيكون لديه صديق روسيّ.

لم أخبر سوى شخص واحد عن أنشطة مكافحة التجسس التي أقوم بها؛ أفا. حتى إنّني لم أطلع والدَيّ على الأمر. فهما لم يسألاني كثيرًا، وأنا لم أبح بالكثير. ومن وقتٍ إلى آخر، كانا يطرحان أسئلة غامضة: "هل كل شيء

على ما يرام في المكتب؟". أو أحيانًا "أما زلت تتواصل مع الروس؟". وكنت أجيب بالغموض نفسه: "كل شيء على ما يرام"، أو "كالمعتاد"، أو "تعرفان كيف هم الروس". وقد بدا ذلك مرضيًا للجميع.

ولكنني أحمد الله على أفا. فقد كانت متنفسي ومصدر ثقتي والشخص الوحيد الذي يمكنني أن أناقش معه مخاوفي ومصادر غضبي. وبقدر ما تطورت علاقتي بكل من تيد وتيري، إلا أننا كنا نتحدث على الأغلب في مسائل تخص التكتيكات والعمليات. وكنا نناور ونكافح دومًا للسيطرة على العملية. ولم يكن أيّ من الطرفين ليقرّ بنقاط ضعفه للطرف الآخر، هذا مؤكد. كانت أفا هي الشخص الوحيد الذي يمكنني فعل ذلك معه. لطالما أدركت أنّه يمكنني الوثوق بها. ولكن بقدر أهميتها بالنسبة إليّ حين يتعلق الأمر باعترافي بالشكوك أو المخاوف، كانت أيضًا الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أفصح له عن مدى شعوري بالإثارة بسبب ما أفعله، وكم أنا فخور بما أفعله. كانت هناك أوقات أردت فيها فقط أن أنهض وأصرخ بأعلى صوت: "ها أنذا! انظروا إليّ! أنا جاسوس ذكي للغاية!". كنت أتوق بشدة للقيام بإعلان عام من نوعٍ ما، ولإنزال نوافذ سيارتي الكورفيت، والصراخ بذلك إلى أن يسمعني العالم كله.

ولكنني عوضًا عن ذلك حصلت لنفسي على وشم.

فقد شعرت بحاجتي إلى القيام بما يثبت أن مهمة العميل المزدوج هذه حقيقية، وأن أثبت ذلك لنفسي على الأغلب. كنت أريد شيئًا ما حقيقيًا وماديًا، شيئًا ما لا يمكن إنكاره، شيئًا ما يربطني بهذه الرحلة السرية الطويلة التي أخوضها. لم يكن الأمر وكأنني سأحتفظ بمذكرات عن لقاءاتي السرية مع أوليغ أو مكتب التحقيقات الفدرالي، إذ سينتهي الأمر يومًا ما، وما البرهان الذي سيكون بحوزتي عنه؟

لذا، في صبيحة الثاني والعشرين من شهر مارس، وبينما كنت أتجهز للقائي التالي مع أوليغ، أخرجت قميصًا كُتب عليه "نيويورك لا تحبك". ثم قمت أنا وأفا برحلة إلى متجر ريد روكيت لرسم الوشوم. لم أكن قد حصلت على وشم من قبل مطلقًا. وكان المتجر ذو الإضاءة الساطعة يقع في قلب المدينة، في الطابق الثاني من بناية تقع في مقاطعة غارمنت عند زاوية الشارع الذي يقع فيه متجر مايسيز. أخبرت الرجل السمين الذي بدا كراكبي الدراجات أنني أريد وشم الكلمتين *الكريبتونايت الأخضر* مكتوبتين بشيفرة مورس على الجانب الداخلي من ساعدي الأيمن.

فسألني: "الكريبتونايت الأخضر! من تكون؟ أي نوع من الأبطال الخارقين؟".

فقلت له: "لا، إلا أنني أفكر في البدء بالمتاجرة في الكابات".

"ماذا؟".

"لا شيء".

نظر إليّ وقد بدت عليه بعض الحيرة. ولكن مما كنت قد رأيته على عضلات الأذرع المنتفخة، والأعناق الممتلئة، والأظهر المغطاة بالشعر في نيويورك، لقد قدّم الناس كل أنواع الطلبات الغريبة في متاجر رسم الوشوم المحلية.

قال لي: "حسنًا، يمكنني فعل ذلك".

لم أكن أعرف شيئًا عن شيفرة مورس، ولم أتوقع أن يكون راسم الوشوم على علم بها أيضًا. لذا، في الليلة التي سبقتها، بحثت عبر الإنترنت وعثرت على رسم بياني لشيفرة مورس، ورسمت بتأنٍّ خريطة تفصيلية للأحرف، خط فاصل ثم خط فاصل فنقطة لحرف G، وخط فاصل ثم خط فاصل فنقطة لحرف R، ونقط لحرف E، فنقطة لحرف E الثاني، فخط فاصل

ونقطة لحرف N، وهلمَّ جرًا.

بعد أن وشمت ذراعي، عدنا أنا وأفا أدراجنا إلى المنزل.

وفي طريق عودتنا سألتني: "هل فكرت في الأمر مليًا يا نافيد؟".

نظرت إليها فحسب وأجبت: "هل سبق لي أن فكرت من قبل؟".

لم أقل للعميلين أي شيء بخصوص الوشم الجديد. ولم أكن قد طلبت الإذن من تيد وتيري قبل القيام بذلك، إذ كانا سيبديان اعتراضهما. وبقدر ما يعنيني الأمر، لم يكن مسموحًا لهما أن يمليا عليّ ما يمكنني وضعه على جسدي. وعليّ أن أعترف بأنّ شعوري بأنني أخفي سرًّا عنهما بدا لي جيدًا.

يتعين عليّ مضاعفة الحذر عندما أكون برفقة أوليغ. وسأرتدي منذ الآن فصاعدًا قمصانًا ذات أكمام طويلة في مطعم أونو بيتزيريا! كان رهاني الأوليّ هو أنه لن يدرك معنى النقاط والفواصل؛ حتى لو كان قد تعلم فك شيفرات مورس حين كان في المدرسة. وماذا لو تمكن من فك شيفرة وشمي؟ يمكنني فقط تخيل الأسئلة التي قد يطرحها الروسيّ، *من يكون الكريبتونايت الأخضر؟ ولماذا هو أخضر؟ هل أنت رجل خارق؟* وحينها سأحاول أن أشرح له كيف أن اسم الكريبتونايت الأخضر كان لقبي في أيام الجامعة...

ادعوني بغير الناضج إن شئتم، ادعوني بالمتهور. حسنًا، أنا مذنب. حتى إنني دخلت موقع الفيسبوك ونشرت صورة لذراعي الموشومة حديثًا مع تعليق بغيض: "لقد حصلت على وشم يا قوم!". الأمر الذي استفزّ صديقي بينجامين داش وجعله يرد: "أنت ماذا؟ حصلت على وشم؟ آمل أن تكون قد كتبت اسمي بشكل صحيح".

كنت قد ارتكبت حماقات عديدة في حياتي، ولكنني واثق من أن كل تلك الحماقات لا تعادل وشمي اسمي الحركي السريّ الذي منحني إياه

المكتب الفدرالي على ذراعي، ثم ثرثرتي عنه على الفيسبوك، مع نشر صورة كبرهان!

ولكن هذا ما كنت أفكر فيه. كان ذلك الوشم طريقتي في القول "تبًّا لك" للجميع. بدا الأمر وكأنني أتمرد على والدَيّ مجددًا. *لا يمكنك أن تخبر أحدًا، لا يمكنك أن تخبر أحدًا، لا يمكنك أن تخبر أحدًا*. وبعد فترة قصيرة، سيتعين عليك أن تخبر أحدًا؛ حتى لو كان رجلاً يشبه راكبي الدراجات في متجر للوشوم في نيويورك، والذي لا يفهم ما يعنيه أي من هذا. أعتقد أن هذا رد فعل بشري طبيعي على الضغوطات. كان ذلك رد فعلي على أي حال.

لم تقل أفا إنها تعتقد أن حصولي على وشم باسمي الحركي السريّ فكرة رائعة، ولكنها لم تناقشني في الأمر أيضًا. إذ كانت تقريبًا تعرف كل شيء. وبعد حادثة المنديل الصحي، بات إخفاء الأسرار عنها خطرًا يماثل خطر اكتشاف أوليغ ما أقوم به.

تساءلت عما سيعتقده والداي عن ابنهما الذي هجر جامعة هارفارد بعد أن حصل لنفسه على وشم. ولكنهما لن يربطا النقاط والفواصل بما كانا قد بدآه قبل زمن طويل مضى مع الروس. كانت لديهما شكوك- أنا واثق من ذلك- في أن علاقاتي مع كل من العميلين والروس قد تجاوزت تلك العلاقة التي كانت تربطهما بهم. ولكنهما لم يسألاني عن المدى الذي بلغته العلاقة قط. ولم أعتقد أنهما يريدان حقًا معرفة ذلك. ولم أُرد أن أورطهما في الأمر. ولكنّ هذا تركني أيضًا وأنا أشعر بالانعزال والتخفي الشديدين.

أنا لا أشكو، ولكن الأمر ربما يشبه الثرثرة قليلاً، والعيش، وإخفاء العديد من الأمور عن الأصدقاء والعائلة، إلى جانب ساعات الاستعداد المؤلمة، وتجنب الأسئلة التي لا يمكن تجنبها بشأن أماكن تجوالي، وإخفاء هويتي المثلثة

بإحكام. وهي مثلثة لأنها لم تقتصر على هوية العميل المزدوج التي توقعت أن أبقيها مباشرة. إذ كنت شخصًا ما مع أوليغ، وشخصًا آخر مع العميلين الفدراليين، وشخصًا ثالثًا مع بقية الأشخاص في حياتي. أحيانًا، كنت أعاني قليلاً في تذكر ما كان حقيقيًا ومن أكون. وإذا كنتم تحسبون أن الأمر لا يسبب إرباكًا، فبإمكانكم تجربته في بعض الأحيان.

حصلت على وشم خاص بي. وكنت آمل ألا أُضطرّ أبدًا إلى وضع وشم يحمل اسم "نافيد جمالي".

الفصل التاسع عشر

الانتقال إلى موقف السيارات

ارتديت قميصًا ذا كمين طويلين في يوم تسليم كتيبات إجراءات التشغيل القياسية والتدريب على الطيران الخاصة بالبحرية. فآخر ما أريده هو أن يرى أوليغ وشم شيفرة مورس أثناء تسليمي إياه كتيبات مقصورة الطيران الخاصة بشركة نورثروب غرومان.

كان ذلك في أوائل شهر أبريل، أي بعد مرور شهرين منذ آخر اتصال قصير جرى بيننا، وقد بدا متوترًا على غير العادة. أحب أوليغ السيطرة على الأمور. أفهم ذلك. ولكنّ اقتراحي باستخدام موقع كريغزلست بدا أنه قد أثار قلقه أكثر مما توقعت. وقد أخبرت العميلين الفدراليين أنني أعتقد أنني قد أثرت فزعه تمامًا. بصدق، لم يكن موقع كريغزلست سوى وسيلة للوصول إليه سريعًا، ولكنه على ما يبدو قد فسر ذلك على أنه محاولة مني للإيقاع به.

أيًا كان ما يظنه، لم يبعده ذلك عن حزمة الكتيبات التي وعدته بها. وقد أقبل عليّ بفكرة جديدة.

فبدلاً من الالتقاء في مطعم أو مقهى كما اعتدنا أن نفعل، قال هذه المرة إنه سيترك سيارته في المدينة وسيستقل القطار إلى وستشستر. كان ذلك جيدًا بالنسبة إليّ. و لم أكترث بكيفية وصوله، وإنما بأنه قد وصل فقط. كان

المكتب الفدرالي قد أنجز فحصه الدقيق لكتيبات مقصورة الطيران الخاصة بشركة نورثروب غرومان، وسلمني العميلان المجلدات الزرقاء. وكنت أتوق بشدة للقيام بعملية التسليم التي طال انتظارها، لذا اقترحت على أوليغ أن ينزل في محطة مترو نورث الواقعة في هاستنغز أون هادسون، وأخبرته أنني سأقله من هناك بهدف توخي الحذر الشديد بشأن الطريقة التي سأسلمه بها الكتيبات.

فقال: "من الجيد دومًا توخي الحذر".

كنت قد استبدلت سيارة جيب Cherokee موديل العام 2008 بسيارة Acura RDX سوداء موديل العام 2007 التي كرهتها. وقد أدى قضائي ستة أشهر في قيادة سيارة Acura ذات أربعة سلندر إلى تعطشي للحصول على السيارة القوية ذات الأبواب الأربعة.

وفّرت محطة القطارات الجميلة مناظر مائية، ولكن القليل من الخصوصية. وبدلاً من إحضاري المجلدات الزرقاء الكبيرة معي في الجيب، قررت حفظها في مكان بعيد عن الأنظار، وجلب الروسي إلى هناك. وكنت أنوي أن أتركه يتفحص المجلدات، ثم سأسلمه قرصًا صلبًا محمولاً أسود اللون يحتوي على المادة نفسها، وسيكون من الأسهل العودة به إلى المدينة. وبالنسبة إلى مكان اللقاء، اخترت مستودع سيارات يقع على الضفة الشرقية لبحيرة هادسون، الواقعة على بعد دقيقتين بالسيارة من محطة القطارات. كنت على علم بوجود ذلك المكان لأنني كنت أوقف سياراتي هناك. فكرت في أن أوقف سيارة الكورفيت في داخله، وأترك المجلدات في صندوق السيارة، وأُقِل أوليغ من محطة القطارات في سيارة الجيب، ثم نتوجّه إلى مستودع السيارات؛ وهو موقف سيارات عملاق مشيد من الطوب ولا يشهد الكثير من الزحام، مما يجعله موقعًا خفيًا ومثاليًا لتسليم كل شيء.

سار الجزء الأول من خطتي بسلاسة شديدة. فقد التقينا في محطة القطار، وتوجّهنا إلى موقف السيارات، ودخلناه بسهولة، وشققت طريقي نحو سيارة الكوروفيت المتوقفة هناك.

أجل، ظهرت بعض العقبات؛ حرفيًا ومجازيًا. إذ بدأ كاشف الرادار بإصدار صفير، وكدت أقتل أوليغ بباب صندوق السيارة، أو هكذا ظننت.

ولكنّ عملية التسليم أُنجزت، و لم أسبّب له أي عاهة مستديمة في الدماغ. ولو أنّ أي شيء قد حدث، فهو أننا قد استعدنا الثقة التي كنا قد وطدناها بيننا.

قال لي أوليغ قبل أن أنزله مجددًا في محطة القطارات، وبعد أن وضع القرص الصلب المحمول في جيبه: "تعجبني الطريقة التي تتطور بها الأمور".

فقلت له: "وأنا أيضًا".

وأظن أنّنا كلينا كنا نعني ما قلناه.

لم تكن علاقتي بأوليغ مباشرة قط. وكان الشعور بالاندفاع الذي يتملكني يتبخر عندما لا أسمع منه لأسابيع أو شهور في بعض الأحيان. وأحيانًا، كان هذا الأمر يصيبني بالجنون. وقبل أن أدرك الأمر، كنت أوجّه شخصية رونالد ريغان القابعة بداخلي، مشددًا على حاجتي إلى السيطرة عليه. وأقسم إن الأميركيين وكارهي الشيوعية قد فهموا على الأقل نقطة واحدة بشكل صحيح؛ وهي أنك لن تحصل على أي شيء من الروس إذا كان كل ما ستفعله هو المراوغة. فالقوة والوضوح هما ما يفهمه هؤلاء القوم. وقد حرص أوليغ على العمل عليّ والإبقاء على تعاوني، و لم ينفكّ عن جعل علاقتنا كما لو أنها مباراة شطرنج. إذ لم يمانع في أن يكون لديه خصم قوي طالما أنه يشعر بأنه يسبقه بخطوة، و لم تصل المباراة إلى درجة إحراج الشاه.

إذًا، ما خطب المكتب الفدرالي؟ ولماذا العميلان مرتبكان للغاية؟ ربما أنا بحاجة إلى أن أكون واضحًا وصريحًا مع العميلين مثلما أنا مع أوليغ. أردت

بشكل ما أن أضرب بحذائي على الطاولة مثل نيكيتا خروتشوف، أو أن أقلّد ريغان بأفضل طريقة: "سنبدأ القصف خلال خمس دقائق". فبعد كل ذلك الوقت والجهد، بدأ صبري ينفد. لا بد أن تبدأ النتائج بالظهور، وسريعًا.

التقيت تيد وتيري في متنزه ريفرسايد، وكان الوقت باكرًا ولكن الجو حار بالفعل. كانا يرتديان ملابس غير رسمية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها تيد يضع شارته على حزامه. أكان هذا أسلوبه في توجيه رسالة "أنا المسيطر" لي؟

قلت شاكيًا: "ثمة الكثير من العمل الذي يتعين عليّ إنجازه. وقد وصل الأمر إلى درجة أنني أواجه مشكلة في تبريره. وهذا كله بلا مقابل. إنه عمل مكلف ويستهلك وقتًا. لا أمانع أن يتم استخدام الشركة إلى درجة ما، ولكن معالجة نصف دزينة من الكتب من أجل أوليغ مضيعة للمال. نسبة الربح تبلغ مئة وخمسين في المئة، ولكنها توازي حوالي مئة دولار. وقد بدأ العاملون في المكتب يتساءلون عن سبب قيامنا بذلك".

كانت تلك أسئلة مشروعة. ولكنّ الأسى الذي كان يتملكني كان أكثر عمقًا من العائد التافه على وقتي. وقد كنت على استعداد لبذل المزيد من الوقت والطاقة وأكثر؛ إذا تمكنّا من المضي في جني النتائج من التجسس. متى سنلقي بطعمٍ مغرٍ له؟ ومتى سيتلقف ذلك الطعم؟ كنت أتوق إلى أن أصبح عميلاً مزدوجًا ذا شأن أكبر، وليس لص كتب. كنت بحاجة إلى شيء حقيقي كي أمرره إليه، وكنت أجهل إلى متى سأظل قادرًا على جذب انتباهه. وقد أخبرت العميلين: "الأمر برمته يبدو تافهًا للغاية. وبالنسبة إلى ما أنجزناه، كان بوسعنا ترك الأمور على ما كانت عليه عندما كان والداي لا يزالان يتوليان الأمر". كنت أتطلع إلى خاتمة من نوعٍ ما، أو على الأقل إلى

نوعٍ من الإثارة. كنت على علم بمقولة جون لا كار الشهيرة من فيلم *البيت الروسي*، إذ يقول المتحدث هاري دي بلفري: "التجسس يعني الانتظار". ولكنّ كل ذلك الانتظار كان ينال مني.

تحدث العميلان بنبرة متفهمة، وقال تيد: "بالطبع. إنه عمل كثير، ونحن ندرك تمامًا الضغط الذي يفرضه هذا على عاتقك وعاتق الشركة. أنا ممتن لك للغاية بسبب ذلك. نحن ممتنون للغاية".

وواصل كلامه كما لو أنها المرة الأولى التي أسمع فيها ذلك: "تستغرق هذه الأمور بعض الوقت، وإذا تعجّلت النتائج فستثير شكوكهم، وسيتساءلون عن سبب رغبتك الشديدة في مساعدتهم. نحن نسير بالمعدل المعقول حسبما أرى، ومن المهم أن يكونوا هم من يقودون الأمر. سوف يحدث ذلك، فهو يحدث عادة".

شعرت بالامتنان لسماعي هذا الاعتراف؛ فقد بدا صادقًا. ولكن، في الوقت الذي أوصى فيه تيد بالصبر- مثلما فعل في عدد لا يحصى من المرات من قبل- كان صبري ينفد فعلاً.

لذا قلت: "انظر، أنا أتفهم ذلك. أودّ مساعدتكما أيها الرفيقان، وأفهم أن لا شيء يحدث على الفور. ولكن، ثمة حدود. ولا بد أن تحترما وقتي. فأنتما تتوقعان مني أن أكون هنا وأفعل هذا بصرف النظر عن الوقت الذي سيستغرقه الأمر. وأنا أريد أن أفعل ذلك، وأريد أن أنخرط في الأمر، ولكنني أشعر بأنه لا يتخذ المسار الذي توقعته".

ممّا كنت قد قرأته، كان لدي انطباع بأن حدة الأمور تتصاعد بين الولايات المتحدة والروس؛ فيما كنتُ أقف متفرجًا. قلت شارحًا: "يبدو الأمر وكأن الروس يواصلون العبث معنا. هل قرأتما تلك القصة في صحيفة ذي نيويورك تايمز؟". وكنت قد طبعتها، كانت بعنوان "زيارة إلى أحد

المصانع هي السبب في طرد ملحقين دبلوماسيين من روسيا" وقد كتبها سي. جي. تشايفرز. أعطيت تيري المقال المطبوع، وقلت:

"لقد طرد الروس للتو ملحقين دبلوماسيين أميركيين. فقد تمّ منحهما الإذن بالسفر إلى خارج موسكو، وما إن وصل الملحقان إلى حيث كانا متجهين، ألغى الروس إذن السفر، وقاموا بطردهما إلى خارج البلاد بزعم أنهما سافرا من دون تصريح".

ضحك كل من تيد وتيري، وقال تيد: "أولئك القوم أوغاد. وهم نادرًا ما يلتزمون بقواعد اللعب. فنحن عندما نتصرف، تكون لدينا كل أنواع القواعد التي يتعين علينا اتباعها، ولا نقوم بطردك ما لم نمسك بك متلبسًا بالفعل".

أردت توجيه العميلين إلى الجزء الخاص بي مجددًا. إذ بدا لي وكأنّنا كدنا أن ننسى ما دفعني إلى بدء كل هذا في المقام الأول. فقلت لهما مذكرًا: "أنا أفعل ذلك من أجل الانضمام إلى البحرية. وأيًا يكن ما أفعله برفقتكما أيها الرفيقان، فسببه رغبتي في الانضمام إلى البحرية. فأنا أريد أن نحقّق شيئًا يمكنهم النظر إليه والقول "لقد فعلها". هل تظنان أنه بوسعنا فعل ذلك؟ ربما حان الوقت كي نعاود العمل بنشاط".

في تلك اللحظة، ظهرت مروحيّتان هجوميتان تابعتان للمارينز في سماء هادسون تحلقان على خط واحد، وترافقهما مروحيتان من طراز هويز. كان صوت هدير الطائرات عاليًا للغاية، لدرجة أنه جعل كراسي المتنزه الحديدية تهتزّ. قال تيد: "أتعلم؟ الجيش مؤسسة رائعة. وبين الفينة والأخرى، يكون ما بوسعنا القيام به مدهشًا بحق".

"هل تظن أنه يمكنني تسريع عملية الالتحاق بالبحرية؟ إذ سيساعدني هذا على تبرير إنفاقي كل هذا الوقت والجهد".

بدا تيد هادئًا ومتحفظًا كما كان دومًا، وقال: "هذا ممكن. لنرَ ما يمكننا فعله".

وبينما كنت أنتظر، ركزت على النجاح الذي حققناه في شركة نورثروب غرومان والكتيبات الخاصة بمقصورة الطيران التي حصلنا عليها. كنت لا أزال متحمسًا لجعل مركز معلومات التقنية الدفاعي أمرًا واقعًا. ولكن، لا يمكنني فقط السير باتجاه نافذة في وزارة الدفاع والقول: "مرحبًا، أود الحصول على كافة المعلومات الفنية والعلمية العسكرية الخاصة بالجيش". كنت بحاجة إلى شخص يضمنني، وقد ناقشت الأمر مع تيد وتيري. كنت أعلم أن صلاحيات المكتب الفدرالي تضمن لي الوصول إلى ما أريده، وقد حدث ذلك.

إذ أخبرني تيري: "لقد ضغط رئيسنا فرانك، بكل قوة، وقد حصلنا على الموافقة".

وعلى الرغم من أنه سبق لي أن سمعت باسم فرانك، إلّا أنني لم أعرف الكثير عنه؛ عدا عن كونه المشرف على العميلين. ولكنني أُعجبت باستعداده لدعمنا. وبالنسبة إليّ، كان بمنزلة روبن ماسترز؛ الشخصية الخفية ذات النفوذ في فيلم *ماغنوم وبي. أي*.

باسم شركة *كتب وأبحاث*، وقّعت على عقد مكتوب أقوم بموجبه "بتوفير الاستشارة والخدمات البحثية لقسم المشتريات في مكتب التحقيقات الفدرالي في ما يتعلق بالمؤسسات الخاصة بمواضيع مثل إدارة "الكتالوج" والرقمنة، والمواضيع الأخرى ذات الصلة. والهدف الثانوي سيكون توفير خدمات شراء الكتب والمواد الأخرى".

الحديث هنا عن كم هائل من المواد!

أخبرت أوليغ منذ البداية أنّه يجب على الروس أن يدفعوا لي حوالي عشرة آلاف دولار مقابل التسجيل في مركز معلومات التقنية الدفاعي. إلا أن

المبلغ في الواقع بلغ ستة عشر ألفًا وثمانمئة دولار، وتم تسديده بواسطة شيك من قبل GSA، وهي إدارة الخدمات الحكومية الخاصة بالولايات المتحدة. وبسلوكي هذا الدرب، لم أكن مضطرًا إلى الاعتماد على تمويل من الشركة أو من حسابي المصرفي الخاص. ولم أكن مضطرًا أيضًا إلى انتظار أوليغ الذي يتأخر في السداد. وبقدر ما يعرف هو، إنه يدين لي بمقدار كبير من المال.

والآن، بات العقد بحوزتي. والأهم من ذلك، باتت معي مستندات تثبت لأوليغ أن لي حق الدخول عبر الإنترنت إلى مركز معلومات التقنية الدفاعي، حيث كان بانتظاري مخزن مدهش للوثائق. إذ كان هناك الكثير من المخططات والملاحظات والتقارير العادية، ولكن في الوقت نفسه كان هناك العديد من الملفات التي سيسيل لها لعاب الروس.

حذّرني تيد: "غير مسموح لك تحت أي ظرف كان أن تمنح الروس بيانات الدخول الخاصة بك إلى مركز معلومات التقنية الدفاعي". وظننت أن ذلك بديهي، فطمأنته بالقول إنني لن أفعل.

فكّرت بلا انقطاع بالطريقة التي يتعين عليّ أن أقدّم بها التفاصيل إلى أوليغ. وسألت نفسي ليلاً ونهارًا: إن كنت خائنًا حقيقيًا، فكيف أستطيع أن أقدم شيئًا كهذا؟ وأخيرًا، قررت بحذر شديد أن أركز على عدم الإمساك بي.

كانت لديّ معلومات وتصريح الدخول. وكانت لديّ رخصة من المكتب الفدرالي الذي سدد ثمن تذكرتي. وقد أجبت أوليغ بذكاء عندما طرح السؤال الذي لا مفر منه حول كيفية تجنبي انكشاف أمري. كنت أعرف بالضبط ما ينبغي لي فعله؛ إذ سأقوم بدفن طلبات الروسيّ ضمن حفنة من البحوث العادية، وسأستخدم تكتيك الإلهاء نفسه الذي استخدمناه لشراء

الشراب حين كنت في المدرسة الثانوية. سأمررها خلسة أمامهم، وسأخفي استفساراتي الشائنة على مرأى من الجميع.

قررت أن أخبر أوليغ بأنه يتعين عليّ استعادة الوثائق بأسلوب محدد، وزمان ومكان محددين تجنبًا لانكشاف أمري. سيبدو هذا منطقيًا، وسيحميني من أيّ إصرار من قبله على أن أسلّمه كميات ضخمة من البيانات في وقت ما، أو أن أسلّمه اسم المستخدم وكلمة المرور الخاصين بي.

ناقشت كل هذا مع تيد وتيري اللذين نقلا الأمر إلى رؤسائهما. كان هناك شعور حقيقي بالإثارة يتملكني. فأخيرًا، كنا نبني خدعة شديدة المكر للإمساك بأشخاص سيئين بحق.

كان من المدهش بالنسبة إليّ تمكّني من الوصول إلى كمّية كبيرة من البيانات؛ فهناك كنز هائل من البحوث التي تمولها الحكومة. وكانت بعض تلك الدراسات قد استغرقت سنوات لإنجازها بميزانية تمويل من سبعة أرقام. وقد تُسبِّب البيانات التي تحتوي عليها خطرًا بالغًا على أمن الولايات المتحدة. لذا، لا شيء من هذا يجب أن يقع تحت أعين الأعداء. وبفضل إمكانية الوصول الجديدة، كل شيء- حتى أصغر التفاصيل التقنية- بدا قويًا بشكل ما.

في التاسع والعشرين من مايو من العام 2008، كان لديّ موعد عند الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا في أميتيفيل في لونغ آيلند مع ديفيد هاريس. وتمامًا مثل جيف جونز، كان ديفيد هاريس قائدًا في البحرية. كان هاريس هو الضابط المسؤول عن ضباط الاحتياط الملتحقين بالاستخبارات في منطقة نيو إنغلاند. وضمن توزيع غريب للجغرافيا العسكرية، شملت تلك المنطقة ولاية نيويورك. كان يتعين عليّ أن أذكّر تيد بخططي للانضمام إلى البحرية. ولكنه أتى إليّ ورتّب لهذا اللقاء.

قبل ساعة من وصولي إلى المكتب الواقع في الطابق الثاني، كان تيد وتيري متواجدين في المكتب نفسه مسبقًا، وكانا قد غادرا بالفعل قبل وصولي. وعندما ظهرت، كان أول ما قاله لي القائد في البحرية هو: "إذًا، لقد حضر ذانك الرجلان ذوَا البذلتين الرسميّتين إلى هنا قبلك قائلين: *لا يمكننا أن نطلعك على ما يقوم به، لا يمكننا أن نخبرك أي شيء. ولكن، يمكننا القول إنه شخص شديد الذكاء والدهاء*. وها أنا أجلس هنا وأفكر في سرّي: الآن، ما الذي يفترض بي فهمه من ذلك؟".

التزمت الصمت؛ إذ لم أكن مضطرًا إلى قول أي شيء، فيما واصل هاريس الكلام: "ما أنا إلّا بحار بسيط قضى معظم حياته المهنية في مطاردة الغواصات الصينية والروسية. الأمر برمته مثير للاهتمام، أليس كذلك؟".

فأومأت موافقًا على ذلك.

لا يمكن أن يكون القائدان اللذان التقيتهما أكثر اختلافًا مما هما عليه فعلاً؛ فبقدر ما كان القائد جونز قليل الأهمية كان القائد هاريس ذائع الصيت. حتى إنهما ارتديا ملابس مختلفة. فقد ارتدى هاريس زيّ البحرية الرسمي كاكي اللون، بينما حضر جونز للقائنا مرتديًا بذلة رمادية ضيقة.

أثناء إصغائي إلى القائد، كان لديّ شعور بأن الأسلوب الذي اتّبعه غريب بالنسبة إلى مسؤول رفيع المستوى كي يبدأ به اجتماعًا هامًّا. قال القائد كلامه بطريقة تشبه تلاوة الحقائق، و لم يتبعه بأي أسئلة أو يسعى إلى المزيد من الإيضاحات، وإنما وصف فقط حديثه مع تيد وتيري وترك الأمر معلقًا، وكأنه يكرر تعليقًا مزعجًا كان قد سمعه في صبيحة ذلك اليوم في ستاربكس؛ على الرغم من عجزي عن تخيل وجود هاريس في مقهى ستاربكس. كان بكل تأكيد نوع الشخص الذي يجيد التعامل مع فوضى سطح السفينة.

حتى الآن لم يُطلب مني قول أي شيء. وفكّرت في سري وأنا أشعر بالاستياء في أن الأمر يبدو أشبه بالجلوس في مكتب والاستماع إلى شخص ما يتحدث إليّ، أكثر من كونه لقاءً مع قائد رفيع المستوى من البحرية.

أعلم أنّ تيد وتيري قد حاولا تقديم المساعدة، ولكنهما كانا متحفظين بشدة في حديثهما مع القائد؛ ممّا جعل زيارتهما تثير المزيد من الأسئلة أكثر من تلك التي أجابت عنها، كما أثارت الشبهات حولي فقط. كنت على ثقة بأن هاريس قد ظن بعد لقائه إياهما أن الشخص الذي سيقابله مجرم من نوع ما. وربما ظنّ أنني أحد الأشخاص الذين يسعون للخروج من ورطاتهم ويأملون في عقد صفقة. وتمنيت أن يكون تيد وتيري قد أوضحا له أنني لستُ واقعًا في أي مشاكل، وأن هناك عملية قائمة ولا بدّ من أن أنجزها بنفسي، وأنني من بادرت بالتواصل مع أوليغ والمكتب الفدرالي، وأن السعي للانضمام إلى البحرية كان أمرًا بدأته بنفسي. يبدو أنني قد أهدرت رحلة إلى لونغ آيلند هباءً.

ولكن حينئذٍ، وعلى نحو مفاجئ، نحّى هاريس جانبًا المقدمة الخاصة بلقائه العميلين، وبدأ بالتحدث معي قائلاً: "أرى أنك أحد أولئك الأشخاص الذين ينكبون على القراءة بنهم في مجالات كثيرة. فأنت تحب الاسترخاء واستيعاب أكبر قدر ممكن في ما يتعلق بأي موضوع كان، كما أنك شخص يريد معرفة السبب الرئيس للأشياء. هل أنا محق؟".

وافقته على ما قاله. كنت أحاول توقّع ما قد يفترضه القائد بشأن شخص ما يسمى نافيد جمالي مهتم بالانضمام إلى رُتب الاستخبارات البحرية. ونظرًا إلى فترة الإعداد الغريبة واسمي شرق الأوسطي، راهنت على أنه ظنّ أن لي علاقة بالإرهاب. وأعتقد أنني قد تمكنت من تبديد أي من تلك الشكوك. وأيًا كانت التصورات المسبقة التي لديه، أعتقد أنه قد تفاجأ وشعر بالابتهاج لدى سماعه أنني قد قرأت وتحدثت بشكل جيد في كل من

الأحداث العسكرية والعالمية. والأهم من كل ذلك أنه بعد الأسئلة المباشرة التي طرحها عليّ، أدرك أنه ليست لدي أي صلات جنائية أو إرهابية. وبقدر ما يمكنني القول، لقد بدا مستمتعًا بنقاشنا.

لا يعني ذلك أنني قد نسيت الدقائق الغريبة الأولى. لذا، حالما خرجت من هناك اتصلت بتيد وقلت له: "يا رجل، يجدر بك الكف عن ارتداء البذلات والتحدث إلى الأشخاص في البحرية وقول كلام مبهم عما أفعله لصالحك. لقد بدأوا يظنون أنني تاجر مخدرات أو مجرم أو إرهابي. إذا كانت هذه هي المساعدة التي ستقدمها لي، فأنا في غنى عنها".

تركني تيد أواصل حديثي مثلما يفعل عادة، وبعد فترة من الصمت قال: "أفهم، ولكنْ لا يمكنني أن أعدك بأي شيء".

في أحد أيام السبت المشمسة في أواخر شهر يوليو، تمّ استدعائي إلى قاعدة فورد هاملتون؛ وهي قاعدة مشتركة بين الجيش والبحرية، وتقع على واجهة بروكلين البحرية، وذلك من أجل إجراء مقابلة مع مجلس الاختيار الإقليمي. قابلت جولي في موقف السيارات الخاص بالقاعدة، وقادتني إلى منطقة الانتظار حيث كان ستة شبان آخرون يجلسون وقد بدا عليهم التوتر. كان أولئك هم الأشخاص الآخرين الذين بلغوا التصفيات النهائية للالتحاق بالاستخبارات من منطقة نيويورك. كان لديّ منافسون مثيرون للإعجاب؛ أناس حققوا إنجازات ملموسة. فهناك محام، واثنان يمتلكان خلفية عن تطبيق القانون، واثنان يحملان رتبة مارشال جوي، وأحدهما يحمل درجة في القانون. وكان هناك شخص يعمل من أجل الحصول على الدكتوراه. وقد التحق العديد منهم سابقًا بالخدمة في البحرية.

وعلى الرغم من جدية المناسبة، كان قد طُلِب منا جميعًا ألّا نرتدي بذلات وربطات عنق أو أزياء رسمية. وكان هناك ملازم واحد فقط- بدا

على معرفة بجولي- فاته التنبيه الخاص بارتداء زيّ غير رسمي. إذ كان يرتدي بذلة ضيقة خاصة بالبحرية كاكية اللون، وقد علّق على صدره عدة صفوف من الأشرطة. وقد تحدّثت إليه جولي بصوت عالٍ بما يكفي كي يسمعها بقيتنا: "أخبرتك أنهم لا يرتدون الزيّ الرسميّ هنا".

جلست بجوار مرشح يُدعى توماس. ومن لمحة سريعة إليه، يمكنني القول إننا- أنا وهو- الوحيدان في غرفة الانتظار من عرقية أخرى؛ فقد كان هنديًا أميركيًا. وقد نشأت بيننا رابطة على الفور.

"إذًا، أنت هنا من أجل إجراء مقابلة للحصول على البطاقة الخضراء أيضًا؟".

فردّ من دون أدنى تردد: "لا. أنا هنا من أجل اختبار التمثيل لدور الإرهابي رقم ثلاثة في مسلسل *24*. هل هذا هو المكان الصحيح؟".

"لا أدري. ولكن، إذا شوهدنا ونحن نتبادل الأحاديث لدقيقتين أخريين، فقد نُعتبر متآمرين، وحينها سيحق للملازم الواقف هناك قانونيًا أن يقتلنا".

وهكذا، ضحكنا وتصافحنا. كان توماس في مثل عمري، وقد تزوج حديثًا ولديه ابنة صغيرة. بدأ حياته المهنية في قسم شرطة نيويورك قبل أن يصبح برتبة مارشال جوي فدرالي. ومثلي بالضبط، بدا أنه لا يتأثر بالإهانة. وقد وطّدت الدقائق الخمس عشرة التي قضيناها في المزاح في ذلك اليوم الأسس لصداقة ستدوم بيننا لسنوات.

واحدًا تلو الآخر، استُدعينا جميعًا نحن السبعة إلى حجرة المؤتمرات، ودُعينا للجلوس إلى طاولة طويلة مصنوعة من خشب البلوط وتطلّ على الشاطئ. وفي المرة الأخيرة التي جلست فيها إلى طاولة كهذه- من أجل مقابلتي مع المجلس في بوسطن- خسرت أخيرًا لصالح متقدمين ذوي سير ذاتية أفضل؛ فالعديدون منهم كانوا يمتلكون خبرة عملية قوية. ومجددًا، كنت

أواجه منافسين يعتمد عليهم بشكل جدي. ولكنّني الآن أكبر في العمر، وأدير شركة، وأعمل كعميل مزدوج حقيقي أيضًا؛ حتى إذا كنا مضطرين إلى التزام جانب الحذر عند الكشف عن بعض التفاصيل.

لم يطرح رئيس مجلس إدارة الاختيار الإقليمي- الكابتن غاري غولومب- الكثير من الأسئلة التقنية عليّ. إذ لم يكن راغبًا في معرفة ما هي السلوقية، ولم يعرض عليّ أي رسوم لطائرات وهي تنعطف، بل بدا مهتمًا بالحديث عن الأحداث الجارية. سألني عن رأيي بشأن علاقات الولايات المتحدة مع إيران، وانخرطنا في نقاش مطول حول عنصر واحد في عقيدة بوش؛ وهو فكرة أن الأمة التي توفر ملاذًا للإرهابيين مذنبة مثل الإرهابيين أنفسهم، ويجب تحميلها المسؤولية بالمقدار نفسه عندما يتعلق الأمر برد عسكري من جانب الولايات المتحدة.

لم تكن عقيدة بوش من وضع جورج دبليو بوش فعلاً، وقد أثارت جدالات مماثلة أيام "أكتوبر الأحمر" إبان الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي ووكلائه من الدول. ولكنّ ذلك كان مفهومًا أساسيًا في مساعي الولايات المتحدة لمكافحة التهديدات غير المتماثلة منذ العام 2001- سياسة الإنكار، وأسلحة الدمار الشامل، وعلاقة صدام حسين بهجمات سبتمبر- ولا يزال الأمر كذلك حتى الآن. يظهر الإرهابيون لأن الدول تسمح لهم بذلك؛ وذلك من جرّاء عدم محاولتها القضاء على المتشددين وبتوفيرها المواد المساعدة لهم.

أحب التحدث عن مواضيع كهذه، وقد أتت نفعها. وكما توقعت، لم يسألني المجلس عن أي شيء يخص أنشطتي مع مكتب التحقيقات الفدرالي أو الروس إطلاقًا.

وبعد انتهاء اللقاء، لا بد أن جولي قد تحدثت إلى الكابتن غولومب أو شخص آخر في اللجنة؛ لأنها أقبلت نحوي مسرعة ومعها تقرير مفصل.

وقالت: "كان أعضاء المجلس معجبين بك للغاية. وقد قرروا على الفور إرسال ملفك إلى ميلنغتون". ميلنغتون في تينيسي هي حيث يقع مقـــر إدارة الموارد البشرية، وحيث يتمّ اتخاذ القرارات النهائية.

وهكذا- كما أخبرتني جولي- من بين المرشحين في هذه الجولة كافـــة، قرروا تمرير اسمَي اثنين من المرشحين فقط، توماس وأنا.

تملكتني الإثارة. فما زلت طرفًا في اللعبة.

الفصل العشرون

معاناة أوليغ

كان صبيحة يوم الأحد ذاك شديد الرطوبة. إذ كان أحد تلك الأيام التي تتصبب فيها عرقًا على الفور؛ ما إن تخرج من أسفل الدُش. ما كانت وحدة التكييف في شقتنا التي تعود إلى ما قبل الحرب لتصمد. وما زاد الأمر سوءًا هو شعوري بحكة في الحلق. سوف أصاب بالبرد. ولكنني تناولت السودوإفدرين، واتصلت بكل من تيد وتيري، وأعلمتهما بأنني في طريقي إلى لونغ آيلند. أخبرت تيري عبر الهاتف: "لا أشعر بأنني على ما يرام، ولكنني ذاهب على أي حال".

إذ ليست هناك إجازات مرضية مدفوعة الأجر في وظيفة التجسس.

كان ذلك في الثاني والعشرين من يونيو؛ ثاني أطول أيام السنة. وكان من المقرر أن ألتقي أوليغ عند الظهيرة. هذه المرة، لم يمرر لي بطاقة خلسة، وإنما أعطاني قائمة طعام. وفي الواقع، لقد فضّلت ذلك. إذ كان بمقدوري التفكير بشكل مسبق في الطعام الذي سأطلبه.

كنا بصدد التوجّه إلى مطعم فنسنت كلام الواقع في كارل بليس. وكان المطعم- حسبما عرفت من قائمة المأكولات- معروفاً بالمحار الشهي المخبوز وصلصة طماطم "مشهورة على مستوى العالم". تعود جذور المكان إلى مطعم

عائلي تمّ افتتاحه في منطقة ليتل إيتالي في مانهاتن في العام 1904. لا بد أنه أفضل من المطاعم التي يختارها أوليغ عادة؛ تلك الشبيهة بيتزيريا أونو. وفكّرت في أنه في مطعم فنسنت يمكنهم صبّ تلك الصلصة الشهيرة على أي شيء.

كانت لديّ عدة مسائل ملحة يتعين عليّ أن أناقشها مع أوليغ، وكانت قد استجدّت منذ آخر لقاء بيننا في أبريل الماضي. أردت إطلاعه على آخر المستجدات في ما يتعلق بمقابلتي مع القائد جيفري جونز من بعثة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة، وكنت أدرك أنه سيُفاجأ بذلك.

سألتُ تيد وتيري إذا كان بمقدوري إبراز بطاقة جيفري لأوليغ، فأخبراني أنه لا بأس في ذلك. ولكن، خلال معظم ذلك اليوم الحار من شهر يونيو، كنت متحمسًا لكي أُري الروسي ما يدور داخل أروقة مركز معلومات التقنية الدفاعي، وكي أوضّح له ما يمكنني الحصول عليه من المواد. كنت مدركًا أن دخولنا المركز لم يكن أفضل تحرك قمنا به فحسب، بل كان التحرك الوحيد. كنت أتوق إلى أرجحة قاعدة البيانات أمام ناظرَي أوليغ ولرؤية كيفية ردّه على ذلك.

قررت ركوب سيارة الجيب السوداء الكبيرة. إذ كانت سيارة الكورفيت توقعني في المشاكل وتخرجني منها سريعًا. ولكنها كانت تبدو غير سعيدة لوقوفها من دون حراك. وحتى في أوقات التسكع، بدت تلك السيارة كطبلة ذات صوت جهير. كانت سيارة الكورفيت سيارة رياضية، وقد لاحظ الناس ذلك. وعلى الرغم من حجمها وخصائصها، علمتُ أن الجيب ستلفت الانتباه بشكل أقل في موقف سيارات في أحد مراكز التسوق الواقعة في ضاحية لونغ آيلند؛ ستلفت انتباهًا أقل من سيارة الكورفيت ذات قدرات المناورة العالية ومنخفضة الارتفاع، مع عمود الحدبات الصلب الخاص بها وإطفاء كامل أنوارها.

وأخذت أيضًا حاسوبي المحمول، وهو من ماركة لينوفو تي 60 الذي أُنتج من قبل الشركة الصينية التي استحوذت على قسم الحواسيب الشخصية الخاص بشركة آي بي أم. كما أخذت معي بطاقة هوائية من الجيل الثالث وشاحن بطاريات في حال احتاج الحاسوب المحمول إلى شحن. والأهم من كل ذلك، كانت بحوزتي كومة ضخمة من الوثائق من أجل أوليغ.

كان ذلك أحد الدروس التي تعلمتها خلال المدة التي أمضيتها في كل من الجامعة وعالم الأعمال. إذ يسعى الناس خلف بعض أشياء مثل الأوراق والتقارير والمطبوعات والوثائق والشهادات والتوجيهات؛ كل شيء تقريبًا. والأمر نفسه ينطبق على أوليغ وعلى المكتب الفدرالي أيضًا. وقد راق لي أن أغرقهم في الأوراق، فقد جعلهم ذلك يشعرون بشكل أفضل. وبشكل ما، أضفت كل تلك الوثائق إلى الأمور المزيد من الجدية. فعندما يغادر الناس اجتماعًا ما حاملين شيئًا ما في أيديهم، يكون بمقدورهم استعراضه لاحقًا بهدوء. ويمكنهم التفكير في ذكرياقم السيئة أكثر من مرة، وبوسعهم شرح الأمور لرؤسائهم وزملائهم على حد سواء. وسيكون بحوزهم دليل فعلي على وجودهم *هناك*.

سلكت جسر ثروغز نيك متّجهًا إلى طريق كروس آيلند السريعة، ثم إلى طريق لونغ آيلند السريعة أيضًا، وصولاً إلى شمال الولاية. كان هذا أفضل وأسرع طريق أعرفه نحو لونغ آيلند من مانهاتن العليا؛ على الرغم من الازدحام الذي يشهده حتى في صبيحة أيام الأحد. كان المطعم يقع بالضبط قبالة طريق أولد كانتري من جهة سوق روزيفلت فيلد، في قطاع خاص بمتاجر مستلزمات أطباق الأقمار الاصطناعية، بين متجري تويز أر أس وبيتيكو. كنا بعيدين جدًا عن ليتل إيتالي.

أوقفت السيارة في موقف السيارات، وضغطت على زر *التسجيل* في الساعة، ثم ترجلت من الجيب وتوجهت إلى داخل المطعم. كانت الإضاءة

خافتة في الداخل، وكان مكيف الهواء يصدر صوت همهمة. كان أوليغ ينتظرني بجوار المطعم، فسألني: "مرحبًا، كيف حالك؟ هل المكان جيد؟".

"هذا المكان يبدو رائعًا". وأكملت باقي الجملة في ذهني: *بالمقارنة مع سلسلة المطاعم السيئة التي كنت تصطحبني إليها.*

سألني: "أتود الجلوس؟".

"بالطبع".

أجلستنا المضيفة في منتصف حجرة الطعام. كان المكان ممتلئًا إلى ثلثيه حسبما يمكنني القول، وهو حشد لا بأس به بالنسبة إلى وقت الظهيرة من يوم الأحد.

جلبت لنا النادلة سلة من خبز الفوكاشيا الإيطالي، وصبّت بعضًا من زيت الزيتون على طبق الخبز. ثم طلبنا الغداء، طبق باذنجان مع جبن البارما لي، وسمك الكلماري المقليّ لأوليغ. كان خبز الفوكاشيا شهيًا على نحو مدهش، وقد باشر أوليغ بطرح أسئلة جعلتني أعتقد أنه ربما يُشغِّل مسجلاً خاصًا به.

إذ قال: "أخبرني، ما الذي تعرض القيام به؟".

فأجبته: "ماذا تريد مني أن أفعل؟ أنت تريد مني أن آتيك بأغراض، أليس كذلك؟ أغراض تثير اهتمامك".

فسألني: "ما نوع الأغراض التي يمكنك الحصول عليها ؟".

فأجبت بتحفظ: "الأمر يعتمد على ما تريده". بدا تبادل الحديث على هذا النحو تدريبًا أكثر من كونه محادثة. هل كان يحاول دفعي إلى توريط نفسي من دون أن أحصل على أي شيء في المقابل؟ بدأت أشعر بعدم الارتياح.

راقبت وجه أوليغ بتأنٍّ، محاولاً الحصول على قراءة ما، وأوليت عينَي الروسي عناية خاصة. فيمَ كان يفكر؟ وبينما كنت أحدق إليه، لم أتمكن من

منع نفسي من تذكر ذاك اليوم من العام 2001 عندما قال الرئيس جورج دبليو بوش إنه قد نظر إلى عينَي الرئيس الروسي فلاديمير بوتين "واستطاع الشعور بروحه". قال بوش إنه وجد روحه "صادقة للغاية وجديرة بالثقة".

لا يمكنني القول إن هذا ما رأيته في عينَي أوليغ. وقد تحيزت أكثر إلى حاكم ولاية أريزونا السيناتور جون ماكين الذي رد على ملاحظة بوش بسخرية قائلاً: "لقد نظرت إلى عينَي السيد بوتين، فلم أرَ إلا ثلاثة أشياء، كي وجي وبي".

قلت لأوليغ: "يمكنني أن أريك نوع المواد التي يحق لي الاطلاع عليها".

لجنة أمن الدولة، أو خدمة الاستخبارات الخارجية، أو مديرية الاستخبارات الرئيسة، لم تكن لذلك أهمية. فهذا هو اليوم الذي سأخدع فيه أوليغ. أخرجت كومة الوثائق، وأريته نسخة من ملفي في مركز معلومات التقنية الدفاعي. وأريته صورتين لمحرك البحث الخاص بالمركز، وقائمة بأسماء المكتبات العديدة التي يحق للمركز دخولها. أبقيت صوتي منخفضًا؛ إذ لم يكن مطعم عائلي مزدحم المكان الأمثل لتقديم عروض بيع كاملة لبيانات عسكرية شديدة السرية. ولكنني لم أمانع منحه قليلاً من المذاق، وأملت أن يندهش بالقدر الذي يجعله يدرك قيمتها.

أخبرته: "أود المضي قدمًا، ولكن ثمة بعض الأمور التي يتعين علينا أن نحلها أوّلاً". كان الإمساك بزمام الأمور أفضل وسيلة لإخفاء قلقي. "ففي البداية، يجب عليك أن تدفع لي؛ فأنت ما زلت تدين لي بمقدار من المال. وإذا كنا بصدد المضي قدمًا، إذًا يجب عليك تسوية الأمر".

نظر إليّ بوجه خالٍ من التعابير. هل كان يشعر بالارتباك حقًا أم يحاول التفاوض فقط؟ كان التفاوض هو ما أراهن عليه، وقد أغضبني ذلك.

قلت بصرامة ومن دون أن أمنحه الفرصة لطرح سؤال آخر: "الأمر ينطوي على مخاطرة كبيرة، لذا أحتاج إلى التوصل إلى صيغة تفاهم. نحتاج إلى خطة عمل. لا بد أن يعود الأمر عليّ بفائدة ما. لذا، يجب عليك تسديد مصاريف التسجيل في المركز؛ فقد بدأت أشعر بالعجز".

كنت على علم بأن المكتب الفدرالي سيعيد لي ما صرفته من مال في نهاية المطاف. ولكنّ أوليغ لم يكن على علم بذلك. وبقدر ما كان شخصًا حقيرًا، فسيتفهّم تصرّفي بحقارة وسيفترض أنني لا أرغب في دفع أموال لصالح روسيا الفدرالية. فهم قوة شبه عظمى، وما أنا إلا شاب يافع من نيويورك.

قال: "يمكنني أن أسدد لك بعض المال الآن. ولكن، أود أن أعرف بشكل أفضل عن..."

فقاطعت كلامه بالقول: "لا معرفة بشكل أفضل قبل تنفيذ اتفاقنا. فأنا أعرّض نفسي للخطر، وكان بيننا تفاهم منذ البداية. أودّ أن يتم تعويضي عن وقتي. وإذا أردت المضي قدمًا، فلتعلم أنني لن أنخرط في علاقة يتعين عليّ فيها في كل مرة أقابلك أن أناقش ما إذا كنت ستدفع لي أم لا".

بدوت غاضبًا، وكانت تلك نيّتي. ولكنّ أوليغ لم يتراجع.

فقد قال: "عليك أن تتفهم. نحن نريد أن ننجز عملاً معك، ولكن يتعيّن عليّ أن أرى نوع الأشياء التي يمكننا أن نتوقعها. أخبرني أولاً بما تعرض علينا القيام به لصالحنا". ثم ناولني إيصالاً وتابع: "وسيتعين عليك التوقيع على هذا الإيصال".

أغضبني ذلك أكثر. كانت هناك أوقات أحرص فيها على التظاهر بالغضب الشديد، ولكن ليس هذه المرة. هل يُعقل أن يكون جادًا؟!

فأخبرته بصوت أعلى مما قصدت: "لن أوقّع على أيّ إيصالات لعينة. أتريد مني التوقيع على إيصال يثبت أنني أقوم بهذا!؟ هذه خيانة. سيُزجّ بي في السجن لبقية حياتي إن اكتشف أحد ما أنني أقوم بعمل كهذا. كيف لي

أن أتأكد من هويتك حتى؟ كيف لي أن أعرف أنك لست شرطيًا؟ كيف لي أن أعرف أنك لا تعمل لحساب مكتب التحقيقات الفدرالي؟".

أدركت خطئي ما إن انسلت الكلمات من بين شفتي. *يـا لحمـاقتي!* ولكنني لم أمنحه الفرصة للتركيز على ما قلته، إذ تابعت: "يبدو لي وكأنـك تحاول الإيقاع بـي". وانتهى كلامي عند هذا الحد.

عندها، نظر حوله بتوتر؛ ليتأكد إن كان انفجاري غضبًا قد جذب أي انتباه غير مرغوب فيه. كان جليًا أنه تمنّى لو أنني لم أتحدث بهذه الطريقـة في مكان عام كهذا. وكان محقًا في ما يخص هذا الأمر. احتجت إلى الهـدوء، وظننت أنه قد يكون من الأفضل أن أخفض من حرارة الجدال، لا سيما من طرفي. احتجت إلى دقيقة كي ألملم شتات نفسي وأفكر. سمّوها مماطلـة إن شئتم، فأحيانًا تكون المماطلة أمرًا جيدًا. في نهاية المطاف، كان الهدف مـن هذا اللقاء عرض ما يضمّه مركز معلومات التقنية الـدفاعي علـى أوليـغ، ومباشرة العمل على قاعدة البيانات العسكرية الفدرالية. ومهما كان ما تلفّظ به من كلام استفزازي، لم أرد أن أعرقل علاقتنا. لذا، باغتّه برمية مقوسة.

فقد قلت له: "أرِني هويتك".

بدا على أوليغ التردد.

قلت: "أود رؤية هويتك التي تثبت أنك تعمل في الأمم المتحدة. أود أن أطمئن".

عندها، تنهّد بصوت عالٍ، وابتسم كرجلٍ رأى أول خيط للنور في غابة كثيفة الأشجار ومظلمة. كان ذلك طلبًا بوسعه تلبيته. فتح محفظته وأخـرج بطاقتين مغلفتين بالنايلون. قال: "بالطبع، بالطبع. هذه بطاقة العمل الخاصـة بـي في الأمم المتحدة. وهذه بطاقة إقامتي".

نظرت إلى البطاقتين التعريفيّتين. بدتا لي حقيقيـتين؛ مثلمـا توقعـت

بالضبط. لو كان ما يقوله كذبًا، لعرف المكتب الفدرالي بذلك. ولكنني الآن قللت من حدة التوتر، وربما أزلته للحظة. أرجعت البطاقتين إلى أوليغ.

كان الإحساس بالمرض يثقل عليّ بحق؛ إذ كان الاحتقـــان في حلقـــي يزداد، وشعرت أنني مصاب بالحمى، فقلت: "لا بد أن أذهب إلى المرحاض".

نهضت من حيث أجلس إلى الطاولة، وسرت صوب حمـــام الرجـــال. وعندما انتهيت من قضاء حاجتي، ذهبت إلى الحوض وشرعت في رش المياه على وجهي. وبينما كنت أنشّف وجهي، دخل رجل نحيف. لم ينطق بكلمة، لذا لم أسمع أي لكنة. لكنه بكل تأكيد بدا لي روسيًا. توقّف الرجل في طريقه إلى إحدى حجيرات المراحيض، ثم استدار وحدّق إليّ لعدة ثوانٍ. هل كنت فزعًا؟ لماذا شعرتُ وكأنّ شخصًا ما يتتبعني؟ لعلّي كنت فزعًا بالفعل. ومـــن دون أن آتي بأي رد فعل، عدت أدراجي إلى الطاولة، وجلست برفقة أوليغ. كانت الأطباق التي طلبناها قد وصلت.

أخبرته: "عندما ننتهي من تناول الغداء، سنذهب إلى الخارج، وسأريك بعض الأشياء التي بحوزتي على الحاسوب المحمول".

تناولنا الطعام في صمت. وعلى الرغم من أن الطعام كان جيدًا، إلا أنّنا كلينا أردنا أن ينتهي الطعام بأسرع وقت ممكن. أنهى أوليغ طبقه أوّلاً ونهض استعدادًا للمغادرة، فوضعت الشوكة وتبعته. وفي طريقنا إلى المخرج، نـــاول النادلة عدة أوراق نقدية مطوية، لم أتبيّن كم يبلغ مقدارها، وقال وهو يسرع الخطى: "هذا سيغطي الفاتورة". سرنا معًا في الحر القائظ لضاحية لونغ آيلند متّجهين إلى سيارتي الجيب الأكثر سخونة. وما إن صعد إلى داخلـــها حـــتى جعلت مكيف الهواء يعمل بكامل طاقته، وقدت السيارة إلى خارج موقـــف السيارات بحثًا عن مكان هادئ حيث يمكننا التحدث. لم تغيّـــر الأحـــداث المؤسفة التي وقعت في المطعم أي شيء، فقد كنت لا أزال متحمسًا لكي أريه ما بوسعنا فعله معًا؛ في ما يخص مركز معلومات التقنية الدفاعي.

الفصل الحادي والعشرون

القرص الصلب المحمول

سألني أوليغ: "لَمَ لا نذهب إلى داخل موقف السيارات؟".

كان موقف السيارات على جانب السوق من طريق أولد كانتري. وبعد أن أوقفت سيارة الجيب أمام المدخل، قال أوليغ: "قُد السيارة إلى الدور الثاني". ومن هناك، وجّهني إلى بقعة فارغة تبعد حوالي ثلث الطريق أسفل الصف الأيسر، وقال: "توقف هنا".

اختلست النظر عن يساري ويميني ومن خلفي مثلما تعلمت؛ كي أتأكد فحسب أننا كنا بمفردنا. لاحظت سيارة من طراز بويك ليسابر ذهبية اللون تقف إلى جوارنا، ولم يكن ثمة أحد آخر في الأنحاء.

قلت لأوليغ بينما كنت أطفئ محرك السيارة: "دعني أشغل الحاسوب. لا بد أن تعمل البطاقة اللاسلكية بشكل جيد هنا في الأعلى. ما أود فعله هو أن أريك كل ما هو متاح عبر مركز معلومات التقنية الدفاعي".

حينها فقط، صعد شرطيّ من حراس المركز التجاري المنحدر متجهًا نحونا. وبسبب نشأتي في الضواحي الأميركية، كنت أعرف أنه لا ينبغي لي القلق من حرّاس المراكز التجارية. إذ ربما هم يرتدون أزياء تبدو رسمية، وربما يقودون سيارات تبدو مثل الكروزر، ولكنّ شارات القصدير المربعة التي يحملونها لا تحمل

أي صفة قانونية. لم يكن بوسع شرطيّ المركز التجاري فعل أي شيء.

لستُ واثقًا مما إذا كان لديهم حرّاس مراكز تجارية في ضواحي موسكو إبان حقبة الاتحاد السوفييتي عندما كان أوليغ مراهقًا، ولكنه بدا فزعًا قليلاً عندما تجوّل الشرطي في الأنحاء في سيارته من طراز شيفروليه كافاليار وهو ينير مصابيحها الأمامية. همس لي أوليغ: "لننتظر فحسب".

أقفلت غطاء حاسوبي المحمول و لم آتِ بأي حركة. قاد الشرطيّ سيارته بسلاسة متجاوزًا إيانا، فهمهمت بينما كنت أفتح الحاسوب مجددًا: "أحمق".

فقال أوليغ وهو يمدّ يده نحوي: "بالمناسبة، لقد جلبت لك هذه". وأعطاني القرص المحمول البلاستيكي الأسود الذي كنت قد أعطيته إياه في أبريل الماضي؛ ذاك القرص الذي احتوى على كتيبات مقصورة الطيران من شركة نورثروب غرومان.

لم أتبين على وجه الدقة ما الذي دفعه إلى إعادة قرص محمول لا تزيد قيمته على عشرين دولارًا. ولكنني أخذته منه ووضعته في حامل الأكواب بجوار ذراع نقل السرعة وقلت: "شكرًا"، قبل أن أتحوّل مجددًا نحو العرض التوضيحي لمركز معلومات التقنية الدفاعي على حاسوبي.

قلت لأوليغ وأنا أنصب كشك المبيعات: "اللطيف في الأمر هو أنه يمكننا تصفح المواد عبره مباشرة. يمكنني ضبطه حيث يجري عمليات بحث بشكل تلقائي، ويمكنه تخزين المقالات في فهرس لفترة من الزمن".

أوضحت له وظائف البحث الأساسية، وأريته قائمة بالمقالات، وقلت: "يمكنك عرضها على أساس التاريخ، أو على أساس السلسلة إن شئت". كما بيّنت له كيف أن كل مقال لديه رقم ومصحوب بمقدمة موجزة. وأوضحت له: "أنا من يقوم بالطلبات. وهذا هو الفهرس المخزن عليه. وهذا مقال حقيقي. وهنا يظهر كيف تتطابق المعلومات الواردة في المقال مع الفهرس".

لم أستدعِ أي ملفات بشكل فردي، وإنما بيّنت له طريقة عمل التطبيق. وبشكل عشوائي تمامًا، مرّرت المؤشر على مقال مدرج ضمن قائمة طويلة من نتائج البحث. لاحظت أن مصدره هو DARPA، وكالة مشاريع البحوث المتقدمة الدفاعية، وله علاقة بعلم اللغات. لم أقرأ المقال كاملاً في بادئ الأمر، ولكنني أدركت أن له علاقة بتعليم اللغات الأجنبية. لم يكن هذا خارجًا عن المألوف بالنسبة إلى مركز معلومات التقنية الدفاعي.

تعتبر وكالة DARPA بمثابة مكتب وزارة الدفاع المعني بتمويل الأبحاث الخاصة بالتكنولوجيات الجديدة لصالح الجيش الأميركي، وقد يعني هذا أي شيء تقريبًا.

أُنشئت وكالة DARPA في العام 1958 ردًّا على إطلاق الاتحاد السوفييتي قمر سبوتنيك الاصطناعي. فقد أراد الرئيس أيزنهاور التأكد من أن التكنولوجيا التي يمتلكها الجيش الأميركي أكثر تعقيدًا من التكنولوجيا التي يمتلكها أعداؤنا. ولكن وكالة DARPA لا تقتصر فقط على الصواريخ وأكواد البرمجة. فالعديد من التكنولوجيات التي مولتها الوكالة شائعة الاستخدام الآن في العالم المدني، بما في ذلك شبكات الحاسوب، ولغة الترميز، والنسخ الأولية من GUI (واجهة المستخدم الرسومية)، وأحدث أساليب تعلم اللغات.

سأل أوليغ: "هل يمكنني الحصول على نسخة من هذا؟".

قلت: "أتريد نسخة؟ بالطبع يمكنني أن آتيك بنسخة لاحقًا".

"هل يمكنني الحصول عليها الآن؟".

قلت: "ليست بحوزتي طابعة هنا". كنت أماطل، و لم أكن واثقًا ممّا إذا كان قد أدرك ذلك أم لا، ولكن بدأ الأمر يبدو كمشكلة بالنسبة إليّ.

قرأت العنوان بمزيد من التأني، "التقرير الفني النهائي، مارس 2008، روباست، ترجمة المحادثات الصوتية لمنصات متعددة قابلة للتعديل السريع". لم

أعرف إلامَ يشير ذلك، ولكن من الواضح أن له علاقة بترجمة اللغات. لم يبدُ كمقالٍ سهل المحتوى. وكلمة *ممل* هي المصطلح الذي خطر ببالي.

بدا لي أن أوليغ قد اختار المقال بشكل عشوائي تمامًا؛ إذ كان المقال الذي توقف عنده المؤشر صدفة. توقّعت أنه يريد وثيقة أخرى فحسب كي يثبت لرؤسائه قيمة ما كان يفعله لحسابهم، وكدليل إضافي على القدرات المدهشة للشخص الأميركي الذي يعرفه.

لم أجرؤ على النظر إليه مباشرة. ومن زاوية عيني، رأيت أن تعبيرات وجهه لم تتبدل. ولكنني كنت لا أزال أحسّ بأنه يشعر بالإثارة، وإنما يحاول ألا يُظهر ذلك.

كنت قد ناقشتُ مع تيد وتيري سيناريوهات عديدة بينما كنا نخطّط لهذا اللقاء مع أوليغ، ولكننا لم نناقش قيامي بإعطائه أي ملفات حقيقية؛ ليس قبل أن يفحصوا كل وثيقة. ولم نكن قد أثرنا هذه المسألة في محادثاتنا.

قال أوليغ: "هل تمانع تخزينها على القرص المحمول؟ يمكنك حفظ نسخة عليه".

سحقًا! سحقًا! سحقًا!

ماذا يفترض بي أن أخبره الآن؟ ماذا يفترض بي أن أفعل؟ بدأ الذعر يدب في عروقي.

كان الغرض من هذا الأمر جعل أوليغ يصدق أنه بإمكانه الولوج إلى قاعدة بيانات المركز، أو دفعه للاعتقاد أنني قادر على الولوج إليها. ولكن، لا بد من موافقة المكتب الفدرالي على كل شيء أمرّره له أوّلاً.

انتظر. فكّر قليلاً.

ملف حول علم اللغات، إلى أي مدى تبلغ حساسية ملف كهذا؟ هل وحدة تعليم اللغات التابعة لوزارة الدفاع مماثلة لحصة تعلّم اللغة الإسبانية في

المدرسة الثانوية؟ لم يسأل عن شيفرات الصواريخ النووية الأميركية! فهي لا تتوافر في المركز على أي حال.

كنت أجهل ما يتعيّن عليّ فعله، وما كان بوسعي إظهار أي تـــردد أمـــام أوليغ، فالتردد دليل على الضعف. لذا، تعيّن عليّ أن أتصرف كما لو أنه لا بأس في هذا الطلب. لو كنتُ جاسوسًا حقيقيًا، لما كنت قد اكترثت لأمـــر تســـليم ملف عن علم اللغات. لو كنتُ جاسوسًا حقيقيًا، لتحليت بالغرور والغطرســـة، ولحرصت على إظهار ما يمكنني توفيره، وما كنت لأعطيه معلومات الـــدخول الخاصة بـــي أو رقم تحديد الهوية لحسابـــي المصـــرفيّ. ولكـــن بالنســـبة إلى جاسوس، كان هذا طلبًا عاديًا. كنت أؤكد فحسب أنني جاسوس حقيقي.

لم أناقش الأمر مع العميلين اللذين كانت لديهما حزمة من البروتوكولات الواجب اتباعها. كنت أتخذ موقفًا مغايرًا وأتعامل معه بمفردي. كنت مضطرًا إلى ذلك. فطوال الوقت، اتّفقتُ مع العميلين على أنه "ليس هناك كتيب إرشادات، ولا قائمة بالأهداف للإشارة إليها في كل مرة. نريد دومًا أن نعـــرف إلى أيـــن سنتجه، ولكن العميل المزدوج الكفؤ هو الذي يفكر بهدوء بمفرده".

ألم يكن ذلك ما جعلني بارعًا في ما أقوم به؟

انفجر البرهان في رأسي. كانت الأسئلة الغريبة التي طرحهـــا علـــيّ في المقهى تلميحًا، وتصرّف إعادة القرص المحمول الذي بدا في ظاهره عفويًا كان تلميحًا آخر. كان أوليغ يختبرني، ولم أشأ تبديد كل الثقة التي بنيتها معه، ليس بسبب مقال عادي من قاعدة بيانات المركز. كنت بحاجة إلى إجابتـــه الآن. كان صوت تيد يتردد مدويًا في رأسي: "لا مجال للتردد. لا بد أن تصدق ما تقوله. ولا يمكنك إظهار أي تشكك".

التقط أوليغ القرص المحمول من على حامل الأكواب وناولني إياه. كنت أشك في أنه متوتر مثلي بالضبط، ولكنه أخفى الأمر، وأظن أنني فعلت مثله

أيضًا. كان يراقبني عن كثب، وكان بوسعي سماع أنفاسي وأنفاسه. كان يولي اهتمامًا شديدًا لكل شاردة وواردة.

كانت غريزة البقاء هي ما يحركني. كنت أفكر: *اجعل الأمر يبدو حقيقيًا فحسب. لا تفوِّت أي شيء، ولا تكشف عن هويتك. افعل ما يجب عليك فعله، وامضِ قدمًا بثبات وتأنٍّ.*

نزعت الغطاء البلاستيكي عن القرص المحمول وأدخلته في المنفذ المخصص له على جانب الحاسوب. فرأيتُ ضوءًا أحمر صغيرًا يومض، ثم ظهرت نافذة على شاشة الحاسوب تسألني عمّا أريد فعله تاليًا:

هل أقوم باستيراد الصور والمقاطع المصورة؟

هل أفتح ملفًا أو أستعرض الملفات؟

هل أستخدم القرص للقيام بنسخة احتياطية للنظام أو تسريع عمله؟

لم أكن أرغب في القيام بأي من ذلك. لذا، أغلقت النافذة.

فكِّر في ثلاث- وليس عشرين- خطوات أو أربع إلى الأمام. ركِّز على اللحظة الآنية. ثق بما تفعله.

كنت قد فتحت نافذة التصفح بالفعل، وقمت بنسخ ملف PDF من ملف علم اللغات إلى مسار المركز. كما قمت بسحب الملف وإفلاته داخل القرص المحمول، ثم أغلقت نافذة المتصفح.

تمسّك بزمام السيطرة فقط.

وبطريقة عفوية، مددت يدي وأخرجت القرص المحمول من المنفذ، وأعدت الغطاء إلى مكانه، وناولته إلى أوليغ.

استغرق الأمر برمته ربما ستّ ثوانٍ. وقد كادت تلك الثواني الست أن تقضي على مستقبلي المهني كعميل مزدوج.

الفصل الثاني والعشرون

إفساد المهمة

لم نتحدث كثيرًا أنا وأوليغ في ذاك اليوم. إذ كنت قد بدأت أشعر بالإعياء أكثر؛ على الرغم من أن الحمى التي كنت أشعر بها قد طغى عليها إحساس متزايد بالهلع. أخبرت أوليغ أنني أعتزم التحدث إليه لاحقًا، فأبدى موافقته على ذلك، وأعطاني بطاقة عمل من أجل مكان لقائنا التالي؛ وهو أحد مطاعم سلسلة هوترز في وأين في نيوجيرسي على ما يبدو. لم يكن أوليغ يحب الذهاب إلى المطاعم المتواضعة. كنا نعود إلى سلاسل المطاعم الأميركية التي تقدم مأكولات عضوية، حتى إن عنى ذلك التوجه إلى أماكن تشتهر بفخامتها أكثر مما تقدمه من شرائح لحم أو أجنحة دجاج.

سألني أوليغ قبل أن يترجل من الجيب ويصعد إلى سيارة ليسابر الواقفة بجوارنا: "هل ذهبت إلى هذا المطعم من قبل؟". و لم أكن قد لاحظت أنه قد اختار المكان المجاور لسيارته مباشرة. كانت السيارة من النوع الذي قد يقتنيه أبي، وهي سيدان كبيرة الحجم وتتصف بالفخامة. كان موديل السيارة يعود إلى العام 2005، وهو آخر عام أُنتجت فيه سيارات ليسابر. الآن، لقد اقتنى لنفسه سيارة أميركية!

أخرج سيارته من مكانها، ففعلت مثله. لم ترُق لي الطريقة التي تسير بها الأمور.

اللعنة، فكرت بمجرد أن خرجت من موقف السيارات بأمان. *ما الذي حدث؟ هل فعلت للتو شيئًا سأندم عليه أشدّ الندم؟* لقد أعطيت أوليغ ملفًا لم يحظَ بالموافقة المسبقة من قبل أي كان، وقد فعلت ذلك تمامًا بمفردي. وأيًا يكن السبب، فقد كسرت أحد البروتوكولات التي اتبعتها منذ البداية. اللعنة!

عدت إلى طريق لونغ آيلند السريع واتجهت غربًا. كانت ثمة طريقة واحدة أعرفها للتعامل مع القلق الذي أشعر به، ناهيك عن البرد الذي يستعر في رأسي، وهي أن أقود سيارتي مثل شخص مجنون. جلتُ بسيارتي في زحام ما بعد ظهيرة يوم الأحد في الطريق الذي يصل بين هامبتونز ومانهاتن، فأجد فواصل بين السيارات المتعطلة ثم أنطلق بسرعة جنونية. وبعد مروري من مخرجين أو ثلاثة، ركنت السيارة في مكان ما في كوينز الشرقية. انتظرت قليلاً إلى أن تأكدت أن لا أحد يتبعني- على الرغم من صعوبة تخيل كيفية تمكن أي كان من القيام بذلك- ثم اتصلت بتيري.

قال عندما أخبرته أنني توقفت عند أحد المخارج. "هذا جيد. انتظر لبعض الوقت، وتأكد أن لا أحد في انتظارك، ثم ادخل".

لم أقل أي شيء بشأن القرص المحمول أو أي تفاصيل عن مواجهتي مع أوليغ، ولكن قلقي كان يزداد بلا شك. فيمَ كنت أفكر حين أعطيت أوليغ القرص المحمول؟ لم أكن في حاجة إلى طرح السؤال. كنت متيقنًا أن المكتب الفدرالي ما كان ليوافق على ذلك. كيف سأفسر ذلك لتيد وتيري بحق الله؟ ولكن، ما البديل الذي كان متاحًا أمامي؟ كانت كل تلك الأفكار تتدافع في رأسي.

وافقت على مقابلة العميلين في فندق مراكش، وهو فندق رخيص على الطراز المغربي يقع عند تقاطع شارع برودواي وشارع 103. مررت قرب

ذلك المكان آلاف المرات، وكل ما يسعني قوله هو أنهم يمنحون العملاء الفدراليين حسمًا.

"لقد طرأ خطب ما". كان هذا كل ما أخبرت به تيري عبر الهاتف قبل أن أعود أدراجي إلى الطريق السريع. "سأخبرك بالأمر كله حالما أصل إلى هناك. يمكنني تناول الشراب".

فقال: "حسنًا، بالطبع. ماذا تريد؟".

أجبت: "سأخبرك بشيء ما سيئ. وأنا مصاب بالبرد".

"مفهوم".

أوقفت الجيب في موقف السيارات الواقع في الشارع 110، وحملت حاسوبي الذي كان على المقعد، واجتزت الشوارع السبعة مشيًا نحو الفندق. كان رأسي يدور بسبب البرد والقلق وعقار السودافيد.

كان بهو فندق مراكش ذا إضاءة خافتة وجدران منخفضة. وكانت المصاعد تقع إلى يمين مكتب الاستقبال. وبينما كنت متجهًا نحو المصاعد، سمعت صوت امرأة تقول: "المعذرة يا سيدي، هل يمكنني مساعدتك؟".

اللعنة! لم أدرك أن فندق مراكش مكان له أهمية أمنية عالية. ولم يكن ينقصني إلا مجموعة أسئلة من موظفة استقبال متطفلة.

"هل أنت ضيف هنا؟".

فأجبت: "سأصعد إلى الأعلى لرؤية شخص ما".

"اسم الضيف من فضلك".

لم أكن واثقًا من رغبتي في الإجابة عن ذلك، لذا قلت: "إنه صديق فحسب. في الحجرة رقم 305".

غير أنها لم تستسلم: "حسنًا، هل يمكنني الحصول على اسمك؟ هلّا وقّعت في السجل كنت على وشك الهرع إلى المصعد لأستقلّه بسرعة وأجعلها تلحق

بـــي حين خرج المدير المسؤول عن الفندق في عطل نهايات الأسبوع مـــن خلف طاولة مكتبه وقال لها: "لا بأس، إنه ذاهب لرؤية أحدهم".

لا أعتقد أن المدير كانت لديه أدنى فكرة عمّن أكون، أو من ســـألتقيه، أو أن عملاء المباحث الفدرالية يستخدمون الفندق لعقد لقـــاءات خاصـــة لاستخلاص معلومات عن عملية مكافحة تجسس روسية حساسة، أو لعلـــه كان يعرف. في كلتا الحالتين، كنت ممتنًا للمساعدة التي أتـــت في الوقـــت المناسب.

ضغطت على زر الصعود إلى الطابق الثالث في المصعد، وما إن توقـــف وانفتح الباب قليلاً حتى اندفعت إلى داخل الرواق المظلم وعثرت على الحجرة رقم 305. طرقت الباب، وحين أدخلني تيري قلت له ولتيد: "رباه! بمَ أخبرتما موظفة الاستقبال؟ لقد تصرفت وكأنني قادم للقيام بأمر شائن!".

فقال تيد بجدية: "ألستَ كذلك؟".

بقدر ما كنت متوترًا، إلا أنني ابتسمت لدى سماعي ذلك.

جلست على كرسي المكتب المصنوع من الفينيل في حجرة الفندق الضيقة، وناولني تيد علبة من الشراب، فارتبكت وأنا أحاول إيجاد مدخل للحديث.

وأخيرًا قلت: "ذاك الرجل مغفل. وهو يصيبني بخنق شديد! نحـــاول أن نضع خطة ما معًا، وفي اللحظة الأخيرة يرغب دومًا في تغييرها".

فسألني تيد: "إذًا، ما الذي جرى ؟ أخبرنا بما جرى يا نافيد. هل سألك بشأن المكسيك؟".

"لا، لا". قلت وقد تفاجأت من ذلك السؤال. "موضوع المكسيك كان الأمر الوحيد الذي لم نتحدث فيه". *ليت المشكلة كانت المكسيك فحسب!* واصلت الكلام: "في مرحلة ما، حاول أن يجبرني على التوقيع على شيء ما، إيصال. ولكنني لم أوقع".

"إيصال؟!". سأل تيري بقليل من الشك. "هل أراد منك التوقيع على إيصال يثبت ارتكابك الخيانة؟! الأمر يحتاج إلى جرأة كبيرة".

فقلت: "أراد مني التوقيع على إيصال باستلامي الآلاف الثلاثة التي دفعها لي في المرة الماضية. لَمَ لم يعطِني فحسب مغلفًا مختومًا ومعنونًا بعنوان المرسل كي أرسله إلى المكتب الفدرالي؟ كان ذلك سيجعل الأمر برمته أسهل. فحينها لن تكونوا مضطرين حتى إلى التحقيق في الأمر".

فقال تيد: "عندما يتعلق الأمر بالمال يصبح الأمر مبهمًا مع هؤلاء القوم. هل يقومون بحشو جيوبهم؟ أم يتلقون توجيهات من بعض البيروقراطيين الحمقى في بلدهم؟ لطالما كان المال مسألة مبهمة معهم".

"أجل". قلت من دون أن أركّز بشكل كامل على ما يُقال، بينما كان تيد يحاول تهدئة مخاوفي. على ما يبدو، كنت أماطل. إذ لم تكن المشاكل المالية الخاصة بالبعثة الروسية هي ما يقلب معدتي، فقد كنت أدرك أن المشكلة الحساسة الحقيقية لا تزال في الانتظار، ولم أكن متعجلاً لإثارتها.

أخبرت العميلين: "جعلته يظهر لي هويته، فقد قلت له: كيف لي أن أعرف أنك لست عميلاً فدراليًا؟ وكيف لي أن أتأكد من أنك تعمل فعلاً لدى الأمم المتحدة؟".

ضحك كل من تيد وتيري على ذلك، وقال تيد: "أحسنت". وبدا صادقًا في اندهاشه من أنني تمالكت نفسي أمام ضابط عسكري روسي محنك، والذي كان جاسوسًا محترفًا.

على الأقل، كان ذلك المديح صادقًا، وقد شعرت بالفخر لذلك. لكن الشعور بالفخر لن يدوم طويلاً. وأخيرًا، ألقيت القنبلة بتأنٍ.

"ثم تحدثنا عن مركز معلومات التقنية الدفاعي".

سأل تيد: "وكيف سار الأمر؟".

تناولت القليل من الشراب، وأجبت: "ليس على نحو جيد".

نظرا إلى الأعلى في آنٍ واحد، والتزم كلاهما الصمت.

قلت: "أعطيته الوثائق في المطعم، وعرضت عليه كل شيء تحدثنا عنه، ثم سرنا نحو الجيب وتوجّهنا بالسيارة إلى موقف للسيارات. كنت أريه كيف تجري عملية البحث، وقد أعاد لي القرص المحمول الذي أعطيته إياه آخر مرة، وكان ثمة مستند في المجلد أشرت إليه عفويًا، فسألني إذا كان بإمكانه الحصول على نسخة منه. لم تكن بحوزتي طابعة أو ناسخ أقراص مدمجة في السيارة بالطبع، لذا طلب مني نسخه على القرص المحمول، ففعلت مثلما طلب وأعدت القرص إليه. لحسن الحظ، كان المستند يتعلق بعلوم اللغات فقط".

بدا حديثي كجملة بلا فواصل. أعتقد أنني كنت آمل أن يكون رد الفعل أكثر هدوءًا إذا شرحت الأمر في نفس واحد. أو ربما أملت في أن يضيع الجزء الخاص بتسليمي الملف بين ثنايا التفاصيل المتداعية.

لاحظتهما وهما يتبادلان نظرة سريعة، ولكنّهما التزما الصمت. تركاني أكمل الحديث من دون مقاطعة. لكن لغة جسديهما- إذ جلس كل منهما بلا حراك- أشارت إلى شعورهما بالقلق. هل كانت تلك صدمة؟ أم هلعًا؟ لم يكن بوسعي التحديد فعلاً.

كسر تيد حدة التوتر، وقال بهدوء: "أتعلم؟ على الأقل، بات أوليغ الآن يدرك أن الأمر حقيقي، ولن يشك إطلاقًا إذا كان الأمر حقيقيًا أم لا".

أومأ تيري موافقًا، ولكنه لم يبتسم.

قلت محاولاً مواجهة أي عواقب ستحدث: "اسمعا أيها الرفيقان، لم يكن أمامي بديل. لقد اضطُررت إلى ذلك. ما الذي كان يفترض بي القيام به؟".

بدا تيري غير مقتنع بتبريري وقال: "كان بوسعك المماطلة. كان بوسعك طلب المزيد من المال. كان بوسعك فعل أي شيء عدا عن إعطائه

إياه. لم نتناقش حول قيامك بوضع القرص المحمول في الحاسوب ونقل أي شيء عليه. هل فعلنا؟".

فقلت: "انتظر لحظة، هذا هراء. لم يكن أمامي متسع من الوقت كي أتخذ قرارًا. وقد فعلت ما ظننت أنه الصواب. حسبت *أن كل شيء يجري حسب اللحظة الراهنة*. هكذا قلنا على الدوام".

فقال تيري: "ومع ذلك، كان يجب عليك أن تماطله".

"هل تقولان لي الآن إنكما لا تدعمانني في هذا؟!".

"سيتعيّن علينا الانتظار لكي نرى ما ستؤول إليه الأمور. لا أدري كيف سيكون رد الفعل".

"ما معنى هذا بحق الله؟".

فقال تيري: "رد الفعل لا يخضع لسيطرتنا".

"إذًا، بعد ثلاث سنوات من فعل كل هذا، كلُّ العمل الشاق والاحترام الذي حظيت به تمّ تناسيهما بسبب قرار اضطُررت إلى اتخاذه فجأة عندما وُضعت في موقف يستحيل الانتصار فيه؟! أنتم تقيدونني بمعايير مستحيلة. تبًّا، حقًا يا رجل، ما الذي كان يفترض بي القيام به؟ فإن رفضت تلبية طلبه، فسينصرف وهو غير مقتنع، بل وربما فعل ما هو أسوأ، إذ ربما أدرك أنه يتمّ الإيقاع به. لحسن الحظ، بدا الملف عاديًا. علوم اللغات؟ لم يبدُ لي كشيء قد يعرض الأمن القومي للخطر. كان من الممكن بحق أن يكون الوضع أسوأ بكثير".

كان بوسعي القول إن تبريري لم يهدّئ من مخاوفهما بشكل كامل، و لم يهدّئ من مخاوفي أيضًا. لكنّ هذين العميلين واجها معي الكثير من المصاعب، وقد كانا منخرطين في الأمر بعمق مثلي بالضبط، وكانا يعتقدان بأهمية ما نفعله، بالحمية نفسها أيضًا. على الأقل، هكذا ظننت، أو هذا ما أملت أن يكون حقيقيًا.

كنت أجهل ما يتعين عليّ قوله بخلاف ذلك. بدا تيري كما لو أنه يصارع رغبته في الالتزام الصارم بالقوانين والمعايير التي وضعها المكتب الفدرالي. وكان تيد هو من ألقى لي بحبل النجاة.

فقد قال: "ثمة رجل في مكتبنا على وشك أن يتقاعد. وهو أحد أولئك الأشخاص ذوي القدرات التي لا حدود لها. فبوسعه انتحال شخصية رجل لبنانيّ تارة، ورجل من أصول إسبانية تارة أخرى. لا يمكنك أن تعرف فحسب جنسيته. وهو يرتدي قمصانًا أزرارها مفتوحة حتى بطنه، مظهرًا شعر صدره. وقد عمل متخفيًا لعقود. إنه أحد أكثر العملاء السريين قيمة لدينا، ويستحيل استغلاله. ثمة تفاهم- أو توقع إن جاز التعبير- بيننا، وهو أنه في مرحلة ما قد يُضطر إلى ترسيخ ثقة الناس الذين يتعامل معهم به عن طريق منحهم عينات من عقاقير محظورة. وهذا لا يختلف حقًا عما فعلته أنت".

كنت ممتنًّا لأن تيري أخبرني بتلك القصة، فقد جعلتني أشعر بالراحة. كان هناك عميل سيتفهم سبب اضطراري إلى إعطاء أوليغ المستند. تمنّيت أن أقابله حين يتقاعد، وكدت أرغب في معانقته.

قال تيري وقد بدا أكثر هدوءًا ولكن ليس أقل قلقًا: "نحن نقدر موقفك". وكانت نبرته- حسبما تبيّن لي- عملية للغاية. "اسمع، سوف نفسد سيطرتك على الوضع قليلاً. أول ما نحتاج إليه هو الحصول على اسم المستند وأي تفاصيل أخرى لديك عنه".

فقلت: "لا مشكلة. كل شيء بحوزتي".

قال تيري: "يتعيّن علينا أولاً اكتشاف ما تضمّنه المستند، وبعد ذلك يجب علينا إبلاغ بعض الأشخاص بالأمر".

وفقط عندما نظرت إلى حاسوبي مجددًا لاحظت هذا السطر المطبوع أسفل المستند الذي سمحت لأوليغ بالحصول عليه "وفقًا للمادة 22 من القسم

2778 من قانون التحكم في صادرات السلاح الأميركي، تصل عقوبة التصدير غير القانوني للمواد أو المعلومات الخاضعة لقوانين ITAR (الاتجـــار الـــدولي بلوائح الأسلحة) إلى السجن لمدة عشر سنوات، أو غرامة تقدر "بمليون دولار أميركي، أو كليهما. ووفقًا للمادة 50 من القانون نفسه والملحق رقم 2410، تصل عقوبة التصدير غير القانوني للمواد أو المعلومات الخاضعة للوائح إدارة التصدير EAR إلى غرامة تصل إلى مليون دولار أميركي، أو خمسة أضـــعاف قيمة المواد المصدرة؛ حسب أيهما أكبر. وبالنسبة إلى الأفراد، تصل عقوبـــة السجن إلى عشر سنوات، أو إلى غرامة تبلغ مئتين وخمسين ألـــف دولار، أو كليهما".

لم أدرك معنى كل تلك التشريعات والعقوبات أو كيف- بأي شكل- يمكن أن تنطبق عليّ. كنت قد رأيت لغة شبيهة بتلك في العديد من الوثـــائق الحكومية، والعديد منها كانت وثائق غير ضارة إطلاقًا. ولكن، في ظل الحالة العقلية التي كنت فيها، كان الأمر مربكًا قليلاً.

قلت للعميلين: "تبًا، لا أصدق أنني أعطيته ذاك الملف".

أنهينا اجتماعنا بتسليمي الساعة لهما، وسيعيدها تيد وتيري إلى المكتـــب مثلما يفعلان عادة؛ بعد أن يحمّلا التسجيلات الصوتية منها. قـــال تـــيري: "سنعيدها بأسرع وقت ممكن، وسنرى كيف ستسير الأمور".

بينما كنت عائدًا إلى البيت من فندق مراكش، كان التوتر الذي تملكني خلال الساعتين المنقضيتين يتبدد. وقد استقر البرد في رأسي بشكل كامـــل. شعرت أنني بحالة مزرية، كما شعرت بالأسى على حالي. كلما اتجهت شمالاً، كان الشعور بالغضب يتحول إلى يأس أكثر فأكثر.

لا أصدق هذا، فكّرت في قرارة نفسي. إنهما يحاولان توريطي. *أنا من يخوض المخاطرة، وفي اللحظة التي يظهر فيها أمر مثير للشكوك، يصـــبحان*

مستعدين لرميي أسفل الحافلة، ثم يتبادلان الأدوار في العبور فوقي. كنت مثل مات دامون عندما واجه ليوناردو دي كابريو في فيلم *ذي ديبارتد* أو *الميت* "اقتلني فحسب". كنت قد تحوّلت من حليف لوكالة قوية إلى احتمال انقلاب تلك الوكالة ضدي، وانتقلت من مرحلة الغضب إلى الاعتقاد بأنه ربما ليس عليّ أن أغضب إلا من نفسي.

دخلت الشقة، وألقيت أغراضي على الأرض، ثم دخلت الحمام وفتحت صنبور الماء الساخن، وأغلقت الباب وتركت الحمام يمتلئ بالبخار، وتمددت على الأرض.

انفتح باب الحمام بعد دقائق لاحقًا، ودخلت أفا فيما كنت ممددًا على الأرض والحمام يكسوه البخار، وسألتني: "ما الخطب؟".

كان كل ما في وسعي القيام به هو عدم البكاء. وقلت: "لقد أفسدت الأمور. لا أصدق هذا، لقد أفسدت الأمور".

فقالت: "أخبرني بما جرى فحسب".

أخبرتها بكل شيء عن أوليغ والقرص المحمول وتيد وتيري، وعن رد فعلهما، وأنني متيقن من أنني قد أفسدت كل شيء.

وقفت هناك من دون حراك، وهي تضع يديها على خصرها وبدت عابسة. وأخيرًا قالت: "أهذا كل ما في الأمر؟ أهذا ما يقلقك؟ اسمع، إذا كانوا يعتزمون إلغاء العملية فسوف يفعلون ذلك. لقد فعلت أكثر مما سيفعله معظم الناس، أكثر مما سيفعله الناس طوال حياتهم، بل وفي مئات الحيوات. لقد خضت مغامرة كبرى. ولكنّ هذه العملية ليست الحياة الحقيقية، ليست حياتنا الحقيقية".

"ولكنني لا أرغب فعلاً في أن ينتهي الأمر بعد. لست مستعدًا لذلك. وإذا كان سينتهي، فأنا أريده أن ينتهي بشروطي".

فقالت بنبرة حادة: "نافيد، بعد كل العمل الذي أنجزته لصالحهم، هل تعتقد حقًا أنهم سيقومون بإلغاء العملية؟ ما الذي سيكسبونه من ذلك؟ ربما كان الأمر بمثابة لعبة بالنسبة إليهم، ولكنها لعبة ذات أهمية. الأمر كله يتعلق بالتلاعب. أنا على ثقة تامة بأن هذه ليست نهاية الحكاية. وبحلول نهايتها، سيكون إنجاز عظيم قد تحقق. أعدك. لا أعرف ماهية هذا الإنجاز، ولكنه سيتحقق".

فقلت: "ربما".

واصلت أفا كلامها: "ولكن، عليك أن تبصر الأمر على حقيقته. فلا مستقبل لهذا الأمر، ولا وجود لمسار مهني فيه. يتعيّن عليك أن تجد سبيلاً للاقتناع بذلك. أنت تفعل ذلك برضاك. ولكنّ هذا لا يحدِّد من تكون كشخص، بل هذا ما أنجزته فقط". وغدت نبرة أفا ناعمة: "أعدك يا نافيد، لن يكون هذا الإنجاز هو الوحيد في حياتك".

وحدقت بتجهم إلى البخار.

في وقت مبكر من صبيحة يوم الاثنين، وبينما كنت متوجّهًا بسيارتي إلى المكتب الواقع في دوبس فيري، اتصل بي تيد، وبدا أكثر جدية بكثير ممّا كان عليه في اليوم السابق.

وقال: "أتعلم؟ يمكنهم القيام بأشياء سيئة باستعمال الأقراص المحمولة. فقد يضعون على حاسوبك شيئًا يجعلهم يتتبعون كل ما تفعله. لذا، نحن نحتاج إلى حاسوبك".

توقّفت إلى جانب الطريق وقلت له: "لا أريد أن أعطيكم حاسوبي. لا أفهم ما هي المشكلة".

فكرّر تيد كلامه: "نحتاج إلى حاسوبك".

"لا أريد أن أعطيكم إياه".

فقد كان هذا الحاسوب هو الحاسوب نفسه الذي أستخدمه في عملي الحقيقي، وكنت أجلبه إلى البيت ليلاً، وأحتفظ بمعلومات شخصية عليه. فقد كان يتضمن حساب بريدي الإلكتروني، وبيانات حسابي المصرفي الشخصي. بدا ذلك تطفلاً بالنسبة إليّ؛ أي أن ينظر أحد ما إلى حياتي على هذا النحو. أردت أن أعرف أنني إذا أردت في أية لحظة ألا أكمل، فبوسعي القيام بذلك. بدا هذا الأمر بالضبط مثل طلب أوليغ مني التوقيع على الإيصال، *وقّع هنا إن كنت ترغب في أن يتم الإمساك بك وأنت تقوم بعمل غير قانوني*. اعتبرت نفسي منذ البداية الشريك المدني للعميلين. أما الآن، فقد بت أشعر أكثر وكأنني هدف لهما.

"هل تقول إنني مضطر إلى القيام بذلك؟ هل ستجبرونني؟".

فقال تيد: "اسمع، لا أحد يريد سلوك هذا السبيل. دعنا نقوم بالأمر بطريقة وديّة".

ما البديل المتاح أمامي؟ أضواء ساطعة وأشرطة من المطاط؟ ألسنا جميعًا في الجانب نفسه؟ ومجددًا، شعرت أنه ليس لديّ الكثير من البدائل.

لم يهددني أحد بشكل مباشر، وبالتأكيد لم يفعل ذلك كل من تيد أو تيري. ولكن، كان يُقال لي بوضوح تام إنه ما من بديل آخر. لم يقولا بصراحة ما سيحدث إذا رفضت تسليم حاسوبي. ولكن، أليس الخوف من المجهول أكبر من الحقيقة المعروفة؟

وافقت أخيرًا على تسليمه لهما، وقد وافقا على أخذه ليوم واحد، وأخذ نسخة مما يتواجد عليه، وإرجاعه لي.

عدت إلى المكتب، وفعلت ما فعله كل مجرم في التاريخ عندما ظنّ أن شخصًا ما يسعى خلف حاسوبه، قضيت بقية اليوم في محاولة مسح كل شيء. قمت بمسح بريدي الإلكتروني الشخصي، وأزلت البطارية، وفصلت

الجهاز عن شبكتي المنزل والعمل، وقمتُ بمحو كل شيء كان على الجهـــاز، وهو ما كنت أدرك أنه لن يشكل فارقًا كبيرًا ولكنّني فعلت ذلك علـــى أي حال. إنهم من مكتب التحقيقات الفدرالي، وبوسعهم استرجاع أي شـــيء يريدونه من دون أدنى مشكلة؛ حتى البيانات التي تم محوها أو إعادة الكتابـــة عليها. قمت بذلك على أي حال. كان عليّ افتراض أن الروس قد اخترقوا حاسوبـــي. كنت أفضّل التخلص من القرص الصلب مـــا إن وصـــلت إلى المنزل.

قابلت تيري في الشارع رقم تسعة وتسعين في السابع والعشرين من شهر يونيو. أعطاني قطعة ورق بدت كضمان، ولكنها لم تكن كذلك، بل كانت أشبه بضمان مع رسالة توسّل وشكر.

كانت الوثيقة محددة للغاية، وقد كُتب فيها: "سيستحوذ العميلان على الحاسوب لمدة يوم، وسيتم الاحتفاظ بنسختين من محتويات القرص الصلب، وستجري عملية مراجعة للأقراص المنسوخة. كما سيبحث مكتب التحقيقات الفدرالي عن أي دليل يشير إلى اختراق الجهاز من قبل جهـــاز اســـتخبارات أجنبـــي".

وقد كُتب في أعلى الوثيقة: "تمّت عملية التسليم طواعية". ولكن، لم يبدُ أي شيء من هذا طوعيًا بالنسبة إليّ.

الفصل الثالث والعشرون

مطعم هوترز

هل غيّر قرص صلب محمول صغير أي شيء؟ فقد أعاد العميلان الحاسوب بعد مرور يومٍ، وبدا لي أنه لم يتم العثور على أي شيء مثير للشكوك. ولكن في الأيام التي تلت، بدا أنّ لا أحد على علم بما ستؤول إليه الأمور؛ على الأقل بالنسبة إلينا أنا وتيد وتيري. كنا في وضع توقف من نوعٍ ما. ولكننا لم نعرف على وجه الدقة ما الذي توقف، وإلى متى سيظل كذلك.

سألت: "كيف سأتصرّف إذا تواصل معي؟ كيف أرد عندما يتصل؟".

ولكن، بدا لي أنّ لا أحد يعرف الإجابة. وهناك شيء واحد فقط بدا مؤكدًا، إذ قال تيد مشددًا: "إيّاك أن تأخذ أي حواسيب معك يومًا".

كرّر كلامه أكثر من مرة، فبدأ الأمر يبدو مهينًا قليلاً. وبعد ما جرى، هل ظنّ أي شخص حقًا أنني سأضع نفسي مجددًا في وضع خطر كهذا؟ حتى الطفل لا يلمس الفرن الساخن مرتين.

كنتُ أتوق للعودة إلى الوضع الطبيعي بصرف النظر عن ماهيته، وقد كرهت عدم سماعي أي شيء من أوليغ منذ أن أعطيته ذلك المستند على القرص المحمول. فإذا كان حينها يختبر مدى استعدادي لتسليمه أي شيء

يختاره من مركز معلومات التقنية الدفاعي، فأظن أنني قد تجاوزت الاختبار بنجاح. ولكنه لم يعاود الاتصال بي منذ ذلك الحين. وقد كان ذلك مدمرًا للأعصاب.

وأخيرًا، اتصل وقال إنه يريد مقابلتي. وكنا قد اتفقنا على مكان اللقاء مسبقًا.

سألت تيري: "هل يُسمَح لي بمقابلته؟".

وكان كل ما قاله: "اذهب".

فقلت: "حسنًا، ماذا سأريه عندما أقابله؟".

فقال لي تيد: "ولكنْ لا تأخذ الحاسوب معك". كنت قد وافقت على ذلك مسبقًا. "اطبع بعض الوثائق وأرِنا إياها أولاً. إذ يريد الناس لدينا رؤية أي شيء ستعطيه إياه أولاً".

شعرت بالضيق من تذكيري بشكل متواصل بأنني قد سلمت تقريرًا من دون الحصول على إذن مسبق. كنت قد عملت على وثائق تمّت الموافقة عليها مسبقًا عدة مرات في السابق. وإذا لم تكن بحوزتي قاعدة بيانات المركز الحقيقية كي أستخدمها كطعم مجددًا، فعلى الأقل سيكون لديّ شيء ما أجذبه به.

اخترت بقعة في الظل في موقف السيارات الواقع خلف مطعم هوترز. وعلى الرغم من أن الساعة كانت تشير إلى الحادية عشر والنصف في صباح أحد أيام الأحد، إلّا أن حرّ أغسطس كان يلقي بظلاله على السوق الواقع عند الطريق رقم 23 في واين في ولاية نيوجيرسي. جلست للحظة في سيارة الكورفيت التي كنت قد شغّلت مكيف الهواء فيها لأستجمع قواي قبل أن ألتقي أوليغ، وأعدت تصفح الوثائق التي جلبتها معي، وكانت أهمها فاتورة تقدر بخمسة عشر ألف دولار، وهو مقدار المال الذي يدين لي به. سحبت

ساعة G-Shock وضغطّت على الزر الصغير لتشغيل المُسجِّل. ولكن، بينما كنت أنتظر أن يومض الضوء الأحمر، رأيت أوليغ يقترب من سيارتي مسرعًا.

اللعنة! فكرت مع سرّي. *لست واثقًا من أن المُسجِّل يعمل.*

أخفضت ذراعي إلى حجري بسرعة، وابتسمت له، وفتحت الباب. سلّم عليّ أوليغ الذي كان يرتدي ملابس عادية عبارة عن بنطال جينز وقميص قصير الكمين باللونين البنيّ والأخضر، ويضع نظارة طيار كبيرة. بدا أكثر أناقة مما كان يبدو عليه عندما كان يرتدي السترات الرياضية. وبالكاد تعرفت إليه من دون المعطف الطويل.

كان للملابس العادية تأثير سلبيّ عليّ، إذ قمت بتحيّته بطريقة رسمية أكثر من اللازم، وقلت له: "مرحبًا يا أوليغ. كيف حالك؟".

فقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة كالمعتاد: "كل شيء بخير".

كنت قد دخلت مطعم هوترز مرة من قبل، وأعرف أن أجنحة الدجاج التي تُقدّم فيه حارة. وكانت نادلتنا- بسروالها القصير البرتقالي وقميصها الأبيض من دون كمين- قد تحملت حينها أصدقائي الحمقى ببراعة. وأعتقد أن هذا هو الغرض من المطعم.

قُبيل توجهنا إلى الداخل للإطلال على أشهر مظاهر الضيافة المثيرة في العالم، توقفنا قليلاً بجوار سيارتي في موقف السيارات شديد الحرارة، وتحدثنا عن العمل قليلاً. أخبرني أوليغ بأن رؤساءه في موسكو قد حصلوا أخيرًا على فرصة لاستعراض حزمة وثائق شركة نورثروب غرومان.

"و؟".

فأجاب: "لم يجدوها مثيرة للاهتمام. لا قيمة لتلك المادة بالنسبة إليهم".

كنت أدرك أن الكتيبات لم تكن مثيرة للاهتمام في حد ذاتها، ولكن هل كان أوليغ يعبث معي؟ هل كان رده حيلة تهدف إلى تقويض ثقتي في نفسي؟

أجل. لا أظنه قادرًا على مساعدة نفسه.

وأضاف سريعًا: "ولكننا نريد العمل معك في ما يتعلق بمركز معلومات التقنية الدفاعي".

فقلت: "حسنًا".

لم يكن أوليغ قد أنهى كلامه. فقد أعطاه رفاقه في موسكو فكرة عن كيفية مكافأتي لقاء توفيري البحوث الخاصة بمركز معلومات التقنية الدفاعي. وقد قال لي: "إليكَ الطريقة التي نودّ المضي قدمًا على أساسها. لدينا عرض لك".

حسبت أنه سبق لنا أن توصّلنا إلى تفاهم مسبق، إن لم يكن ما توصلنا إليه اتفاقًا نهائيًا، وهو الاتفاق نفسه الذي نتجت عنه الفاتورة التي لم يسددها أوليغ بعد. لم يكن الروس ليلتزموا بأي اتفاق حتى النهاية، وما انفككت أتعلم هذا الدرس مرارًا وتكرارًا.

فأخبرته: "لا يبدو هذا منطقيًا بالنسبة إليّ يا أوليغ. فقد أبرمنا اتفاقًا في لقائنا الأخير، وأنت تدين لي بالمال بالفعل. والآن تخبرني أننا سنتفاوض على ذلك!؟". كنا لا نزال في الخطوة الأولى، بعد مرور شهرين على إيضاحي له أنه سيتعين عليه تغطية تكلفة التسجيل في مركز معلومات التقنية الدفاعي، وأنه سيكافئني مقابل كل شيء قمنا بأخذه من قاعدة البيانات تلك. كنت أشعر كما لو أنني وكالة قائمة على فرد واحد، ولكن ما كان يسعني القيام به هو التعامل مع الأمر. لذا سألته: "فيمَ تفكر؟".

فقال أوليغ: "ستعطيني الملفات، وسأعيدها إليك لاحقًا. وبعد أن نقوم بتفحصها، سنخبرك كم تبلغ قيمة كل منها".

لم أكن أصدق أنه يقترح هذا؛ على الرغم من أنني منحته نقاطًا لطعنه الرأسمالية الأميركية في الصميم.

قال: "سنقوم بدفع مئات الدولارات مقابل ملفات محددة، وسندفع آلاف الدولارات مقابل ملفات أخرى. والقيمة المحددة ستعكس كيفية اختلاف قيمة الملفات المتنوعة".

لم أكن أرغب في سماع المزيد، لذا انفجرت في وجهه صارخًا: "هل تمازحني؟ هذه أغبى فكرة سمعتها على الإطلاق. أنت تقترح عليّ أن أعطيك ملفًا ثم أنتظر إلى أن أسمع كم تبلغ قيمته في نظرك، وحينها *ربما* يتمّ تسديد المبلغ لي وربما لا؟ وأنت من سيقرر القيمة؟". بالكاد توقفت عن الحديث لألتقط أنفاسي قبل أن أتابع: "إنك لا تدرك حجم المخاطر التي أخوضها يا أوليغ. إذ لا يتعيّن عليّ فقط الحفاظ على قدرتي على الوصول إلى نظام قاعدة البيانات الخاص بالمركز، ولكن يتعيّن عليّ أيضًا إخفاء عمليات البحث التي أجريها، كما يتعيّن عليّ دمج العمل الذي أنجزه لصالحك داخل عمل قانوني كي لا يتم اكتشافه. والتكاليف التي أتحملها ثابتة؛ سواء أجلبت لك خمسة ملفات أم ألف ملف. فالعمل هو نفسه بالنسبة إليّ، والمخاطرة هي ذاتها بالنسبة إليّ. لا قيمة للملفات الفردية لديّ، وإنما القيمة للوقت والمخاطرة التي أخوضها نيابة عنك. لذا، لا تخبرني رجاء بهراء مثل أنك ستفحص الملفات وستخبرني كم تبلغ قيمتها. لا أصدق أنك اقترحت ذلك!!".

وبينما كنت أواصل حديثي، بدا لي أن الروسي يزداد قلقًا. لم أكن واثقًا مما إذا كان ذلك تحركه المدروس التالي في رحلة تفاوض طويلة، حيث يُقدِّم عرضًا جنونيًا، ويُظهِر القلق من رد فعلي العدائي، لينتهي به الأمر بمنحي خمسين في المئة أكثر مما أستحق، أو ربما باحترامي لعدم ابتلاعي أول طعم يلقيه لي.

أنهيت حديثي بالقول: "إذا أردت التعاون فسنتعاون. وإذا لم ترد ذلك، فأنت تهدر وقتي اللعين".

كنت أعني ما أقوله حقًا. فقد كنت غاضبًا منه بشدة، وكنت على استعداد لركوب سيارتي من دون أن أدخل مطعم هوترز، وللعودة مباشرة إلى منزلي في نيويورك.

كنت سأندم على الفور إذا قمت بذلك. إذ كان لديّ هدف أكبر من مجرد الحفاظ على احترامي لنفسي مع مفاوض روسي غامض. وبصفة عامة، لم تكن هناك أهمية لقوة المساومة التي ألجأ إليها مع أوليغ، إذ يتعيّن عليّ أن أدفعه لمواصلة الكلام، والشعور بالرغبة في المزيد والمزيد من الوثائق.

تذكّرت ما قاله لي تيد في محادثاتنا الأولى. "كن صعب المراس مع أوليغ. هدِّد بعدم استكمال التعاون. فلا بد أن يشعروا أنهم إذا لم يعاملوك بطريقة لائقة، فقد لا تستكمل التعاون معهم فعلاً". فقبل انضمام تيد إلى مكتب التحقيقات الفدرالي، عمل في مكتب التحقيقات الخاصة التابع للقوات الجوية، حيث تعامل مع مشتبه فيهم، وأجرى تحقيقات معتقدة. وقد قال لي: "أحيانًا، يجب عليك التحلي بالذكاء. لا توافق على كل شيء. ولا بأس في عدم استكمال التعاون. إذا وضعت الأساس المناسب، فسوف يلهثون وراءك دومًا".

وضعت يدي على باب سيارة الكورفيت وقلت له: "كيف ستسير الأمور يا أوليغ؟ هل سنكمل التعاون أم ماذا؟". وحبست أنفاسي بانتظار إجابته؛ إذ كنت أدفع بقوة أكثر من أي وقت مضى، وكنت لأول مرة أعقد اتفاقًا على شيء لست متيقنًا من قدرتي على تسليمه.

لكنّ تيد كان محقًا، فقد لهث أوليغ خلفي على الفور، وقال لي: "اسمع، اسمع".

عندها، رفعت يدي عن باب السيارة.

فقال: "لا بأس يا نافيد. اهدأ، كل شيء سيكون على ما يرام".

ثم أدخل أوليغ يده في جيب بنطاله الخلفي، وأخرج ثلاثة مغلفات، وقام بوضعها على غطاء محرك السيارة. كانت المغلفات سميكة، وبدا لي أنها مملوءة بالمال، ولكن استحالت عليّ معرفة المبلغ الذي تحتويه. حصل ذلك حينما سلمته الفاتورة.

فقلت: "أريد أن أحصل على مالي. تقول إن الأمر برمته يتعلق بالثقة والنية الحسنة، وأنت عاجز حتى عن دفع فاتورة طعامك، ورغم ذلك تحاول القيام بأمور جديدة! هل مالي بحوزتك؟".

فقال أوليغ: "سينجح الأمر". وفتح أحد المغلفات فاستطعت رؤية رزمة من الأوراق المالية. ثم سلّمني المغلفات الثلاثة وتابع قائلاً: "إليك هذا المبلغ كبداية. إنها ثمانية آلاف دولار".

حينها هدأت وقلت له: "اسمع، عليك أن تتفهم. ثمة قدر هائل من المخاطرة التي أقوم بها. فقد يُزج بي في السجن، وقد أخسر كل شيء. لذا، لا بدّ أن يستحق الأمر وقتي".

فقال: "أتفهم ذلك. فلنذهب إلى الداخل حيث الجو لطيف لنحصل على شيء نأكله".

وضعت المغلفات الثلاثة في صندوق القفازات، وتأكدت من أن السيارة مقفلة، ثم سرت مع أوليغ إلى واجهة البناية. مررنا أسفل مظلة برتقالية لامعة حتى وصلنا إلى داخل المطعم. كانت هناك عدة نادلات يتجولن في المكان ويخدمن الزبائن. وقادتنا المضيفة التي ترتدي الملابس الضيقة الخاصة بمطاعم هوترز إلى طاولة تقع في منتصف حجرة الطعام. كنا قد التقينا في العديد من المطاعم، ولكنني لاحظت أن توجّهي إلى الطاولة برفقة مضيفة من مطعم هوترز وجاسوس روسي أمر سريالي. وتذكرت فجأة ذلك المشهد من فيلم *سباي غيم* أو لعبة التجسس عندما كان كل من ناثان موير والشخص الذي

يخضع لحمايته، توم بيشوب، يقومان بتفقد مطعم مزدحم.

قال موير: "الرجل الذي يتصفح القائمة، هل يمثل تهديدًا؟".

فقال بيشوب إنه لا يعتقد ذلك، وتابع: "ربما بالنسبة إلى المضيفة فقط".

وبالحكم على الطريقة التي أبقى بها أوليغ عينيه على المضيفة لدى عودتها إلى مقدمة المطعم، كان يجدر بي النهوض عن الكرسي وتحذيرها.

سألني أوليغ وهو يدرس رد فعلي؛ وكأنه يراقب عملية تحقيق عبر مرآة ذات اتجاهين: "هل سبق لك أن أتيت إلى هنا من قبل؟".

فأجبت: "ليس إلى هذا المكان بالذات". وأنهيت الحديث عند هذا الحد.

وقبل أن نستكمل حوارنا، أردت أن أتأكد من أن الساعة كانت تسجّل كما ينبغي. غير أنني قبل أن آتي بعذر ما كي أبتعد عن انتباه أوليغ، أقبلت النادلة وعرفت عن نفسها باسم كريستال. كانت طويلة القامة وشقراء ولطيفة. بدت لطيفة جدًا. "ماذا تودان أن تأكلا اليوم؟".

سألت ذلك بطريقة لم تكن لتمنع الاندهاش بصدورها من فم أي نادلة في أميركا. ولكن بدت الطريقة التي طرحت بها كريستال السؤال وكأنها تحمل في طياتها مغزى خفيًّا. طلبت مشروبًا غازيًّا خاليًا من السكر، والذي حسبما علمت لا يحمل في طياته أي معنى خفيّ، بينما طلب أوليغ العصير- إلى أي مدى يعتبر هذا سلوكًا أميركيًا؟- وبدأ في تصفح قائمة الطعام.

كنت أشعر بالعصبية، وقد بدت الساعة ثقيلة على معصمي. حاولت ألا أحدق إليها، وجلت بنظري في أنحاء المطعم متحينًا اللحظة المناسبة التي يمكنني فيها الاستئذان. كنت أتعرق، وأردت رش بعض الماء على وجهي، كما كنت أحتاج إلى التبول. لذا، حين ذهبت كريستال لجلب ما طلبناه وانشغل أوليغ بالنظر إليها، استأذنت وشققت طريقي باتجاه مرحاض الرجال الواقع في نهاية المطعم.

كان المطعم في معظمه شاغرًا، و لم تكن الظهيرة قد حلت بعد. كما أن المباريات التمهيدية لموسم دوري كرة السلة لم تكن قد بدأت بعد في ذلك اليوم. وأثناء عبوري قاعة الطعام، لاحظت وجود تلفاز كبير تُذاع عليه مباريات البيسبول التي لُعبت بالأمس.

كان مرحاض الرجال فارغًا فاستخدمت المبولة، ثم تحققت من ساعتي فوجدت أن الضوء الأحمر يومض مثلما يفترض به أن يفعل. وبعد ذلك، سرت إلى الحوض لأغسل وجهي ويديّ. وبمجرد أن فتحت صنبور الماء البارد، فُتِح باب المرحاض واندفع عبره رجل أبيض البشرة وفي منتصف العمر. كان قصيرًا وممتلئًا ويعتمر قبعة جديدة خاصة بفريق نيويورك جتس. كان بوسعي معرفة أنها جديدة لأنها كانت مجعدة من الأعلى.

نظر إليّ، ولكنّني لم أبادله النظرات، وإنما ظللت أرمقه من طرف عيني. أشاح بوجهه بعيدًا نحو الجانب الآخر، وسار نحو إحدى الحجيرات، من دون أن يغلق الباب وراءه.

ومثلما حدث مع الرجل الذي رأيته في فنسنت كلام، لم ينبس بكلمة، ولم تُتح لي الفرصة لتبيّن لهجته. لكنه ما انفك يرمقني من فوق كتفه بطريقة بدت غريبة ومريبة. بدا كرجل قد تراه على الرصيف في جادة بروكلين أثناء غروب الشمس على شاطئ برايتون. هل اشتبه أوليغ في أنني أتسلل إلى مرحاض الرجال لإجراء اتصال ما؟ وهل اندفع الرجل البدين مسرعًا عندما لاحظ متأخرًا أنني قد استأذنت ونهضت مبتعدًا عن الطاولة؟ وهل حصل على قبعة فريق جتس الجديدة من خزانة خاصة بأحد موظفي البعثة الروسية الذي أكد له بثقة "الرجال في أميركا يعتمرون قبعات كهذه بالضبط عند ذهابهم إلى مطعم هوترز"؟ أم أنني كنت مبالِغًا في التشكك؟ لم يكن أمامي متسع من الوقت لتفكير في الأمر، فقد توجّب عليّ العودة إلى أوليغ.

بعد أن عدت إلى الطاولة وأعطينا كريستال طلبات الطعام الخاصة بنا؛ طبق شرائح اللحم لأوليغ، وسلطة خضراء مع دجاج مشوي لي، لاحظت أن أوليغ كان ينظر إلى الأعلى في اتجاه باب المطعم. كان الرجل البدين الـذي يعتمر قبعة فريق جتس يجلس إلى طاولة قريبة منا في حجرة الطعـام، وهـو يواجه اتجاهات مختلفة. هناك شيء ما مختلف شدّ انتباه أوليغ؛ وكان إحـدى فتيات المطعم، فتاة أفريقية أميركية أنيقة.

مال أوليغ إلى الأمام وكأنه على وشك عرض مقترح تجسسي جديـد، ولكنه لم يتحدث عن التجسس إطلاقًا، بل قال وهو يبتسم ويـومئ نحـو النادلة: "انظر، لديهم نادلات ذوات بشرة سوداء أيضًا".

كيف كان يُفترض بـي الرد على هذا؟ لـذا، تصـنّعت الضـحك وحاولت ألا أبصق المشروب الغازي، ثم رددت عليه مباشرة. "أجل". قلت ذلك بأقصى قدر من الصدق مثل رون بورغوندي في فـيلم *أنكورمـان* أو المذيع. "لدينا حركة تُعنى بالحقوق المدنية. لقد تظاهر الناس كـي تـتمكن النساء الجميلات ذوات البشرة السوداء من العمل في مطاعم هوترز".

لا أظنه فهم ما كنت أرمي إليه. لذا، تصفّحت قائمة الطعام، وسمحت لنفسي بإبداء ملاحظة ساخرة أخيرة. "أتعلم يا أوليغ؟ سمعت أنـه في وايـن بولاية نيوجيرسي، يعتبر مطعم هوترز بمنزلة مبنى الأمم المتحـدة لسلسـلة المطاعم بأكملها. أنت معتاد على التنوع، أليس كذلك؟".

أنا لا أتصنع الحياء، فقد زرت أماكن أكثر إثارة بكثير. وإذا اختار الناس العمل في مطعم مثل هوترز، فلمَ أكترث؟ إذا كان العملاء يريدون أن تُقدِّم لهم نادلات جميلات يرتدين قمصانًا ضيقة جدًا أجنحة الدجاج، فنحن في بلد الحريات. ولكن الجلوس هناك برفقة أوليغ في ظهيرة يوم الأحد ذاك أشعرني بعدم الارتياح؛ وكأن رئيسي كان يحتفل بمناسبة هامة في مستودع، أو وكأنّ

عمي كان يحتفل بذكرى ميلاده الستين في مطعم رخيص.

أحاول القيام بعملية تجسس دولية هنا. حبًا بالله يا أوليغ، كفى!

وكأن ذلك لم يكن مزعجًا بما يكفي، فقد كنت أسجّل كل ما يجري لصالح المكتب الفدرالي.

لم نتحدث عن العمل طوال وقت جلوسنا هناك. إذ كان اهتمامه منصبًا أكثر على شرائح اللحم سيئة المذاق والنادلات الجميلات، وكان يوجّه لي ابتسامات قليلة نادرة. لم يتمكن أوليغ من التركيز مجددًا إلا بعد أن خرجنا من هناك.

سألته: "هل بات بيننا اتفاق أم ماذا؟ يجب أن تدفع لي بصرف النظر عما تحتويه الوثائق، وليس بناءً على الهراء الخاص بتقييمها أولاً".

بدا أوليغ واثقًا من قدرته على الوفاء بذلك، ولكنه قال إنه سيحصل على مباركة الآخرين للاتفاق. وقال إنه سيحصل على رد قاطع بحلول موعد لقائنا التالي، ثم سلمني بطاقة تحمل موقعًا لمطعم بيتزيريا أونو عبر موقف السيارات الواقع قبالة هوترز.

بدا لي أن أميركا في نظر أوليغ ليست إلا قطاع تسوق طويل من سلاسل المطاعم السيئة. اعتقدت أنني أغوص في حزمة البطاقات الخاصة به حتى وصلت إلى البطاقات التي كُتب عليها أوليف غاردن أو كراكر باريل. كيف أمكننا تفويت مطاعم أبل بي وجوني روكتس؟

وقبل أن يمضي كل منا في حال سبيله، أفصح عن جولته المقبلة من الطلبات، وقال وهو يناولني ورقة: "إليك ما أود منك فعله. أريد منك أن تبحث في قاعدة بيانات مركز معلومات التقنية الدفاعي عن عدة تصنيفات عامة. أرِني ما يمكنك العثور عليه".

قلت: "تصنيفات". إذا كان المكتب الفدرالي لا يزال موافقًا على فكرة

دخولي المركز، فسأتمكن من العمل على التصنيفات. وأيًا كان التصنيف الذي سيقترحه أوليغ، كان بوسعي الدخول إلى محرك البحث، ثم جمع ما ستظهره قاعدة بيانات المركز، أيًا يكن.

نظرت إلى قائمته. ما كنت لأسميها عادية. إذ كان عنوان أحد البنود هو "أنظمة القتال المستقبلية"؛ وهو برنامج التحديث الرئيس الخاص بالجيش الأميركي الذي أطلقه في أوائل العقد الأول من الألفية ومنتصفه. بينما كان عنوان بند آخر هو "إف 22 رابتور"، وهو الجيل الخامس للطائرة المقاتلة الأسرع من الصوت الذي أُنتج لصالح القوات الجوية الأميركية من قبل شركة لوكهيد مارتن. كان أحد البنود التي شدت انتباهي هو "صواريخ كروز". لقد أخذ أوليغ باقتراحي!

أخبرته: "ثمة بعض المواضيع العامة للغاية. ما يمكنني فعله هو إنشاء فهرس. وهكذا، ستكون بحوزتك قائمة بالوثائق المتاحة".

فقال أوليغ ببعض الحماسة: "سنكون مهتمين بذلك". رغم أن حماسته لم تكن بقدر الحماسة التي أظهرها حين حدق إلى النادلات في مطعم هوترز.

بعد أن غادر أوليغ، قدت سيارتي مباشرة إلى مانهاتن. كنت قد وافقت على مقابلة تيد وتيري من أجل استجواب فوري في فندق مراكش. واندفعت هذه المرة متجاوزًا مكتب الاستقبال ومتجهًا إلى المصاعد.

وفي الغرفة، أخبرت تيد أنني أخذت بنصيحته وهددت بالانسحاب ما لم يسدد أوليغ الفاتورة المستحقة، وأنني وافقت على خطة تسديد المبلغ.

وقلت: "بدأ بالتراجع عن موقفه سريعًا".

فقال تيد: "أحسنت. أخبرتك أنه سيفعل ذلك".

في تلك اللحظة على وجه الخصوص، كان تأييد تيد لما فعلته يعني الكثير بالنسبة إليّ. فقد كنت أثق في خبرته وحكمه؛ إذ بدا تيد دومًا مدركًا لما يتحدث عنه.

أطلعتهما على ما حدث في موقف السيارات التابع للمطعم، فهزّ تيد وتيري رأسيهما لدى سماعهما اقتراح أوليغ الأحمق المتعلق بتقييم الوثائق. وقد سخرا بشدة من أوليغ وإعجابه بالنادلات في المطعم، ومن الإحراج الذي اعتراني. وسألني تيد: "هل قال ذلك حقًا بشأن النادلة سوداء البشرة؟! هل كان يعيش في كهف؟".

"قال ذلك". أكدت لهما بينما كانا ينفجران ضاحكين. لم يضحك العميلان على الروسي هكذا منذ أن أخبرتهما عن عادة جمع الكتب التي كان يمارسها.

كان الشهران الماضيان صعبين، ولكن اللقاء في ذلك اليوم قلل كثيرًا من التوتر الذي كنت لا أزال أشعر به. وقد قام تيد وتيري بعمل رائع بجعلي أشعر وكأنني كنت على وشك أن يتمّ قبول عضويتي في نادٍ خاص؛ على الرغم من أنني كنت مدركًا أنني لستُ عميلاً فدراليًا، وعليه فلن أحظى أبدًا بعضوية كاملة؛ مهما أصبحت مقربًا منهما.

وبمرور الوقت، أدركت إلى أي مدى يعتبر هذا عظيمًا. المكتب الفدرالي، والروس. هناك منظمات هائلة لها أجنداتها وثقافتها ونفوذها الخاص، وسوف تتعاون أو لا تتعاون؛ حسبما يلائم ذلك مصالحها ومواردها. ولكن، حين تكون في وضع مثل وضعي، عليك أن تعتني بنفسك. إذ ليس بمقدورك التأكد أبدًا من الذي يدعمك، أو إن كان ثمة أحد يدعمك على الإطلاق. ومن الممكن أن يتم ابتلاعك من أي من الجانبين بالقدر نفسه من السهولة.

ولهذا، مثّلت مغادرة تيد صدمة عنيفة بالنسبة إليّ. وقد تلقيت ذاك الخبر المفجع بعد يوم العمال مباشرة. إذ علمت أن تيد سيتولى مسؤولية مهام جديدة، وبصدد الانتقال مع زوجته إلى واشنطن. لقد أحببت تيد، فهو عميل موهوب للغاية وشخص صالح. وقد كان يدعمني بشدة منذ أن حلّ مكان

راندي. وكان ممتنًا لدافعي وموهبتي؛ حتى في تلك الأوقات التي أراد فيها خنقي. وبصرف النظر عما سمعتموه عن عملاء المكتب الفدرالي متبلدي المشاعر والمنقادين، لقد كان إنسانًا. كنا أنا وتيد وتيري نشكّل فريقًا بكل ما للكلمة من معنى. وحتى عندما شعرت بالغضب الشديد منهما، أدركت أنه توجد بيننا رابطة شخصية. وعندما لم تمضِ الأمور مثلما أردت، تولّد لديّ انطباع بأن اللوم يقع على عاتق أشخاص يفوقونهما سلطة. كنت أعتقد أن كلاً منهما يفعل ما في وسعه دومًا.

لم يكن تيد من محبي الحفلات، لذا لم نعانق بعضنا ولم نُقِم مأدبة وداع من أجله. وإنما قال وداعًا وحظًا طيبًا. "سأطمئن عليك كل حين. لقد كان العمل معك شرفًا بحق يا رجل. سوف تكون بين أيدٍ أمينة". كنت أعرف أنه متعب، وكذلك كنت أنا.

تلك "الأيدي الأمينة" كانت تخص عميلة تُدعى ليزا. كانت منخرطة في العملية بشكل سطحي حسبما عرفت؛ بمراقبتها زوجة أوليغ وابنته في الأيام التي كنت ألتقيه فيها. وبعد فترة قصيرة من رحيل تيد، اصطحبنا تيري أنا وليزا إلى غداء تعارف في مطعم هارفست أون هادسون، وهو مطعم راقٍ يقع في هاستنغز. وقد حاولت التحلي بالانفتاح.

بدت ليزا مثل عدّائي المسافات الطويلة. إذ كان شعرها قصيرًا وذا تسريحة أنيقة، وبدت سيدة من الغرب الأوسط تتمتع بصحة جيدة. وقد تخرجت من جامعة ويست بوينت، وقد خدمت ضمن صفوف ضباط الاحتياط في الجيش. وأثناء تأديتها الواجب، كانت قد خدمت في فرقة المشاة الخامسة والعشرين التي يقع مقرها في هاواي. كانت ودودة وذكية على ما يبدو، ولم أكن قادرًا على التفكير في أي سبب للاعتراض عليها باستثناء حقيقة أنها لم تكن تيد. كنت سعيدًا لأن تيري لن يبرح مكانه.

وأثناء الغداء، عبّرت عن مخاوفي من أن حادثة القرص المحمول يبدو أنها قد غيّرت العملية أكثر مما تمّ إخباري به. إذ لم يرُق لي الشعور بأنه لا تـــتم إحاطتي بكل ما يجري. وقد حاول كل من ليزا وتيري طمأنتي، وقالا إن شيئًا لن يحدث من دون علمي، وإنني سأحظى بفرصة لأدلي برأيي حـــول كـــل شيء. كما أكّدا على أهمية أن أبقى "لاعبًا ضمن الفريق".

فقلت: "بالطبع سأظل كذلك". ولكنني تذكرت أيضًا ذلك المشهد من فيلم *سباي غيم* أو لعبة التجسس عندما يُعبِّر ناثان موير عن مدى كرهه للأمر حين يتم إخباره أنه سيكون لاعبًا في الفريق. "في كل مرة أخبرني فيها المدرب بذلك، عرفت أنني سأجلس على دكة البدلاء".

"لا أريد الجلوس على دكة البدلاء". أخبرت كلاً من تيري وليزا.

فقال تيري: "لن تجلس على دكة البدلاء".

ربما لن يتم وضعي على دكة البدلاء، ولكن ألم ينضم لاعب جديد إلى القائمة؟ لقد تغيرت بعض قواعد اللعبة، وبعضها الآخر كان يتمّ تعزيزهـــا؛ وكأنني كنت مجندًا مبتدئًا متبلد الإحساس. لا بد أن لذلك معـــنى، ألـــيس كذلك؟

الفصل الرابع والعشرون

تغيير في الخطط

بدأ تيري حديثه بعد بضع جمل ترحيب باردة: "لقد تم اتخاذ قرار".

بدا ذلك نذير شؤم.

فرددت عليه محاولاً تقليده: "تمّ اتخاذ قرار؟! أي نوع من الهراء هذا؟".

أعتقد أن تيري قد شعر بالدهشة من قوة رد فعلي؛ إذ لم أكن أتحدث وأنا أبتسم بكل تأكيد.

كنا نجلس في موقف سيارات محشور بين طريق ويست سايد السريع ونهر هادسون عند الشارع رقم "خمسة وتسعون". فبناءً على تعليمات تيري، قدت سيارتي إلى هناك بعد أحد أيام العمل في أواخر شهر سبتمبر. أوقفت سيارة الكورفيت السوداء إلى جانب سيارة تيري سوداء اللون التابعة للحكومة من طراز فورد فيوجن، والتي حلت محل السيارة الأخرى التابعة للحكومة من طراز فورد تاورس سوداء اللون، ثم صعدت إليها برفقة العميلين.

تابع تيري الذي كان قد تفاجأ بمقاطعتي له توضيح ما كان يقصده، فقد قال: "لقد تم اتخاذ قرار بالإطاحة بأوليغ. لقد قررنا القيام بذلك، واعتقالك أمامه".

الجزء الأول من الكلام بدا منطقيًا للغاية، ولكنْ "اعتقالي!".

فأوضحت ليزا: "*ستتظاهر* باعتقالك".

كانت الشمس تغرب فوق هادسون، وكان المسافرون يسيرون مسرعين إلى بيوقم على الطريق السريع من خلفي. أما أمامي، فكان الناس يمرون بسرعة على الممر الواقع أمام واجهة النهر. وكان ثمة قاربا إبحار كبيران يتجهان عائدين إلى حوض القوارب للمبيت هناك. كانت السماء خليطًا بين اللونين البرتقالي والأزرق. ولكنني حدقت بتجهم من النافذة الأمامية نحو النهر، وخلفه إلى نيوجيرسي. بدا لي أن كل شيء ليس في مكانه. كنت قد بدأت الاعتياد على العمل بدون تيد، واستمرت ليزا في التحدث بنبرة لطيفة إليّ: "أنت شخص ذكي يا نافيد، ونحن ندرك ذلك". كان مديحًا متبوعًا دومًا بكلمة "ولكن"؛ سواء أنطقتها أم لا. والآن، باتت الخطة هي "اعتقالي"! فاشتعلت غضبًا.

جلس العميلان صامتين على المقعد الأمامي؛ انتظارًا لاستيعابي ما كانا يقولانه، أو ربما أرادا فحسب أن أهدأ.

تساءلت عن نوع الضغط الذي يتعرضان له من رؤسائهما. طوال وقتنا معًا، لم يناولني كل من تيد وتيري مسودة لخطة ما. كنا نجلس معًا ونفكر في أي شيء يبدو منطقيًا، بينما يقدم العميلان النصح والإشراف. ولكن، في نهاية المطاف، كنت أتولى أمر أوليغ بطريقتي أنا.

تذكرت على الفور فيلم *ميامي فايس* أو رذيلة ميامي. كان كل من كروكيت ونابز يتعقبان شبكة دولية لتجارة المخدرات على صلات بهاييتي وبورتوريكو ودبي وجنيف. ولكن المكتب الفدرالي يصرّ على أنه يتعين على الشرطة التركيز على تجار المخدرات المحليين الصغار. "لا مزيد من الكلام". يقول العميل فوجيما الذي يكره خوض المخاطر. "كل ما أسمعه هو تخمينات تبدو في ظاهرها كمعلومات".

فيقذف له كروكيت بمجموعة من المفاتيح.

"ما هذه؟". يسأله فوجيما.

فيجيبه كروكيت: "إنها مفاتيح القارب. اذهب واعتقل ذاك اللعين بنفسك".

يتدخل تابز في الحديث محاولاً ترجمة كلمات شريكه الغاضبة: "ما أراد قوله هو إنه يكره التخلي عن اختراق منظمة كبرى تتاجر في المخدرات".

عندها، يتحدث كروكيت بغضب: "نحن من نتحمل المخاطر هنا، ويريد منا التخلي عن ذلك! ومن أجل ماذا؟ عملية اعتقال كبرى حتى تُنشر صورته في صحيفة *ذي ميامي هيرالد*؟".

بجلوسي هناك في موقف السيارات وتحديقي نحو نهر هادسون، كنت أشعر مثلما شعر كل من كروكيت وتابز. في الواقع، لقد كان شعوري أقرب إلى شعور كروكيت.

لم أكن قد سمعت أي خبر من البحرية. وقد تملكني توتر شديد بسبب ذلك. فبعد ثلاث سنوات صعبة قضيتها في العمل كعميل مزدوج، كنت مستعدًا لفعل شيء آخر في حياتي. كنت أعرف أنني في لحظة ما سيتعين عليّ التركيز على مهنتي. ولكنني كنت أحسب أننا نضع أهدافًا كبرى ونفكر على المدى الطويل؛ مدى أطول من هذا. ودون سابق إنذار، بدا تيري كشخص يتحدث من بطنه، ويحدثني عن هراء "اتخاذ القرار" هذا.

هدّأت نفسي. ولا بد أن ليزا شعرت أنني أصبحت مستعدًا للاستماع فواصلت حديثها: "ليست لهذا أي علاقة بموضوع الحاسوب". أوضحت؛ على الرغم من أنني لم أسأل إن كانت للأمر علاقة. "يعتزم أوليغ مغادرة البلاد. نعلم أنه سيترك العمل في الأمم المتحدة، وسيحل شخص جديد محله".

كان هذا خبرًا جديدًا بالنسبة لي؛ إذ لم يكن أوليغ قد ذكر الأمر لي.

فتابعت ليزا كلامها: "إن هذا مجرد جزء من عملية المناوبة المعتادة في البعثة، ولكنه يمنحنا فرصة. فنحن لا نريده أن يغادر دون اتخاذ تحرك ما. ولعل فرصتنا الآن هي الفضلى".

ثم قال تيري: "هكذا نود إنجاز الأمر".

ما انفك كل من تيري وليزا يرددان كلمة نحن، وما انفككت أنا أتساءل: هل قصد حقًا قول هم؟

وواصل كلامه: "استنادًا إلى حقيقة أن أوليغ يستعد لمغادرة البلاد، نشعر أن لدينا فرصة لإرسال رسالة إلى الروس".

أدركت أن أوليغ سيغادر، وأدركت أن عملية المناوبة في البعثة الروسية لا يمكن التحكم فيها، وأدركت أن المكتب الفدرالي لا يريد السماح له بالمغادرة دون تحميله مسؤولية المحاولات المتكررة للحصول على معلومات حساسة مني. ولكنني كرهت فكرة التحرك ضد أوليغ بشكل قد يكتب نهاية لدوري كعميل مزدوج. فإذا قُبض عليّ أمام أوليغ، فلن يثق الروس بي مجددًا البتة بوصفي مصدرًا للمعلومات، وذلك سواء أعتقدوا أن عملية الاعتقال مزيفة أم لا.

في ذلك اليوم، سيكونون قلقين على الدوام من أنني كنت أعمل لصالح حكومة الولايات المتحدة، وأنني قد بدلت ولائي مقابل صفقة ما. ألن يلاحظوا أن- وعلى الرغم من اعتقالي الدرامي بتهمة الخيانة- اسمي لم يظهر قط في قائمة الأسماء الخاصة بمحكمة مانهاتن الفدرالية؟ ألن يلاحظوا أنني لم أكن في طريقي لقضاء عقوبة السجن لعقدين من الزمان في سجن شديد الحراسة؟ بمقدور الروس قراءة صحيفة محلية في نيويورك مثل الجميع، وما إن ننهي مسرحيتنا القصيرة مع أوليغ، ستكون أيامي كعميل مزدوج قد ولّت.

ويا له من توقيت بالغ السوء! بالضبط في الوقت الذي ربما سألتحق فيه

بالبحرية كضابط استخبارات مفوض. وبالضبط في الوقت نفسه الذي أقنعت فيه الروس أنني أكثر قيمة بالنسبة لهم. وبالضبط عندما كان أوليغ يهمّ بتمريري إلى خليفته بمصافحة حارة وتوصية واثقة.

على الجانب الآخر، على الأرجح كان ذلك الوقت هو الأمثل للمضي قدمًا. وما انفك صوت في رأسي - أم أنه كان صوت أفا؟ - يسأل إلى متى أريد عيش هذه الحياة المزدوجة. فأنا أعيشها منذ ثلاث سنوات، وقد يحدث الكثير في ثلاث سنوات، وقد تتعطل الكثير من الأمور أيضًا. كنا أنا وأفا متحمسين لتأسيس عائلة. فقد آن أوان التغيير بالنسبة لنا جميعًا، بمن في ذلك العميلان أيضًا. كان كل من تيري وزوجته قد رُزقا للتو بطفلهما الثاني. وانتقل تيد إلى وظيفته الجديدة.

طوال وقتنا معًا، لم يخبرني المكتب الفدرالي كيف ستكون النهاية. والآن، اتخذ شخص ما يفوقنا سلطة القرار الحاسم. لم أكن واثقًا مما إذا كانت قد تمت استشارة كلاً من تيري وليزا أو تيد في الأمر. وشعرت وكأنني مسافر يمر على طريق وعرة للغاية. لم يرُق لي ذلك، وقد احتجت إلى قيادة السيارة. وكلما فكرت في الأمر، قلّ شعوري بأن قرار المكتب الفدرالي كان صائبًا.

أوضح تيري الموقف قدر ما استطاع: "إذا اعتقد أوليغ أنه قد تم اعتقالك، فقد يضع ذلك حدًا لعمل أجهزة الاستخبارات الروسية بأسرها في نيويورك. ولن يكونوا قادرين على استبيان ما جرى، أو لماذا، أو من الذي جرى الإيقاع به، أو بمن يمكنهم الوثوق بعد الآن. لن يكونوا قادرين على التفريق بين الصديق والعدو".

لو كانت لديّ أي آمال بأن شخصًا ما يريد الاستماع إلى أفكاري فإن ليزا بددتها سريعًا. كان القرار نهائيًا. وكان العميلان يناقشان بالفعل المكان والطريقة المناسبة للقيام بذلك.

"نرغب في مرافقتك إلى المكان في أسرع وقت ممكن". قالت قبل أن أترجل من مؤخر سيارة الفيوجن وأصعد إلى داخل سيارتي كي أعود إلى المنزل. "سنمر على آليات التنفيذ، وكل الخدمات اللوجستية الخاصة بكيفية إنجازنا للأمر. وسنجعلك تشعر بالراحة مع كل شيء".

هذه المرة سيكون هناك كتيب إرشادات.

تعين عليّ أن أصفّي ذهني.

بدلاً من التوجه مباشرة من موقف السيارات إلى المنزل، قدت الكورفيت في جولة، وتبعت طريقًا مررت به في العديد من المرات، ولكن نادرًا ما كنت أفعل ذلك بالسرعة التي قدت بها هذه المرة. خرجت من موقف السيارات الكائن في الشارع "خمسة وتسعون"، ومررت على المنحدر الهابط الذي يؤدي جنوبًا صوب طريق ويست سايد السريع، ولم أنظر خلفي قطّ. كانت للسيارة ست سرعات، وكانت السرعة الثالثة تصل إلى مئة وعشرة أميال في الساعة. كنت أسير بسرعة كبيرة. وكانت تلك هي الطريقة المثلى التي أعرفها للتخلص من الأفكار الغاضبة التي تجوب في جنبات عقلي. فعندما أقود بهذه السرعة، ما كنت أنتبه كثيرًا لما يحدث على جانبي الطريق. توجهت مباشرة جنوبًا إلى طريق ويست سايد السريع ووصولاً إلى طريق ذي باتري، ثم عدت إلى شارع ديكمان الواقع في الطرف الشمالي لمانهاتن، حيث انعطفت مجددًا واتجهت صوب المنزل.

كانت سرعتي تزداد باضطراد شديد، وكدت أتمنى أن تستوقفني الشرطة؛ بما سيعد ضربة كبرى للمكتب الفدرالي. فقد كانوا في حاجة إليّ لإنجاز الأمر، ولم يكن ذلك ما أردت فعله. هل أبتعد عن الأمر برمته؟ أأرمي لهم المفاتيح، مثلما هدد كروكيت بأن يفعل؟ هل أهزّ كتفيّ فحسب وأقول "حظًا طيبًا يا رفاق"؟ أم ألتزم الصمت وأكمل ما كنت قد بدأته؟ لقد كانوا

يخاطرون بشدة. كانوا يعتقدون أن حقيقة أنني فعلت هذا منذ البداية كافية لإجباري على إنجاز الأمر بطريقتهم.

توقفت في المرأب الواقع في الشارع رقم مئة وعشرة. كانت السيارة ساخنة وتصدر ضجيجًا عاليًا على الدوام، وقد أجهدت محركها اليوم بشدة. كان المحرك شديد السخونة لدرجة أنني عندما أوقفت السيارة في المرأب، كان يصدر صوت طقطقة.

دلفت إلى المنزل، وقذفت بالمفاتيح في الوعاء، وتجاوزت أفا وأنا أحدق في حذائي.

رفعت عيناها عما كانت تعمل عليه وقالت لي: "لقد تأخرت. هل كل شيء بخير؟".

كان جوابي هو أنني طلبت وجبة يابانية.

"ماذا جرى؟".

فأخبرتها: "يريد المكتب الفدرالي إنهاء العملية برمتها. لا أصدق ذلك. بعد ثلاث سنوات من كل ذلك العمل، وبعد أن اقتربت بشدة من الالتحاق بالبحرية، هذا ما يريدون فعله!".

فسألتني: "لماذا يريدون فعل ذلك؟ أبسبب الملف؟".

أجبت: "ربما".

كان لدى أفا أسلوبها الخاص في إعادتي إلى المشكلة الأساسية في أي موقف؛ ولطالما كانت بارعة في ذلك. وقد قالت: "يتعين عليك اتخاذ قرار هنا. كُفّ عن السعي وراء موافقتهم، أو افعل هذا وتأقلم مع الأمر. لا بأس بكليهما. ولكن اتخذ قرارك!".

قلت إنني لستُ واثقًا من البدائل المتاحة أمامي حقًا. "بالأساس، يقول العميلان، افعلها".

لم يرُق الأمر لأفا. كانت تعتقد أنني أمنحهما سلطة أكثر بكثير مما ينبغي، وسألتني: "لَمَ تكترث لهما بشدة؟ وأي فارق سيحدثه ذلك؟ اتركهما فحسب. قل لهما: *شرّفني العمل معكما*. ذكّر نفسك: *لا بد أن أمضي في حياتي*. قُل: *هذا يفوق طاقتي. لديّ تجارة لا بد أن أديرها*. أنت لا تدين لهما بأي شيء. ولا يتعين عليك القيام بهذا. فقد فعلت أكثر مما يُطلب من معظم الناس فعله. ولا بأس في ترك الموضوع برمته".

صمتت قليلاً ثم أضافت: "نافيد، قلنا دومًا إنه إذا بلغ الأمر نقطة بعينها، فينبغي لك أن تتوقف فحسب. ولعله بلغ تلك النقطة".

تفهّمت ذلك، ولكنني كنت غاضبًا. وافتقارها إلى الشعور بالغضب تجاه المكتب الفدرالي زاد من غضبي أكثر. سألتها: "ألا تشعرين بأنهم يتخلصون مني؟".

أجابت أفا بهدوء: "لا يبدو أن أمامك الكثير من البدائل. فما يتعين عليك تحديده هو ما إذا كنت ستستمر أم لا".

كانت على حق، ولكنني علمت في قرارة نفسي البدائل التي يجب عليّ اختيارها. كنت قد اتخذت قرارًا بفعل هذا، والآن سأرى الأمر قد اكتمل؛ حتى لو كانت النهاية مختلفة عن تلك التي تصورتها. أجل، كم وددت أن أقول لهم تبًا لكم، ولكنني لم أكن على استعداد للابتعاد. فقد أردت المشاركة في هذه التحركات القليلة المتبقية. فبالشكل الذي خطط به المكتب الفدرالي للأمر، كان أمري قد انتهي بشكل أو بآخر.

قالت أفا: "فكّر مليًا في الأمر". ولم تقل "واجه الحقائق"، أو "انتهى الأمر".

بحلول الصباح، كنت قد قررت أنه من الأفضل الاستمرار. لم أكن على استعداد لإنهاء أيامي كجاسوس بشكل سيئ. أخبرت نفسي وأنا متردد أنه سيجري اعتقالي أمام الروسيّ، وأخبرت تيري الشيء ذاته عندما اتصل.

وفي صبيحة يوم السبت ذاك، توقفت السيارة السوداء الخاصة بتيري من نوع فيوجن أمام البناية التي أسكن فيها. كان ذلك يـوم تفقـد مسـرح الأحداث. وكانا هو وليزا يصحبانني إلى مطعم بيتزيريا أونو الواقع في وايـن بولاية نيوجيرسي، وذلك حيث قرر أوليغ عقد لقائنا القادم.

وكما جرت العادة، لم أكن على علم بموعد اتصال أوليغ، وإنما عرفت فحسب أنه عندما يتصل، فلن يكون أمامي متسع كبير من الوقت. فقد كان يرغب في لقائي في اليوم التالي مباشرة، أو خلال يومين كحد أقصى. لـذا، فمهما كان حجم التخطيط والإعداد الذي يتعين علينا إنجازه، مـا كـان بوسعنا الانتظار.

كانت الأجواء متوترة عندما صعدت إلى السيارة برفقة تيري وليزا، ولم أكن الوحيد الذي يشعر بذلك. كانت حركة المرور خانقة صباح ذلك اليوم خارج نفق لنكولن. تحركنا ببطء في جادة "أحد عشر" متجاوزين عدة أمتار قليلة. وما إن اتخذنا طريقنا عبر المنعطف الأيسر في شارع أربعـين، حـتى ظهرت امرأة شابة ترتدي زيّ شرطة نيويورك أمام نافذة مقعد تيري، ونقرت عليه مرتين. تجاهلها، ولكنها نقرت على النافذة مجددًا بإصرار أكبر قليلاً.

أخفض تيري زجاج النافذة ببطء، وسأل مستهجنًا: "مـاذا؟! الرخصـة والتسجيل". أجابت الضابطة، وهي تتحدث باقتضاب شديد مثلما فعل تيري.

لم يبرز تيري أي شيء.

قالت: "من غير القانوني وضع ألوان على النافذة الأمامية".

عند هذه النقطة، كان الغضب الواضح على وجه تيري قد تحول إلى شيء بدا وكأنه يقول: "هل أنتِ حمقاء؟"، لكنه كان لا يزال ملتزمًـا الصـمت، ثم أمسك ببطاقة موقف السيارات الخاص بالمكتب الفدرالي التي كانت مقلوبة على وجهها على حافة لوحة عدادات السيارة ورفعها في وجه الضابطة.

"أوه". كان ذلك كل ما قالته قبل أن تستدير وتخطـو مبتعـدة عـن السيارة. كان الجو في السيارة كريهًا للغاية، لدرجة أنني لم أنطـق بكلمـة. ولكن تسارعت فكرتان في رأسي: كيف أن تيري يتصرف بحماقـة، وقـد تمنيت بالفعل أن يُمسك بـي في المخالفة المرورية التالية! لكن رده الفظ على الشرطية بدا أنه لم يشعر تيري بأي بهجة. ولو أنه فعل أي شيء، فهو أنه زاد من غضبه. ساورني شعور بأنه لم يحب الاتجاه الذي كنا نسير فيه أكثر مني.

عبرنا النفق في نهاية المطاف، وسلك تيري الطريق رقم ثلاثة، ثم طريـق سيكوكس الجانبـي، ثم تابعنا طريقنا نحو سوق ويلوبروك وموقف سيارات مطعم بيتزيريا أونو الواقع خارج الطريق رقم "ثلاثة وعشرون". لم نتحدث في السيارة إلا قليلاً، لكننا بدأنا بالعمل بمجرد وصولنا إلى هناك.

بيّن لي تيري وليزا أين يتعين عليّ أن أوقف سيارتي عندما أخرج للقـاء أوليغ. كانا قد اختارا مساحة في الركن عبر طريق الخروج من مركز بـلازا للتسوق قبالة مطعم بيتزيريا أونو. دخلنا المطعم معًا، واتجهنا صوب طاولة تقع في الجانب الأقصى من حجرة الطعام. كان تيري وليزا يعرفان بشكل مسبق أين يريدان مني الجلوس. لا بد أنهما قد أتيا إلى المطعم من قبل ورتبا الأمـر. وكانا يعوّلان عليّ لتوجيه أوليغ إلى تلك الطاولة؛ حتى إذا فضّـل طاولـة أخرى، على الأرجح تلك التي تقف عندها أكثر النادلات إثارة.

كان المطعم فارغًا تقريبًا. جلبت لنا إحدى النادلات مشروبات غازية، وطلبنا وجبات الغداء، ثمّ أفصح العميلان عن السيناريو لي.

كانت الفكرة - حسبما فهمت - هي أن عملاء المكتـب الفـدرالي سينتظرون عند طاولة أخرى، وسيراقبون الأمور أثناء تحدثي مع أوليغ. وبناءً على إشارة مني، سيقبل العملاء ويتظاهرون باعتقالي. ولن تكون لدى أوليغ فكرة عما يجري أو ما قد يعنيه ذلك. كنا نأمل أن يتملكه نوع من الهلع. ثمّ؟

على ما يبدو، لم يقرر أحد ذلك لنا بعد. لم يرُق لي أن الخطة كانت ذات نهاية مفتوحة.

وقال تيري: "نود التحرك بينما أنتما لا تزالان جالسين إلى الطاولة. يمكننا السيطرة على الأجواء بشكل أفضل هكذا. إذ سيكون من الصعب عليه التحرك فجأة".

سألت ليزا بابتهاج: "هل يبدو هذا منطقيًا؟".

فقلت لهما: "كلّا بكل تأكيد". وفاجأهما بقولي ذاك، فتابعت شارحًا: "ماذا لو تعرّف أحدهم عليّ؟ لا أريد أن يراني شخص ما أعرفه صدفة وأنا أتعرض للاعتقال من قبل المباحث الفدرالية، ولا يسمع شيئًا آخر حيال الأمر. هذا محال. لستُ مرتاحًا لهذه الفكرة. علينا أن نفكر في شيء أفضل".

أحسست أن العميلين يعرفان فقط الخطوط العريضة لما يفترض بنا إنجازه؛ أي إحداث ضجة تثير دهشة أوليغ وهلعه، ولكنهما كانا يتوقعان تحديد معظم التفاصيل أثناء العملية.

سألت تيري: "حالما تعتقلونني، ماذا ستفعلون مع أوليغ؟".

فأجاب: "نحن في انتظار التوجيهات".

"هل ستعتقلونه؟".

فأجابت ليزا: "على الأرجح لا، فلديه حصانة دبلوماسية".

"هل ستكونون قادرين على استجوابه؟".

"لسنا متيقنين من ذلك. فنحن في انتظار معرفة ما يخص ذلك". هذا لا يبدو منطقيًا. فلماذا سيعتقلونني فيما يتركون أوليغ؟!

بالنسبة للمكتب الفدرالي وأي وكالات فدرالية أخرى ينسقون معها، كان الجزء الأخير المقبل من العملية مسألة معقدة. وقد أوضح تيري وليزا ذلك. بدا لي أن كلاً منهما يخضع لمتابعة دقيقة، ولا أعتقد أنهما أحبا ذلك

أكثر مني. ولكنّ العميلين احتاجا إلى التعاون من طرفي. كانا بحاجة إلى اتباعي التعليمات، كما احتاجا إلى تصرفي بذكاء. ولسوء حظهما، كنت أعارض بعناد فكرة اعتقالي المزيف في مطعم مزدحم أمام مجموعة من الأشخاص ربما كنت أعرفهم وربما لا. هل سيلتقط الزبائن الصور ويقومون بنشرها عبر الإنترنت؟ ماذا لو أن فريق آي وتنس للأخبار تصادف وجوده وهو يتناول الغداء إلى الطاولة المجاورة؟

انهمكنا في تناول طعامنا عندما وصلت الأطباق. حصلت على فطيرة دجاج مشوي وسلطة خضراء، بينما حصلت ليزا على السلطة فحسب، وحصل تيري على شريحة لحم دون أي خضراوات، ثم انشغل ثلاثتنا في رسم خطة بديلة.

قال تيري: "لا يمكن تغيير بعض الأمور. وإذا كنا بصدد اعتقالك، فلا بد أن تكون برفقة أوليغ. لن يكون لاعتقالك أي معنى ما لم يتواجد هناك ليشهد على ذلك بنفسه".

كان تيري محقًا في ذلك.

قلت: "إذًا، سيتعين علينا الخروج معًا، وستنجزان الأمر في موقف السيارات". لا يمكنني السماح لأوليغ بالخروج من المطعم قبلي أو بعدي مثلما كان يفعل عادة بناءً على احتياطات المراقبة الخاصة به المشابهة لاحتياطات المكتب الفدرالي. كان ذلك سيبدو مثل الظهور في مسرحية على مسرح برودواي في إحدى ليالي الثلاثاء المظلمة. كان العرض سيفوته. فكرت بأنه يتعين عليّ استخدام الاستراتيجية نفسها التي اتبعتها في مقهى فنسنت، عندما أغريته بالصعود إلى سيارتي الجيب للتحدث حول مركز معلومات التقنية الدفاعي.

قلت لليزا وتيري: "لا بد أن أخبره أن لديّ شيئًا ما في السيارة سيجده مثيرًا للغاية. تلك هي الطريقة الوحيدة التي سيفلح بها الأمر. لا بد أن يكون

شيئًا جذابًا للغاية، وسيتعين عليّ جعله يشعر أنه يريده بشدة".

بدا لي أن كلا العميلين قد راق لهما ذلك.

وقال تيري: "إذًا، ستجعله يترجل من السيارة، وسيكون لدينا عملاء في المطعم وفي موقف السيارات. ستُعطينا إشارة من نوعٍ ما، ثم سنتحرك نحن".

فسألته: "أي نوع من الإشارات؟".

"لا أدري. ستعتمر قبعة ثم تخلعها. هل تظن أنه يمكنك فعل ذلك؟ هل يمكنك أن تتذكر خلع القبعة؟".

للمرة الأولى خلال اليوم، كان تيري يسترخي بالقدر الذي يسمح لـه بمداعبتي. كانت تلك لغة أجيدها أكثر بكثير من قراءة كتيبات الإرشادات.

قلت: "تبًا لك. أجل، سأخلع القبعة، ولكنني لن أفعل ذلـك داخـل موقف السيارات".

اتصل أوليغ بهاتفي المحمول بعد ظهر يوم الجمعة، يوم 10 أكتوبر. كان أمامه متسع من الوقت، وأراد مقابلتي "ظهر الأحد" كما قال.

أخيرًا، العرض على وشك أن يبدأ.

وبما أننا أنجزنا تحققنا من مطعم أونو، قرر تيري وليزا أننا لسنا بحاجة إلى الالتقاء ثانية. ولكن، طوال يوم السبت، كنا نتحدث عبر الهاتف، ونراجـع كل شيء. ثمّ، وفي مساء يوم السبت، تغيّر شيء ما؛ فقد تلقيت اتصالاً آخر من تيري.

إذ قال لي: "لا تذهب غدًا".

"لا أذهب؟".

فقال: "لا تذهب. سنؤجل الأمر. الغد إجازة، لذا لا تذهب".

لم يمنحني تفسيرًا واضحًا لذلك، وإنما تم اتخاذ القرار فحسب - مجـددًا! - وأُخبِرت أنه لا يتعين عليّ مقابلة أوليغ يوم الأحد مثلما طلب مني أن أفعل. ربما

أراد المكتب الفدرالي أن يثير قلق أوليغ قليلاً. والأمر الوحيد الذي اتسم تـيري بالوضوح حوله هو أنه لا بدّ لي أن أمتنع عن الذهاب إلى مطعم أونو مثلما كان مخططًا.

وبدلاً من ذلك، طلب مني أن ألتقيهما عند الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي - وذلك بالضبط عندما كنت أهمّ بالتوجه إلى نيوجيرسي - في موقف السيارات الملحق بسوق فيرواي الواقع في هارلم عنـد تقـاطع جادة "اثنا عشر" والشارع رقم "مئة واثنان وثلاثون". أعتقـد أنهمـا أرادا التأكد من أنني لم أذهب للتنزه بمفردي إلى واين.

كان صباح يوم الأحد جميلاً، وكنا نطل على منظـر جـذاب لنـهر هادسون من موقف سيارات فيرواي. بدا اليوم مشرقًا وصافيًا. ولكنني كنت أشعر وكأن عاصفة رعدية ستهب.

قلت لتيري وليزا: "هذا مثير للاشمئزاز! أريد أن أنتهي من هذا الأمر. لا أفهم سبب عدم قدرتنا على القيام بذلك فحسب. ألا تحسنان التصرف معًا يا رفاق؟".

جلسنا هناك، وكان الوقت يمر. كان بوسعي ببساطة تخيّل أوليغ وهـو ينتظرني في المطعم، ويجول بناظريه على الطاولات الأخرى، ويسترق النظر إلى موقف السيارات، ويتساءل عن مكاني وما يعنيه غيابـي. كان يستحيل عليّ الاتصال به؛ إذ لم نكن ننجز الأمور هكذا. كلانا كنا نعرف أنه إذا عجـز أحدنا عن حضور اجتماع ما، فسنمضي قدمًا كالمعتاد، وسـأنتظر اتصـال بأوليغ بـي.

بعد إلغاء اللقاء، بدا لي أنه لا معنى لقضائي ساعات طويلة مع العميلين سوى أن يتأكدا من أنني لن أشعر بالرغبة في تناول بيتزا ذات عجينة سميكـة فجأة.

قال تيري محاولاً أن يهدئني ويساعد على مرور الوقت: "هذا ليس سوى تأجيل". ولكنه لم يخبرني بالسبب الذي يدفعنا إلى تأجيل الأمر. "سنكون مستعدين عندما يتصل أوليغ ثانية".

فسألته: "وماذا لو لم يتصل؟ ماذا لو كانت هذه هي النهاية؟ ماذا لو لم يتصل بي؟ ماذا لو كنا قد أفسدنا الأمر برمته؟ وماذا لو كان قد شعر بالفزع واتصل برؤسائه أو... اللعنة، قد يحدث أي شيء".

اتصل أوليغ أخيرًا، وكان ذلك بعد مرور أسبوعين. ولم يبدُ مختلفًا عما كان عليه في العادة، كما لم يأتِ على ذكر صبيحة يوم السبت التي تركته ينتظرني بها. اقترح أن نلتقي يوم الأحد في المكان نفسه المتفق عليه.

وقال العميلان هذه المرة: "لنفعلها".

الفصل الخامس والعشرون

اعتقال مزيف

لم يكن ثمة المزيد من التأجيل. كانت الخطة تسير وفق ما هو مخطط له.

غادرت الشقة بعد وقت قصير من الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد في الثامن والعشرين من أكتوبر. أخرجت سيارتي الكورفيت من المرأب، واتجهت نحو طريق ويست سايد السريع. كانت الحرارة قد تجاوزت ستين درجة فهرنهايت، وكان الصباح مشرقًا وصافيًا. كنت أرتدي بنطالاً من الجينز، وقميصًا أزرق اللون ذا كمين طويلين، واعتمرت قبعة فريق نيويورك موتور كلاب للبيسبول سوداء اللون. وكنت قد أدخلت بالفعل عنوان مطعم بيتزيريا أونو في جهاز تحديد المواقع، حيث يقع في ويست بيلت بلازا، جنوب الطريق رقم "ثلاثة وعشرون" في واين بولاية نيوجيرسي.

ثلاث سنوات مجهدة، وربع قرن من العلاقة مع العائلة، وآلاف الساعات من التفكير والتخطيط، والتوسل والمناشدة، والتملق والتنسيق، وجميعها وصلت إلى هذه النقطة. كنت على استعداد لإنهاء العملية، ولم أكن أتحمل فكرة انتهائها. كنت مستعدًا نفسيًا وجهدًا، وأشعر بالأمل والاكتئاب، ومركّزًا بأقصى قدر ممكن. كانت مشاعري متناقضة. وكانت أعصابي متوترة. وكانت نسبة الأدرينالين في جسدي مرتفعة جدًا.

عندما توقفت على جسر جورج واشنطن، لاحظت أن هاتفي لا يعمل. كانت الاتصالات تتحول مباشرة إلى البريد الصوتي دون أن يرن جرس الهاتف. كدت أظن أن أحدًا ما ربما يعبث معي. هل كان الروس يتجسسون على هاتفي؟ هل كان المكتب الفدرالي هو الذي يفعل ذلك؟ لم تحدث لي قطّ مشاكل في استقبال المكالمات في الجانب الغربي من مانهاتن. هل كنت أتخيل أمورًا ما؟ لقد كنت مجهدًا، ولا يمكنني إنكار ذلك.

اتصلت بتيري فسألني: "أنت بخير؟ كل شيء جاهز من ناحيتنا. سيرافقنا فرانك. إنه يجيد القيادة والسيطرة". ها قد ظهر اسم فرانك مجددًا. كنت قد بدأت أشعر بانخراط الفريق الأكبر في العمل.

وبينما كنت أتحدث إلى تيري، تلقيت رسالة تفيد بأن أفا قد اتصلت بي. ما الذي يحدث لهاتفي بحق الله؟

عاودت الاتصال بأفا. كان بوسعي القول إنها تنطق بكلمات. وعرفت أنها تتحدث الإنجليزية، وعرفت أنها غاضبة حيال أمر ما. ولكن ما كان بوسعي استيعاب ما كانت تحاول قوله. كانت تتذمّر - حسبما أظن - بشأن شيء ما حدث في العمل. قلت بوضوح: ""أوه، لا يمكنني فعل ذلك الآن فحسب".

اتصلت بتيري مجددًا، وأبلغته: "أنا على وشك الوصول إلى مركز التسوق، عند الطريق "ثلاثة وعشرون"".

اتصلت به مجددًا عندما وصلت إلى المكان المتفق عليه في موقف السيارات؛ ذاك الذي أراني إياه هو وليزا. كنت سعيدًا برؤية المساحة مفتوحة. إذ لم يخبرني أحد كيف يجدر بي التصرف إذا وجدتها مشغولة. أخذت نفسًا عميقًا، وبلعت لعابي. كنت جاهزًا للتحرك.

قال تيري: "حسنًا، حظًا طيبًا".

فقلت له: "حظًا طيبًا!! ما خطبك يا رجل؟ ما هذا؟ فيلم *مين إن بلاك* أو ذوي الرداء الأسود؟ أم *ستريتس أو فاير* أو الشوارع الملتهبة؟ هل سألقى حتفي هنا؟". لم أتمالك نفسي إطلاقًا، وتابعت: "أهذا يشبه "اكسر ساقًا" أو شيئًا من هذا القبيل؟ لا تخبرني بذلك الآن: أنا على وشك البدء بهذا. لا تكن مثل الطيار الذي يقول "أحبك" بالضبط عندما تسقط الطائرة".

كنت أعرف أن تيري الذي انخرط في الأمر منذ بدايته كان يحاول أن يقول شيئًا عميقًا ومؤثرًا. كان يحاول إيجاد الكلمات المناسبة، وقد أفسدت عليه ذلك. كنت على وشك أن أفقد أعصابي، ولكن الهياج بدد معظم التوتر من جسدي. لا تزال أمامي مهمة واحدة أخيرة.

بعد أن أخذت نفسًا عميقًا، اقتبست المقولة المفضلة لديّ لغاري بوزي من فيلم *بوينت بريك* "اتخذ موقعك، فقد حان وقت العرض".

قبيل مغادرتي للسيارة، تحققت من الساعة. كانت تشير إلى الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة. أقلها كانت الساعة تعمل. نظرت عبر النافذة إلى يساري، ثم إلى يميني، ثم خلفي. تأكدت من عدم وجود أحد في الجوار، ثم فتحت الباب وترجلت من السيارة.

انحنيت إلى الأسفل في موقف السيارات، وتظاهرت بربط شريط حذائي، ثم قمت بتعديل قبعتي.

قمت بتشغيل مُسجِّل الساعة ثم شددت حزامها، وتأكدت من أن ضوء التسجيل يومض. وقد كان كذلك.

كنت جاهزًا.

سرت عبر موقف السيارات الذي كان نصفه فارغًا نحو مدخل مطعم بيتزيريا أونو. كنت على بعد خطوات قليلة، وعندما أوشكت على الوصول إلى الباب سمعت صوتًا.

"نافيد".

التفتّ من فوق كتفي اليمنى فرأيت أوليغ. كان قد تمكن بشكل ما من التسلل نحوي. *تبًا!* فكرت في سري. *كان يفترض أن نلتقي في الداخل.*

حاولت ألا أبدو متفاجئًا. استدرت وابتسمت، ومددت يدي كي أصافحه، فمد يده وصافحني، ولم يفلتها على الفور. كان قلبي يخفق بقوة.

سألني: "كيف حالك؟ لقد كنت قلقًا عليك بالطبع".

فأجبت: "أنا بخير. سررتُ بلقائك".

"ماذا حدث في المرة الأخيرة؟". سألني وهو لا يزال متشبثًا بيدي، فتساءلت إن كان بوسعه الإحساس بتسارع نبضات قلبي.

"كانت لديّ ظروف عائلية. آسف، لم أستطع مغادرة المنزل. كانت إحدى المشكلات المعقدة. آسف".

فقال: "لا بأس، كل شيء على ما يرام".

"كنا نقيم حفل ذكرى ميلاد ابنة أختي، وقد اضطُررت إلى حضوره. آسف لأنني جعلتك تحضر مقابل لا شيء".

فقال: "اسمع، دعنا لا ندخل. هل تود العودة إلى مطعم هوترز؟ إنه هناك بالضبط". وأشار عبر موقف السيارات مترامي الأطراف.

تبًا، تبًا، تبًا!

"بالطبع". قلت مبتهجًا. لم أكن واثقًا على الإطلاق مما يجري. ألم يكن بعض العملاء متواجدين بالفعل داخل مطعم بيتزيريا أونو؟ هل سيعرفون أنني كنت هنا والآن أغادر؟ وكيف سيؤثر هذا على كل ما قاموا به؟ قام أوليغ بتغيير في الخطط في آخر لحظة. وكما حدث مع القرص المحمول، لم أستطع التفكير في سبب يجعلني أرفض، لذا قلت له: "لنذهب إلى مطعم هوترز".

لم يكن المطعم يقع على مسافة قريبة، بل كان يقع في النهاية المقابلة من موقف السيارات، وعبر طريق الخروج، على مسافة عشر دقائق سيرًا على الأقدام. لعله ما كان يجب عليّ أن أندهش من التغيير في اللحظة الأخيرة. فقد كنت على علم مسبق بمدى عشقه لمطعم هوترز.

لم يكن أوليغ يسهِّل الأمور على المكتب الفدرالي أو عليّ. ولا بدّ أن العملاء قد بدأوا بالهرولة داخل المطعم وخارجه؛ على الرغم من أنه لم يكن لدي سبيل للتيقن من ذلك. هل سيتوجهون إلى مطعم هوترز ويتخذون مواقعهم؟ كنت أتفهم أنه مهما كان ما سيفعلونه، فعليّ أن أخرج أوليغ من المطعم وأتجه به نحو السيارة.

عندما دخلنا مطعم هوترز، كان ممتلئًا بكامله. كانت أجهزة التلفاز تعمل، وكانت وجبات الغداء ومشروبات الكوكتيل تمهد الطريق أثناء المباريات المزمع إقامتها في ذلك اليوم. كان الحشد المتواجد يوم الأحد يهتف بالفعل لأمسية حافلة بمباريات كرة القدم الأميركية.

كان من المقرر أن تبدأ مباراة فريقي غايانتس وبتسبيرغ ستيلرز عند الساعة الواحدة ظهرًا، وكان من الممكن لأي أحد تخمين سبب ارتدائي ساعة G-Shock.

عندما اقتربت النادلة بقميصها الضيق وسروالها القصير- كانت شقراء هذه المرة وذات صدر كبير كالأخريات- لم أكن أشعر بالجوع على الإطلاق. ولكننا طلبنا طبق أجنحة دجاج معتدلة الطهي، بينما حصل أوليغ على السمك ورقائق البطاطا، وطلبت شريحة لحم، وحصل كلانا على مشروب كوكاكولا. كنت قد جربت السلطة في المرة الأخيرة، ولكننا الآن في مطعم هوترز. اقتبست جملة من كتاب التغذية الخاص بتيري: لماذا التفكير حتى فيما هو صحي أو غير صحي؟

لم أكن واثقًا ممّا كان يجري حولي. كنت أحاول تقييم ما يعنيه تغـــيير الخطة في اللحظة الأخيرة بالنسبة للمكتب الفدرالي. افترضت أنهم يهرولـــون يمينًا ويسارًا في محاولة للعثور على مواقع لأنفسهم، وحاولـــت ألا أنظـــر إلى جهة الباب في كل مرة يدخل فيها زبون جديد.

في قلب ضجيج المطعم المزدحم، مال أوليغ عبر الطاولة وبدأ يسألني عن مركز معلومات التقنية الدفاعي. كان من الواضح أنه مهتم بفكـــرة قاعـــدة البيانات بأسرها.

أراد أن يعرف: "ما نوع الأبحاث الأخرى التي يمكنك اســـتخراجها؟ لمَ يستغرق الأمر وقتًا طويلاً جدًا حتى تطلب الوثائق؟ ألـــيس لـــديك الحـــق بالوصول إلى ما هو أكثر من هذا؟".

كانت كلماته مباشرة بما يكفي، ولكنه لم يكن قادرًا على منع نفسه؛ إذ كان يعود مجددًا إلى فكرة التنازل الروسية تلك، تلك النبرة الـــتي قالـــت لي "لسنا معجبين بما يمكنك تسليمه، ولكننا نود مواصلة استغلالك". لم يكـــن ذلك أسلوبًا جيدًا لتحفيزي، ولكن لا بدّ أنهم كان يدرّسونه في مدرسة تعليم التجسس الروسية، وما فتئ أوليغ يجرب ذلك معي.

كنت أفكر وقتها: *سنرى كيف ستكون غير سعيد عندما تكتشف أنني كنت أتلاعب بك*. وعلى الرغم ممّا كنت أشعر به، فقد تعين عليّ التركيـــز على العمل الذي بين يدي. كانت مهمتي- حتى والنهاية تلوح في الأفـــق- أن أتظاهر بأن الأمور تسير إلى الأمام، وذلك كي أحفزه وأنجز المهمة بشكل لا يثير شكوكًا لديه. سوف ألهب شهيته بلا رحمة، وأستخرج من محفظتـــه أقصى قدر من المال. لا بدّ لي أن أكون شـــابًا أميركيًـــا خائنًـــا ودنيويًـــا بالكاد يعرفه. وفي هذه اللحظات الأخيرة، إلى أي مـــدى ســـيكون ذلـــك صعبًا؟

لن يتعين عليّ تسليم أيٍّ ممّا كنت قد وعدت بتسليمه، إذ سيكون العملاء الفدراليون قد اقتحموا المكان حينئذٍ. بوسعي تقديم وعد لأوليغ بأي شيء. التحدي الوحيد الحقيقي أمامي هو أن أخرجه وأجعله يتّجه إلى السيارة. افترضت أن بعض العملاء متواجدون داخل مطعم هوترز، إذ كان العديدون منهم يعيشون في هذا الجزء من نيوجيرسي. وكل ما كنت أعرفه هو أنهم كانوا يتسكعون في هذا المقهى تحديدًا بعد ظهر كل يوم أحد، فيلتهمون شرائح الموتزاريلا المقلية ويشاهدون المباراة. ولا بدّ أنهم رأونا ونحن ننعطف خارج مطعم أونو ونسير معًا عبر موقف السيارات، أليس كذلك؟

قلت لأوليغ واضعًا حدًّا لأسئلته: "انظر، يمكنني جلب المزيد لك، أكثر بكثير، ولكنني أريد أن يُدفع لي".

فسألني: "هل جلبت المواد السابقة؟". كان يتحدث عن وثائق تتعلق بأنظمة القتال المستقبلية الخاصة بالقوات البحرية، ومقاتلة اف-22 رابتور، وصواريخ كروز.

فأجبت: "لديّ الكثير من الأغراض لك في السيارة. لم أشأ حقًا جلبها إلى داخل المطعم. يسعدني أن آتيك بالمزيد. يمكنك تصفحها إن شئت. وإنما أود حماية الطريقة التي أجري بها عمليات البحث، ولا بدّ أن تدفع لي".

بدأ يسأل بشأن تصنيفات أخرى، مستخدمًا مصطلحات عسكرية تقنية لم أعرف سوى القليل منها: "هل تعرف ما المقصود بها؟".

فقلت: "لا يهم. أخبرني فقط بما تريده، وسأبحث عنه فحسب. يمكنك أن تعطيني المزيد من العناوين. يمكننا إنجاح الأمر".

كنت أحاول أن أبالغ في قدراتي، وكان هو يزداد حماسةً، وواصلت أنا الضغط.

واصلت حديثي: "أود التحدث عن العمل أولاً. كم تحمل من المال؟ إذا كنت سأسلمك ما جلبته لك، فأنا أريد كل ما معك من أموال".

فقال: "أعتقد أنك ستشعر بالبهجة".

حينئذٍ، وبينما طلبنا من النادلة أن تجلب لنا الفاتورة، أخبرني أوليغ بما كنت على علمٍ مُسبَق به، وهو أن مهمته في نيويورك قد انتهت، وأنه سيغادر قريبًا عائدًا إلى وطنه.

أخبرني وقد غدت نبرته أكثر ودًّا ودفئًا: "آسف لأنني سأغادر. ولكن، لا تقلق. فسأعرّفك على الأشخاص الجدد. إنهم متحمسون للغاية للقائك، وسيتعاونون معك بشكل وثيق".

أخبرته أن كل ما قاله بدا لطيفًا، وأننا سنرى ما يحمله المستقبل لنا. ولكن، ألم يكن لدينا عمل علينا الاهتمام به أولاً؟ أبقيت الأمر بسيطًا؛ مثلما فعلت دومًا مع أوليغ ومع المكتب الفدرالي. قلت: "ستعطيني الأموال، ثم سنتجه إلى السيارة، وسأعطيك الملفات التي بحوزتي".

فوافق على اقتراحي: "أجل".

بدا أوليغ متحمسًا بشأن كل شيء وعدته به. ولكن بالنسبة له، كانت كل دقيقة جلسناها إلى الطاولة بمثابة دقيقة تأخير لانتصاره العظيم. وبقدر ما كان مهتمًا، كان سيعود إلى وطنه بطلاً، وسيترك خلفه عميلاً ذا قيمة. بدا مغرورًا، وواثقًا من نفسه تمامًا.

طلبت الفاتورة، ثم نهضنا كي نغادر.

كان وعدي بتسليمه ملفات قيّمة أحتفظ بها في السيارة زائفًا تمامًا. كنت أهذي بشكل كامل؛ إذ لم يكن لديّ شيء في صندوق الكورفيت سوى صندوق فارغ وتشكيلة من الأدوات. وفي اللحظة التي سأفتح فيها صندوق السيارة لأوليغ، وقبل أن يدرك أنه قد تمّ خداعه، سيندفع العملاء من

كل الاتجاهات، وستنتهي هذه السنوات الثلاث الدرامية، ولن تكون ثمة أهمية لما يوجد أو لا يوجد في صندوق السيارة، ولن تكون ثمة أهمية لما كان أوليغ يتوقعه خلافًا لذلك، ولن تكون ثمة أهمية لمقدار ما دفعه من أموال.

سأفتح صندوق السيارة، وسأخلع قبعتي بينما هو ينظر إلى داخل الصندوق. سيشبه ذلك سباقًا بين سيارتَي تاورس وفيوجن داخل موقف السيارات، وسيندفع العملاء نحونا بسياراتهم، وسيتغير عالم أوليغ إلى الأبد، وستنتهي رحلتي كعميل أمريكي مزدوج ذاتي التعلم إلى الأبد.

ما إن خرجنا من مطعم هوترز، حتى سلّمني أوليغ مغلفًا أبيض سميكًا، وقال: "إنه يحتوي على عشرين ألف دولار. أخبرتك أنك ستكون سعيدًا".

أومأت دون أن أنطق بكلمة واحدة.

وعندما بدأنا السير معًا عبر موقف السيارات المشمس، لم أكن قادرًا على رؤية الكورفيت السوداء في بادئ الأمر. كان أحد مسارات الخروج مزدحمًا في المنطقة الواقعة بين مطعم هوترز وموقف سيارات مطعم أونو. حظينا أنا وأوليغ بلحظات أخيرة معًا، فحاولت الاستفادة منها. كانت تلك تقريبًا آخر فرصة متاحة لي. فعلى بعد خطوات قليلة من مكان وقوفنا، ربما لن أرى أوليغ مجددًا.

قلت بينما كنا قد بدأنا بالسير باتجاه سيارتي: "لديّ بعض الأخبار لك أيضًا. إنه خبر عظيم". كنت أعرف مدى كره أوليغ للمفاجآت. نظر إليّ وقد بدا متحمسًا بشكل ما، وقلقًا بشكل آخر. "تسلمت برقية من البحرية؛ لقد تمّ قبولي".

"تمّ قبولك؟ هذا رائع!". قال مبتهجًا.

"سأغدو ضابط استخبارات في البحرية الأميركية".

"تهانينا! هذا خبر رائع! هل تحمل نسخة من البرقية؟". لطالما أحب أوليغ الوثائق.

"ليست معي الآن".

فقال: "أرني إياها لاحقًا".

كان هذا الخبر- حاله كحال الوثـــائق الـــتي تنتظرنـــا في صـــندوق الكورفيت- مجرد مبالغة ليس أكثر. إذ لم يكن بوسعي أن أريه البرقية حتى لو أردت ذلك لأنها لم تكن قد وصلت بعد. كنت أعـــرف أن مجلـــس الإدارة سيجتمع عما قريب، وقد لاحظت مؤشرات مبشرة للغاية تشير إلى أن الرد سيكون إيجابيًا. ولكن، لم يتمّ اتخاذ قرار رسمي بعد، ناهيك عن إرساله لي.

ومع ذلك، شعرت بالمتعة لقولي هذا، وقد بدا أن أوليغ مستمتع بسماع ذلك أكثر مني. "هذا ممتاز". قال مجددًا. وبالنظر إلى قِصر مستقبلنا معًـــا، لَم أخفِ عن شريكي المزعوم في التجسس شيئًا مثيرًا أخيرًا؟ بالنسبة لي، كـــان ذلك بمثابة إثبات أخير على براعتي الفائقة في الكذب على العدو. لم أكـــن على يقين مما إذا كنت أتحلى بالود أم الوقاحة. ولكن مثلما فعلت دومًا مـــع أوليغ والمكتب الفدرالي، دفعت بالأمور مباشرة إلى الأمام.

كان ممر الخروج من موقف السيارات مزدحمًا؛ إذ كان تناول الغداء في المطاعم الصغيرة يوم الأحد أمرًا شائعًا للغاية في واين. وبينما وقفنا أنا وأوليغ على الرصيف في انتظار إنارة مصباح ضوء المشاة، أدخل يده في جيبه وأخرج قصاصة ورق وناولني إياها. ألقيت عليها نظرة سريعة، ووجدت أنها احتوت على شبكة من السطور والمربعات المكتوبة يدويًا مـــع قائمـــة بالوظـــائف الحكومية كثيرة العدد ومن مستويات عليا ودنيا، ومستويات السرية الرسميـــة الخاصة بها: سرية للغاية، وسرية، ومقيدة، وهلمّ جرًا.

سألت أوليغ: "ما هذه؟".

فقال: "هذه هي الرموز الخاصة بمستويات التصريح المختلفة. اعتقـــدت أنك ستود إلقاء نظرة عليها".

وكان يقصد جميعها بلا استثناء. بدأت الوظائف من أدنى مستوى "مدني"، وصولاً إلى أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ، بل وحتى "رئيس الولايات المتحدة".

ثم قال وهو يشير إلى مربع في الثلث الأدنى من المخطط البياني: "أنت هنا الآن. لديك الحق في الوصول إلى مواد يجري التحكم في نشرها، وكل شيء أدنى من ذلك. وهذا جيد. ولكن، انظر أين ستكون عندما تصبح ضابط استخبارات في البحرية". وأشار إلى بقعة تعلو ستة مربعات أو ثمانية في الشبكة كان أحدهم بالفعل قد أشار إليها بقلم رصاص. "إنه فارق كبير". قال مبتسمًا ابتسامة كبيرة.

"فارق كبير". وافقته الرأي.

ومّما كنت أعرفه عن التصنيفات الحكومية، كان الجدول دقيقًا على الأرجح، على الرغم من أنني لم أرَ قط التفاصيل العملية للوصول إلى وثائق سرية وقد تم نشرها بوضوح شديد هكذا. هل حصل على هذا المخطط من الحكومة الأميركية؟ أم أن الروس قد اختلقوه بأنفسهم؟ ما كان يجب عليّ أن أندهش؛ فالسرية محور عمل أوليغ.

لم أمنح أوليغ الفرصة لاستعادة المخطط البياني. وبالضبط بينما كان ضوء الإشارة يتغير، طويت الورقة إلى نصفين ووضعتها في جيبي، ومشيت عندما انجلى المرور. لا يجب عليّ أن أفرّط في شيء كهذا.

أخبرت أوليغ: "ثمة الكثير جدًا غير هذا مما بوسعي جلبه لك".

فقال: "سيكون هذا جيدًا للغاية".

"آمل ذلك". رددت عليه.

بدا أوليغ تواقًا بينما كنا نسير ونتحدث؛ وكأنه شعر بالفخر بمصدر المعلومات الذي ضمنه لبلاده؛ ذلك الأميركي الشاب الذي كان مقتنعًا أنه

يمسك به بيديه. وللمرة الأولى، تحدث معي كما لو كان يعتــرف بقــدراتي ويشعر بالامتنان لما قد حققته.

قال: "نود أن نقيم لك حفلاً كبيرًا. موسيقى وشراب. سيكون الأمــر مرحًا. وسيكون حفلاً كبيرًا للغاية".

أصغيت إلى ما قاله دون أن أنطق بكلمة.

وواصل كلامه: "ستحصل على عدة حسابات مصرفية، وستكون لــديك خطة تقاعد، وستعامل كشخص محترف حقيقي. إنهم متحمسون جدًا لفعــل ذلك".

لم يذكر من يكونون "هم" بالضبط. وافترضت أنــه يقصــد مديريــه أو زملاءه في مقر عمله. في موسكو؟ في البعثة؟ ربمــا في كليهمــا. لكنــه أوضح لي أنه بصرف النظر عمن يكونون، فقد كانوا ســعداء للغايــة بمــا كنت قادرًا على فعله لهم، وبسبب كل الوثائق التي تمكنت مــن الحصــول عليها.

ونظرًا إلى موقعي الجديد في الاستخبارات البحرية، كانوا يتوقعون أكثر من ذلك بكثير.

سرنا أنا وأوليغ في طريق متعرج عبر موقف السيارات. وعندما وصــلنا إلى السيارة، اتبعت الخطة بالضبط مثلما اتفقت مع العميلين. وقت الارتجال قد ولّى، وقد حفّزت وعودي المجانية أوليغ على فعل ما أردت منــه فعلــه. والآن، بدا جاهلاً تمامًا لما يحمله له المستقبل.

أخبرته وأنا أمسك بمفتاح السيارة في يدي: "كلها موجودة هنا".

اقترب خطوة أكثر.

نقرت على الزر، فانفتح صندوق السيارة.

مال داخله.

اختلست نظرة من فوق كتفي اليمنى فلم أرَ أحدًا في الجوار. وضعت المغلف الممتلئ الذي يحتوي على الأموال على أرضية صندوق السيارة بيدي اليسرى؛ مباشرة بجانب الصندوق الفارغ.

مال أوليغ كي يرى ما وضعته في الداخل، وحدق بعينين نصف مغمضتين بسبب سطوع شمس ما بعد الظهيرة على صندوق السيارة. لم أسقط باب الصندوق على رأسه هذه المرة.

وبينما كان ينظر إلى داخل الصندوق، ابتعدت خطوة إلى الوراء عن ممتص الصدمات الأمامي للسيارة، ونظرت إلى يساري ثم إلى يميني، ولم أرَ أحدًا بعد.

وبيدي اليمنى، قمت بإزالة القبعة عن رأسي، وأخفضتها إلى جانبي.

سادت لحظة من الصمت.

كان رأس أوليغ لا يزال داخل صندوق السيارة؛ إذ كان يحدّق داخل الصندوق حيث يفترض تواجد الوثائق، ولكنه منح عينيه لحظة للتكيف مع لمعان ضوء الشمس. بدأ يدير رأسه نحوي وكأنه يسأل: "أين تلك الوثائق؟" ولكنه لم يحصل على أي رد مني.

وبعد مرور لحظة أخرى، تحوّل هدوء موقف السيارات إلى ضجة مدوية.

فمن العدم، دخلت ثلاث سيارات مسرعة من الجهة اليمنى؛ بلا أنوار أو صافرات إنذار. فقط ثلاث سيارات من طراز فورد فيوجن، سيارة تيري السوداء، بالإضافة إلى واحدة فضية وأخرى ذهبية، كلها من طراز 2007 أو 2008. كنت بكل تأكيد الفائز في مسابقة أروع سيارة يومئذٍ.

توقفت كل السيارات في وقت واحد على بعد أقدام قليلة منا فقط. وفي لحظة واحدة، انفتحت خمسة أبواب، وقفز خمسة عملاء فدراليين منها. ها هما تيري وليزا، فريقي المباشر.

مثل بطل الفيلم الذي حوصر فجأة من قبل السلطات، رفعتُ كلتا يديّ إلى مستوى كتفيّ تعبيرًا عن استعدادي للاستسلام.

كان هناك عميلان شابان لم أتبيّن هويتيهما. وكان هناك فرانك- المشرف على العملية- الذي كان تيري قد أشار إليه. وقد وقف عميلان آخران يتابعان ما يجري.

وقف أحد العملاء الشبان بجواري بينما كنت أواجه أوليغ، وسألني العميل: "من هذا؟".

لم أُجب.

فصاح مجددًا: "من يكون هذا بالنسبة لك؟".

فأجبت: "لا أحد".

فصاح مرة أخرى: "من؟".

كان يتحدث بينما كنتُ أحدق صوب أوليغ. بدا الأمر برمته تجربة غير عادية، وكأنني أقف هناك وأراقب الوضع وهو ينهار.

لم يكفّ العميل عن الإلحاح: "ما اسمه؟".

فأجبت: "باشا".

باشا؟ من أين أتيت بهذا الاسم؟

أعرف من أين أتيت به. ففي الليلة السابقة، وبينما كنت أحاول الحفاظ على هدوئي من أجل مغامرتي الكبرى، كنا أنا وأفا نشاهد برنامج *So You Think You Can Dance* على التلفاز، وكان هناك متسابق يُدعى باشا.

سار تيري متجهًا نحو صندوق الكورفيت المفتوح، وصاح مخاطبًا فرانك: "لديّ هنا شيء ما يا زعيم". كان يمسك بالمغلّف الأبيض الضخم الذي يحتوي على أموال أوليغ، ثم استدار نحوي وسألني: "ما هذا؟". كان ذلك تيري، العميل الذي رافقني لأطول مدة، والذي يعرفني أكثر من أي شخص آخر.

بعد نطقي بالاسم، لم أتفوّه بأي شيء آخر. ولم يكن أوليغ قد تفوّه بشيء بعد. لم يمسسه أحد، ووقف في مكانه وعيناه مفتوحتان على وسعهما، ووجهه يكشف عن قدر ضئيل جدًّا من القلق الذي لا بدّ أنه يعصف برأسه.

سرَت خاطرة في عقلي: *انظروا إلى أوليغ، كم يبدو وحيدًا في هذا الكون!* تفهمت شعوره بالقلق، وراقبته بينما كان يحاول التظاهر بعدم فهمه ما يجري. ففي طرفة عين، تحولت أكثر الأمسيات بهجة في حياته إلى أسوأ فوضى بالنسبة له.

العملاء في سياراتهم من طراز فورد فيوجن.

وأنا يُقبض عليّ أمامه.

الأمل المثير الذي شعر به قبل لحظات، ورحيله الوشيك، وفيض الوثائق الذي وُعِد به، والتحاقي بالبحرية الذي طال انتظاره، وجدول المستويات الوظيفية المدهش، والحديث عن الحفل حيث الموسيقى واحتساء الشراب، والحسابات المصرفية المتعددة، وخطة التقاعد، وهذا الانتصار الذي كان على وشك تذوقه؛ كلها سُرقت فجأة من قبضته القوية.

لم يجفل قطّ.

وبالنسبة لهم، استحق العملاء جائزة الأوسكار.

سأل أحد العملاء وهو يبدأ بتفتيشي: "هل ثمة أي شيء في جيوبك قد يجرحني؟ هل بحوزتك أي شيء حاد على الإطلاق؟".

لاحظت أن أوليغ لم يبدِ أي اهتمام بـي؛ بهذا الأميركي الشاب الذي كان يمدحه بشدة قبل لحظات. لم يقل شيئًا لحمايتي، ولم يتحدث إلى العملاء بالنيابة عني، لم يقل شيئًا لأي أحد.

وبصرف النظر عن الامتنان الصادق الذي شعر به أو قلقه على سلامتي- وأعتقد أنه لم يكن شديدًا على أي حال- فقد طغى عليه بشكل واضح خوفه

على نفسه، وتدريبه العسكري، ورغبته في حماية نفسه.

ودون أن ينبس ببنت شفة، أدار ظهره لي وبدأ بالابتعاد ببطء.

لم يضع أحد الأصفاد في يديّ، و لم أتبين السبب. ولكن تمّ دفعي إلى مؤخر سيارة فورد فيوجن الذهبية. وجلس العميلان الأصغر سنًا على المقعدين الأماميين. وبالسرعة نفسها التي تحلقوا بها حولنا، غادر العملاء بسياراتهم.

لم أتمكن من رؤية وجه أوليغ من النافذة الخلفية؛ إذ كان يسير خارجًا من موقف السيارات. وكل ما تمكنت من رؤيته هو هيئته القصيرة والبدينة وهي تبتعد بصمت.

لم يبتعد بي العميلان في سيارة الفيوجن الذهبية، وإنما ابتعدنا بما يكفي للتأكد من أن أوليغ قد غادر وما عاد بوسعه رؤيتنا، ثم أوقفا السيارة.

قال أحد العميلين وهو يستدير على مقعده: "بالمناسبة، اسمي فريد، وهذا سام. كلانا مسروران بلقائك".

وقال سام: "أحسنت صنعًا".

قال فريد: "إنجاز جيد للغاية. اعتدنا العمل مع والديك".

توجّها بي نحو الطابق الثالث من موقف سيارات قريب. وعندما صعدنا إلى هناك، وجدته ممتلئًا بالعملاء ورجال الشرطة. لم أتبيّن هويات معظمهم؛ إذ كان هناك ما لا يقل عن دزينة من السيارات، وبين عشرين إلى خمسة وعشرين شخصًا. لم يخطر ببالي أن أشخاصًا عديدين كانوا يعملون خلف الكواليس. فقد كنا قد بدأنا بمجموعة صغيرة جدًا، تتكون من عميلين بالإضافة إليّ، وانظروا إلى أيّ حد تمدد الأمر! بدا لي أنهم جميعًا على علم بما حدث. وبالمقارنة مع التوتر الجنوني الذي ساد في موقف السيارات، كان الجو في المرأب احتفاليًا وهادئًا. إذ كانت مجموعة من العاملين في مجال تنفيذ القانون، يهنئون بعضهم بعضًا، كما قاموا جميعًا بتهنئتي.

كان المشهد سرياليًا. رأيت شخصين يحملان أكياسًا فيها بقايا طعام من مطعم بيتزيريا أونو. كان يمكنني فقط تصور الطريقة التي اكتشفوا بها حدوث تبدل في الخطة ورحيلهم عن المطعم، ولكن ليس وهم يحملون طعامهم.

كان هناك أشخاص آخرون يتحدثون عبر اللاسلكي، وذلك لمعرفة آخر التطورات من العملاء المكلفين بتتبع أوليغ إلى المدينة.

سألني تيري: "هل أعجبتك جزئية التسابق؟".

فقلت: "أعجبتني بشدة".

وقال تيري بعد أن لاحظ كيف كنت أصغي بالاهتمام إلى النقاش الدائر عبر اللاسلكي بشأن أوليغ. "اسمع، إنه في طريقه لمغادرة البلاد، وقد انتهت حياته المهنية منذ اللحظة. والله وحده يعلم ماذا سيكون مصيره عندما يعود إلى وطنه. لن يكون جيدًا". سلّمني مفاتيح الكورفيت؛ إذ لم يرغبوا بتواجدي في الجوار. "يتعين عليك الذهاب الآن".

سألت تيري: "هل نحن واثقون من مغادرته؟". كنت أعرف أنهم بارعون في ما يفعلونه، ولكنني كنت بحاجة إلى سماع أن أوليغ لم يكن يراقبنا من خلف صندوق بريد ما أو أنه يختبئ أسفل كرسيّ سيارته.

فطمأنني تيري: "لقد رحل ولن ينظر خلفه".

"هل سأمرّ به على الطريق السريع؟".

"هذا غير مرجح بشدة".

"ما مقدار الخطر الذي ينتظرني؟ ماذا عن عائلتي؟".

"لا خطر على الإطلاق".

أومأت. بدوا واثقين من أن أوليغ قد خرج من حياتي، وأن سنين عملي كعميل مزدوج والنظر من فوق كتفي قد انتهت بحق.

صعدت إلى السيارة، ثم أدرت المفتاح واستمعت إلى صوت هدير المحرك الباعث غلى الراحة. كانوا قد منحوا أوليغ وقتًا كافيًا حتى يسبقني بمسافة كبيرة. وقد وافقت على أنه قد حان الوقت للخروج من هنا.

كانت الأفكار تتسارع في عقلي؛ بل وحتى أسرع من السرعة التي أقود بها عادة.

هل كان الروس قلقين بشأن سلامتي؟ هذا غير مرجح بشدة. هل كانوا قلقين بشأن ما قد أكشف عنه؟ لا شك في ذلك. كيف ينظرون الآن إلى العلاقة التي ظلت قائمة بيننا لثلاث سنوات، أو العشرين سنة التي عرفوا فيها عائلتي؟

في اللحظة الراهنة، ما كان بوسع أحد معرفة ما سيحدث بعد ذلك. ولكن، وبينما كنت ألقي آخر نظرة على الاحتفال القائم في المرأب، أدركت أنني أشعر بالانتصار. والله وحده يعلم كيف كان الروس يشعرون. ولكن، على سبيل الاحتياط، اتخذت طريقًا غير مباشر أثناء عودتي إلى الشارع رقم "ستة وتسعون".

الفصل السادس والعشرون

مرحلة النصر

تلقيت رسالة بريد صوتي من جولي، ولكنني فوّتها بشكل ما. وقبـــل أن أعاود الاتصال بها، تسللت إلى خارج المكتب وركبت المصعد إلى الطـــابق الرابع من البناية. كان المكان فارغًا في الأعلى، وهو ما كان مثاليًا للتحـــدث عبر الهواتف دون أن يسمعك أحد. ومهما كان الخبر الذي تحمله إليّ جولي، لم أرد أن يسمعه مكتب ممتلئ بالآذان الفضولية.

ردت جولي على الفور، ولم تفرط في الترحاب، بل قالـــت: "اسمـــع، ثمانينا. لقد عرفت للتوّ أنه قد تم قبولك".

أجل!

بدا إعلان جولي حقيقة لا تقبل الشك. أما ردّي فلم يكن كذلك. فقد صرخت: "يا إلهي! لا يمكنني أن أصدق ذلك! هل تمّ قبولي حقًا؟". كنـــت أتحدث بصوتٍ عالٍ ومفعم بالإثارة. ولو كنت في المكتب، لحملق الجميـــع بـــي.

لم يكن هذا حلمًا. لقد تمّ قبولي، وقد أكدت لي جولي ذلك للتـــو. "لا يفاجئني ذلك على الإطلاق. ولكنني سعيدة لأنني من يزفّ لك النبأ. هـــذا إنجاز عظيم يا نافيد. لقد عملت بكدٍّ من أجل هذا/ستّ سنوات".

"شكرًا جزيلاً لكِ على كل شيء!". قلت ذلك وقد التقطت أنفاسي أخيرًا بما يكفي لنطق جملة كاملة. "أقدر حقًا ما فعلته. هل سأتسلّم برقية أو ما شابه؟ ما التالي؟".

ضحكت جولي، وقالت: "على غير المألوف، لا ترسل البحرية عادة برقيات إلى المتقدمين الناجحين، وإنما يرسلون البرقيات فقط في حال لم يتمّ قبولك. أما إذا تمّ قبولك، فيكتفون باتصال هاتفي".

أيًا يكن، لم أهتمّ ببروتوكول التواصل. بوسعهم إبلاغي بالخبر عبر طائرة ورقية إذا شاؤوا ذلك، طالما أن الرد إيجابي.

قالت جولي: "ثمة رسالة قبول في النظام، ويمكنني طباعة واحدة لك إن شئت. وإنما لا ترى البحرية أن ثمة حاجة لإرسالها".

فسألتها: "وماذا عن أدائي القسم؟".

حسبما أوضحت جولي، لم تكن البحرية تقيم حفلاً للملتحقين الجدد أيضًا. "الأمر عائد إلى الفرد". بعض الأشخاص يوقّعون النماذج فحسب ويعيدون إرسالها، دون إقامة أي حفلات على الإطلاق. بينما يختار آخرون إقامة حفل أداء قسم عام بحضور الأصدقاء وأفراد العائلة وزملاء العمل واستعراض ضخم. إلا أن جولي كانت لديها فكرة مختلفة لي.

سألتني: "ما رأيك في القيام بشيء أكثر خصوصية قليلاً؟ إن شئت، يمكننا إقامة حفل خاص لك هنا في المكتب. لقد فعلنا ذلك من قبل. ويمكنك اصطحاب زوجتك، ودعوة أصدقائك من المكتب الفدرالي. سيكون احتفالاً ضيقًا للغاية".

أعجبتني الفكرة. فقد التحقت بالبحرية بشكل غير تقليدي إطلاقًا، فلمَ لا يعكس أدائي القسم تفرّد هذا المسار؟ لم تكن أفا من هواة التفاخر والاحتفال، بل كانت المرأة التي فوّتت حفل تخرجها من جامعة كولومبيا، و لم

تسمع اسمها وهو ينادى بوصفها إحدى الطالبات المتفوقات في فصلها، وذلك لأنها رافقتني من أجل اختيار قطة. إلى جانب أنني أعجبت بحقيقة أن اثنين من العملاء اللذين عملت معهما عن كثب سيتواجدان هناك معي. ومثلما تعلمت في السنوات التي أمضيناها معًا، إن هذين الرفيقين لا يحبان المجازفة بسرية عملهما. ولكن، حفل صغير في مكتب التجنيد التابع للبحرية؟ لِمَ لا!

لم تكن البحرية الطرف الوحيد الذي يخطط لإقامة حفل، فقد تبيّن لي أن المكتب الفدرالي أراد إقامة احتفال أيضًا.

اتصل بي تيري كي يبلغني بأن رؤساءه في المكتب الفدرالي أرادوا مني الحضور إلى المكتب وقبول امتنان المباحث الفدرالية بشكل رسمي. فأخبرت تيري بأنني لست واثقًا من رغبتي في ذلك، إذ لم أشترك في الأمر من أجل هذا. فقال تيري: "بحق الله". لم أعارض الأمر طويلاً، إذ كنت ممتنًا لهذه اللفتة. فخلال سنوات عملي الثلاث برفقة تيري وتيد وعملاء مكافحة التجسس في نيويورك، لم تُوَجّه إليّ أي دعوة لزيارة المكتب. فقد كنا نلتقي في الخارج دومًا.

مازحت تيري قائلاً: "أتقصد أنني أخيرًا أصبحت واحدًا منكم؟".

فضحك وقال: "يمكنك اصطحاب زوجتك. أريد منك أن تلتقي رؤسائي. لا أدري بالضبط من سيتمكن من الحضور، ولكن سيكون هناك بعض المسؤولين البارزين. وهم متحمسون للغاية لاقتناص فرصة لقائك".

"ربما سنخرج لتناول العشاء بعد الحفل. يتعين عليك أن تأكل، أليس كذلك؟".

كان يجدر بنا أنا وأفا استقلال المترو للوصول إلى مكان التجمع الصغير حيث سنلتقي عملاء المكتب الفدرالي. أدركت ذلك بعد خمس دقائق من مغادرتنا المنزل. ونظرًا إلى السنوات العديدة التي قضيناها في أنحاء مدينة نيويورك، قد يُخيل إليك أننا خبيران في تجنب ساعة الذروة في حركة المرور.

لكن أفا كانت في الشهر الخامس من حملها، واعتقدت أننا سنعود إلى المنزل في وقت متأخر، لذا استقللنا سيارة أجرة نحو قلب المدينة.

ولكن، كانت فكرة سيئة للغاية.

كانت حركة المرور في مانهاتن مزدحمة بشدة. وكان يفترض بنا الوصول إلى عنوان 26 فديرال بلازا عند الخامسة عصرًا. اتصلت بتيري معتذرًا بينما كنا نسير في طريق ويست سايد السريع. كررت كلامي مرارًا: "كان يجدر بنا أن نستقل القطار، أعلم".

استغرق الأمر منا ساعة وعشر دقائق في رحلة كان يُفترض بها أن تستغرق نصف ساعة فقط. وصلنا، ونحن متوتران ونشعر بالقليل من الإحراج، متأخرين عن موعدنا أربعين دقيقة. كم كنت موظفًا مرنًا! لم يكن بمقدوري حتى حضور احتفال في موعده!

قابلني تيري في البهو، فقلت له:

"أنا آسف يا رجل".

فقال بنبرة ممتعضة: "لا عليك بشأن ذلك، سينتظرون". وأشار لنا بالعبور من الحواجز الأمنية، وهرع بنا صوب مصعد خاص.

فقلت بعد أن انغلق باب المصعد وبدأنا رحلة صعودنا السريعة إلى الجناح التنفيذي في المكتب الفدرالي: "مصعد لطيف. هل هذا هو المصعد الذي تستقله للوصول إلى المكتب؟".

فأجاب: "خلال كل تلك السنوات التي عملت فيها في مكتب نيويورك، لم أستقل هذا المصعد". أظن أنه كان يتحدث بجدية. فقالت لي أفا دون تحفظ: "هذا غريب!". ولكن تعليق تيري في ما يتعلق بالمصعد كان المؤشر الأول بالنسبة لي حول مدى كون زيارتنا فريدة. الكريبتونايت الأخضر ورؤساؤه، علاقة سرية حتى النهاية.

قادنا تيري إلى داخل حجرة اجتماعات فارغة. كان هناك علم أميركي في ركن الحجرة وتلفاز كبير الحجم، كما كانت هناك سجادة زرقاء فاخرة على الأرض. وكان كل من ليزا وأحد المصورين في الانتظار عندما وصلنا إلى هناك.

من حجرة الاجتماعات، كان بوسعي رؤية مساحة واسعة تضم مكاتب وخزائن للملفات تمتد عبر الحجرة المفتوحة. وكانت معظم المكاتب شاغرة في مثل هذا الوقت المتأخر من اليوم، وقد انضم إلينا كل من فرانك وجيري. ثم دخل شخص أصلع وطويل وحسن المظهر. لم أتعرف عليه في بادئ الأمر؛ على الرغم من أنني لاحظت أن العملاء الآخرين يحترمونه كثيرًا.

وبينما كان يجري حوارات قصيرة مع الآخرين في الحجرة، همس لي تيري أن هذا الرجل هو الأول في المكتب الفدرالي في نيويورك. كان المدير المساعد للمكتب الفدرالي في المكتب الميداني في نيويورك، وهو أكبر مكتب للمباحث الفدرالية في البلاد. وقد جعل منه هذا المسؤول عن بعض أكثر الملفات أهمية وبالغة السرية التي يتولاها المكتب الفدرالي. وكان هناك حوالي ألف شخص يخضعون لسلطته.

قال لي بحماسة، وهو يمدّ يده لمصافحتي: "كيف الحال؟ أنا جو ديمارست. سمعت أنك مررت بمشاكل مرورية".

فأجبت بخجل: "قليلاً".

وعلى الرغم من مسؤولياته الجسيمة، ما كان من الممكن لديمارست أن يكون أكثر لطفًا وامتنانًا، إذ قال: "مقابلتك أمر لطيف جدًّا. أنا سعيد للغاية لأنك تمكنت من الحضور اليوم من أجل هذه المناسبة الخاصة".

بدا حريصًا بشكل خاص على التحدث مع أفا، فقد قال لها: "يجدر بكِ الشعور بالفخر بزوجك. فقد أنجز عملاً مهمًا كثيرًا لوطنه، وقام بمساهمة فريدة. آمل أنكِ تتفهمين أهمية ذلك".

فأجابت أفا: "أعتقد أنني كذلك".

تحدثا معًا لعدة دقائق. لم أستمع إلى كل ما قيل بينهما، ولكنّ ما سمعته حمل الكثير من الإطراء. كنت ممتنًا له لتحدثه مع زوجتي بهذا الشكل. لا أدري إن كان قد ظن أنني لم أخبر أفا بأي مما كنت أفعله، أم أدرك مقدار ما تعرفه بالفعل. فأنا لم أكن قد تحدثت بالتفصيل مع تيد وتيري وليزا حول ما أفصحت عنه لها. ولكن، بدا أن الزعيم حريص على أن تعرف زوجتي أنّ الدور الذي لعبته كان غير عادي بشكل كبير، وأنه كان ذا أهمية كبرى.

حتى ذلك الحفل، لا أعتقد أنني كنت مدركًا مدى تقدير المكتب الفدرالي لما فعلته. فلطالما ظننت أنه إنجاز كبير، ولكن هذا كان رأيي أنا فقط. أما الآن، عند استماعي إلى ذلك من شخص له مكانته في المكتب الفدرالي، بدأت أدرك مدى عظمة ما أنجزته.

بدا كل شيء سرياليًا؛ أي أن أقف هنا في حجرة الاجتماعات هذه برفقة رئيس المكتب الميداني الخاص بالمباحث الفدرالية في نيويورك، وأستمع إلى مديح شديد يعظّم ما أنجزته. لم أكن معتادًا على مثل هذا النوع من لفت الانتباه، فقد أمضيت ثلاث سنوات في العمل متخفيًا حبًا بالله. وما كان لأحد أن يعرف ما أنا مقبل عليه. في الحقيقة، لم أكن معتادًا على لفت الانتباه على الإطلاق.

قال ديمارست أخيرًا: "حسنًا، لنفعل هذا".

عندما وقفت بجواره وبدأ المصور بالتقاط الصور، بدأ مساعد المدير بالتحدث وقال: "نيابة عن مكتب التحقيقات الفدرالي، نودّ أن نشكرك على تعاونك ومساعدتك. لقد كان أمرًا رائعًا بحق. لقد قمت بعمل عظيم".

وسلّمني شهادة تقدير ذات إطار لم يسمح لي الوقت بقراءتها، ثم قال: "وأود أن أمنحك شيكًا". كان المبلغ أكثر بقليل من خمسة عشر ألف دولار صُرفت لي. لم يكن مقدار المال مجرد صدفة؛ فقد كان ذلك هو المبلغ الذي

احتوت عليه الحزمة الأخيرة التي أعطاني إياها أوليغ وسلمتها إلى العميلين.

نظر إلى كل من تيري وليزا وأضاف: "ولدينا شيء آخر منهما، أليس كذلك؟".

أكد تيري على كلامه، وأعلن وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة: "كوب كُتب عليه: المكتب الفدرالي يظفر بالرجل المناسب دومًا!".

كنت على علم بأن جي. إدغار هوفر قد قال ذلك. وتيم كوري- الذي قام بدور عميل فدرالي متخفٍّ في هيئة كبير خدم في فيلم *كلو* أو تلميح- قالها أيضًا. والآن، بحوزتي كوب يحمل ذاك الاقتباس. أعجبتني الرسالة، فقد كانت شديدة الوضوح وبيّنة.

شكرت ديمارست على تعليقاته اللطيفة، وشكرت الآخرين على حضورهم. "كنت سأصل باكرًا لو أنني علمت أنني سأحصل على كوب رائع". ثم أخبرت ديمارست والآخرين كم كان مُشرِّفًا لي أن أنخرط في قضية هامة ومثيرة كهذه، وكم كنت محظوظًا لعملي بجوار أولئك العملاء. وختمت حديثي بالقول: "بوصفي مدنيًا، أدرك أنه من النادر أن تتم دعوة أحد ما إلى داخل المكتب على هذا النحو. شكرًا جزيلاً لكم جميعًا".

ابتسم ديمارست وأومأ برأسه، وقبل أن يقول لنا طابت ليلتكم قال: "على الأقل، أعتقد أنكم يا رفاق تستحقون عشاءً لائقًا بعيدًا عن هنا". وتحوّل نحو كل من ليزا وتيد وتيري ورئيس فرانك الذي كان يرفع التقارير إلى ديمارست وبدا مثل المدافع في لعبة كرة القدم الأميركية. "هل ستصطحبون السيد جمالي وزوجته إلى مكان لائق؟".

فقالت ليزا: "بكل تأكيد".

ثم توجّهنا أنا وأفا وجيري وليزا وتيري وفرانك إلى مطعم فرنسي يقع على بعد خطوات قليلة من المكتب. أتيحت لي الفرصة لقراءة شهادة التقدير

التي سلمني إياها ديمارست. كانت مكتوبة بترويسة رسمية، وزارة العدل الأميركية، قرطاسية مكتب التحقيقات الفدرالي، وقد كتب فيها:

"يسعدني أن أنضمّ إلى زملائي العملاء في نيويورك في توجيه الشكر لك على مساهمتك العظيمة في الأمن القومي لأمتنا. فعلى مدى فترة ممتدة، كنت قد كرست وقتك ومصادرك لتسهيل جهودنا لحماية وطننا. لقد مكّنتنا أفكارك وحماستك وإخلاصك من تحقيق النجاح في مجال حيوي ضمن مسؤوليتنا. يحق لك الفخر بالدور الذي لعبته والنجاح الذي حققته".

كانت شهادة التقدير موقعة من قبل جوزيف إم. ديمارست، المدير المساعد المسؤول عن شعبة نيويورك الخاصة بمكتب التحقيقات الفدرالي التابع للولايات المتحدة.

تناولنا وجبة رائعة، وقد قضت أفا التي سمعت الكثير جدًا بشأن العملاء- ولا سيما تيري- القليل من الوقت معهم أخيرًا. عرفت بعض الأشياء، واكتشفت أن فرانك قد عاش في ويستشستر؛ ليس بعيدًا عن المكان الذي نشأت فيه. قال إن لديه ابنة في جامعة ساني بورشيز. بينما تحدثت ليزا التي كنت على علم بأنها تخرجت من جامعة ويست بوينت، عن الفترة التي عملت فيها كقائد في الجيش، وعن رحلتها إلى العراق. أثناء خدمتها هناك، تبنت قطًا شاردًا، ثم جلبته معها إلى الوطن. لا بد أن ذلك لم يكن سهلاً؛ وذلك حسب ما أعرفه عن البيروقراطية في الجيش. كان ذلك جانبًا طيبًا من ليزا لم ألحظه من قبل، أو لعلها لم تظهره قط.

أخبرنا جيري كيف أنه عمل ذات يوم في فرنسا، وكيف أنه قاد سيارة من طراز بي أم دبليو، وكيف كانت السيارة سهلة القيادة.

سيارة بي إم دبليو؟! ابتسمت بشكل مهذب، وفكرت مع سري: *يا صاح، لا فكرة لديك عن سهولة القيادة.*

طرح جيري أسئلة على الجميع؛ أفا وأنا وبقية العملاء. وبدا أنه لا يعرفهم بشكل جيد. كان لديه الكثير من الأشخاص الذين يعملون تحت إمرته. وحتى بعد السنوات التي أمضيتها مع العميلين، شعرت بمزيج غريب من القلق والإثارة بجلوسي إلى مائدة العشاء هناك، وأنا أضحك وأتحدث وأعامل على قدم المساواة من قبل مشرف على عملاء مكافحة تجسس تابعين للمكتب الفدرالي. كنت قد عملت معهم، وكنت أعتبرهم زملاء في فريقي. لكنني لم أكن مطلقًا واحدًا منهم. وكدت أعتقد أن أحدهم سيقترب من الطاولة ويقول لي: "سيدي، هذه طاولة مخصصة لعملاء المكتب الفدرالي فقط. ماذا تفعل هنا؟".

دار بيني وبين تيري المزاح المعتاد. أخبرته أن مرحاض المطعم ربما يكون أجمل من حجرة المعيشة في بيته. ورغم أنني لم أكن أعتزم أن أثقل عليه أمام رؤسائه، إلا أنني لم أقوَ على مقاومة القليل من الوخز: "هل تودّ تناول الجزر الليلة؟ هل تريد القليل من الحمّص؟ على الأرجح ستفضل قطع البطاطا المقلية. أظن أنك بمأمن هنا".

"لا أريد خضراوات، رجاءً".

"لا شيء صحي من أي نوع تقصد. أنت الشخص الوحيد الذي أعرفه يشرب الكولا بانتظام. بالنسبة لك، الكولا الخالية من السكر طعام صحي". لم يردّ تيري على كلامي، ولكنني كنت عاجزًا عن التوقف. "لقد مرّ وقت طويل منذ أن أكلتَ أي شيء صحي. لا أعتقد أن جسدك يمكنه تحمل صدمة في نظامك الغذائي. وليس على الأشرار تسميمك بالأنثراكس، فمن الممكن حقنك بالبازيلاء الجافة".

في لحظة ما، جذبني فرانك جانبًا وقال: "أتعلم؟ في كل مرة التقاك فيها رجالي، عادوا إلى المكتب مطأطئي الرؤوس. وكانوا يرمون بأنفسهم على

كراسيهم وهم يبدون شديدي الغضب والتعب. ولطالما شعروا أن الأمر يستحق، ولكنهم أدركوا أيضًا أن لا شيء سيكون سهلاً معك".

لم يبدُ فرانك وكأنه يتذمر، وإنما كان يخبرني بالأمر فقط. أدركت أن هناك تحديات بعينها باتخاذي شريكًا. فقد كنت أتعلم أثناء العملية، ولم ترُق لي دومًا القواعد التي يتعيّن على المكتب الفدرالي الالتزام بها. وقد أبديت إصرارًا على الانخراط بشدة أكثر مما قد يفعله أي مدنيّ آخر. كان ذلك كله جزءًا من جاذبيتي الشخصية، ولكنه أيضًا كان جزءًا جعلني بمثابة صداع في الرأس.

وقال فرانك: "قدرتك على إغضابهم لا نظير لها".

الآن، ربما يشعر بعض الناس بالإهانة بسبب ذلك، ولكن ليس أنا. فقد اعتبرت أن ما قاله أحد أهم تعابير الثناء التي تلقيتها على الإطلاق في حياتي، وهو كلام شعرت بفخر شديد لسماعه، فقلت: "شكرًا لك يا فرانك. هذا لطف شديد منك".

لا أعتقد أن هذا كان رد الفعل الذي كان يتوقعه.

قبيل عودتنا إلى المنزل في تلك الليلة، كان لديّ شيء أود الإفصاح عنه، ولكنني كنت أشعر بالتردد لذكره باكرًا، إذ لم أكن واثقًا من رد فعل العملاء عليه. أما الآن فقد زال الخطر؛ فقد انتهت القضية رسميًا، ولم تعد ثمة حاجة إلى المزيد من الأسرار.

سألت كلاً من ليزا وتيري قبل أن ننهض: "هل تودّان رؤية شيء ما؟". وشمرت كميّ، فنظرا عن قرب على ذراعي. "هل تميزان ما هو مكتوب؟".

سألني تيري: "هل هذه شيفرة مورس؟ نقاط وشرطات، أليس كذلك؟ لقد مرّ زمن طويل منذ أن تركت فرقة الكشافة. ما المكتوب؟".

فقلت: "الكريبتونايت الأخضر. على شرف تيد".

قالت ليزا: "رائع، لقد وضعت اسمك المستعار كوشم على ذراعك! لا بدّ أنك متفانٍ بشدة. أقرّ لك بذلك".

هزّ تيري رأسه فقط وقال: "أنا سعيد جدًا لأننا لم نعرف عن الأمر من قبل. إذ كنا سنضطر إلى ملء نماذج، والإجابة عن أسئلة من رؤسائنا على الأقل لمدة ثلاثة أشهر". وتوقف عن الكلام، ونظر إليّ عن قرب وقال: "وضعت اسمك المستعار كوشم على ذراعك!".

الفصل السابع والعشرون

شارة تحمل اسم جمالي

منذ سنوات، كنت أسمع عن كوانتكو.

تعتبر قاعدة فيلق المارينز المعروفة باسم كوانتكو- المُقامة على مساحة 385 فدانًا مزروعًا في فيرجينيا- موطن منشأة التدريب الرئيسة التابعة لمكتب التحقيقات الفدرالي، والتي تعرف بأكاديمية مكتب التحقيقات الفدرالي. كوانتكو هي المكان الذي يذهب إليه المجندون الجدد والعملاء ذوو الخبرة للتعلم وصقل مهاراتهم. كما أن حرم الأكاديمية الممتد هو موطن مختبر الجريمة الخاص بالمكتب الفدرالي، والمعروف رسميًا باسم مركز بحوث الطب الشرعي والتدريب، والعديد من البرامج الأخرى التي تدعم تطبيق القانون الفدرالي، بما في ذلك وحدة تحليل السلوك التابعة للمكتب الفدرالي، ووحدة الخدمات التكنولوجية، والأكاديمية الوطنية التابعة للمكتب الفدرالي التي تعمل على تدريب قادة تطبيق القانون من جميع أنحاء العالم. لا أعتقد أن أي شخص قد يجادل إذا قلت إن الأكاديمية تعتبر بشكل عام برنامج التدريب على تنفيذ القانون الرئيس في أميركا.

لم أكن قد زرت أكاديمية المكتب الفدرالي مطلقًا من قبل، وإنما شاهدتها في الأفلام، وقرأت عنها في العشرات من روايات الحركة المثيرة. إلا أنني كنت قد زرت الجانب الخاص بالمارينز في القاعدة عدة مرات من أجل

العمل. كانت جامعة فيلق المارينز، الواقعة هناك، من بين "عملاء" شـــركتنا. إلها منشأة أمنية يُحظر على العامة دخولها. ولكنها بدت الآن، بعد أن حظيت بمباركة رسمية من جو ديمارست، حريصة للغاية على الاستماع إليّ. مرحلـــة الانتصار على أوليغ لا تزال مستمرة.

فقد تمّت دعوتي لإلقاء محاضرة في كوانتكو.

طرنا أنا وأفا إلى واشنطن في أواخر أبريل، وأقمنا في فندق ماي فلاوزر الفاخر الذي يشتهر بالعديد من الأمور، منها كونه الفندق الذي استمتع فيه عمدة نيويورك إليوت سبيتزر (المعروف بالاسم العميل رقم 9) كثيرًا.

قدنا سيارة مستأجرة من واشنطن إلى فيرجينيا، وذلك إلى مركز تجاري يبدو مخفيًا ويقع قبالة القاعدة. أقلنا تيري من هناك، وتجاوز بنا نقطة تفتـــيش تابعة للمارينز إلى بوابة ثانية يقف عندها ضابط من المكتب الفدرالي في زيـــه الرسمي. ولم يكن من المفترض أن يعرف أحد بوجودنا هناك. وبقـــدر مـــا يمكنني القول، لم يعرف أحد بذلك؛ إلى أن أصرّ الحارس على رؤية هـــويتي، واضطر تيري الدخول إلى مركز الزوار لضبط الأمور.

كل هذه السرية، وجرت دعوتي!

بعد ذلك التأخير البسيط، عدنا إلى وضع السرية، ثم واصلنا السير حتى بلغنا نقطة حيث قام أحد المدربين بفتح باب إحدى البنايات وتسللنا إلى داخلها.

قبل أن ألقي كلمتي، كانت ليزا ستتحدث لتقديم تقرير مفصل عن قضية أوليغ، ثم ستتم دعوتي بعد أن تفرغ هي من كلامها عن العميـــل المـــزدوج الحقيقي الذي كان قلب العملية. وطمأنني تيري: "سيدهشون لذلك".

بينما كنا ننتظر، أخذنا أنا وأفا في رحلة ســـرية في الأكاديميـــة. أرانـــا المكتبة، وقاعة الطعام، والمهاجع الثلاثة، وصالة الألعاب الرياضية، والقاعـــة ذات المقاعد الألف، وميدان الرماية، والبقعة التي ألهبت دمـــائي، ومضـــمار

التدريب على القيادة السريعة. كما رأينا زقاق هوغان الذي بُني على مساحة عشرة فدادين وصُمِّم من قبل مصممين من هوليوود كي يكون شبيهًا بمدينة أميركية صغيرة. ألا تعرفون أن بعض عمليات إطلاق النار المثيرة قد وقعت هنا! كانت ثمة لافتة للترحيب بزوار الزقاق، وقد كُتب عليها أنه قد تحدث عمليات إطلاق نار واعتقالات داخله. كما كُتب أسفلها "طاب يومكم".

بينما كنّا أنا وتيري وأفا نتجول في الأنحاء، تواصل مرور المجندين في زيهم كاكي اللون بجوارنا. كانوا يحملون مسدسات برتقالية اللون لامعة في قرابات المسدسات على أحزمتهم. وقد أوضح تيري: "الغرض من ذلك أن يعتادوا على حمل السلاح دون أن يسببوا الأذى لأحد".

وأشار إلى الغزلان العديدة التي تتشارك القاعدة مع عملاء المكتب الفدرالي وعناصر المارينز. "إنها لا تهاب أبدًا صوت الطلقات النارية". في الواقع، كان الغزال الذي شاهدناه يتغذى بسعادة عند خمائل الغابات، ولم يجفل؛ حتى رغم إطلاق النار في ميدان الرماية المجاور. إن تلك الغزلان قد أزالت الإثارة حقًا من رياضة الصيد.

التقيت ضابطًا فرنسيًّا في متجر الهدايا، وكان ينظر إلى رف "الأزياء الخاصة بالمكتب الفدرالي". كان قد أتى من مرسيليا، ويداوم على الحضور في كوانتكو من أجل التدرب. وقد بدا متحمسًا للقائه شخصًا ما يمكنه التحدث بلغته، فأخبرته: "أمي فرنسية".

وما يثير السخرية- أو هكذا ظننت على الأقل- أنني سألت تيري إن كان من المناسب بالنسبة لي استخدام بطاقة أميركان إكسبريس لشراء بعض القمصان الخاصة بالمكتب الفدرالي. "هل سيتساءل الروس إذا رأوا ذلك يظهر ضمن فواتيري عمّا أفعله في متجر الهدايا في أكاديمية المكتب الفدرالي؟". فقال تيري إنه لا يعتقد أن ثمة مشكلة في الأمر.

حينئذٍ، كانت ليزا على وشك الانتهاء من كلمتها، وقد أدخلني تيري الحجرة.

كان المؤتمر منعقدًا في قاعة مؤتمرات مؤمنة، وهي ملحق يشبه القبو كان العملاء يناقشون فيه أمورًا سرية دون المخاطرة بأن يستمع إليهم الدخلاء. بدت هذه القاعة كفصل مدرسي لا نوافذ له، مع صفوف طويلة من المقاعد. لم يسمحوا لأفا بالدخول للاستماع؛ وهو ما بدا سخيفًا بالنظر إلى مقدار ما كانت تعرفه بالفعل. ولكن، لم تكن لذلك أهمية. وقد تعين عليها الانتظار في حجرة مجاورة.

قبل أن أستهل حديثي، تقاطر العديد من الأشخاص نحوي للترحيب بي، وهم يهنئونني ويبدأون نقاشات ودية. "كنت أسكن في إرفنغتون". قال أحدهم. تقع إرفنغتون على بعد عشر دقائق من هاستنغز ودوبز فيري. تساءلت عمّا إذا كان الأشخاص الذين دُعيت للتحدث أمامهم قد حصلوا على ملف عن نافيد جمالي للاستعداد للمحاضرة، أم أن ليزا قد منحتهم مقدمة مفصلة بحق. إذ بدوا بكل تأكيد يعرفون الكثير عني. وقد قال لي أحد العملاء وبدا أنه في أوائل العقد الرابع من عمره: "عرفتُ والديك". أدهشني ذلك، إلا أنه ذكرني بأن هذه الرحلة لم تدُم ثلاث سنوات فحسب، بل لقد مرّ تقريبًا أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا منذ أن تواصل أعضاء من البعثة الروسية ومن بعدهم عملاء من المكتب الفدرالي مع والديّ.

وبينما كنت أنتظر أن يقدمني تيري إلى الحاضرين، اختلست نظرة إلى قائمة الحاضرين التي كانت موضوعة على أحد المكاتب. افترضت أن جمهور الحاضرين سيكون بأكمله من عملاء المكتب الفدرالي. ولكن، كان من بين الحاضرين أشخاص من وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة الاستخبارات الدفاعية، ووكالة مكافحة المخدرات. "لم أكن أعلم أنهم مجموعة متنوعة من

الأشخاص". أخبرت دوغ- المسؤول عن النظام- عندما دخل.

فقال متعجلاً، ومزيحًا قائمة المدعوين عن المكتب: "دعني آخذ هـــذه". فخمّنت أنه ما كان يفترض بـــي معرفة الأماكن التي أتى الحاضرون منها أو أسمائهم.

صعد تيري على المنصة، وقدمني إلى الحضور، وقال بكلام مبهم: "هذا هو الشخص الذي عملنا معه عبر فترة تمتد إلى ثلاث سنوات. كان قد قضى ساعات عديدة جالسًا أمام سوكيلوف. ومنذ ذلك الحين، غـــدا ذا خـــبرة ومعرفة فريدة". ونظر إليّ ثم تابع: "بهذه الجملة، سأترك الحديث له". كـــان أمرًا غريبًا أنه لم ينطق باسمي قط.

بعيدًا عن شخصية رجل الأعمال الشاب، بـــدأت حـــديثي بعـــرض باوربوينت مفزع، شرحت من خلاله للعملاء الفدراليين القواعد التي اعتمدهّا للإمساك بأحد الجواسيس.

قلت: "لقد كنت عميلاً بكل ما للكلمة من معنى. كانت مهمتي- من ناحية- أن أمثّل كلاً من الروس والمكتب الفدرالي في مفاوضات معقدة، منذ أن كان من غير الممكن أن يتحدث الطرفان إلى بعضهما بشكل مباشر. كان يتعين عليّ العثور على البقعة الحلوة؛ المنطقة الوسطى التي ستغري الروس وفي الوقت ذاته تحد من خسائر المكتب الفدرالي".

وتابعت موضحًا: "ولكن، تعيّن عليّ أولاً تدشين علاقة مـــع أوليـــغ. وعندما تواصل معي المكتب الفدرالي للمرة الأولى بشأن الانخـــراط بشـــكل أكبر، كان قد مضى على علاقة والديّ بالروس عقدان من الزمان. وقد تعين عليّ إيجاد وسيلة لتغيير وتمديد علاقة طويلة الأمد. كان عليّ أن أقنع أوليغ- الذي كان يتوجّب عليه حينها أن يقنع رؤساءه- أنني على استعداد، ولـــدي القدرة على تسليم شيء ذي قيمة لهم".

أخبرهم أنني لم أدرك قط السياق الكامل لما كنت أفعله. إذ لم يشعر العملاء بأن ثمة مسؤولية تقع على عاتقهم لإطلاعي على حقيقة الأمر. "كنت العميل المزدوج فحسب. ولكن، طوال الوقت كنت أتفاعل مع أوليغ. كنت قد بدأت ألاحظ قصة خفية كبرى تتكشف أمامي، وقد لاحظت باستمرار أمورًا عدة في الصحف والنشرات الإخبارية؛ إشارات إلى توتر متصاعد بين الولايات المتحدة والروس".

أخبرهم أنني شعرت بالصدمة بسبب قرار موسكو قبل ذلك بعام بأن تطرد ملحقين دبلوماسيين أميركيين عن طريق سحب تصريح السفر منهم بينما كانوا في رحلة. "وفي شهر يناير، أمر الروس الجنرال هنري نواك بالمغادرة. كان كبير الملحقين العسكريين الأميركيين في موسكو. وما انفكت الأمور تزداد توترًا".

بدا أن العملاء وزملاءهم ينصتون إلى ما أقوله، بل إن بعضهم- كما لاحظت- كانوا يدوّنون ملاحظاتهم.

"الخطوة الأولى هي أن تشق طريقًا لنفسك نحو الهدف. لكن القيام بهذا فقط غير كافٍ؛ فعليك أن تطوِّر العلاقة. كم منكم يستقلون القطار أو يركبون المصعد مع أشخاص يعرفونهم منذ سنوات؟". تقريبًا، أومأوا جميعًا أو ابتسموا. "في معظم الحالات، أنت لا تعرف شيئًا عن أولئك الأشخاص، حتى إنك لا تعرف أسماءهم الأولى. لا بد أن تنمو هذه العلاقة وتتغير، ويتعين عليك الانتقال من التعامل مع الشخص بشكل عادي إلى تدشين صداقة مع شخص ما يمكنك تناول العشاء معه. إنها عملية صعبة، ورقصة حذرة.

أنت لا تلتقي أحدهم في المصعد وتقول له: *هل تود تناول العشاء الليلة؟* أو *ما رأيك في أن نعمل معًا؟* أو *هل تود الانضمام إليّ في مؤامرة تجسس؟*". ضحك الحضور من الرجال والنساء. "إذا كنت تعتقد أن ذلك الشخص قد

يكون مهتمًا، فعليك الاستعداد لأمور كهذه. يمكنك البدء بالدردشة، وبعد عدة مرات، قد يبدو من المنطقي استكمال الدردشة على العشاء أو مع تناول الشراب. أنت الآن تتأهب لشيء حقيقي".

كان بعض مما قلته يتعلق بالعلاقات الإنسانية الأساسية. وكان نطاقها يتجاوز بكثير عالم التجسس. ولكن، بدا لي أن العملاء ينصتون بتركيز؛ وكأنهم كانوا يستمعون إلى ذلك للمرة الأولى، أو أنها المرة الأولى التي يستمعون فيها إلى تطبيق مباشر من شخص ما في الميدان.

"كان هذا هو النهج الذي اتبعته مع أوليغ. فقد تقدّمت ببطء، وجعلته يشعر بالارتياح. وقد ساعد هذا على نمو الثقة بيننا بكل تأكيد. بل إن الأمر يصبح أكثر تعقيدًا عندما يكون الطرف الآخر فزعًا تمامًا ومهووسًا بالسرية. وقد اكتشفت أن السبيل الأمثل لمجابهة ذلك هو إيهامه بأنه يمسك بزمام التحكم على الدوام. كان هدفنا هو دفعه إلى تكليفي بمهام الحصول على معلومات استخبارية لصالحه، أو إن شئتم؛ التجسس على وطني لصالحه".

أخبرتهم أنني عندما أنظر إلى الوراء الآن، أرى التقدم الذي حققناه بسهولة كافية. "وعندما انتقلنا من المرحلة التمهيدية إلى تقدم العملية، تميزت كل مرحلة بلحظة مهمة ما؛ مثل اللقاء خارج مكتبي، وقبول أوليغ كتيبات إجراءات العمل القياسية والتدريب الجوي التابعة للقوات البحرية، والتسجيل في مركز معلومات التقنية الدفاعي. وقد دفعت كل من تلك اللحظات عمليتنا إلى المرحلة التي تليها؛ نحو مرحلة أكثر عمقًا".

كان لدى العملاء الكثير من الأسئلة. وبالنسبة لي، كان ذلك هو الجزء الأكثر إثارة من هذا اليوم الاستثنائي.

فقد سألني أحد العملاء: "ما مقدار الإعداد الذي احتاجت إليه هذه العملية؟".

فأجبت: "الكثير. فمقابل كل ساعة قضيتها برفقة أوليغ، ربما أكون قد قضيت ستين ساعة مع تيري وتيد".

"ما الدافع الذي كان أوليغ يظن أنه يحركك؟".

"عرف الروس، مثلنا، بشأن مفهوم MICE، المفهوم الذي يقضي بأن الناس يخونون أوطانهم لسبب من بين أربعة أسباب: المال أو الأيديولوجيا أو الإكراه أو الغرور. وعند اختياري الدافع الأمثل، استقر بي الأمر على المال. كان ذلك هو الدافع الذي بدا أكثر صدقًا بالنسبة لي. لذا، عندما كنت برفقة أوليغ، كان الأمر يتمحور دومًا حول المال. ليس لأنني كنت بحاجة إلى المال، وإنما لأنني أطمع في المزيد. وقد ضيّق هذا الاختيار الواضح من نطاق الأمور التي تعين عليّ التركيز عليها. فقد جعل مفاوضاتنا ونقاشاتنا تتمحور على الأغلب بشأن مقدار ما سيدفعه لي من المال. وقد أصبح الأمر حقًا يتركز حول الإجابة عن سؤال حاسم: *كم ستقبض مقابل بيع وطنك؟*".

"كيف كانت شخصية أوليغ؟".

فأجبت: "كان شخصية صعبة المراس. كان ذا مبادئ رخيصة بشكل صادم. وكان يبالغ في التفاوض". أخبرتهم بشأن الكتب المجانية التي كان يجمعها كلما زار المكتب. "كدت أشعر أنه قد يخرج الأوراق من الطابعة إذا استطاع معرفة كيفية فتح العلبة".

"هل شعرت بالخوف؟".

"فقط في أعقاب لقاء ما. عندما كنا نتفق على أن نلتقي، كان يتعين عليّ تقمص شخصية العميل المزدوج. كنت أشاهد أفلامًا وأقرأ كتبًا. كانت لدي كل تلك الحيل الصغيرة. كان الرجل الذي يلتقي أوليغ يحمل اسمي نفسه، وبدا مظهره وصوته مماثلين لمظهري وصوتي، ولكنه لم يكن نافيد الحقيقي. كان أشد طمعًا وأكثر مادية، وبكل تأكيد أكثر تركيزًا. كان على

استعداد لبيع وطنه. كان ذلك أكبر فرق على الإطلاق. في كل مرة كنت أقابل فيها أوليغ، كان يتعين عليّ أن أصبح ذاك الرجل الذي يشبهني. لم يكن يخاف قط. كانت لديه غاية. وفي تلك اللحظة الحاسمة، أصبح الأمر تحديًا شرسًا بيننا نحن الاثنين فقط. لم يكن ثمة غيرنا هناك. وكانت كل عمليات التخطيط والمناقشات- اذهب، لا تذهب، بلى، كلا- قد تبخرت وانتهت إلى الأبد. في تلك اللحظة، كان لا بد من وجود وضوح كامل في الغرض والوسيلة. وفي أعقاب ذلك، عندما سيطر عليّ كل ما فعلته، أدركت عِظم كل ما فعلته. ولكن في تلك اللحظة، كانت معركة الدهاء مع أوليغ هي كل ما يمكنني التركيز عليه. كانت معركة مثيرة للتحدي ومدهشة ومرحة بشكل لا يصدق".

رفع عميل آخر يده: "إذًا، كيف قررت مقدار المال الذي ستطلبه منه؟ هل اعتقد أنك جشع للغاية في ما يتعلق بالمال؟".

"كان من اللازم أن تكون طلباتي واقعية دومًا. إذ لا يمكنك فرض الأمر، فلا بد أن يكون هناك بعض الأخذ والرد". توقفت هنيهة وارتشفت بعض الماء. تعين عليّ التفكير في السؤال للحظة، ثم واصلت حديثي: "لطالما كان ثمة عنصر أداء مسرحيّ قوي في هذا. كنت قد بنيت مصفوفتي للتكاليف استنادًا على ما كان أوليغ يعتقده بشأني. وما أعنيه بذلك هو أنك إذا ظهرت مرتديًا ساعة بريتلنغ تبلغ قيمتها عشرة آلاف دولار ثم عرضت عملاً مقابل مئات قليلة من الدولارات، فسيدركون أن ثمة خطبًا ما. ولكن، إذا بالغت في طلباتك، فلن يتمكنوا من تلبيتها فحسب. أدركت أن لديهم حدودًا للإنفاق، وقد تفهموا دافعي. كان الأمر كله يتعلق بالمال وبرغبة ضئيلة لإثبات الذات. وما إن أدركوا دافعي، لم يتبقَّ سوى إيجاد اللحظة الصائبة. كان يعرف ما يكفي بشأن ما أحببته تحديدًا وما قد أحتاج إليه. هل كان

مقدار المال الذي طلبته كافيًا لتحفيزي؟ وهل بوسعهم تسديده؟ في نهاية المطاف، أيًا كان دافعك، فلا بد أن يكون شيئًا ترتاح إليه. وستضطر للدفاع عنه مرارًا وتكرارًا".

"هل تعتزم تأليف كتاب؟".

فأجبت: "هذا شيء لم أفكر به". وقد كنت كذلك حينئذٍ. حقًا.

كان جليًا بالنسبة لي من الأسئلة التي تطرح عليّ، والعدد الكبير الذي تلقيته منها، أن أولئك المحققين نادرًا ما سنحت لهم الفرصة للاستماع من شخص قضى قدرًا كبيرًا من وقته الشخصي برفقة جاسوس روسي حقيقي على الأراضي الأميركية. لعل أولئك العملاء سيكرسون حياتهم المهنية- عقدين أو ثلاثة أو أكثر- في محاربة التجسس الخارجي. ولكن نادرًا ما ستتاح لهم الفرصة للقيام بما قمت به؛ أي الجلوس لساعات مع شخص وهو يرتكب الجريمة. لقد أتيحت لي تلك الفرصة، وقد بدوا مندهشين من معرفة ما قد تعلمته. وأراهن أنني قضيت المزيد من الساعات مع الجاسوس الروسيّ أكثر مما فعل كل العاملين في مجال تنفيذ القانون المتواجدين في هذه القاعة مجتمعين.

ما إن انتهت الأسئلة حتى ختمت حديثي بالإشارة إلى العملاء الذين عملت معهم؛ فقد استحقوا ذلك. "أحد الأسباب الرئيسة التي ساهمت في نجاح هذا الأمر هو أنني حصلت على قدر هائل من الحرية للإجابة عن كل تلك الأسئلة بنفسي. لقد حماني كل من تيد وتيري وليزا من العقبات الإدارية والبيروقراطية التي يواجهونها كل يوم. وقد نزلوا عند رغباتي في ما يتعلق بالعديد من القرارات التي تتعلق بالتكتيكات والعمليات. وقد أتاح لي ذلك تطوير طرائق وعمليات شعرت بالراحة في استخدامها، والتي بدت طبيعية، وهي طرائق كان من غير المرجح أن يكتشف الروس أنها مخادعة.

أعرف مقدار المخاطرة التي تخوضها وكالات تنفيذ القانون، وقد يشكل هذا الأمر مغامرة كبرى. آمل أن تخرجوا من هنا بالانطباع بأن خوض تلك المغامرة قد آتى أكله. وتذكروا أيضًا السبب الآخر الذي ساهم في نجاح ذلك؛ وهو أن العملية كانت غير تقليدية، وكذلك كنت أنا. لقد ابتعدنا عن كتيب القواعد المعتاد، و لم نتّبع كتيب إرشادات محددًا؛ على الأقل معظم الوقت. ولو كنا قد فعلنا ذلك، لتعرف الروس بكل تأكيد على بصمات المكتب الفدرالي. وحينها، بدلاً من الجلوس هنا برفقتكم وأوليغ ينتظر في فلاديوفوستوك، كانت الأمور ستصبح مختلفة جدًا".

توقفت عن الكلام قليلاً لإضفاء التأثير الدرامي، ثم تابعت: "تذكروا، أقدِموا على المخاطرة ولا تفروا منها. وإذا أردنا إلحاق الهزيمة بأولئك الأوغاد، فعلينا أن نتحلى بالإبداع، وعلينا أن نتجنب السبيل الذي يتوقعون منا سلوكه".

بهذه الجملة، انفجرت القاعة بتصفيق حاد، وقد بذلت جهدًا كي لا أتورد خجلاً.

لم تنتهِ تأملاتي عند كوانتكو، فقد قضيت ساعات عديدة وأنا أتساءل في سري، وأعيد التفكير في الإجابات التي ظننت أنني أعرفها. ولفترة طويلة بعد عملية اعتقالي الزائفة، كنت مقتنعًا بأن المكتب الفدرالي قد ارتكب خطأ بالتحرك حينئذٍ. ولكنني أدركت أنه- وبقدر ما كنت غاضبًا من الطريقة الفجائية التي أنهينا بها العملية- فقد بدا التوقيت منطقيًا للغاية. فأنا وتيد وتيري لم نكن نعمل في فراغ. كانت هناك، حسبما علمت، تحقيقات أخرى تداخلت مع قضيتنا. وقد رأيت من الداخل جانبًا هامًا من علاقة أميركا مع الروس. ولكن العملية التي قمت بها لم تكن الوحيدة.

ما انفككت أفكر بشأن ما كانت تلك السنوات الثلاث تعنيه. فإلى أي حد كان أوليغ يمثل أهمية للروس؟ وإلى أي حد كان يشكل مخاوف أمنية

للولايات المتحدة؟ وما مقدار الأذى الذي ألحقناه بالاستخبارات الروسية؟ وهل كان ما شهدته يمثل المدى الكامل لفساد الدبلوماسية التي تنتهجها موسكو؟ أم أن هذا مجرد قمة جبل التجسس الروسي؟ إلى أي حد كان الروس يتبعونني؟ وإلى أي مدى خدعناهم؟ إلى أي مدى تملكهم الشك في أن الشاب الأميركي الذي وضعوا ثقتهم فيه كان عميلاً مزدوجًا يعمل لصالح المكتب الفدرالي؟

ما كنت لأعرف الإجابة عن بعض تلك الأسئلة مطلقًا.

في النقاشات العادية، ولدى تقديم تقارير عن الخلفية، والتلميحات الهامسة، كنت قد بدأت أعمّق فهمي. وقد أصبحت واثقًا في بعض استنتاجاتي. إلا أنه ومع الأسف، تظل استنتاجات أخرى مجرّد تخمينات فحسب.

على سبيل المثال، غدوت متأكدًا من أنني لم أكن مصدر المعلومات النشط الوحيد للروس في نيويورك. وقد أصبحت مقتنعًا بأن أوليغ كان يتواصل مع أشخاص مثلي، وأن الروس لديهم أكثر من أوليغ. تثبت اعتقالات آنا تشابمان التي تلت عمليتي هذه الحقيقة، وذلك مع وجود أو غياب تأكيد رسمي. كانت تشابمان امرأة روسية حسناء جرى اعتقالها في نيويورك في العام 2010 برفقة تسعة آخرين بتهمة التجسس لصالح روسيا. وما لبثت أن أصبحت شخصية شهيرة عالميًا وبطلة في وطنها. وبعد اعترافها بأنها مذنبة بتهمة التآمر، تم ترحيلها إلى روسيا في صفقة تبادل سجناء أتمها فلاديمير بوتين خصيصًا بسبب وطنيتها وشجاعتها.

أخبرني تيري أنه كان مقتنعًا بأن روسيا الاتحادية ملتزمة بمعرفة الأسرار الأميركية مثلما كان أسلافها السوفييت. وهم يكرسون العديد من الأفراد والمصادر لهذا الغرض. ولكن، تغيّرت المسميات بالطبع. فالتوازن بين القوى

العظمى لم يعد كما كان من قبل. ولكـن الشـغف والالتـزام والتركيـز والإخلاص، تبقى جميعها مثلما كانت في أي زمن مضى.

إلى أي حدٍّ عرقلت جهودنا مساعي الروس؟ أعتقد أنها قـد عرقلتـهم بشكل كبير. فقد قيدناهم وثبتناهم، وعلمنا ما كان ينقصهم وما يريدونـه منا. لم ننتظر إلى أن يثيروا هم الضجة، وإنما نقلنا المعركة إليهم. وقد اتبعنـا القول الفصل الذي أبداه تيري منذ اليوم الذي حصلنا فيه علـى كتيبـات إجراءات التشغيل القياسية وتدريبات الطيران الخاصة بالبحريـة، وأمسـكنا بجاسوس عبر التجسس المضاد. وأظهرت أنا والعملاء- بتعاوننا معًا- كيف يمكن لتدابير الوقاية أن تنجح عندما يتم إجراؤها بشكل صحيح. وخـلال السنوات الثلاث التي استغرقتها العملية، أظهرنا أساليب وطرائـق وأصـولاً وشبكات يستخدمها الروس ضد دولة يفترض أنها حليفتهم.

ولا يمكن لأحد الاعتقاد بشكل جازم بأن من يُعرفون بالدبلوماسـيين الروس يمارسون دبلوماسية مجردة. فهم جواسيس، أو بعضهم على الأقـل. وتبقى التساؤلات هي التالية: كم يبلغ عددهم؟ وأين يتجسسون؟ وما الحـد الذي بلغوه؟ وبصرف النظر عما إذا كانت مفتوحة المصدر أو مغلقة، فـإن المعلومات الاستخبارية التي يقومون بجمعها ذات قيمة بالنسبة لهـم، وتمثـل تهديدًا بالنسبة لنا.

تعلمنا أنا وأفا درسًا من فوضى التأخير بسبب الازدحام عند توجهنا إلى مقر المكتب الفدرالي؛ وهو أنني لا أرغب في التأخر عن القسم الذي سأؤديه للالتحاق بالاستخبارات البحرية. لذا، في صبيحة الخامس من يونيو من العام 2009، ركبنا أنا وأفا المترو متجهين إلى قلب المدينة. وبحلول ذلك الوقـت، كانت قد مرّت ثمانية أشهر ونصف الشهر على حملها في ابننا الأول. وبكل صدق، كان مدهشًا أنها تمكنت من النهوض ونزول سلالم المترو وهي ترتدي

بنطال البحرية الجينز القديم، وقميصًا أبيض فضفاضًا. حملت حقيبة الكاميرا، وارتديت البذلة ذات اللون الرمادي الفاتح. كنّا متجهين إلى قلب المدينة من أجل أمر جاد، وقد اعتقدت أنه يتعين عليّ ارتداء ملابس رسمية؛ حتى لو كنت أشعر بالراحة دومًا لدى ارتدائي الجينز وقميصًا ثقيلاً فضفاضًا، وانتعالي حذاء من ماركة نايك.

سرنا ببطء من محطة مترو شارع تشامبرز إلى 26 فديرال بلازا. وبعد اجتيازنا الحواجز الأمنية استقللنا المصعد، وهو مصعد عادي، ثم مشينا عبر الرواق نحو مكتب التجنيد التابع للبحرية، وهو المكان نفسه الذي خضعت فيه لاختبار الطيران واستمتعت بالاستماع إلى حكايات القائد جيف جونز.

قالت ليزا بحماسة عندما وصلنا أنا وأفا إلى هناك: "تفضّلا بالدخول". كانت جولي ترتدي زيها الكاكي المعتاد، وكان شعرها الداكن مثبتًا إلى الأعلى بإحكام؛ مثلما بدا دومًا. ولكن، كانت تشع منها حماسة حقيقية لم أشهد سوى لمحة منها من قبل.

قالت: "لقد أظهرت الكثير من الصبر. لا أعرف الكثير من الأشخاص الذين عملوا بجد من أجل تحقيق هذا مثلما فعلت أنت. لقد انتظرت طويلاً للالتحاق بالبحرية".

ابتسمت لدى سماعي ما قالته، ولكنني لم أنبس بكلمة، وفكّرت في سرّي: *لو أنكِ علمتِ فقط بما اضطررت إلى فعله.*

قبل أن نبدأ، ناولتني جولي بعض الأوراق. ومثلما عرفت منذ تلك اللحظة، إن كل شيء في الجيش يبدأ بالأعمال الورقية. أجلستني وشرعت في تمرير نماذج تسجيل لي حتى أقوم بملئها. المزايا الصحية، والتأمين على الحياة، وقائمة كاملة بمن أعيلهم. لسوف أضيف اسمًا آخر إلى هذه القائمة عما قريب. ولكنني أقرّ أنه حتى خطوات توقيع النماذج الخاصة بالانضمام إلى

البحرية بدت عملاً ذا أهمية؛ لا سيما عندما وصلت إلى الجزئية التي تسأل عن "الرتبة/الدرجة".

وقد كتبت بفخر: "Ensign/O1".

وصل تيري بعد أن انتهيت من التوقيع؛ على الرغم من أن رحلته كانت أقصر بكثير من رحلتنا، فقد نزل عبر المصعد. كان يرتدي إحـــدى بذلاتـــه الداكنة المعتادة التي يرتديها عملاء المكتب الفدرالي.

"إذًا، قرروا ضمك، أليس كذلك؟ قالوا إنه تعيّن عليك اكتساب بعض الخبرة، وقد فعلت. إذًا، اضطروا إلى قبولك؟ هل هذا جوهر الأمر؟".

لو أن أحد الغرباء دلف إلى هنا وسمع أيًا مما قيل، لتأكد من أن تـــيري شخص أحمق تمامًا. ولكنني كنت أعرف أنه أسلوبه في التعبير عـــن مـــدى شعوره بالفخر.

وقد قال: "أظنّ أنني قد بدأت أفهم. فمن أجل الالتحاق بالبحريـــة، لا بد أن تمسك بجاسوس روسي".

فرددت عليه: "واحد على الأقل".

فقال: "لا أتذكر أنني رأيت ذلك في السجلات. لكن، لا بد أنه مدون في مكان ما هناك".

"شكرًا يا تيري".

نظرت جولي إلى الأعلى عند ذكر عبارة "جاسوس روسي"، لكنـــها لم تطلب توضيحًا كاملاً قطّ. ثم وصل فرانك، وقد تواجد الجميع هناك.

سألتني جولي: "هل أنت جاهز؟".

فقلت: "لنفعلها قبل أن يبدِّل أحدهم رأيه".

لا شيء يعتبر مزحة إطلاقًا. فقد تملكني حقًا شعور بأن هذا قد يُسلب مني في أي لحظة. وبكل تأكيد، لم أرغب في المخاطرة بذلك.

بيّنت لي جولي أين أقف؛ وذلك بجوار شعار كبير خاص بالبحرية على سجادة زرقاء لامعة. وقد وُضع علم أميركي في الركن إلى يميني.

طلبت مني أن أرفع يدي اليمنى. ودون الإشارة إلى أي ملاحظات، قادتني عبر القسم الخاص بالانضمام إلى البحرية، متحدثة بنبرة واضحة وثابتة طوال الوقت.

"أنا نافيد جمالي...". بدأت القسم.

فرددت وراءها: "أنا نافيد جمالي...".

"بحصولي على شارة في القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة...".

"بحصولي على شارة في القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة...".

وكررت كل شيء آخر قالته: "أقسم إنني سأدعم دستور الولايات المتحدة، وسأدافع عنه ضد كل الأعداء؛ خارجيًا وداخليًا... وإنني سأحمل إيمانًا حقيقيًا وولاءً... وإنني أتحمل هذه المسؤولية بكامل إرادتي، وبدون أي تحفظات فكرية أو أهداف سيئة... وإنني سأفي بحسن نية وإخلاص بواجبات المكتب الذي أوشك على الانضمام إليه. لذا، ليكن الله في عوني".

ثم التفتت جولي إلى بقية الحاضرين الثلاثة وقالت: "سيداتي سادتي، أقدم لكم المجند الجديد في البحرية التابعة للولايات المتحدة، نافيد جمالي".

كان ثمة ثلاثة منهم فقط، لكنهم جميعًا ارتسمت على وجوههم ابتسامة عريضة وصفقوا بحرارة. فابتسمت أنا بشدة لدرجة أنني ظننت أن أسناني ستتكسر.

ذهبت جولي إلى مكتبها، وجلبت نسخة من برقية التجنيد كانت قد طبعتها من الحاسوب ووضعتها في إطار؛ تلك البرقية التي أخبرتني أن البحرية ما كانت تكترث عادة بإرسالها، وقالت لي: "تفضّل".

أخبرت جولي كم كنت مندهشًا لأنها تحفظ القسم عن ظهر قلب، فضحكت. لا بد أنها كانت فخورة بذلك.

وقالت لي: "أريد منك أن تعدني بشيء ما. عندما يتم توزيعك على وحدة وتبدأ بتلقين القسم للمجندين الجدد، رجاءً لا تقرأه من ورقة. نص القسم ليس طويلاً. احفظه! فالقراءة تبدد الجدية وعظمة اللحظة".

اعتقدت أنها كانت محقة في ما تقوله، وأعجبني أنها تتفهم أهمية الانضمام إلى الجيش؛ حتى إذا لم يكن بوسعها أن تعرف مصدر إلهام كل مجند، والخطوات الهائلة التي يتم القيام بها لتحقيق ذلك، والأحلام التي قادت كل فرد إلى هذا المكان. فعاهدتها على ألا أقرأ أبدًا قسم الالتحاق طالما أنني أرتدي الزي.

كانت أفا قد أخرجت الكاميرا وشرعت في التقاط الصور التذكارية. صورة لي مع البرقية، وصورة لي أمام العلم. وقالت: "أريد التقاط صورة لجولي ونافيد".

وبينما كنا أنا وجولي نقف لالتقاط الصورة، لاحظت أن تيري يتسلل مبتعدًا، كي يضمن أنه لا يظهر في الصورة، وقال: "لا أريد أن أفسد الصور". حتى في مكان آمن مثل مقر البحرية، لم يود العملاء أن تُلتقط صور لهم.

لا أدري إلى أي حد كان من الممكن أن أشعر بالامتنان أو الإثارة. فقد كان لدي هدف، وها قد أنجزته. وقد أكملت من حيث انتهى والداي- فهما البطلان الحقيقيان؛ لخدمتهما وطنهما الثاني- وبنيت على ما أنجزه صبر عقدين من الزمان. كنت قد ساعدت وطني، وكنت أبدأ الفصل التالي من حياتي، وكنت أحتفل بالأمر كله على طريقتي مع بعض الأشخاص الذين ساعدوني على تحقيق ذلك. هذا اليوم، وهذا التعيين، هما ما كنت أصبو إليه.

أصبحت مقتنعًا الآن أنه بوسعي أن أنجز للبحرية ما كنت أفعله لصالح المكتب الفدرالي. التخفي، ومحاربة التجسس. ولكن، هذه المرة أضحيت منتسبًا إلى برنامج رسمي. وها أنا الآن أخدم كعضو في الفريق، وليس كشخص ما عالق هناك بمفرده.

أخبرت جولي: "سيكون هذا رائعًا. أثق في ذلك".

كان كل شيء ممكنًا. ربما سينتهي بي المطاف في سنغافورة أو بروكسل أو في دولة ساحلية ما في أفريقيا مثلما قال العقيد جونز، أو ربما يجري إرسالي إلى ملعب أوليغ القديم؛ الأمم المتحدة.

لطالما سمعت الناس يقولون: "حاول أن تحوّل شغفك إلى مهنة". وقد كنت أفعل ذلك. وبالمضي قدمًا، لن أكون مجرد تابع بلا صفة رسمية، بل سأعمل لصالح البحرية الأميركية. كان العميل المزدوج المتقاعد ينضم بحق إلى ميدان اللعب.

عانقتني أفا بشدة، بينما صافحني كل من تيري وفرانك وربتا على ظهري.

"أريد حقًا أن أشكر كلاً منكما على كل شيء..." قلت دون أن أكمل.

فقال تيري بجدية: "اسمع يا نافيد، أنت من فعل هذا. هذا إنجازك. لقد ساعدنا في تقديم بعض التسهيلات، ولكن هذا كله إنجازك".

كان يحاول أن يبدو لطيفًا، ولكنني كنت فخورًا بكل تأكيد. كنت قد أنجزت شيئًا لوطني ما كان أحد يتوقع أنني سأفعله. لقد نظرت إلى داخلي واكتشفت مواهب لم أعلم بوجودها قط. لقد بقيت قويًا والتزمت بالأمر ووضعت حياتي على المحك. وقد هزمت الروس، وساعدت أميركا، وكوّنت صداقات طويلة الأمد. والآن، ها أنا أنتقل إلى مغامرة جديدة مدهشة. لم

يكن هناك سوى شيء وحيد مفقود. فكرت أنه من المؤسف للغاية أن لينو لم يتواجد هنا ليشاركني ما كان قد بدأه.

وبينما كانت كل تلك الأفكار تتسارع في عقلـــي والجميـــع يقفـــون بجواري، جذبني فرانك جانبًا، وسألني: "هل تعرف ذاك القسم الذي قمـــت بتأديته للتو؟".

"ما به؟".

فقال: "لدينا قسم مشابه له للغاية. مرحبًا بك في الفريق يا رجل".

رباه، لقد انتظرت طويلاً حتى أسمع أحدهم يقول ذلك.